

مَفَاهِيم الاسلامية عامّة

مِن مَّحَاضِرَاتِ سَمَاحَةِ الْعَلَامَةِ
السَّيِّدِ مُحَمَّدِ جَسَّائِنِ فَضَّلَ اللَّهُ

١٠٠١

دارُ الرِّفْدَاءِ
لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيْعِ
بِكَرْبَلَاءِ - اَبْهَانِ



مِفْهَامُ سِيَرَةِ سَيِّدِ الْمُرْتَضَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

مِنْ مُحَاضِرَاتِ سَمَاحَةِ الْعَلَّامَةِ
السَّيِّدِ مُحَمَّدِ حَسَيْنِ فَضْلِ اللَّهِ

١٠-١

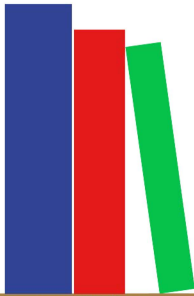
دارُ الزَّهراءِ

بِيرُوتَ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م



مكتبة
مؤمن قريش

لا وضع بيان أي طائفة في كتبه ميزان وإيمان هذا الحق
في كلمة الأخرى لوجه إيمانه
الإمام الصادق (ع)

الحلقة الأولى

التَهْنِيبُ الاجْتِمَاعِي فِي الْإِسْلَامِ
و
لِكُلِّ سُؤَالٍ جَوَابٌ

- المقدمة « بين يدي المحاضرات » .
- التَهْنِيبُ الاجْتِمَاعِي فِي الْإِسْلَامِ .
- لِكُلِّ سُؤَالٍ جَوَابٌ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي المحاضرات

في طريق العمل للاسلام يشعر العاملون بالهوة العميقة التي
تفصل بين الشباب وبين الدين .

ويلاحظون - مع هذا الشعور - ان سبب هذه الهوة ، هو الجو
الرسمي الذي يخيم على الصلة التي تربط علماء الدين بالشباب ،
الامر الذي يحجب عن كلا الطرفين تطلعات الفريق الآخر وافكاره
ومنطلقاته في الحياة ، وبالتالي يخلق الحواجز الفكرية والروحية
والنفسية التي تمنع من التفاهم أو تشجع على سوء الفهم .

* * *

وقد حاولت عندما انطلقت الى اجواء العمل في العراق ، او في
لبنان أن أتجاوز هذا الجو الرسمي ، الى الجو المنفتح المنطق الذي
يجعل العلاقة في اطار الشعور العميق بالحاجة الى المعرفة الواعية
التي تتطلع الى كل اتجاه ، وتتحرك في أكثر من طريق لتلاحق لمحات
الحقيقة وومضات الحق .

ورأيت ان ذلك يستدعي منا أن نعيش مع الشباب أفكاره

ومطامحه وآماله وآلامه لتتعرف حياته على الطبيعة ، دون حاجة الى اللف والدوران .

وآمنت ان علينا ان نؤمن بأن الشك في الحقيقة ، وفي القيم وفي الحياة حق طبيعي للانسان الذي لا يريد ان يغلق عينيه في هدوء على الظلام وانما يحاول ان يفتح عينيه على النور المنطلق ابدًا من خلال الضباب ، ولهذا كان من واجب العاملين ان يستجيبوا لنوازح « الشك » و « القلق » و « التساؤل » الراكضة أبدأً في كل اتجاه ، وأن يحاولوا - ما امكنهم ذلك - التركيز على العنصر الايجابي للشك ليتحول الى عنصر فاعل يتحرك في اتجاه الايمان ، بدلا من ان يبقى عنصرا سلبيا يدمر الحياة في الانسان ، ويشل حركة الحياة من حوله .

وقد يؤكد لنا هذه الحقيقة المنهج القرآني في الحوار الذي حاول ان يشير الشك في نفوس الكافرين في عقائدهم ليحطم زهو الاعتزاز بالباطل في نفوسهم ومن ثم ينقلهم الى العقيدة من خلال الخطوات الفكرية الرائعة التي تعرف كيف تبني للانسان الجسر الذي يعبر به من ضفة الشك الى شاطئ اليقين .



وتعلمت - مع ذلك كله - ان الاساليب - التي تحاول ان تتحدى الشك بالعنف وتقضي على الشبهة بالشتيمة ، وتمارس - في عملية الحوار - عرض عضلاتها المفتولة - تجرم في حق الفكرة ، وفي حق الامة .

أما جريمتها في حق الفكرة ، فلأنها توحى للآخرين بعدم قدرتها على مجابهة الشك ، بالفكر والعلم والحجة والبرهان ، ولذا فهي تلجأ الى اسلوب الضعفاء الذين لا يملكون سوى أساليب الغوغاء ، سبيلا

للدفاع عما يعتقدون ، الامر الذي يعطي انطبعا بضعف الفكرة من حيث الاساس .

وأما جريمتها في حق الأمة ، فلأنها تعمق لها شكوكها وشبهاتها وتجعلها تعيش في حيرة عميقة صامتة ، وقلق داخلي مدمر ، لا يهتدي الى الحق ، ولا يجد من يمسك بيديه في طريق الوصول الى الهدى .

وعلى ضوء هذا كله - كانت فكرة الندوات الثقافية ، التي يلتقي فيها الشباب تحت شعار طرحناه في اتجاه الحوار الحر المنفتح ، فأثبت نجاحه في اكثر من مجال وهو « ليس هناك سؤال تافه وليس هناك سؤال محرج » .

فالحقيقة بنت البحث ، والبحث لا يتبلور الا في المجالات التي تُنفق فيها الدماطل وتنفذ الى اعماق الاشياء ، وتنزع كل ما في داخل الذات من علامات الاستفهام حول كل شيء يتعلق بالعقيدة والحياة .

* * *

وكانت المفاجأة أمامنا بالانتظار .

فالشباب ليس عدوًا للدين ، بل هو عدوُ الاساليب المتخلفة التي يمارسها البعض باسم الدين .

وليس عدوًا للحقيقة ، بل هو عدوُ الحواجز التي تحاول أن تقدم له الحقيقة في ألف حجاب وحجاب . وانطلقت الأسئلة في كل اتجاه ، وتمرد القلق ليعبر عن نفسه ، وتحفز الرفض ليؤكد منطقته ، وبرزت بعض الطفيليات الساذجة هنا وهناك .

وكان لا بد للأخريين الذين لا يرون رأينا في العقيدة ، او يختلفون معنا في فهم الحياة ، او تفسير الكون ، ان يمارسوا الاساليب القديمة في حرب الاعصاب وفي الكلمات اللأمسؤولة التي يطلقونها هنا وهناك .

وكان لا بد لنا من ان نستمر ونلاحق التجربة ونتجاوز الضجيج والغوغاء بالاساليب الاسلامية الكريمة .
ونجحت التجربة - بحمد الله - .

وبدأت الندوات تعطي ثمارها ، وتؤكد اسلوبها الجديد في العمل وفي الحوار .

* * *

وقد ارادت « ندوة الشباب المؤمن » في بنت جبيل - لبنان الجنوبي - ان تقدم للقراء هذه المحاضرات ، والأسئلة المعروضة معها - لتعم الفائدة ، ويشمل النفع . وحاول بعض الشباب ان يلخص بعض هذه المحاضرات ليطلعها - بعد ذلك - في سرعة وارتجال فوّت الكثير من عناصرها تبعا للاختصار الشديد ، كما حدث ذلك في الحلقة الاولى من هذه المفاهيم التي طبعت سابقا .

وقد اعدنا كتابة هذه الحلقة الاولى - من المفاهيم الاسلامية العامة - بتفصيل اكثر وعرض أعمق ، لتتلافى ما حدث في الطبعة الاولى - راجين ان ينفع الله بها المسلمين وهو حسبنا ونعم الوكيل .

التهديب الاجتماعي في الإسلام (*)

[١]

هناك ظاهرة عامة تتمثل في حياتنا السلوكية العامة ، كمسلمين ، حتى لتتخذ في أغلب مجتمعاتنا صفة الطابع العام الذي يطبع واقعنا ، ويلون شخصيتنا ، ويصنفنا بالتالي في عداد الشعوب غير المتمدنة .

انها ظاهرة طريقة ممارسة العلاقات الاجتماعية في سلوكنا العملي ، او بالأحرى اسلوب ممارستنا لنوازعنا ونزواتنا في حياتنا الاجتماعية .

فنحن نمارس افكارنا ونزعاتنا كما لو كنا افرادا نعيش في أرض خالية ليس فيها احد فقد لا نلتفت في كثير من الاحيان الى الناس الذين يعيشون معنا ونعيش معهم ، من حيث تأثير أفعالنا او أقوالنا على حياتهم العامة والخاصة من النواحي السلبية والايجابية فالمهم لدينا - في كثير من الحالات - أن نعيش على مزاجنا ، وليس من المهم لدينا أن ننظر فيما اذا كان ذلك يعكّر مزاج الاخرين او يسيء الى حياتهم .

(*) القيت في ندوة الشباب المؤمن في بنت جبيل - لبنان الجنوبي في مساء السبت/١٤ ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ الموافق ١٩٧٢/٥/٢٧ م .

وكمثال على ذلك ، ظاهرة الضجيج المزعج الذي يفترس الهدوء الداخلي والخارجي للانسان في هذه المجتمعات .

فاننا نلاحظ اننا لا نعرف طريقة الهمس او الاخفات حتى في كثير من أحداثنا الخاصة فقد يلفت نظرنا - في بعض الاحيان - أن نسمع الى الزوجين او غيرهما - في داخل البيت - يتحدثان عن قضاياهما الخاصة بصوت مرتفع يعلو حتى يصل الى آذان بقية الجيران وقد يحدث أن يتحدث الناس في الشارع أو في النوادي وهم متلاصقون في الموقف او في المجلس ، فلا تشعر الا وهم يتحدثون بصوت عال لا يسمح لمن حولهم ان يتحدثوا بهدوء .

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الوضع على اسلوبهما في استعمال اجهزة الاعلام من مكبرات الصوت ، الى الراديو ، او التلفزيون ، أو آلات ضبط الصوت (المسجلات) ، فنجد ان اصحابها يجعلون مؤشر الصوت يصل الى أعلى درجة يمكن ان يصل اليها حتى يصل الى كل بيت في المنطقة او في القرية .

ولماذا هذا كله .

انه المزاج الشخصي الذي يدفع الانسان الى ان يرفع صوته دون ضرورة او يطلق صوت المذياع دون حاجة . وقد تفاجؤك كلمة « أنا حر » عندما تحاول الاعتراض على هذا وذاك في عمله هذا وربما تجد من يتعجب منك على هذه الملاحظة ما دام المذياع له ، وما دام البيت بيته ، وقد تجد من يقابلك بالاعتذار بعدم الالتفات ، الى ما يجر هذا التصرف من نتائج سيئة للأخرين ، فهو يمارس هذا الاسلوب في

الحديث او في استعمال الجهاز بشكل عفوي ، فهكذا اعتاد ، وهكذا
قد تعلم .

* * *

[٢]

ونحن في ذلك كله نلمح ظاهرة الغفلة عن نتائج تصرفاتنا تجاه
الآخرين ، او الاستهتار بمشاعرهم وحررياتهم فكلمة « انا حر » تعطينا
الاحساس بأن قائلها يشعر بأن عليه ان يمارس حريته فيما يحب وفيما
يكره ، من دون اهتمام بحرية الآخرين في أن يعيشوا بهدوء واطمئنان ،
فليسهر المتعب المكدود ، وليتألم المريض المعذب ، وليبق الطالب
بدون قراءة او دراسة ، ولتتحطم اعصاب المجاهدين ، . . . فذلك كله
لا قيمة له امام ممارسته حرية نزواته ونزعاته .

أما من يتعجب منك على ملاحظتك لانه يمارس الحديث في
بيته ، او يطلق المذيع الذي يملكه فهو نموذج آخر يعتقد ان من حقه
التصرف فيما يملكه وفيما يسيطر عليه بجميع الوسائل والاساليب واذا
كان الآخرون ينزعجون من ذلك فبامكانهم الرحيل من دارهم ،
والابتعاد عنه ، انه يتصرف في ملكه وليس من حق الآخرين ان يمنعوه
من ذلك ، كما انه لا يمنعهم من التصرف فيما يملكون .

أما الذي يملك من اسلوب اللياقة ، ان يعتذر ، ولكنه يعلل
تصرفه بالغفلة عن نتائج عمله وباعتياده هذا الاسلوب المثير للضجيج
وللضوضاء ، فقد نجد فيه الشاهد على امتداد هذه الظاهرة حتى
لتحول الى عادة عضوية يمارسها الناس دون شعور ، وتصبح درسا من
دروس التربية العملية التي ينشأ عليها الصغار ويشيب معها الكبار .

* * *

ومن الطريف جدا ، انك تجد كل هؤلاء يضحون بالشكوى من

هذه الظاهرة التي تحطم الاعصاب ، وترهق الجسم ، وتعطل الاعمال ، ويظلون يحلمون بالانتقال من مناطقهم الى مناطق اخرى أقل ضجيجا واكثر هدوءا ، ويتحدثون الاحاديث الكثيرة عن الجماعات الاخرى التي تعيش في هدوء يبعث الخدر في الجسم حتى ليحلق بأجنحة من الاحلام دون نوم ، دون أن يلتفتوا الى انهم يمارسون الضجيج في الوقت الذي ينتقدونه ، لان اسلوبهم هذا أصبح عادة تعيش معهم في اللاشعور .

* * *

[٣]

هذا نموذج بسيط من نماذج اسلوبنا العملي في حياتنا الاجتماعية ، التي اصبحت تأخذ صفة التخلف فيما تأخذ من صفات .

وقد يكون لاولئك الذين كرسوا هذه الصفة بعض العذر في ذلك ، لأن مجتمع الحضارة ينطلق من قاعدة احترام مشاعر الآخرين ، وحررياتهم ، وبالتالي احترام وجودهم كبشر من حقهم ان يعيشوا في المجتمع كما تعيش ، وان يرتاحوا كما ترتاح .

فنحن نفهم ان يمارس الانسان كل حرته في الصحراء عندما يكون وحده لان ذلك لا يمثل عدوانا على أحد ولا يشكل ضررا على أحد .

أما عندما يكون الانسان في داخل المجتمع حيث يتأثر الافراد بالافعال والاقوال التي تصدر عن بعضهم .

أما عندما تكون ساحة الحياة شركة بينك وبين غيرك ، فليس لك ان تطرد غيرك من الحياة بحجة انك تريد أن تمارس كل حياتك ، أو

تخفق شركائك في نطاق حريتك ، بحجة انك تريد ان تستنفد كل ما لك من حرية ، لان ذلك يلغي معنى المجتمع ، ويحول الوضع الى حياة فردية أنانية ، وبالتالي الى صراع لن يكون الرابع فيه احد في أغلب الاحيان .

ان معنى أن تعيش في اطار المجتمع ، هو أن تحس بوجود الآخرين ، وتشعر بمسئوليتك تجاه ذلك .

ولعل من آثار ذلك هو أن تفهم ان اغلب مجالاتك في المجتمع ليست لك وحدك بل هي ملك لك ولغيرك ، تماما كما يشير اليه الحديث النبوي الشريف الذي ضرب مثلا للحياة الاجتماعية ومسؤولية المجتمع عن حمايتها ، بالسفينة التي يجلس فيها كل راكب في مكان خاص ، و اراد أحد الركاب ان يقتلع الخشبة التي يجلس عليها بحجة انها ملكه ، فهل للآخرين ان يوافقوه على هذه الحجة ؟ ان الحديث الشريف يرفض ذلك لان كل خشبة في السفينة هي من حق الجميع ما دامت حياتهم جميعا متعلقة بها .

وهكذا نستطيع ان نعلق على كلمة هؤلاء الذين يتشدقون بالحرية في ممارسة نزواتهم وان أضرت بالآخرين . كما في النموذج الذي قدمناه الذي يحتج على الضجيج الذي يحدثه بأنه يمارسه في بيته .

ان لنا ان نعلق على ذلك ، بأن الجدران التي يشتمل عليها البيت ، او الابواب وما الى ذلك قد تكون ملكه ولكن هذا الفضاء الذي ينطلق فيه هدير الصوت شركة بينه وبين غيره فليس له ان يتصرف فيه بما يسيء الى حياة شريكه .

ان الصوت عندما ينطلق لا ينطلق داخل الجدران ، وانما يرتفع

في الفضاء ليدخل كل بيت ويغزو كل اذن ويفترس كل هدوء ، ولذا
فليس من حقه أن يطلقه من زاوية الحجّة التي يحتج بها .

[٤]

هل هذا من الاسلام ؟

والان . . هل لنا ان نتساءل :

اذا كانت صورة مجتمعنا هي هذه الصورة - كما عرضنا - .

واذا كانت هذه الصورة تمثل التخلف - كما رأينا - .

فهل انطلقت هذه الظاهرة من الاسلام ، ليكون الاسلام - بالتالي

- كما يحلو للبعض أن يقول - هو دين التخلف .

* * *

ومرة ثانية نتساءل :

اذا كان الجواب نفيا ، ولم يكن هذا الواقع من الاسلام .

فهل للاسلام قاعدة تشريعية للتهديب الاجتماعي ، لننطلق من

خلالها في تغيير واقعنا على أساس الاسلام بدلا من السعي الى ذلك

من خلال واقع الشعوب والمبادئ الاخرى ، لنؤكد من وحي ذلك ان

الاسلام هو دين الحضارة .

* * *

[٥]

ليس هذا من الاسلام :

أما الجواب عن السؤال الاول ، فنحسب انه سيكون نفيا لعلاقة

هذا الواقع بالاسلام وذلك لأمرين :

الاول : ان هذه الظاهرة التي تعيشها كثير من مجتمعاتنا الاسلامية ، ليست ظاهرة خاصة بهذه المجتمعات . بل هي موجودة في كل المجتمعات المتخلفة البدائية التي لم تأخذ بأسباب الحضارة والتقدم ، ولم توفر لها التربية الصحيحة . التي تنقلها من مرحلة الانسان - الفرد - ، إلى مرحلة الانسان - المجتمع - .

ولهذا نلمح فوضى السلوك ، وفقدان التهذيب الاجتماعي ، في الشعوب المتدنية وغير المتدنية لان واقعها الحياتي لم ينطلق من واقعها الديني ، بل ربما كان واقعها المتخلف ينعكس على واقعها الديني فيشوه القيم الدينية في افكارها ويحولها الى غير اهدافها الكبيرة السامية ، لتختنق في مفاهيم ضيقة لا تقترب من المفاهيم الاساسية ، بل تجمدها حتى لتتحجر في نفوس اتباعها .

ولهذا يختلف الوعي الديني للشعوب حسب اختلاف مستواها الفكري والثقافي ، ولعل مما يشير الى ذلك الاحاديث الشريفة الكثيرة التي تفضل نوم العالم على عبادة العابد ، او التي تفضل ركعتين يصليهما العالم على عبادة سنة او اكثر يمارسها العابد ، وذلك لأن وعي العالم للدين يجعل لعبادته قيمة روحية لا تصل اليها عبادة العابد الذي لا يملك هذا المستوى من المعرفة ، الامر الذي يجعل عبادته مجرد تعبير عن الايمان الساذج الذي لا يفتح على المعاني الرائعة التي تمثلها العبادة .

وقبل ذلك كانت الآية الكريمة التي تقول في قوله تعالى:

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ

أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥﴾

[سورة الزمر : ٩] .

وقوله تعالى : **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** [سورة فاطر : ٢٨] .

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نقول : ان وجود هذه الظاهرة في مجتمعاتنا الاسلامية ينطلق من واقع التخلف الذي فرضته عصور الظلام والانحراف والحكم الفاسد على شعوبنا المسلمة ، الأمر الذي جعلها تتجمد من الداخل لينعكس ذلك على واقعها الحياتي في الفكر والسلوك .

فلم يكن الاسلام - بمعناه الواسع الشامل المتحرك - هو الذي يحرّك واقع المسلمين بل الجهل والظلم والحكم المنحرف المهترىء هو الذي كان يخطط لهذه الحياة ويوجّه هذا الواقع تماماً ، كما هو الحال في غيرها من الشعوب غير المتدينة او المتدينة بدين آخر غير الدين الإسلامي .

الامر الثاني : ان التوجيه الديني الذي كان يمارسه الوعاظ في أكثر العصور ، انطلق - بفعل مفاهيم التخلف - يركز كل جهوده واساليبه على العبادات بمفهومها الحرفي ، فتولّف المؤلفات الكثيرة وتحرّر الابحاث الفقهية الواسعة في الصورة الشكلية لهذه العبادات حتى لتوحي للمسلم - في أكثر اساليبها - بأن عليه ان يركز اهتمامه الكبير في الصورة المادية .

ومن هنا نشأت الوسوسة في القراءة والطهارة وغيرها من نظرا للاهمية الكبرى التي تعطيها هذه الابحاث لكيفية القراءة او كيفية الوضوء وغير ذلك .

أما العبادات في مفهومها الروحي الذي ينطلق الى داخل النفس

فيطهرها ويهذبها ويبعث فيها الشعلة المتوقدة الحية من الايمان ، ويشير فيها الحركة الفاعلة التي تنطلق بالانسان الى أبعد مجالات الطهر والسمو في علاقاته العملية في الحياة .

أما هذه ، فليست مجالا لهذه الابحاث ، حتى انتهى الامر ببعض الفقهاء الى القول بأن على المصلي عندما يقرأ سورة الفاتحة أن لا يتوجه بالدعاء في قوله تعالى ﴿ اياك نعبد و اياك نستعين إهدنا الصراط المستقيم الخ ﴾ لأن المطلوب في الصلاة هو التلاوة والقراءة وهما عبارة عن حكاية اللفظ فقط ، ولا بد في الحكاية ان لا تنطلق معانيها من داخل نفس الحاكي .

وعلى أي حال : فقد أخذ التوجيه الديني ، والبحث الديني - بشكل عام - ينطلق في هذا الاتجاه .

فالمؤمن الصحيح هو الذي يمارس هذه العبادات كما وردت ، أما سلوك الانسان مع الآخرين .

أما طريقة ممارسته لعلاقاته مع المجتمع ، كيف يتكلم ، كيف يتعامل ، كيف ينشأ العلاقات .

فهذا ما لا تتعرض له المواعظ والتوجيهات إلا عرضا وبشكل خفيف ، لان هذه من المستحبات ، وتلك من الاخلاقيات ، والثالثة من المباحات وأمرها بسيط في الدين لانها لا تستتبع عقاباً ، فلا داعي لأن يجهد الانسان نفسه بالبحث عنها طويلا ، وبالتحدث عنها كثيرا ، ما دام الانسان يسعى من اجل الفرار عن العقاب .

ولم ينظر هؤلاء الى ان كثيرا من هذه المستحبات والاخلاقيات وغيرها تشكل السياج الواقي الذي يقي الانسان من الوقوع في

المحرمات لانه يخلق عنده المناعة الايمانية العملية التي تجعله أبعد عن الانحراف وأقرب الى الاستقامة .

وخلاصة القول : ان واقع التوجيه الديني اقتصر على العبادات كأساس وحيد للخلاص ، واعتبر غيرها من الامور التي لا تمثل قيمة كبيرة في الدين .

ان هذا الواقع أدى الى ان تنفصل التربية الدينية عن الجوانب الاخلاقي العملي الذي يبني للانسان شخصيته الاسلامية القوية التي تستطيع أن تمثل الاسلام بكل ما فيه من امتداد وعمق ، حتى ليشمل كل جوانب الانسان العملية ، وينفذ الى كل اعماقه فيجعلها تفيض بالطهر والسمو والصفاء .

وهكذا وصلنا الى هذا الواقع الذي تلمح فيه الانسان المؤمن المتعبد الذي لا يتورع عن الفحش في القول والخلف في الوعد . والقسوة في المعاملة ، واللف والدوران في العلاقات الانسانية والسلوك العملي الذي لا يهتم فيه بمشاعر الاخرين .

* * *

[٦]

هل للاسلام قاعدة في التهذيب الاجتماعي ؟

اما الجواب عن السؤال الثاني ، فبالايجاب :

فالاسلام يملك القاعدة المتينة للتهذيب الاجتماعي ، لانه انطلق في كل تشريعاته ومفاهيمه من قاعدة اساسية ركزها النبي الاعظم (ص) بقوله « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » فلكي يكون المسلم مسلماً

حقاً لا بد له من ان يمثل مكارم الاخلاق في كل تصرفاته واقواله وافعاله ، فهي روح التشريع ومنطلقه ، فمنها يستمد الشرع حياته ويحقق مقاصده .

وبذلك نستطيع الالتقاء بالتشريعات واللفتات الرائعة في مجال التهذيب الاجتماعي .

ف نجد انه ينفذ الى داخل مشاعر الانسان وخلجاته ليرفها حتى لتبدأ بالاحساس بالآخرين ، كوجود مرتبط بوجوده في كل ما يصدر منه ، وكحياة متصلة جذورها بجذور حياته في الافكار والافعال .

وبهذا تحقق له النظافة في الداخل ، وتفتح اعماقه على عالم جديد يمتد بامتداد حياة الآخرين ، ولا ينكمش في نطاق ضيق من النوازع الذاتية والعوامل الفردية فتبدأ الفكرة العامة في الاحاديث الشريفة .

(لا يكون الرجل مؤمناً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) .

(اجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك فأحب لغيرك ما تحب لنفسك وكره له ما تكره لها) .

فلم يعد النظر إلى الذات من الداخل يتحرك ليخلق في نفسك شعور الزهو والعظمة والانانية والكبرياء بل تحول الى نظر يتجول في أعماق الذات فينظر ما تحب وما تكره ليجعل من ذاته مرآة لما يحب الآخرون ولما يكرهون فيتعامل معهم على الاساس الذي يبني عليه تعامل الآخرين معه ، ويتخذ من ذلك قاعدة لحياته في ذاته ومع الآخرين .

وبهذا لم تعد الذات سجنًا يختنق فيه الانسان بل تحولت الى

نافذة يطل منها على حياته وحياة الآخرين ليجعل من ذلك قاعدة عامة
للسلوك الاجتماعي .

[٧]

مع البناء الفوقي للقاعدة :

ولم يكتف الاسلام بالوصايا العامة ، والمفاهيم الواسعة ، بل
حاول ان يدل الانسان على الوسائل التي يستعملها في سبيل الوصول
الى الهدف الاسمي ، ويعرفه كيف يحولها الى اخلاق خاصة تنطبع
طابع الحركة الاجتماعية للسلوك ويأخذ بيده الى كل قضية بمفردها ،
لثلا يتركه في حيرة امام متاهات القضايا والفروض .

ونحن هنا في محاولة لعرض بعض هذه النماذج التي حاول
الاسلام - من خلالها - أن يربّي للانسان ذوقه الاجتماعي .

* * *

١ - صوتك كيف تطلقه ؟

٢ - جهاز الاعلام كيف تستعمله ؟

ربما نستطيع ان نلمح في بعض الآيات القرآنية الكريمة ملامح
الجواب على هذين السؤالين بالتصريح تارة وبالاشارة أخرى .

فلنتقي في البداية بالآية الكريمة الواردة في حديث وصايا لقمان
لابنه :

وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتُ لَصَوْتِ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

[سورة لقمان : ١٩] .

فاننا نجد التركيز على غض الصوت باسلوب يحاول ابعاد الانسان نفسيا عن رفع صوته بتجريد علو الصوت عن كل قيمة جمالية او عقلانية ، فكأنه يقول له : لورفعت طبقات صوتك بأعلى ما يمكن فانك لن تصل في زعيقك هذا الى زعيق الحمار ونهيقه ومع ذلك فانت تحس بالانزعاج منه كما يحس الآخرون بذلك لانه أنكر الاصوات .

فما رأيك في هذا المستوى وفي هذا التشبيه ؟

ان القضية لا تحتمل نقاشا او جدالا بعد ذلك ، فالانسان لا يرضى لنفسه هذا المنحدر وبذلك يلتفت الى نفسه كلما أراد ان يرفع صوته .

وبذلك يفقد هؤلاء الذين يعتمدون في نجاح خطاباتهم الحماسية على الزعيق ، زهوهم وقيمتهم الاجتماعية عندما يتبلور ذوق المجتمع ويصفو حتى ليتحول الى هدوء الكلمة عندما تنطلق بعيدا عن ضوضاء الضجيج .

* * *

وهناك آية اخرى تشير من طرف خفي الى مهمة الصوت العالي ودوره الذي يتحدد بحاجتك الى إسماع الآخرين الذين لا تستطيع ان تسمعهم الا ان ترفع صوتك .

أما في غير هذه الحالة ، فأنت تفقد الهدف من ذلك وتكون كمن يعبث ويتصرف دون وعي .

قال تعالى : **وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى** ﴿٧﴾

[سورة طه : ٧] .

فهي تشير الى انك لست بحاجة الى ان ترفع صوتك وانت
تخاطب الله سبحانه وتعالى لانه - سبحانه - يعلم السر واخفى منه ، فما
حاجتك بعد ذلك من رفع صوتك وعلى ضوء هذا ، وردت الآية
الكريمة :

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ
بِالْعُدْوَةِ وَالْوَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ [سورة الأعراف: ٢٠٥] .

* * *

ومن خلال ذلك كله نفهم الحكمة في هذه الطبقات المتعددة
للصوت التي خلقها الله للانسان ليستعمل الانسان كل طبقة في الحالة
التي تلائمها ، فليس من الطبيعي ان يستخدم الانسان صوته في داخل
البيت بالدرجة التي يستعمله في المزرعة حيث لا يستطيع اىصال كلامه
الى الآخرين الذين يبعدون عنه مئات الامتار الا بذلك .

وقد لا يقتصر ذلك على ممارسة الانسان صوته ، بل يتعدى ذلك
الى ممارسته اجهزة الاعلام التي يستخدمها كالراديو والتلفزيون
ومكبرات الصوت وأجهزة التسجيل لان لتلك الاجهزة عدة درجات من
الصوت يمكن للانسان ان يستعملها بحسب حاجته .

وقد تلاحظ الهدف من خلال هذه الاساليب التي استخدمها
القرآن الكريم لإبعاد الانسان عن استعمال الاصوات العالية في غير
حالة الحاجة اليها . وهو تربية الذوق الانساني على ان يمارس الانسان
وظائف أعضائه بحكمة وهدوء ، دون ان يسيء الى نفسه والى
الآخرين .

وقد اراد الاسلام ان يجعل ذلك من آداب المسلمين الالزامية مع النبي (ص) وربما يتعدى بعضهم من ذلك الى بقية القيادات الاسلامية المقدسة كما في سورة الحجرات .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٥٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنَ الْمَجْرَانِ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

[سورة الحجرات : ٢ - ٥] .

ونلاحظ في آية اخرى التوجيه القرآني للانسان على ان يكون طبيعيا في استعمال صوته حتى في العبادات فلا يرفعه الى الحد الذي يصل الى الآخرين ولا يخفضه الى المستوى الذي لا يسمع به نفسه ، بل هو الحد الوسط الذي يبين به جوهر الصوت دون ان يحدث ضوضاء أو ضجيجا وذلك قوله تعالى :

وَلَا تَجْهَرُ بِصَوْتِكَ وَلَا تُنَافِقُ فِيهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

[سورة الإسراء : ١١٠] .

* * *

وينبغي ان يعلم من خلال ما قدمناه ان شجب الاسلام للاصوات العالية دون ضرورة لا يقتصر على مضمون دون مضمون ، لأن القضية قضية طبيعة الصوت ، لا طبيعة المحتوى فلا يفرق بين القرآن وغيره كما يظن بعض السذج ان لهم الحق ان يرفعوا الجهاز الصوتي الذي يملكونه الى أبعد حد اذا كان الصوت يتضمن قرآنا او موعظة أو غير ذلك .

لأن الدين يفرض على الآخرين ان يخضعوا لذلك ويستسلموا له . ان هذا الظن خطأ ، لأن الاسلام يريد للانسان ان يستمع للقرآن وللمواعظ بروح هادئة خاشعة ومن الطبيعي ان ذلك لن يتحقق اذا كان الصوت ينطلق بصورة مزعجة تثير الاعصاب وتبعث على التوتر .

وقد أفتى بعض العلماء الكبار بحرمة استعمال الجهاز الصوتي بشكل مزعج اذا كان في ذلك اذى للناس، وإن تضمن قراءة القرآن .

* * *

٣ - لا تدخل بيتا حتى تستأذن أهله .

٤ - ولا تفعل اذا اعتذروا عن استقبالك دون موعد .

من قواعد التهذيب الاجتماعي في الاسلام هو احترام حرية الانسان في منزله ، فليس لك أن تدخله دون اذنه سواء أكان حاضرا فيه أم كان غائبا عنه ، لان من الممكن أن لا يكون الوضع الداخلي للمنزل لائقا في نظره لاستقبالك ، او يكون قد احتفظ ببعض الاسرار الخاصة التي لا يريد اطلاع احد عليها ، أو غير ذلك من المبررات التي تدعو الانسان للمحافظة على حرمة منزله .

وليس لك أن تفعل ، أو تتأثر أو تعتبر الموقف عدائيا ضدك ،
عندما يرفض انسان ما استقبالك ، وأنت تذهب اليه دون موعد ، لأن
من الممكن ان لا يكون هذا الانسان في حالة صحية أو نفسية أو
فكرية تسمح له باستقبالك .

وربما يكون قد ارتبط بموعد مع انسان آخر غيرك في نفس هذا
الوقت ، الأمر الذي يجعل استقباله لك اعتداء على حق ذلك الانسان
في الموعد وخيانة للترزامة به .

لذلك فان عليك أن تتقبل ذلك بروح واقعية تدرس ظروف
الأخرين كما لو كانت معك .

* * *

وقد صَوَّرَ القرآن هاتين الحالتين في قوله تعالى في سورة النور :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا
وَسُئِلُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا
فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا
هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

[سورة النور : ٢٨] .

* * *

أما واقعنا العملي فيتنافى مع ذلك .

فنحن نجد السلوك الاجتماعي يتمثل في الدخول الى البيت أو
الدائرة او المكتب دون اذن اذا لم يجد القادم احدا يأذن له ، وقد

يلقائك على حالٍ لا تحب ان يجسّدك عليها ، أو ليقتمح عليك خلوة
كنت تحب ان تستسلم فيها لافكارك واعمالك بهدوء .

ونلاحظ الى جانب ذلك الكثيرين الذين يأتون اليك دون موعد ،
حتى إذا اعتذرت عن استقبالك لهم في هذا الوقت، أو اعتذر لهم بعض
من في الدار عن ذلك ، بعد أن يتأكدوا من وجودك هناك اعتبروا هذا
إهانة لهم وإساءة لكرامتهم ووجدوا فيه موقفا عداثيا من جانبك .

أما القرآن فانه يريد ان يربطنا بالحياة العملية الواقعية التي تنظر
الى طبيعة الاجواء العامة للانسان ولذلك يرفض اعتبار هذا الموقف
إهانة أو إساءة بل يرى فيه سلوكا طبيعيا واقعيا يرتبط بتنظيم حياة
الانسان ومواعيده وأوقاته الامر الذي يرفع من مستوى المجتمع ويجلب
الراحة لافراده .

وقد جرّبت الشعوب المتحضرة هذا السلوك العملي الذي أرادنا
القرآن أن نسير عليه حتى صار جزءا من حياتها العملية ، تنطلق فيه
بساطة وعفوية وواقعية دون أن تجد فيه أيّا من هذه الانفعالات
الوهمية ، واستطاعت أن تجعل ذلك من معالم الحضارة الاساسية التي
يحاول الكثيرون منا أن يترسموها أو يحملوا لواء الدعوة اليها بصفتها
الحضارية الاوروبية ، في الوقت الذي نجد - فيما قدمنا من حديث
- انطلاق الآيات القرآنية لتعلم الناس كيف يمارسون هذا السلوك منذ
مئات السنين .

* * *

٥ - اجلس حيث ينتهي بك المجلس :

وهذه قاعدة اخرى من قواعد التهذيب الاجتماعي في الاسلام ،
حاول الاسلام فيها أن يبعد المسلمين عن التعقيد في قواعد السلوك

في الاماكن التي يختارها الانسان في المجلس فمن الملاحظ ان العرف الاجتماعي الرسمي يعتبر ان لكل انسان مركزا معيناً في المجلس يختلف حسب اختلاف شخصيته الاجتماعية ومكانته الرسمية ، فلا يجوز للموظف الصغير أن يجلس الى جانب الموظف الكبير ، ولا يمكن للشخص الذي لا يملك مكانة اجتماعية مرموقة ان يحتل مركز الوجيه الخطير .

وهكذا تجد الطبقة الاجتماعية تتمثل في الحفلات والاجتماعات الرسمية بأوضح صورة حتى لتستطيع ان تعرف مراكز الاشخاص من خلال الامكنة التي يجلسون فيها وموقعها من المجلس .

وقد اصبح للاشخاص الذين يشرفون على هذا الوضع صفة رسمية لا ينالونها الا بالتدريب والدراسة الواسعة والتخصص الطويل فيعتبرون مرجعا للآخرين في تنظيم الاستقبال والجلوس وغير ذلك ويطلقون عليهم اسم رجال البروتوكول .

هذا هو الواقع الاجتماعي او الرسمي الذي عاش ويعيش فيه كثير من الناس في الماضي وفي الحاضر .

* * *

وقد حاول الاسلام - من خلال سلوك النبي واحاديثه وبعض التشريعات الاسلامية في كثير من الحالات - أن يوحي للناس بأن طبيعة الامكنة التي يجلس فيها الانسان لا تمثل قيمة حقيقية من قيم الحياة ، ولا تعبر عن مستوى معين للانسان ، فان التقدم والتأخر في المكان يخضع لأوضاع زمنية ونفسية دون أن يكون للمستوى الاجتماعي دخل فيها من ناحية أساسية وعلى ضوء ذلك أطلق القاعدة المأثورة في الحديث الشريف :

(إذا جاء أحدكم مجلساً فليجلس حيث ينتهي به المجلس) .

فالمهم ان تجد المكان الفارغ الذي تجلس فيه من دون فرق بين ان يكون في الصف الاول او الصف الاخير .

ولهذا كان النبي محمد (ص) يجلس مع اصحابه حتى لا يستطيع القادمون - ممن لا يعرفونه - ان يتعرفوا اليه لأنه لم يكن يتميز بمكان معين او بوضع خاص حتى طلب اصحابه منه اخيراً ان يصنعوا له حجراً يجلس عليه ليعرفه القادم فلا يشتبه بغيره ، ليس إلا ، . وفي بعض الاحاديث : كان رسول الله اذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس .

وفي حديث الامام الحسين بن علي عن أبيه في صفة النبي محمد (ص) :

« كان اذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك » .

ومن الممكن ان يكون نظر الاسلام في ذلك الى أن يعيش الناس البساطة في حياتهم والعفوية في سلوكهم دون تكلف او تعقيد .

وقد يكون من فوائد ذلك ، ان نتخلص من الفوضى والارتباك اللذين يحدثان من المحافظة على واقع الطبقة الاجتماعية في المجلس ، وشعور القادم بضرورة تكريمه بجلوسه في المكان الذي يتناسب مع مركزه ، مضافاً الى شعور اصحاب المجلس بذلك ، الأمر الذي يحدث الارتباك والضوضاء في المكان ، مما يسبب الى طبيعة

المجلس ، او الى المناسبة التي انعقد لها ، او الى الاشخاص الذين يحضرون فيه .



وربما نجد بعض فوائده في المحافظة على شعور الناس الطيبين الذين يملكون كفاءات كبيرة ومواهب عالية ولكنهم لا يملكون المراكز الاجتماعية التي يملكها من هم دونهم كفاءة ومواهب .

فنحن عندما نرفض اعتبار المراكز الامامية في المجلس ، ذات قيمة حقيقية ، تفقد اثرها ، وبالتالي تفقد تأثيرها في احساس البسطاء بالغبن والحرمان عندما يجدون انفسهم في الصفوف الاخيرة من المجلس .

وربما نلمح التركيز على هذه الفكرة الاسلامية في الاماكن العامة التي يتساوى فيها الناس من حيث الانتفاع كالمساجد وغيرها حيث انطلقت القاعدة الشرعية لتقول :

« من سبق الى ما لم يسبق اليه احد فهو أحق به » .

فلم تفرق بين انسان وانسان ، فقد يكون الشخص الخامل اجتماعيا في الصف الاول من صلاة الجماعة مثلا بينما يكون الوجيه الكبير في آخر الصف ، دون ان يملك حق ازالته من مكانه ، مهما كلف الأمر ، الا برضاه .

٦ - كيف تختار كلماتك عندما تتحدث مع الآخرين :

من قواعد التهذيب الاجتماعي في الإسلام ، أن يتعلم المرء كيف يختار كلماته في الحديث مع الناس ، فإذا وقف بين كلمتين ،

احدهما تثير المشاعر وتلهب الانفعالات وتجرح الاحساس ، والاخرى
تنشر الهدوء والسلام في النفس فعليه ان يختار الكلمة الثانية .

وهكذا تنطلق عملية الاختيار بين الكلمات التي تخذش الحياء
وتجرح الكرامة وبين الكلمات التي تحترم أخلاق الآخرين ونوازعهم
ليكون الاختيار للكلمة الاخيرة .
وذلك هو قوله تعالى :

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ
إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا .

[سورة الإسراء : ٥٣] .

وهناك الاحاديث الكريمة التي حرمت كلمات الفحش والبذاء ومنها
الحديث الشريف (إن الله يبغض الفاحش المتفحش) .
والحديث الآخر (إن الله حرم الجنة على كل فاحش بذيء اللسان
قليل الحياء) .

وقد ورد النهي عن كلمات السب التي تثير المشاعر ، لاسيما
سب مقدسات الناس الذين تختلف معهم في الرأي والعقيدة ، لانها
تخلق ردود فعل عكسية لدى الآخرين كما في الآية الشريفة :

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ
كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ .

[سورة الأنعام : ١٠٨] .

فكلمات السباب لا تعطي نتيجة في الاقتناع بالفكرة ، بل انها

تعطي بدلا عن ذلك ردود فعل عصبية تتجه في حركة انفعالية هوجاء مماثلة لتطلق السباب والشتائم ضد مقدساتك بروح عدائية حاقدة .

كل ذلك من اجل ان يعيش الانسان التهذيب في كلامه مع الناس بعيدا عن اشارة مشاعرهم وجرح احساسهم ليكون في مستوى الانسان الذي تكون حياته من اجل نفسه ومن اجل الآخرين .

٧ - إبدأ بالتحية ، ولا تنتظر ان يبادئك الآخرون بها ؛ :

هناك من الناس من يرى مركزه الاجتماعي فوق مستوى الآخرين ، ولذا فهو يشعر ان من واجب الناس أن تتلقاه بالتحية قبل أن يبدأهم بها ، لانه يحسب ان الابتداء بالتحية لا يتناسب مع صاحب المركز الكبير لمن هم دونه ولكن الاسلام يشجب ذلك ويعتبر التحية علامة التهذيب الخلقي للانسان لانها تدلل على ما يحمله من احترام للآخرين وتقدير لشعورهم واحساس بما يجيش في داخله من شعور عميق بالمساواة بينهم وبينه .

بينما يمثل الموقف المعاكس الشخصية التي تختنق - داخل ذاتها في اطار من الكبرياء المزيف والتعالي الوضع الامر الذي يجعلها تحتقر الآخرين وتبتعد عن التهذيب .

ومن هنا أعطى البادىء بالسلام امتيازا كبيرا على المستوى المعنوي كما ورد في الحديث عن الامام جعفر الصادق (ع) عن رسول الله (ص) .

البادىء بالسلام اولى بالله ورسوله .

كما أعطاه اجرا مضاعفا في حساب الحسنات التي يجزي بها الصالحون . فقد ورد في الحديث عن الامام الحسن بن علي (ع) :

« للسلام سبعون حسنة ، تسع وستون للمبتدي وواحدة للراد ،
وان احسن فعشر » .

وقد أعطى رسول الله (ص) الامثلة على ذلك في السلام على
الصبيان والنساء فيما روته السنة النبوية الشريفة في حديث انس بن
مالك « ان رسول الله مر على صبيان فسلم عليهم » وفي حديث آخر
عن اسماء بنت يزيد « ان النبي مر بنسوة فسلم عليهن » .

وقد اعتبره الاسلام دليلا على التواضع ففي الحديث عن الصادق
(ص) « من التواضع ان تسلم على من لقيت » وهكذا نعرف ان القيمة
في الاسلام للتهذيب الخلقي فهو الذي يجعل للانسان مركزا ممتازا
عند الله ، لا للتعالي والكبرياء في اطار المركز الاجتماعي المحدود .

٨ - احترام ظروف المريض :

ومن مظاهر احترام ظروف الآخرين وآلامهم ، تأكيد الاسلام على
ضرورة تخفيف الجلوس عند المريض في حال عيادته لان ذلك قد
يشق عليه نتيجة القيود المفروضة عليه في مرضه ، او الآلام التي قد
بضطر الى كتبها امام الآخرين مما يسبب له إحراجاً وانزعاجاً وألماً
شديداً .

فقد ورد في الحديث عن الامام الصادق (ع) :

« ان من أعظم العوَاد أجراً عند الله لمن اذا عاد اخاه خفف
الجلوس الا ان يكون المريض يحب ذلك ويريده ويسأله ذلك » .

٩ - المحافظة على شعور الآخرين بشكل عام :

وفي ختام الحديث نلاحظ بشكل سريع بعض اللّمحات الرائعة
على ضرورة مراعاة شعور الآخرين وأحاسيسهم بشكل دقيق جدا .

ففي الحديث عن الامام الصادق (ع) :

« اذا كان القوم ثلاثة فلا يتناجى اثنان منهم دون صاحبهما فان ذلك مما يحزنه ويؤذيه » .

لان الحديث السري بين الاثنيين في حضور الثالث يشعره بعدم ثقتهم به ، ومن الطبيعي ان ذلك يثير في نفسه الشعور بالامتهان والالم .

ويتمثل هذا السلوك المرفوض اسلاميا في تكلم اثنين بلغة اجنبية لا يفهمها الثالث ، فانه يتنافى مع التهذيب الاخلاقي الذي يتركز على مراعاة احساس الآخرين . وفي حديث آخر عن الامام الصادق (ع) مظهر آخر من مظاهر التهذيب الاجتماعي وهو احترام المتكلم عندما يسترسل في كلامه حتى ينتهي منه ، فلا يقطع عليه حديثه لان ذلك يؤذيه كما لو خدشه في وجهه ، لان الاعتداء على الكلمة ، كالاعتداء على الجسم .

قال : قال رسول الله « من عرض لأخيه المسلم المتكلم في حديثه فكأنما خدش في وجهه » .

وفي صفات رسول الله (ص) ما يؤكد هذه الروح الاسلامية .

ففي كتاب النبوة - في صفة رسول الله (ص) :

« ما صافح رسول الله احدا قط فنزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده منه ، وما فاوضه احد في حاجة أو حديث فانصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف » .

وكان يعطي كلاً من جلسائه نصيبه حتى لا يحسب جليسه ان احدا اكرم عليه منه .

وكان يقسم لحظاته بين اصحابه فينظر الى ذا وينظر الى ذا بالسوية .

ان هذه الصفات كلها تؤكد كيف كان رسول الله يريد ان يرسم للناس القدوة الحسنة للسلوك الاسلامي الرفيع الذي ينبغي ان يسير عليه الانسان المسلم ، ليستطيع ان يعطي العالم الامثولة الحية للمستوى الذي سوف تبلغه الانسانية من التهذيب الخلقي الاجتماعي ، فيما اذا قدر للاسلام ان ينطلق بعيدا في حياتها العامة والخاصة .

* * *

خاتمة المطاف :

واننا حينما نثير هذا الحديث او نعرض للنماذج الفكرية والعملية للتهذيب الاجتماعي ، نحاول ان نوحى للذين يريدون أن يجعلوا من سلوك الانسان الاوروبي ، امثولة حية للانسان المتمدن ، ويعملون على أن يهتموا الشعوب الاسلامية بالتخلف عن هذا المستوى الحضاري كنتيجة لابتعادها عن الفكر الاوروبي والحضارة الاوروبية .

اننا نحاول ان نقدم لهم هذا الحديث كمنطلق للتفكير من جديد ، في ان الفكر الاسلامي والشريعة الاسلامية والحضارة الاسلامية ، كفيلة بأن تجعلنا نرتفع الى مستوى من التهذيب الخلقي ، لا يبلغه الا الذين ينهلون من ينابيع الصافية التي يسبح فيها الانبياء .

لكل سؤال جواب

- لماذا يركز علماء الدين على الأخلاق .
- لماذا ينفر الشباب من الدين .
- هل يحصر الاسلام دور المرأة العملي في المنزل .
- كيف يكون زي المرأة في الاسلام .
- هل يجوز للمرأة حضور صلاة الجماعة مع الرجال .
- كيف نتعرف على اعجاز القرآن الكريم .

س ١ : لماذا يركز علماء الدين على المشاكل الاخلاقية بعيدا
عن المشاكل الاجتماعية ؟

ج : في البداية يبرز امامنا سؤال يطرح نفسه أمام الجواب :

هل المشاكل الاخلاقية بعيدة عن المشاكل الاجتماعية حتى
تكون إثارته ومحاولة معالجتها ، من القضايا التي يمكن تأجيلها الى ما
بعد الفراغ من حل المشاكل الاجتماعية التي تواجه المجتمع في حياته
العامه ؟

ولنا ان نجيب عن ذلك بتحديد معنى الاخلاق في حياة
الانسان ، للنظر، هل هي في الهامش من حياتنا حتى لتضيق فتُحصر في
زاوية معزولة من زوايا الحياة ، أو أنها تتسع لتشمل كل مجالات
الحياة ، بما فيها المجال الاجتماعي والسياسي والاقتصادي
والعسكري .

ان كلمة الاخلاق تنطلق من طبيعة السلوك الانساني ، الفردي
والاجتماعي ، تجاه النفس والآخرين ونوعية ممارستنا لعلاقتنا العامة

والخاصة بالناس وبالوطن وبالحياة بشكل عام، وبكلمة موجزة « هي مجموعة القواعد السلوكية التي تتبعها جماعة من الناس في حقبة ما من الحقب التاريخية - كما يعرفها بعض علماء الاجتماع - » .

* * *

وعلى ضوء هذا فإننا نلاحظ شمول هذا المفهوم لجميع مظاهر السلوك الانساني في حال الحرب والسلم ، وفي الحكم والسياسة والاقتصاد ، فعندما نقول : أن الخيانة عمل غير أخلاقي ، فإننا مفهومنا يمتد الى جميع حالات الانسان ابتداء من خيانة الانسان العلاقة الزوجية ، أو خيانة الحاكم لشعبه او لوطنه ، أو خيانة القائد العسكري لأمة ، أو خيانة الشعب مصالحه ومبادئه .

فهل يكون الحديث عنه حديثاً عن مشكلة بعيدة عن المشاكل الاجتماعية ؟

وما هي المشاكل الاجتماعية - اذا لم يكن للخيانة دور الاساس لكل ما يتفرع عنها من انحرافات واعمال .

وعندما نقرب من كلمات السرقة والكذب والغش والعدوان ، ونواجه ما يقابلها من الفاظ الامانة والصدق والاخلاص وغيرها ، فإننا نواجه مفاهيم عميقة الصلة بسلامة المجتمع وأمنه واستقراره على مستوى الحكم وعلى مستوى الحياة العادية للانسان .

واذا اردنا وضوح الصورة فلننظر الى الشعارات التي يطرحها الثائرون والمصلحون والمعارضون السياسيون في وجه الحكم الفاسد .

ف نجد انها تنطلق من محاربة سرقة اموال الامة ، والوعود المعسولة الكاذبة التي تخدّر الجماهير والاعتداء على حقوق الشعب

وحرياته وامواله وحياته دون حق ، وغير ذلك .

وماذا يمثل هذا كله ؟

ألا يمثل بعضا من المفاهيم التي يطرحها العلماء في مواعظهم وارشاداتهم ونصائحهم في محاضراتهم العامة والخاصة .

فلماذا تعتبر هذه المفاهيم حديثا بعيدا عن الحياة عندما تطرح في المساجد والنوادي الدينية ، بينما يراها الكثيرون انطلاقة اجتماعية ثورية عندما تطرح في مجالات اخرى .

اننا نعتقد ان قيمة المعالجة الدينية التي يمارسها العلماء الواعون المخلصون لهذه القضايا ، تكمن في محاولتهم لتكريزها في اعماق الانسان وافكاره كأسلوب عملي من اساليب بناء الانسان من الداخل لينعكس على حياته العملية في الخارج عندما يتحمل مسؤولية العمل على المستوى العام والخاص وقد شاهدنا من خلال الواقع الديني التاريخي والمعاصر ، كثيرا من اللمحات الرائعة التي وقف فيها الرجال والنساء مواقف الحق والبطولة امام الاغراء ، فصمدوا امام المحرقة ولم يسقطوا في التجربة ، بل نجحوا في الحفاظ على ما يحملون من مبادئ وقيم وعلى ما يقدسون من مسؤوليات وواجبات ، لان الاخلاقيات الدينية استطاعت ان تهيم لهم البناء الداخلي القوي المتماسك الذي لا يتزلزل ولا ينهار امام كل هزة ومع كل ريح .

ونحن عندما نؤكد على هذا انجاناب ، لا نريد الحكم على صحة جميع المعالجات الدينية باساليبها المختلفة للمشاكل الاخلاقية ، فقد تمثل بعض الاساليب الضيقة التي يمارسها بعض الناس ، التخلف في عرض الفكرة بحيث تنحصر في نطاق ضيق من اعمال الانسان

الفردية التي لا تتعدى نطاق حياته الخاصة الامر الذي يوجب عزل هذا الانسان ، بمفاهيمه الاخلاقية ، عن الحياة العامة ، وبالتالي عزل المفاهيم الاخلاقية عن الحياة .

اننا نشجب مثل هذه الاساليب لأنها تجمّد الفكرة بدلا من ان تحركها وتطلقها ، وتشوهها بدلا من ان تقدمها بصورة واضحة رائعة .

وربما تتحمل مثل هذه الاساليب الخاطئة ، مسؤولية الفكرة القائمة التي يحملها البعض عن الاخلاق والاحاديث الاخلاقية .

* * *

وفي ختام الحديث اننا نجد هذا المفهوم الواسع للاخلاق في الكلمة التي اطلقها النبي محمد (ص) كواجهة للخط العام للشريعة الاسلامية « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » .

فنحن نلاحظ ان الشريعة لم تقتصر في أحكامها على جانب معين في الحياة بل انطلقت لتمتد في حياة الانسان الفردية الى الحياة الاجتماعية . في حالة السلم والحرب ، في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعسكري فلكل من هذه الحالات احكام معينة وشرائع محددة .

ومع ذلك فان النبي (ص) يعتبر الاخلاق تسير مع كل حكم وفي أي مجال حتى لتتحول ممارسة الاحكام الشرعية الى ممارسات اخلاقية ، كما يعتبر التمرد عليها ممارسة لعمل غير اخلاقي ، لا لأن القضية قضية طاعة الله ومعصيته فحسب ، بل لان كل حكم يخضع لمفهوم اخلاقي يمتد مع الحياة في داخل النفس الانسانية وخارجها .

وبعد هذا كله ، هل عرفتم لماذا ركز علماء الدين على

الاخلاق ؟

س ٢ : ما هي الاسباب التي أدت الى نفور الشباب من الدين ؟

ج : أحسب ان الجواب يتلخص في عناصر عديدة :

أ- الصورة المشوهة التي تمثلها بعض النماذج البشرية المتخلفة ، أو غير المخلصة للمسلمين ، او للمتدينين بشكل عام ، او الذين يمثلون الدين بصورة رسمية ، فقد يكون لهذه الصورة التي يلمحها الشباب بعض الاثر في داخل نفوسهم عندما يجدون الابتعاد عن الممارسة العملية لقضايا الحياة الملحة ، ويلاحظون النظرة الفردية الضيقة التي تطبع سلوكهم واطباعهم ، أو يصطدمون بواقع الاتجار بالدين وجعله وسيلة من وسائل الاثراء غير المشروع ، أو يفاجأون بالفهم الضيق للمفاهيم الدينية عن الانسان والكون والحياة ، الامر الذي يشوه صورة الدين في نظره عندما يجده بعيدا عن تطلعاته .

ب- الواقع التاريخي لبعض المراحل التاريخية للحكم الديني الذي مارسه بعض الحكام المسلمين وغير المسلمين ، الذي انطلق من مفاهيم التخلف مما أدى الى أن يعيش الناس في ظل الحكم الديني البؤس والشقاء والانحطاط والظلم والتسلط دون حق ، وفقدان الحريات في جميع مجالاتها ، في الوقت الذي تعيش فيه الطبقات الحاكمة التي تمثل السلطة الدينية الرسمية كل مظاهر البذخ والترف وبكل ما تتطلبه شهواتها وغرائزها وميولها . الأمر الذي خلق انطبعا لدى بعض الذين ينظرون الى الامور نظرة سطحية ، ان الدين لا يمثل الحل لمشاكل الانسان ، وانما يمثل ، بدلا من ذلك ، الوسيلة التي يستغل فيها الحاكمون والنافذون شعوبهم ، ويسيطر باسمه القوي على الضعيف ،

دون ان يلتفتوا الى الكلمة المعروفة « الاسلام شيء والمسلمون شيء آخر » .

ج - الافكار التي شاعت في اوروبا في بدايات عصر النهضة وفيما بعدها ، المستمدة من واقع الممارسات الدينية لبعض المؤسسات الدينية هناك ، كفكرة « العلم يصادم الدين » او « الدين أفيون الشعوب » وغير ذلك من الافكار التي شارك في نشرها وتركيزها في أفكار الشباب ، الاساتذة والمفكرون الذين قادوا مسيرة الثقافة في مدارسنا الحديثة ، وقادة الاحزاب الذين ارادوا ان يبعثوا الشباب عن الدين باعطاء هذه الصور المشوهة التي تمثله بعيدا عن تطلعاتهم للتقدم وللانطلاق في مجال العلم والمدنية ، والمبشرون الذين عملوا بأساليبهم المتنوعة على اثارة الشبهات والشكوك في العقيدة والتشريع في التاريخ .

كل هذا دون ان تقابل هذه النشاطات بنشاطات دينية اخرى توضح خطأ هذه الافكار ، بالمستوى الذي تمارسه هذه القوى ، بالنظر الى انها انطلقت في بدايات عهد الاستعمار الذي انطلق من قاعدة إبعاد الامة عن جذورها وقيمها لثلاثتستمد منها القوة على مقاومة القوى الغاشمة التي تستعمرها وتستعبدتها، انطلاقا من عقيدتها وتاريخها .

فكان من الطبيعي أن يسيطر على مؤسسات الثقافة والاعلام وغيرها من اجل افساح المجال لافكار بعيدة عن افكار الامة كما ألمحنا اليه ، وإغراق الجيل بالكثير من العقائد والمذاهب الفكرية ، لا ليعتق واحدا منها ، بل ليعيش الفوضى في الفكر والعقيدة ، فيغرق في دوامة المناقشات اللفظية والهامشية التي تبعده عن آماله وآلامه ، وبالتالي تبعده عن التفكير والانتباه لما يخطط له ويراد به .

وقد يكون من الراجح للشباب ، من اجل وضوح هذه الفكرة ، ان يقرأوا كتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية» .

د - التيار المادي للحضارة الغربية الذي حاول أن يربط الانسان بحياته المادية ويفلسف له شهواته وغرائزه ، ويعمل على الايحاء له بقداستها واعتبار ممارستها بكل حرية ممارسة لارادة الوجود التي تنطلق من شعور الانسان بحريته من الداخل دون ان يكون هناك سلطة اخرى خارج ذاته تفرض عليه ارادته .

الأمر الذي جعل الانسان يشعر ، امام عوامل الاغراء التي صنعتها هذه الحضارة بتفاهة الضوابط الاخلاقية والقانونية التي تضبط له حركاته وتصرفاته وربما يتعاضم هذا الشعور الى شعوره بقسوة هذه القيود ، الى الحد الذي يعتبرها عدوانا على حريته .

وبهذا أصبحت كلمة الحرية لديه تشمل كل ما يفكر به أو يحلو له حتى الحرية الجنسية ، أو حرية التفلت من القوانين والعادات والاعراف والتقاليد .

واصبح مفهوم الرفض من المفاهيم المطاوعة التي يحملها الجيل دون وعي لمضمونها ، فالمهم أن نعيش الرفض ، دون أن يكون لمضمون الرفض أية أهمية في الحساب .

ومن الطبيعي أن يشعر الجيل الذي يعيش هذا الواقع بالعداء للدين الذي يحاول أن يركز الضوابط الاخلاقية في داخل الانسان ليمارس ارادته واستقلاله من خلالها ، ولينطلق في الحياة من قاعدة اعتبار الروح الى جانب المادة أساسا سليما للحياة الطبيعية المستقرة .

* * *

وأحسب ، بعد هذا الحديث كله ، ان الصورة قد وضحت الى حد بعيد ، فيما نعتبره الملامح الاصلية للصورة ، وربما يجد البعض ملامح جديدة لم نكتشفها في هذا الحوار السريع .

* * *

س ٣ : ما هو موقف الاسلام من عمل المرأة ؟

وبكلمة اخرى : هل الاسلام يعتبر الدور العملي للمرأة يعيش في ضمن نطاق البيت ، أو أنه يشجع أو لا يمانع في انطلاقها في مجالات الحياة العملية خارج نطاق البيت ؟

ج : أعطى الاسلام للمرأة حق العمل كما أعطاه للرجل ، وجعل لها قيمة عملها ملكا مطلقا تتصرف فيه دون معارض ، كما جعل ذلك للرجل .

ونستطيع ان نلمح ذلك في ظاهرتين : تشريعية وتطبيقية .

اما التشريعية : فتتمثل في ملاحظة المرأة قبل الزواج وبعد الزواج .

أما قبل الزواج : فلم يجعل الشرع الاسلامي لأبيها ولا لأي انسان من اقربائها الحق في اجبارها على الاعمال المنزلية بمختلف اشكالها ، فهي حرة في نفسها من هذه الجهة ، فباستطاعتها - من زاوية شرعية - أن لا تخدم احدا وأن تتطلب الاجرة على ذلك في بيتها او في غير بيتها ، كأى عامل أو عاملة ، كما أن لها الحق في ان تعمل خارج نطاق البيت دون أن يملك احد الحق على منعها وحبس حريتها في ذلك .

وأما بعد الزواج : فلم يشرع الشارع الاسلامي فرض العمل

المنزلي على المرأة - الزوجة - ولم يوجب عليها بل انطلق الى أبعد من ذلك فاعتبر أن لها الحق في ان ترضع ولدها وتحضنه وتأخذ الاجرة على ذلك ، وليس للزوج ان يمتنع من ذلك - في حال طلبها الاجرة - الا اذا طلبت قيمة زائدة على الحدود الطبيعية وذلك هو قوله تعالى وهو يتحدث عن المطلقة الحامل بعد ان تضع حملها .

وَإِنْ كُنَّ أُولَئِكَ حَمَلٍ فَلْيَبْرُئْنَ مِنْهَا حَتَّى يَضَعَنَّ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتُوهُنَّ بِأُجُورِهِنَّ وَأَتَمِّرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاَسَرْتُم فَاَرْضِعُوا لَهُ أُخْرَى ﴿٦﴾

[سورة الطلاق : ٦] .

ويرى الفقهاء انطلاقاً من الآية الكريمة في سورة الطلاق ٦ والاحاديث الشريفة المفسرة لها ، ان هذا الحكم لا يختص بحالة الطلاق بل يشمل حالة استمرار الحياة الزوجية .

وعلى ضوء هذا نفهم ان للزوجة ان تمارس في داخل البيت دور العاملة التي تأخذ قيمة عملها تماما كما لو كانت تعمل في غير بيتها ، لان العمل المنزلي لا يدخل في حقوق الزوجية الالزامية من ناحية تشريعية .

ونحن نؤكد على ان ذلك حقها من ناحية قانونية ، ونركز على التحدث عن ذلك من خلال هذه الصفة ، لأننا ندرك ان الجانب الروحي والانساني في الحياة الزوجية يفترض في الزوجة ان تقوم بهذه الاعمال بشكل طوعي دون أن يكلفها الزوج بذلك . ولعل حكمة هذا التشريع : هو أن تشعر المرأة بانسانيتها في داخل الحياة الزوجية عندما

تحس بأنها لم تدخل البيت كخادمة او مربية اطفال تمارس هذه الاعمال قسرا عنها ، بل دخلته كانسانة تملك عملها كما تملكه قبل الزواج ، ولذا فهي حرة أن تبذله بدون مقابل حتى تشعر بقيمة العطاء والمشاركة العملية في الحياة الزوجية ويشعر الرجل بدورها في العطاء عندما تتطوع بالعمل الذي لا يجب عليها ان تقوم به .

ولعل ذلك يعطي المرأة والرجل الاحساس العميق بالمشاركة الروحية عندما يقدم كل منهما للآخر جهدا لا يلزم عليه القيام به بدافع المحبة والمودة وبناء الحياة المطمئنة الهادئة .

هذا كله في العمل المنزلي .

أما الاعمال الاخرى ، فلا مانع من القيام بأي عمل حر آخر داخل البيت الزوجي اذا لم يتعارض ذلك مع الحقوق الطبيعية للزوج ، فلها ان تمارس الخياطة والاعمال الاخرى التي تستطيع ممارستها في المنزل لتكسب بها المال الذي يؤمن لها مستقبلها وحياتها أما خارج نطاق البيت ، فلها ذلك ، بعد الاتفاق مع الزوج وأخذ موافقته ، نظرا الى ان من حقوق الزوج على زوجته ان يكون خروجهما من البيت برضاه حفظا للامن والاستقرار والثقة المتبادلة .

وقد يكون من حقها ان تشترط عليه ذلك في عقد الزواج ، كأبي شرط آخر .

ونحن أمام هذا العرض للناحية التشريعية في عمل المرأة ، تتساءل : كيف يمكن ان ينسب للاسلام القول بأنه يريد للمرأة ، او يجبر المرأة على ان تكون خادمة ومربية اطفال دون ان يكون لها الحرية في المشاركة في اعمال الحياة الاخرى .

نعم هناك شرط اساسي في عمل المرأة ، كما هو شرط في عمل

الرجل ، او في أي سلوك آخر لهما في الحياة ، وهو ان يكون الجو الذي يعملان به من الاجواء التي تحفظ لهما اخلاقهما وحياتهما الشريفة التي يريدها الاسلام ، فلا يجوز للمرأة ان تعيش في الاجواء العملية أو غيرها ، التي تتعرض فيها للسقوط امام شهوات الرجال وغرائزهم من رؤسائها في العمل او زملائها ، كما لا يجوز للرجل ذلك في العمل وغيره لان ذلك من قواعد الانضباط الخلقي للانسان في كل زمان ومكان .

٢- أما الناحية التطبيقية ، فتمثل في دراسة المراحل التاريخية التي مرت بها المرأة المسلمة ، حتى ما قبل عصرنا الحاضر - فاننا نراها تشارك الرجل العمل في الحقل وفي غيره من المجالات السائدة في تلك العصور في الوقت الذي كان الدين سائدا فيه لدى المرأة والرجل دون أن يرى فيه او ترى هي فيه ، أي خروج او انحراف عن خط الدين ، او تمرد على احكامه .

واذا كنا نجد بعض الاستنكار لعمل المرأة من قبل بعض علماء الدين او من قبل بعض المؤمنين فانه لا ينطلق من استنكار عمل المرأة بل من الاحتجاج على الاجواء المنحرفة التي تعيشها اجواء العمل كما في كثير من المعامل والمؤسسات التي تتعرض فيها المرأة لخطر السقوط ، كنتيجة لعوامل الاغراء الكثيرة المتنوعة .

وخلاصة الحديث : ان الاسلام لا يحتمل المرأة مسؤولية العمل المنزلي انطلاقا من تدبير المنزل الى ارضاع اولادها وانما يترك لها الحرية في ان تتطوع او تعمل بأجر ، أو لا تعمل ، ويحاول ان يثير فيها من ناحية روحية ، روح الشعور بالمسؤولية الانسانية التي تدفعها الى البذل بمحبة ومودة .

ولا يمنعها في الوقت نفسه من العمل خارج البيت وفق شروط خاصة تحفظ لها حياتها الزوجية من جهة وانسانيتها من جهة اخرى .

* * *

مشاكل عمل المرأة في خارج البيت :

ولكن هذا الذي عرضناه لا يمنعنا من ان نعرض المشاكل التي يؤدي اليها عمل المرأة من ناحية واقعية :

أ - مشكلة الاخلاق : فالمجتمع لا يزال ينظر الى المرأة كأنتى من خلال الرغبة ولهذا نجد ان كثيرا من المحلات التجارية او المراكز الادارية ، أو شركات الطيران او غيرها تعتبر من الشروط الاساسية للمرأة العاملة لديها - في باب الاعلان - ان تكون جميلة ، او ذات جمال أخذ ، لان ذلك يساعد على جلب اكبر عدد من الزبائن من خلال حركات الاغراء التي يثيرها جمال المرأة في نفس الرجل .

وقد نلاحظ ذلك في المعامل والمؤسسات التي يختلط فيها الموظفون والموظفات وهؤلاء الذين يعيشون الحياة ويفهمونها من خلال فلسفة اللذة التي تنشرها الافلام والقصص وغيرها من أساليب الضلال الحديثة .

ب - مشكلة الاولاد : فالمرأة العاملة تضطر الى ان تترك اولادها تحت رحمة الخادمة ، او في المؤسسات التي تنشأ لحضانة اولاد المرأة العاملة ، وفي كلا الحالين يعيش الاولاد الحرمان من حنان الام الذي

لن يعوض ، وربما يسبب ذلك كثيرا من العقد النفسية في مستقبل حياتهم .

ج - تكوين المرأة الجسدي الذي يفرض عليها أخذ اجازة في حالات الدورة الشهرية او الحمل والارضاع الامر الذي يقلل الانتاج ويربك العمل ، ولهذا يحاول كثير من مشرعي البلاد التي تحاول ان تعمل على المساواة بين الرجل والمرأة في الحياة ان يطالبوا باعطاء الرجل اجازة ستة اشهر في مقابل الاجازة المعطاة للمرأة في حالات الحمل والولادة والارضاع .

* * *

وعلى كل حال فقد نرى ، من ناحية واقعية ، ان البيت قد يخسر من خلال عمل المرأة الام ، والزوجة اكثر مما يربح من ذلك .

وإذا كان العمل للمرأة من اجل تحقيق انسانيها كما يقولون ، فهناك المجالات الكثيرة التي تستطيع فيها تحقيق الانسانية ، وأي مجال اعظم من مجال الامومة لتحقيق ذلك .

س ٤ : كيف يكون زي المرأة في الاسلام ؟

ج : ان تستر جميع اجزاء جسدها ما عدا وجهها وكفيها ، فهذا هو اللباس المحتشم الذي يفرضه الاسلام .

انه يريد لها ان تخرج كامرأة ، كانسانة لا كأنثى تثير الغرائز والشهوات .

س ٥ : لماذا لا يسمح للمرأة بحضور صلاة الجماعة ؟

ج : لا مانع من ذلك ، فهناك في اكثر البلاد الاسلامية اماكن خاصة في المساجد لصلاة النساء ، حيث يؤدي الرجال والنساء الصلاة

في جماعة واحدة ، مع المحافظة على الشروط الشرعية في ذلك .

س ٦ : كيف نستطيع التعرف على اعجاز القرآن الكريم ؟

ج : ان معنى المعجزة ان تكون الظاهرة التي تتمثل فيها غير خاضعة للقوانين الطبيعية التي يسير عليها الناس في علاقة المسببات بأسبابها ، كما يحدثنا القرآن عن تحول العصا الى أفعى تلقف ما يأفكون ، في يد موسى (ع) وإحياء عيسى (ع) للموتى وإبرائه للأكمه والابرص باذن الله ، مما لا يستطيعه الافراد الذين يملكون الاختصاص في السحر والطب لانه لا يخضع للاصول والاعراف المتبعة عندهم .

وبهذا كان القرآن معجزة بلاغية للاسلام تحدى بها العرب الذين كانت الفصاحة والبلاغة ميزتهم التي يتميزون بها ومفخرتهم التي يفتخرون بها ، وكان فيهم الفصحاء الذين لا يتكلمون بكلمة الا وتصبح مضرب الامثال ، وكان فيهم الخطباء الكبار والشعراء الافذاذ .

وجاء القرآن يمثل القمة في البلاغة العربية باسلوب جديد غير مألوف لديهم وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ولم يستطيعوا ان يثبتوا امام التحدي رغم محاولاتهم المتكررة ، ولم يتمكنوا من مواجهته مواجهة عقلانية هادئة بل انطلقوا يقولون انه سحر ، وانه شعر ، واكتشفوا بعد ذلك ان كل هذا القول هراء .

وقد حاول بعض علماء العربية ان يعتبروا عجز العرب عن محاكاته ومواجهته بمثله خاضعا لقانون الصرفة الذي يعني ان الله يعجزهم عن ذلك عندما يحاولونه والا فهم قادرين بحسب طبيعتهم عليه .

ولكن هذا القول لا ينسجم مع طبيعة المعجزة التي تتحدى

القدرة البشرية بذاتها دون حاجة إلى تدخل غير طبيعي من قبل الله في ذلك ، بحيث يشعرون بالعجز امامها بمجرد مواجهتهم لان العناصر التي تتمثل فيها لا تخضع لقدرتهم المحدودة كما ان ظاهر التحدي القرآني يشير الى ذلك .

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ .

[سورة الإسراء : ٨٨] .

فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ .

[سورة البقرة : ٢٣] .

أما كيف نكتشف الاعجاز ، فنستطيع الوصول الى ذلك بملاحظة دقيقة جدا ، وهي ان نتعرف كيف انطلق الاسلوب القرآني ليجمع كل دقائق اللغة العربية مراعيًا الانسجام بين الحروف والحركات والكلمات ومنطلقًا في روعة التصوير الى أبعد حد حتى ليخيل اليك انك لا تواجه صورا ذهنية امامك بل صورا تتحرك بخفة وبراعة حتى لتجسد امامك المشهد في صورة حسية تقتحم عليك مشاعرك واحاسيسك حتى لتشعر ان القصة تحيط بك من جميع جوانبك لتملك عليك وجدانك ويكلمة موجزة : ان قيمة الاسلوب القرآني هو انه يلاحظ كل مقتضيات الحال في الكلمة والاسلوب والفكرة والصورة . حتى تحس انك لا تستطيع ان تتصرف في أي منها دون ان تسيء الى الجو العام للآية والسورة ، حتى في الحركة البسيطة او الكلمة الواحدة .

ومن الطبيعي اننا لا نستطيع تذوق هذا الاعجاز بالشكل الذي

تذوقه العرب الذين نزل القرآن عليهم . لانهم كانوا يفهمون اللغة ويعيشون معانيها بالفطرة بينما ابتعدنا نحن عن جو اللغة حتى كدنا نصبح غرباء عنها ، ولذلك فاننا نحتاج الى دراسة الابحاث التي عرضت لاعجاز القرآن قديما وحديثا لنستطيع الاحساس ولو من بعيد ، بقيمة الاسلوب القرآني وعظمة الصورة القرآنية للحياة ، ولعل من أفضل الابحاث التي عرضت لبعض جوانب الاعجاز ما كتبه سيد قطب في كتابه « التصوير الفني في القرآن » و « مشاهد القيامة في القرآن » ، ولا يفوتنا الاشارة الى كتاب الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في اعجاز القرآن وغير ذلك من الكتب الكثيرة .

* * *

ويحاول الكثيرون ان لا يقتصروا في اعجاز القرآن على الجانب البلاغي فيلتمسون الاعجاز في الحقائق الكونية الدقيقة التي اكتشفها القرآن قبل ان يكتشفها أحد في العالم الا في الازمنة المتأخرة ، في الوقت الذي كان النبي (ص) أمياً لم يتعلم الا بالفطرة . ولم يكن الجو الثقافي هناك في مستوى اكتشاف ذلك بعضا وكلاً .

ومن بين تلك الحقائق : قانون الزوجية في الكون الذي لم يكتشفه الانسان الا في العصور المتأخرة التي تقدم فيها الانسان كثيرا على أساس التجربة فقد أشار إليه القرآن الكريم :

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾

[سورة الذاريات : ٤٩] .

ومن بين تلك الحقائق ، اكتشافه قيمة بصمات الاصابع في تحقيق الشخصية وذلك في قوله تعالى :

أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۖ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ
بَنَانَهُ ۗ [سورة القيامة : ٣ - ٤] .

فان اعتبار البنان مظهر القدرة التي يستدل بها على قدرة الله على جمع العظام واعادة الانسان الى الحياة ، لا يمكن الا على أساس ملاحظة دقة التكوين فيها مع اختلاف الناس فيها على كثرته فلا تتفق بصمة انسان مع بصمة انسان آخر مهما كان قريبا في النسب أو في غيره .

وهناك كتب كثيرة تعرضت لاشارات القرآن الى قوانين الكون الطبيعية ، وان وصل الكثير منها الى حد الافراط في اثقال الكلمة بمعان لا يتحملها وضعها اللغوي .

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذا المنهج او ذاك ، وانما نريد الاشارة الى بعض وجوه الاعجاز في القرآن التي يرى البعض كونها مظهرا للتحدي القرآني .

ويحاول البعض ان يرى وجه الاعجاز في هذا التشريع المتكامل الذي يشتمل عليه القرآن ، وفي تلك المفاهيم الدقيقة التي اطلقها لعلاقة الانسان بالحياة ، في الوقت الذي لم يكن النبي قد تلقى أي ثقافة في ذلك ولم يكن الجو الثقافي في مستوى ذلك كما اشرنا اليه آنفا .

تلك هي بعض الوجوه التي قد تساعدنا على اكتشاف عظمة القرآن الكريم ومعرفة انه ليس كلام البشر ، بل هو كلام الله تعالى .

ولسنا هنا بصدد تفصيل ذلك ، فليس من قصدنا في هذا الحوار الا توجيه التفكير الى هذا الجانب باثارة الجوانب الاساسية فيه .

الحلقة الثانية

لَا تَقِفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ مَوْقِفُ الْإِسْلَامِ مِنَ التَّرَدُّدِ وَالْقَلْقِ وَالْوَسْوَسَةِ و لِكُلِّ سُؤَالٍ جَوَابٌ

- المحاضرة الأولى : لا تقف ما ليس لك به علم .
- المحاضرة الثانية : موقف الاسلام من التردد والقلق والوسوسة في العمل .
- لكل سؤال جواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد ، هذا هو الكتاب الثاني ، من سلسلة الكتب التي بدأت باصدارها ندوة الشباب المؤمن الثقافية في بنت جبيل انطلاقا من شعارها الذي حملته بصدق واخلاص وهو نشر المعرفة الاسلامية ، وفتح باب الحوار الهادىء العميق من اجل الوصول الى المعرفة الحقة .

واننا - في الوقت الذي نعتذر فيه عن طبيعة السرعة والارتجال التي طبعت تلخيص المحاضرة الاولى ، والاسئلة والاجوبة معها ، بما ربما يفوت كثيرا من العناصر الاساسية للفكرة .

نرجو ان يجد القراء في هذا الكتاب التلخيص الوافى للفكرة العامة للمحاضرتين اللتين القاهما سماحة السيد محمد حسين فضل الله مع الاسئلة والاجوبة التي انطلقت في مختلف القضايا بكل صراحة ومحبة ، الامر الذي يعطي للشباب الواعي الفكرة الصادقة عن ايماننا بحرية الكلمة المسؤولة في مجال الحوار .

كما اننا نرجو من الشباب تقديم ملاحظاتهم واقتراحاتهم ليصار
الى درسها ومناقشتها في الكتب التالية .
والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الشباب المؤمن في بنت جبيل

المحاضرة الأولى :

لا تقف ما ليس لك به علم

قال الله تعالى :

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ .
[سورة الاسراء : ٣٦] .

في هذه الآية نقف مع أحد المبادئ العامة في الحياة التي
حاول الاسلام أن يطلقها في مجال الفكر والعقيدة والسلوك .
ونحن هنا في محاولة للسير في ظلال هذه الآية نحو الحياة .

لا تقف : لا تتبع كل شيء ليس لك عليه حجة وليس معك عليه
برهان ، سواء كان شيئاً تسمعه ، او ظاهرة تبصرها ، او فكرة تعقد
عليها قلبك وتعيها في ذهنك فانك سوف تواجه المسؤولية عما
سمعت ، وعما ابصرت ، وعما اعتقدت ، وعليك ان تقدم الحساب
على نسبة وضوح ذلك كله لديك .

القيت في ندوة « الشباب المؤمن » في بنت جبيل في مساء السبت الواقع في ٢١
ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ الموافق ٣ - ٦ - ١٩٧٢ م .

فهناك عدة حالات نمر بها في كل قضية تواجهنا :

أ - حالة الوهم : وهي الطرف المرجوح في القضية كما اذا كان وعينا لها بنسبة ٤٠ / أو ٣٠٪ .

ب - حالة الظن : وهي الطرف الراجح في القضية كما اذا كان وعينا لها بنسبة ٦٠ او اكثر٪ .

ج - حالة الشك : وهي حالة تساوي الطرفين كما اذا كان وعينا لها بنسبة ٥٠٪ .

د - حالة اليقين : وهي حالة الجزم كما اذا كان وعينا لها بنسبة ١٠٠٪ .

والاسلام من خلال هذه الآية وغيرها من الآيات يشترط في السير وراء اية قضية في الفكر والعقيدة والسلوك ان يكون وضوح الرؤية فيها بنسبة ١٠٠٪ ويرفض النسب الثلاث .

وليس معنى رفضها هو اهمالها رأسا فان بإمكان الانسان ان يأخذ منها فكرة الحذر في بعض المجالات ، ومتابعة البحث في المجالات الأخرى .

بل معناه هو رفض اعتبارها اساسا للعمل وطريقا للحياة ، ومقياسا للحقيقة ، فكل شيء لا يكون وضوحه بمستوى اليقين فليس بحقيقة .

تلك هي خلاصة الفكرة .

اما كيف نطبقها في جميع المجالات :

١ - في مجال العقيدة : فليس للانسان ان يعتقد بأية عقيدة نتيجة

الظن او الوهم او الشك بل لا بد له من ان يحصل على درجة اليقين ليكون معذورا على تقدير الخطأ ، ومطمئنا في طريق الصواب ، وعلى هذا الاساس دعا الاسلام الانسان الى ان يتحرر من كل رواسته ويقف وجهاً لوجه أمام الحقيقة الواضحة تحت شعار :

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ [سورة البقرة : ١١١] .

٢- في مجال العلم ، فلكي تكون النظرية العلمية في مستوى الحقيقة التي لا تقبل النقاش لا بد من ان يحصل على نسبة اليقين ، ولن تحصل على تلك النسبة الا اذا كانت مقدماتها يقينية وبهذه المناسبة نشير الى الطريقة المدرسية التي تقدم النظريات كأشياء جاهزة لا تقبل الجدل الامر الذي يوحي الى طلاب الصفوف الابتدائية والثانوية ، بانها نظريات على مستوى الحقيقة كما هو الحال في نظرية دارون في النشوء والارتقاء ، ونظرية فرويد وغيرهما ، في الوقت الذي نجد اصحاب هذه النظريات يعترفون بانها ظنية تنطلق من قضايا جزئية خاصة وملاحظات محدودة .

لذلك يجب الا نعطي العلم المعاصر اكثر مما اعطى نفسه ، فقد تأتي نظريات جديدة كنظرية النسبية لانيشتاين تقلب الكثير من النظريات التي قبلها ، لان القضية ليست بمستوى $1 + 1 = 2$.

٣- في مجال العلاقات مع الآخرين : فلكي تحكم على انسان باي صفة كانت سواء في مجال الدين كأن تقول عنه انه ملحد او فاسق او مؤمن ، او في مجال السياسة كأن تقول عنه انه خائن او مخلص ، او في مجال الاخلاق العامة كأن تقول انه امين او صادق او كاذب او سارق او مرتش او منافق .

فكر في الاساس الذي ارتكزت عليه احكامك فهل هو بنسبة ١٠٠ ٪ او اقل من ذلك فليس لك ان تحكم اذا كان الاساس يرتكز على نسبة اقل ، فلعل الحقيقة في الطرف الآخر تماما كما هي الحال في الجو عندما يكون غائما في جانب ومضيئا في جانب آخر ، فقد يقول الذين يعيشون في جانب الغيم ، انه لا نور هنا بينما الحقيقة ان النور موجود ولكن لا بد في رؤيته من الانتقال للجانب الاخر ، وهكذا قد تكون الحقيقة في ال ٤٠ ٪ اذا كانت نسبة وضوح الجانب عندنا ٦٠ ٪ .

وبهذا نغلق ابواب الاشاعات التي تجد لها المجال الواسع في حياتنا عندما تجد الكثيرين الذين يتقبلونها دون وعي او حساب ، ونتخلص من فوضى الالقاب بلا حساب في جانب المدح والذم وهكذا نسير مع هذا الاتجاه عند التحدث عن العقائد والمبادئ . فليس لك ان تعطي أيّ عقيدة أو مبدأ آية صفة الا اذا كنت تملك المعلومات الصحيحة عنها . وبهذا سوف نتخلص من فوضى التهم التي توجه للاديان والعقائد دون حساب انطلاقا من معلومات خاطئة لم تركز على مصادر وثيقة بل ارتكزت على اشاعات من هنا وكلمات من هناك اطلقها مغرضون او جاهلون كما نشاهده في نظرة الشباب الى الدين عندما يصفونه بأنه « ضد العلم » أو « مخدر » أو « رجعي » دون أن يملكوا آية معرفة عن الدين تبرر لهم هذا الاتهام وانما هي الكلمات التي اخذوها عن فلان وفلان فاعتنقوها دون تفكير .

٤ - في الحوار مع الآخرين . . فلكي تجادل في أيّ فكرة او تجاوز في أيّ عقيدة لا بد لك من أن تملك الثقافة والمعلومات التي تستطيع أن تدير معها عملية الحوار والجدال بسلام .

أما إذا لم يكن لك علم فيما تناقش فيه او تجادل فيه ، فانك ستتحول الى اساليب المهارات والكلمات الفارغة التي لا تعطي الا الرنين ولا تؤدي الا الى اضاءة الوقت واثارة الاحقاد والضغائن .

وقد اشار القرآن الى هذه الفئة من الناس التي لا تملك مقومات الحوار الهادىء العميق في قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾

[سورة الحج : ٨] .

فهو لم يشجب موقفهم لانهم جادلوا في الله ، بل اراد أن يستنكر عليهم الفكرة المضادة التي ينطلقون منها في حالات الجدل ، دون أن يملكو الاساس العلمي لها .

ومن هنا نعرف الفرق بين ان تستفهم وتساءل عما لا تعلم ، فهذا هو ما يدعو الاسلام اليه ، وبين ان تجادل بغير علم وهو ما يستنكره ، لانك في الحالة الاولى لا تملك الا علامات الاستفهام تثيرها امام الفكرة وامام الاجوبة التي تثار امامك حولها ، فانت في كل ذلك طالب معرفة ، أما في الحالة الثانية فأنت تبني الفكرة دون أن يكون لك حجة عليها ولذا فسوف يتحول موقفك الى عناد واصرار على الجهل .

٥ - في المجالات العامة : كما في الشهادة على الدعاوى ، فلكي تشهد على أية قضية ، لا بد من أن تكون القضية واضحة ١٠٠٪ . فقد سئل النبي محمد (ص) عن الشهادة ، كيف اشهد فالتفت النبي (ص) إلى السائل وكانت الشمس في وسط النهار والطقس صحو (على مثل هذه فاشهد اودع . .) .

لكل سؤال جواب

- لماذا ينقد العلماء بعضهم البعض ؟
- من خلق الله ؟
- كيف يتيح الله الفرصة للشر ؟
- كيف نفسر خلق المشوهين ؟
- ما هو موقف الاسلام من الرق ؟
- لماذا اختلفت الأديان ؟
- تفسير بعض الآيات القرآنية ؟ وغير ذلك

س ١ : لماذا كلما برز عالم حاول الآخرون تحطيمه .

ج - اولاً : ليست هذه طريقة كل الآخرين ، فالكثيرون لا يسرون على هذا الخط ، ونحن - في الوقت نفسه - لا ندعي العصمة لهم فهم بشر قد يقعون في الخطأ كما يقع غيرهم فيه .

ثانياً : اننا نخلط كثيراً بين نقد العمل او السلوك وبين نقد الذات ، فقد يحدث - بحكم تكويننا الشرقي - ان نعتبر الانسان الذي ينتقد انسانا في عمل من اعماله ، عدوا له ، وهذا خلق غير اسلامي فان الاسلام يعتبر النقد الاجتماعي او الذاتي واجبا اسلاميا « المؤمن مرآة اخيه » (حديث شريف) بشرط ان يكون منطلقا بموضوعية ومحبة ليتقبله الآخرون كذلك الحديث الذي يقول : « رحم الله امرأً أهدي إلي عيوبي » واعتقد أن بعض العلماء الذين ينقدون افعال بعضهم ينطلقون من محاولة تصحيح الانحراف وإصلاح الخطأ ، لا من روح العداوة ، ومن افهام الناس أن المحبة للشخص لا ينبغي أن تكون مظهر عبادة تجعلنا نعصمهم عن الخطأ ، « وربما نتحدث حول رأي الإسلام في النقد في محاضرة مستقلة إن شاء الله » .

من خلق الله ؟

س ٢ : نحن مخلوقون لله فمن خلق الله ؟

ج - هذا السؤال ليس بجديد ، لا تعتبره غريبا ، فالحالة النفسية التي تعيشها عاشها انسان قبلك في زمان النبي محمد (ص) .

ففي حديث الامام جعفر الصادق (ع) : جاء رجل الى النبي (ص) فقال : يا رسول الله اني هلكت فقال له النبي (ص) : اتاك الخبيث (الشيطان) فقال لك : من خلقك ؟ فقلت : الله تعالى فقال : من خلقه ؟ فقال الرجل : اي والذي بعثك بالحق قال كذا ، فقال النبي (ص) ذلك محض الايمان .

ويعلق الامام الصادق على هذه الكلمة (محض الايمان) فيقول : انما عنى بقوله (هذا محض الايمان) خوفه ان يكون هلك حيث عرض في قلبه ذلك . لانه يدلل على الشعور العميق بالقلق والخوف على ايمانه . الامر الذي يكشف قوة الايمان في داخله .

والآن مع الجواب عن هذا السؤال .

ان هذا السؤال - في عقيدتي - خطأ .

ان العقيدة بالله تفرض انه - تعالى شأنه - هو العلة الاولى الخالقة للكون ، ومعنى العلة الاولى للكون ، هو انه لا علة قبله ، وليس معلولا لشيء ، لانه لو كان كذلك لكان علة ثانية او ثالثة ، والنتيجة هي انه ليس هو الله الذي نؤمن به .

ولتوضيح الفكرة اكثر نقول : اترك فكرك ينطلق ويسرح في بدايات الكون فكل شيء تتصور وجود شيء قبله او احتياجه لشيء آخر

فليس هو الله : أمّا اذا وقفت تصوراتك عند شيء لا شيء قبله فذلك هو الله .

لماذا نقول من خلق الله ؟ لانك تتصور وجود الله كوجودنا لا يمكن ان يتحقق بدون موجد لكن التصور خطأ ، فان وجودي ووجودك ووجود الكون كله لا يحمل في ذاته حتمية الاثبات ولا حتمية العدم ، وهو ما يسمى - فلسفيا - ممكن الوجود فهو قابل لهذا وقابل لذلك فلا بد من قوة خارج ذاته ترجح احد الفرضين على الآخر وهذا هو الذي يفرض - من ناحية فلسفية ووجدانية - حاجته الى خالق ، أمّا الخالق فلا يمكن فرض عدمه لان وجوده هو المبرر لوجود الكون ، وكل ما لا يمكن فرض عدمه فهو واجب الوجود واذا كان كذلك فلا يحتاج الى موجد لان وجوده منطلق من حتمية وجوده الذاتية لا من امر خارج عنه .

ان القاعدة ليست : كل موجود يحتاج الى موجد .

بل القاعدة الصحيحة : كل ممكن الوجود يحتاج الى موجد .

* * *

س ٣ : ما معنى هذا القول : المؤمن ممتحن .

ج - معناه ان المؤمن بالله لا يترك دون امتحان ، فكل ما يصيبه في الحياة من مشاكل وقضايا يعتبر امتحانا واختبارا لايمانه فيرى : هل ينسجم سلوكه ، وموقفه امام هذه القضايا مع خط الايمان او انه ينحرف عنه وهذا المعنى هو الذي جاءت به الآية الكريمة :

﴿مَنْ أَحْسَبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ٥١ وَلَقَدْ

فَتَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٠﴾

[سورة العنكبوت : ١ - ٣] .

س ٤ : ان الله سبحانه عالم بالمستقبل وما يجري فيه من خير او شر ، فلماذا يتيح الفرصة للشر .

ج - قال الله سبحانه وتعالى :

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً . [سورة هود : ١١٨] .

المعنى : أن الله قادر على أن يجعل جميع خلقه متساوين في الخير ولكن الله أراد للإنسان أن يصل إلى الخير بعقله وإرادته فأعطاه حرية الاختيار ، فهو مخير بين الخير والشر ، أما إتاحتها الفرصة لوجود الشر فلأن ما يفقده الإنسان من فقدانه عنصر الاختيار أكثر مما يخسره من إتاحة الفرصة أمام الشر في الوقت الذي جعلها الله مغلولة بألف غل من وعيده على فعل الشر ومن رسالاته التي توجه الإنسان نحو الخير وترغبه فيه وتعهده بالثواب على ذلك .

وإذا كنا نريد ان نعطي على هذه الفكرة مثالا حياتيا للتوضيح فانظر واقع الامة بين الحرية وبين التقييد ، فهي تخسر من خلال اعطاءها الحريات كما تخسر من خلال سلبها تلك الحريات ولكن ما تربحه من فرص الحرية اكثر مما تخسره معها في مجالات الفكر والعزة والنمو ، ولذلك فهي تبقى سائرة على طريق الحرية بالرغم من وعيها لخسارتها على هذا الصعيد في بعض المجالات .

ان الله لم يرد للانسان ان يعمل الشر ، ولذا نهاه عنه ولكنه اعطاه قابليته كما اعطاه قابلية الخير ومنحه القوة على ممارستها ، وزوده

بالارادة الواعية التي تعرف طريقها جيدا بهداية الله .

س ٥ : قال الله تعالى : - وهو يحدثنا عن موسى عندما طلب من ربه أن يريه وجهه -

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَنَّكَ وَلَكِن نُنظِرُكَ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِيَنِّي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ .

[سورة الأعراف : ١٤٣] .

السؤال لماذا لم يره الله وجهه .

ج - هذا السؤال من موسى لم يكن سؤالاً ذاتياً فهو يعرف ان الله ليس جسماً حتى يرى للناظرين بل كان نتيجة المطالبة المتكررة من قومه فاوحى الله اليه - على ما في بعض التفاسير - يا موسى : اسألني ما سألوك فلن اؤاخذك بجهلهم ، وعندما سأله ذلك وكانوا معه اظهر له نوره فلم يقدر هوولا الذين كانوا معه على مواجهته فخرؤا مصعوقين لعظمة ما رأوا ، فرجعوا الى الله وعرفوا انهم اذا لم يستطيعوا النظر الى نور الله فكيف يستطيعون النظر اليه ان كان هذا ممكنا .

س ٦ : ان الله رحيم بعباده فكيف نفسر خلق المشوهين - على هذا الاساس - كخلق الاعمى والاصم ونحوهما .

ج - اولاً : من قال ان العمى والصمم وغيرهما عقاب للانسان ! ما دام ان الله يعوض على الانسان بعض القوى التي يفقدها بتقوية بعض القوى الاخرى الامر الذي يجعله يستطيع ان ينطلق بعيدا في

مجال الحياة لو انطلق في مجال التقدم والنمو كأبي شخص طبيعي آخر بل ربما يسبق اهل زمانه كأبي العلاء وبشار بن برد وبيتهوفن وهيلين كيلر وطه حسين وغيرهم ممن لم يمنعهم التشويه الذي خلق معهم او رافق حياتهم من أن يتفوقوا على جيلهم .

ثانيا : ان هذا التشويه الذي يحصل للانسان لا يحدث نتيجة عمل مباشر في الخلق ، بل انما يحدث بسبب النظام الكوني الذي أبدعه الله في الحياة عندما ربط النتائج بمقدماتها والمسببات بأسبابها كنظام الوراثة ، وتأثر الانسان بالبيئة او الغذاء وما الى ذلك . . . الامر الذي يجعل الغاء مظاهر التشويه في خلق الجنين او في حياة الانسان تماما كإلغاء تنظيم الفصول الذي يتضرر لمعه بعض الناس بالحر او بالبرد ، في حساب الربح والخسارة .

فلو اننا ألغينا هذه الانظمة لخسر الانسان - بما فيه الاعمى والاصم وغيرهما - اكثر مما ينتفع ببقائها مع هذه النتائج المضرة .

وبكلمة واحدة : ان طبيعة اي نظام تفرض مقدارا من الخسائر في نتائجها لحساب نظام آخر فاذا حاولنا ان ننطلق بعيدا في فرض اي نظام على مستوى التكوين او التشريع لا بد لنا من ان نلاحظ أقلها ضررا او أكثرها ربحا تجاه جميع الناس حتى الذي يتحملون الخسائر .

س ٧ : ما هو موقف الاسلام من الرق ؟

ج - الاسلام لم يشرع الرق ، بل جاء في مجتمع يسوده الرق كنظام اجتماعي واقتصادي ، فحاول ان يعالجه معالجة واقعية فاعلق جميع نوافذه ما عدا نافذة واحدة هي نافذة الحرب الشرعية ضمن شروط وتحفظات معينة ، فلم يعد الرق مشروعاً بالطريقة التي كانت

تعرفها اوربا في القرون الوسطى باخضاع السود لسطانهم بالخدعة وبالقوة وبالتالي استرقاقهم - او بالطريقة التي كان تقوم بها بعض الشعوب من بيع اولادهم وبناتهم نتيجة الفقر او غيره من الاسباب ، بل يعتبر كل هؤلاء الذين يسترقون بهذا الاسلوب احرارا لهم ما للاحرار وعليهم ما عليهم من وجهة شرعية .

اما الرق في الحرب فقد ابقاه الاسلام على اساس المعاملة بالمثل نظرا الى ان النظام الحربي كان يركز على اساس استرقاق الالاسرى ، وليس من الطبيعي ان يلغى الاسلام الرق في اسرى خصومه في الوقت الذي يسترق فيه اسراه من قبل الاعداء .

ثم بدأ بفتح نوافذ التحرير : فمن افطر في شهر رمضان - ومن قتل مؤمنا خطأ - ومن حنث في يمينه - ومن ظاهر امرأته (اي قَال لها انت علي كظهر امي) وغير ذلك فكفارته عتق رقبة .

وفتح المجال للعبيد أن يتعاقدوا مع أسيادهم على عمل معين او مبلغ معين لقاء حريتهم وهكذا جعل الثواب الكبير للمؤمنين على قيامهم بتحرير العبيد ، كما اعتبر تجارة العبيد من التجارات المرفوضة اخلاقيا فقد ورد في الحديث « شر الناس من باع الناس » .

وقد اعطى أئمة اهل البيت (ع) القدوة الحسنة في ذلك فكانوا يشترون العبيد ويعلمونهم ويؤمنون لهم حياتهم ويحررونهم في كل عام .

وهكذا جاء العصر الحاضر دون أن نجد أثراً للرق في البلاد الاسلامية الا في بعض المناطق التي لم يكن وجود الرق فيها شرعيا في اكثر مجالاته . كل ذلك بفضل الحلول العملية التي قدمها الاسلام امام المشكلة .

س ٨ : هل يوجد هناك شيطان ؟

ج - اننا نؤمن بالشيطان كموجود حي مستقل لان القرآن - الذي هو كتاب الله - اخبرنا بذلك ، وليس لنا طريق الى معرفته الا من خلاله لانه ليس من المحسوسات التي تخضع للحس او التجربة .

س ٩ : لماذا يكون في الحياة انسان موهوب واخر غير موهوب ؟

ج - ان اختلاف الموهبة او القابلية يتبع النظام الكوني الذي يجعل للوراثة وللارض وللغذاء الاثر الكبير في تكوين ذهنية الانسان تماما ، كما هي الارض في قابليتها للانتاج في الجذب والخصوبة ومهما اختلفت القابليات والموهب فان الانسان يحاسب على مقدار عقله - كما جاء في الحديث .

س ١٠ : لماذا اختلفت الاديان مع ان مصدرها واحد وهو الله ؟

ج - في عقيدتنا ان اختلاف الاديان يمثل اختلاف المراحل ، فكان لكل مرحلة دين معين يلتقي مع حاجات تلك المرحلة ، حتى اذا انطلقت الانسانية الى مرحلة جديدة كان هناك دين جديد يلبي حاجاتها ويحل مشكلاتها الجديدة .

أما الاسلام فهو دين الحياة لانه خاتمة الاديان باعتباره يمثل الخط الذي يمكن للحياة ان تسير معه في مراحلها النهائية لانه يستجيب لكل حالات التطور .

أما اختلاف الناس في ذلك فلأن كل فئة تعتبر دينها يمثل المرحلة الاخيرة في حياة الانسان دون ان تعترف بالدين الذي بعدها .

ولكن الاسلام يعترف بالاديان كلها في ضمن مراحلها المعينة
كما تعبر عنه الآية الكريمة.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِّن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ .

[سورة البقرة : ١٣٦] .

س ١١ : ما هو دور علماء الدين في معركتنا مع العدو
الصهيوني ؟

ج - ان رسالة الدين تتمثل في الوقوف مع قضايا الحق والعدل
والعزة والكرامة في كل مكان ، وعلى ضوء ذلك فان قضية فلسطين
هي من ابرز قضايا الحق والعدالة المسلمين ، فهي قضية اسلامية كما
هي قضية عربية - او قضية تحررية .

ومن واجب علماء الدين ان يقدموا كل طاقاتهم من اجل القضية
في اطارها الحق كل بحسب قدرته ونشاطه .

وهنا قاطع احد الشباب كلام السيد قائلا : فلماذا لم نرهم في
المعركة ؟

فأجاب السيد ؛ ليس المهم ان يحمل العالم الديني السلاح ،
بل المهم ان يقوم بدوره حسب طاقاته في مجال التوعية الفكرية او
الحركة الاجتماعية فلكل انسان دوره ، فقد يختلف دور الجندي عن
دور المهندس او المحامي او الطبيب، ولكن يجمعهم شيء واحد هو

العمل من اجل القضية ، سواء في الجبهة الداخلية او جبهة المعركة ،
بالعلم .

ان الحماس ليس كل شيء ، بل التخطيط الواعي الذي يأخذ
فيه كل انسان دوره هو اساس النجاح .

س ١٢ : يقول الله سبحانه وخلقناكم درجات فلماذا ؟

ج - هذا ليس موجودا في القرآن بل الآية الصحيحة التي تتضمن
هذا المعنى :

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفًا لِّلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مِمَّا آتَيْتُكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ
وَإِنَّهُ لَفَرُّوقٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ .

والمعنى - في هذه الآية - ان طبيعة النظام الكوني جعلت الانسان
يختلف حاله في افراده في الموهبة والاختصاص والجاه والمال ،
والعلم ، فلكل انسان جانب يرتفع به عن الانسان الآخر ولكن هذه
الاختلافات لا تجعل لأي شخص امتيازا طبقيا او تشريعا على الآخر ،
بل الجميع متساوون في الواجبات والمسؤوليات الملقاة على عاتقهم
فيما اختلفوا فيه وفيما حصلوا عليه ، فعليهم ان يعرفوا ان الله يريد ان
يختبرهم ويمتحنهم بذلك ليعرف الصادق من الكاذب والمؤمن من
غيره .

وعلى كل فليس المعنى ان الله جعل بعض الناس ارفع من
بعض آخر في ميزان التكريم او التقييم بل الآية في محاولة لتصوير
الواقع الكوني الذي اراد الله للانسان ان يسير به في الاتجاه الصحيح

كل بحسب دوره . وكل بحسب طاقته .

س ١٣ : ورد في القرآن الكريم : ﴿ والتين والزيتون وطور سينين . وهذا البلد الامين . ﴾ فما تفسير ذلك ؟

ج - الظاهر - كما في تفسير مجمع البيان - انه اقسام بالتين الذي يؤكل والزيتون الذي يعصر منه الزيت ، وانما اقسام بالتين لانه فاكهة مخلصه من شائب التنغيص وفيه أعظم عبرة لانه - تعالى - جعلها على مقدار اللقمة وهياها على تلك الصفة انعاما على عباده بها . . واما الزيتون فانه يعتصر منه الزيت الذي يدور في اكثر الاطعمة ، وهو ادام . وهناك تفاسير اخرى لا دليل عليها . أما (طور سينين) فهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى (وهذا البلد الامين) يعني مكة البلد الحرام يأمن فيه الخائف في الجاهلية والاسلام فالامين يعني المؤمن يؤمن من يدخله .

وقد درج القرآن الكريم في اسلوبه العظيم على القسم بمخلوقات الله وظواهر الطبيعة والاماكن المقدسة لتوجيه الانسان الى ما فيها من منافع واسرار وقيم روحية ودينية وحياتية ، ولعل هذه السورة سائرة في هذا الاتجاه .

المحاضرة الثانية :

موقف الاسلام من القلق والتردد والوسوسة أمام العمل

موقف الإسلام من القلق والتردد والوسوسة أمام العمل .

اننا نجد فئات كثيرة في المجتمع تعيش حالة التردد أمام أية قضية أو عمل حتى في القضايا الخاصة والاعمال العبادية ، كما تعيش حالة الشك مع الآخرين من حيث الارتباط بهم في علاقة ما او عدم الارتباط بهم وهكذا . . .

وربما يتمثل هذا الواقع ايضاً في الاعمال العامة عندما يريد الانسان القيام بعمل ثقافي او خيرى او تجاري .

وهكذا يتحول الانسان بفعل هذه الحالة الى عضو مشلول في المجتمع لا يستطيع التقدم خطوة واحدة ، بل يظل يراوح قدميه في مكانه ان لم يتراجع الى الوراء .

ما هي نظرة الإسلام إلى ذلك ؟

القيت في « ندوة الشباب المؤمن » في بنت جبيل في مساء السبت ٦ جماد الأول ١٣٩٢ هـ الموافق ١٧ - ٦ - ١٩٧٢ م .

وكيف حاول معالجة هذه الحالة ؟

اما السؤال الأول : فنعتقد أن الجواب عنه يتلخص في كلمة مختصرة : هي ان الإسلام يريد من كل فرد في الحياة ان يواجه الحياة بقوة ، ويتحمل مسؤوليتها بجرأة ما دامت الحياة بيد الله وما دامت الاسباب بيد الانسان ، يسخرها الله له كيف شاء ، ومتى وعي الانسان ماذا يريد ، وماذا يعمل ، وعرف وسائل العمل وظروفه فلا يبقى له امام العمل الا ان يتحرك ، ما دام قد قام بكل ما عليه ، اما الباقي فليتركه على الله .

واما السؤال الثاني ، فنلاحظ ان الإسلام قد عالج هذه الناحية النفسية معالجة عملية في القرآن والحديث والتشريع .

١ - في القرآن الكريم : نذكر آية واحدة تخاطب النبي محمد

(ص) ...

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ . [سورة آل عمران : ١٥٩] .

ان الله يطلب من النبي (ص) ان يهيء الجو الموضوعي لدراسة القضية .. اية قضية تواجهه سواء أكانت قضية حربية أو قضية اجتماعية .. ان يفكر فيها بنفسه ويدرس جميع جوانبها وظروفها ، ويشاور قومه ويتعرف آراءهم قبل ان يتصرف ، كأسلوب نموذجي من أساليب الدراسة الشاملة التي تعود المسلمين على التفكير في قضاياهم لينطلقوا فيها من خلال الاقتناع الذاتي والاطاعة الواعية للقيادة .

شاورهم في الأمر ، (فإذا عزم) اجمع رأيك على شيء فلا تتردد ولا تقلق ولا تخف من المستقبل فإنك اذا احكمت الخطوات التي تريد ان تنطلق فيها ودرستها درساً جيداً وحسبت حساب الحاضر وحساب

المستقبل ، ولم يبق امامك الا أنك تخاف من المفاجئات التي لم تحسب لها حساباً أو الخفايا التي هي في طي الغيب والكتمان .
فتوكل على الله وسر في طريقك بقوة .

وهنا نستطيع ان نعرف ان التوكل على الله لا يكون إلا بعد دراسة القضية جيداً بجميع احتمالاتها حتى اذا توفر للإنسان الاقتناع الكافي من خلال ذلك ، وكانت الظروف الموضوعية ملائمة للتنفيذ امكن للانسان ان يبدأ خطوة التوكل على الله ، حتى لا يصبح خوفه من المستقبل ومن المفاجئات مانعاً له من التقدم .
وخلاصة القول : ان الآية تعطيك الدرس من خلال هذا المفهوم :

« على الانسان الا يتردد عندما يدرس امراً ويقتنع به ، فإن إيمانه بالله وتوكله عليه يعطيه القوة على مجابهة الصعاب والحواجز » .

٢ - في حديث الإمام علي (ع) : اذا هبت أمراً فقع فيه فإن شدة توقيه اعظم مما تخاف منه . وفي كلمة اخرى له : قرنت الهيبة بالخيبة .

فكرة الحديث : ان على الانسان اذا واجه مواقف الحياة التي اقتنع بسلامتها وضرورتها ، وخاف من تنفيذها نتيجة بعض تحفظات الخوف من المستقبل ، والتهيب من مواجهة النتائج ، ووقف متردداً بين الاقدام والاحجام ، ان يبادر الى التنفيذ فوراً ويقدم على العمل دون تردد لأنه يقف بين محذورين : البقاء حيث هو يعاني القلق والتردد ، فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى ، أو الاقدام على العمل ومواجهة اسوأ النتائج الممكنة .

وفي هذه الحالة لا بد ان يختار الاقدام على التردد لان الخسارة التي

يخسرها من حياته عندما يبقى مشلولاً امام الخوف لا تعادها اية خسارة
يمكن ان تحدث من خلال العمل لأن ذلك سيثقل حياتك وينعكس على
كل مواقفك في المستقبل في جميع المجالات وتتحول الى انسان مشلول
الارادة امام أي احتمال او خوف او حذر .

بينما يجعلك الاقدام على العمل انساناً ايجابياً يواجه الحياة بجرأة ،
بعد ان يحسب للموقف كل حسابه ومن ثم ينطلق من خلال الخسارة في
طريق الربح ، فلا يهدمه الفشل وإنما يحاول ان يبني من خلال درس
التجربة كيان المستقبل .

وبهذا نفهم كيف تكون شدة توقي المواقف اعظم من أي خوف
محمّل .

وعلى ضوء ذلك نخلص الى الدرس التالي :

ادرس مشاريعك للحياة وتقدم ، دون ان تترك للخوف سبيلاً الى
نفسك ، فالحياة هي خط احتمالات الواقع لا احتمالات الخيال .

٣ - في مجال الاحكام الشرعية : ان التشريع الإسلامي حاول ان
ينقذ الإنسان من التجمد أمام حالة الشك .

مثلاً : في الصلاة ، لكل حالة شك حسابها العملي الذي يجعل
الانسان يبني على احد الطرفين عملياً فإذا شك بين الركعة الرابعة
والثالثة جرى على الرابعة واكمل صلاته ، وأتى بركعة منفصلة ليذهب
بالشك من نفسه ، فإذا تطور الشك الى حالة معقدة بحيث يتكرر بشكل
غير طبيعي ، فليضرب به عرض الجدار ولا يتوقف « لا شك لكثير
الشك » « لا تعودوا الخبيث من انفسكم نقض الصلاة فإنه معتاد لما
عُودَ » فإنكم اذا لم تفعلوا ذلك فستركز العقدة في نفوسكم ، وهكذا

تتحولون الى اناس لا تستطيعون الجزم بشيء والاقدام على شيء .

وفي الطهار : لا تتوقف امام حالة الشك « كل شيء طاهر حتى تعلم انه نجس » ، وفي الحلال والحرام عندما تختلط الاشياء عليك « كل شيء حلال حتى تعرف انه حرام » . وفي المعاملات التي تواجهك في حياتك وتشك في صحتها وفسادها « كل شيء صحيح حتى تعرف انه فاسد » .

وهكذا تفرض الشريعة الاسلامية في كل حالات الشك عملاً يمارسه الإنسان لثلا يقع فريسة للقلق والتردد والشك والوسواس .

وهكذا نستطيع اخذ الدرس التالي في نقطتين :

١ - ادرس الموقف جيداً من خلال جميع جوانبه وحاول ان تقتنع به على اساس متين .

٢ - لا تتهيب من المستقبل ولا تتردد امام الاحتمالات غير المعقولة بل تقدّم ولا تخف وتوكل على الله فقد قرنت الهيبة بالخيبة .

المرأة شر؟

لكل سؤال جواب

- الجن . ؟
- زلة إبليس . ؟
- تحديد النسل . ؟
- ... الخ

سؤال ١ : كلمة مشهورة عن الامام علي (ع) المرأة شر كلها
وشر منها انه لا بد منها هل هذا صحيح ؟

الجواب : اعتقد ان هذه الكلمة بالمعنى الظاهر منها لا يمكن
صدورها من الامام علي (ع) لماذا ؟

لان لدينا مقياسا اسلاميا لكل الاحاديث ، وضعه لنا اهل البيت
(ع) لنميز صحيح الحديث من فاسده وهو « ما اتاكم من حديث من بر
او فاجر فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف
كتاب الله فذروه » .

والقرآن الكريم عندما تحدث عن المرأة وعن الرجل ساوى بينهما
في المسؤوليات ، ولو كانت المرأة شرا بحسب طبيعتها وخلقتها لما
كان هناك معنى لتحملها المسؤولية فيما تعمل ، ان المرأة كالرجل في
مفهوم العدالة الالهية في الاسلام ليست خيرا كلها وليست شرا كلها بل
خلقت - كما خلق - وفيها قابلية الخير وقابلية الشر .

وعلى ضوء ذلك فلا ينسجم ظاهر الكلمة مع المفهوم الاسلامي

للعدالة الالهية .

نعم من الممكن جدا - كما يوحي به بعض شراح نهج البلاغة - ان يكون الشر بحسب طبيعة الاغراء والاغواء التي تمارسها في الواقع الخارجي وفي العلاقات المنحرفة بين الرجل والمرأة التي ربما تنتج الشر او تهيم به الاجواء لها كما نشاهد ذلك في تاريخ المجتمعات الإنسانية .

ويحاول بعضهم ان يعلل هذه الكلمة بالخصومة التي كانت بين الامام وبين عائشة حيث تركت عنده عقدة نفسية تجاه نفسية تجاه المرأة .

ولكن الذي يفهم تطلعات الامام والمستوى الاعلى الذي بلغه ، يعرف انه لا ينطلق من منطلقات شخصية بل هو مع الحق والحق معه حتى قال . وهو يحدثنا عن تاريخ حياته مع الحق :

« ما ترك لي الحق من صديق » .

س ٢ : في نهج البلاغة اقوال لا تتناسب مع تهذيب الامام علي (ع) مثل : يا ابن الناكصة على عقيبتها .

ج : ربما تكون مثل هذه الكلمات - على فرض صدورها - من التعابير المألوفة في ذلك الزمان على اساس التقييح لا على اساس الشتم ، ولا مانع من اختلاف مدلول الكلمات حسب اختلاف الظروف والازمنة .

س ٣ : ما هي الاحاديث التي اشارت الى خلافة الامام علي (ع) الشرعية عن الرسول (ص) ؟

ج : كثيرة : منها قول النبي (ص) يا علي انت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي : ومنها حديث الغدير المشهور بين المسلمين ، ولا تختص رواية هذه الاحاديث بالشيعة بل يرويها اهل السنة ايضا في كتبهم المعتمدة ومن اراد الاطلاع على ذلك فليراجع كتاب (المراجعات) للمرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين .

س ٤ : كيف انقسم المسلمون الى مذاهب عديدة ؟

ج : هناك مذاهب عامة تنطلق من الاختلاف في بعض الاصول كالامامة وتمثل في المذهب الشيعي . والمذهب السني ، فالشيعة يرون ان الخليفة الشرعي هو الامام علي ، والسنة يعتبرون الخلافة الشرعية قبله للخلفاء الثلاثة الذين تقدموه كما هي شرعية له بعدهم ، ولكل منهما حجج ووجهة نظر مذكورة في الكتاب المتقدم ذكره وهناك مذاهب فقهية عند السنة ، وفي مقدمتها الحنفي والشافعي والحنبلي والمالكي وعند الشيعة الامامي والزيدي ، والاختلافات في هذه ناتجة عن الاختلافات في اصول الاستنباط حسب اختلاف الاجتهاد عند اصحاب المذاهب ولم تقتصر المذاهب على ما ذكر فهناك لدى اهل السنة مذهب الازاعي والظاهري ولكن بعض الظروف السياسية اقتضت حصرها في الاربعة .

س ٥ : ما هو حجم التزام المذاهب بمبادئ الدين الاسلامي ؟

ج : المذاهب الاسلامية تمثل وجهة نظر في فهم الاسلام من مصادره الاصلية ، ولكي يعرف الانسان اقربها الى الاسلام يحتاج الى ثقافة فقهية واسعة تمكنه من المقارنة ، كما هو الحال في التشريعات الحديثة لكن المذاهب الاسلامية تلتقي مع بعضها بنسبة ٩٠ % .

س ٦ : يقال ان اغنى المذاهب بالتشريع والفقہ هو المذهب الجعفري فهل هذا صحيح ؟

ج : نعم لان باب الاجتهاد ما زال مفتوحا عند علماء هذا المذهب مما ساعد على ان يتركوا مع امتداد الزمن ثروة تشريعية ضخمة .

س ٧ : ذكرتم ان باب الاجتهاد مفتوح في المذهب الجعفري ، فماذا عن المذاهب الاخرى ؟

ج : في الفترة الماضية كان باب الاجتهاد مغلقا عندها ، أما الان فقد بدأ علماء أهل السنة يميلون الى فتح باب الاجتهاد من جديد ، وهناك مفكرون وعلماء كثيرون منهم يحاولون ممارسة الاجتهاد ، وعلى فكرة ، فان ذلك سيساعد على التقاء الاجتهادات على قاعدة واحدة او تقارب في المستقبل القريب اذا قدر له ان يسير في الاتجاه الصحيح .

س ٨ : هل بالامكان قيام وحدة اسلامية ؟

ج : ان الوحدة الاسلامية هي اقرب مما يحاوله المسيحيون من قيام الوحدة المسيحية - بالنظر الى ان نقاط الاتفاق واللقاء بين المسلمين كثيرة في اغلب الجوانب - ولولا الواقع السياسي ، والتاريخ المشيع بالدماء لتمت منذ امد بعيد .

ولكن ذلك لا يمنع من السعي نحو هذه الوحدة في الوقت الحاضر ما دامت المصالح الاسلامية متشابكة تماما كتشابك المفاهيم والعقائد الاسلامية .

س ٩ : ما هو حكم الاسلام في تحديد النسل ولا سيما المذهب الشيعي ؟

ج : من ناحية تشريعية لا يمانع الاسلام في تحديد النسل قبل بداية حركة النطفة في رحلة تكوين الانسان سواء بواسطة الحبوب اذا لم تضر المرأة ضررا بالغاً ، او العازل ، او مراعاة فترات الامن ، او العزل الطبيعي او غير ذلك من الوسائل الطبيعية والاصطناعية .

نعم هناك حالتان احدهما : الاجهاض وهو محرم منذ استكمال عملية التلقيح وبداية نمو النطفة في طريق الحياة ، الا في حالة واحدة وهي خوف الخطر المحقق على حياة الام وهذا متفق عليه بين المسلمين .

ثانيهما : التعقيم ، بأن تأخذ المرأة دواء لا تتمكن بعده من الحمل - حتى لو ارادت - وكذلك الرجل ، بحيث يفقدان قابلية الانجاب ، فهناك بعض الاجتهادات تحرمه لانه يمثل قتل طاقة ، ويرى هذا البعض ان قتل الطاقة بمثابة قتل الحياة ، والله لم يسلط الانسان على قتل حياته وان سلطه على تجميدها هذا اولاً ، وثانياً ان التعقيم يفقد الانسان الامل في الاولاد عندما يتعرض اولاده للموت ، بينما التجميد يبعث الامل عنده من جديد ، لهذا فلا بد ان تبقى الطاقة حية كاحتياطي للمستقبل .

وهناك بعض الاجتهادات ، تحلله ، وترى ان المبررات السابقة لا تكفي في اثبات الحرمة ، وعلى الانسان ان يتحمل نتائج عمله ما دام الامر يرجع الى ارادته واختياره .

الخلاصة : الاجهاض محرم ، والتعقيم لا يزال في مجال

الخلاف الاجتهادي ووسائل منع الحمل الاخرى جائزة اذا لم تحدث ضررا يعرض الحياة للخطر .

س ١٠ : ما رأي الاسلام في الرهان والربا ؟

ج : غير مشروع .

س ١١ : ما هي العبرة من زلة ابليس ؟

ج : مشكلة ابليس انه كان عنصريا انطلق موقفه من فكرة تفوقه العنصري ، خلافا لبعض الذين يحاولون ان يعطوا ابليس دور المأساة ، فوصفوه بأنه كان خالص التوحيد لله ، ولذا امتنع من السجود لأدم لكنهم لم يلتفتوا الى النصوص الدينية - وفي مقدمتها القرآن - التي كانت هي الأساس في الحديث عن قصة ابليس ، فنجد الجواب - عن السؤال الالهي - ﴿ما منعك الا تسجد اذ امرتك﴾ يتمثل فيما نقله القرآن عن ابليس

أَخَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٣٥﴾ [سورة الأعراف: ١٢] .

ولم نجد أي أثر للزعم الذي تحدثوا عنه . أما العبرة في زلة ابليس فتمثل في جانبين :

احدهما : ان من الممكن للانسان في خطأ واحد ان ينزل من القمة الى الحضيض كما نزل ابليس ، ولذلك فينبغي للانسان ان يكون واعيا لكل الخطوات التي يخطوها في الحياة .

ثانيهما : ان نرفض التفكير العنصري الذي ينطلق من اللون او الاقليم او النسب او غير ذلك ، فان ابليس هو اول من حمل فكرة التمييز العنصري الذي يتمثل في تفوق عنصر النار على عنصر الطين ،

تماما كما هي الفكرة المعاصرة التي تمثلت في التفكير النازي من
نفوق العنصر الاربي على العنصر السامي ، وتفوق غير العرب على
العرب ، او بالعكس ، او افضلية الابيض على الاسود .

س ١٢ : لماذا الدين ؟

ج : تماما كما نسأل لماذا الحياة ؟

ان الدين يمثل القوة الروحية التي تملأ نفس الانسان بكل
المعاني التي تخلق منه النموذج الاكمل للانسان الطيب ، مع نفسه
ومع الآخرين .

لماذا الدين ؟ ليكون الانسان انسانا يعيش انسانيته في مستوى
القمم في الحياة ، والينابيع في الاعماق .

س ١٣ : من الممكن ان يكون الانسان انسانا بدون الصلاة
والصوم ؟

ج : لا بد للانسانية لكي تهز كيان الانسان وتحركه من ان تعيش
في اعماقه ، كقوة تمده بالحيوية والحركة الدائمة والابداع ، لا كعادة
يستسلم معها للالفة التي تحدث من خلال بعض المؤثرات الخارجية
فهناك فرق بين الناس الذين يعيشون السلوك الانساني لانهم اعتادوا
عليه ضمن اجواء معينة فاذا جاءت اقل تجربة تفصلهم عن تلك
الاجواء انحرفوا عن الطريق وسقطوا في الامتحان ، وبين الناس الذين
يعيشون هذه المعاني من الداخل بفعل الشعلة المتوقدة التي تنطلق من
العقيدة ، وقد أشار القرآن الكريم الى الفئة الاولى في الآية الكريمة

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۚ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۚ وَإِنْ

أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ .

[سورة الحج : ١١] .

ولهذا يحتاج الانسان الى الشعور بالحاجة الى امتلاء اعماقه بالعقيدة وبالقيم الروحية من اجل ان يعيش التركيز والاستمرار في السلوك .

وهنا يأتي دور العبادات ومن بينها الصلاة التي لها الدور الكبير في تنمية المعاني الروحية في داخل النفس الانسانية بما توقظه في داخله من الشعور الكبير بالله بكل ما يعطيه هذا الشعور من الطهر والصفاء والسلام الروحي ، ومن هنا شبهها رسول الله (ص) بعين ماء يغتسل منها الانسان في اليوم خمس مرات فلا يبقى عليه شيء من الوسخ ، وهكذا الانسان اذا قام بالصلاة - بمعناها الحي - لا بشكلها التقليدي دون وعي - لا يبقى عليه شيء من الذنوب وهكذا ينطلق دور الصوم من اجل ان يعيش الانسان التدريب العملي على ممارسة ارادته بين يدي الله .

س ١٤ : ورد في القرآن الجن والعفاريت ، فما هو موقعها من العقيدة الاسلامية ؟

ج : لم يرد في القرآن حول العفاريت الا ما ذكر في قصة سليمان

قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ اَنَا اَتِيكَ بِهٖ قَبْلَ اَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ .

[سورة النمل : ٣٩] .

ومعناه - حسب ما ذكر في التفاسير - المارد القوي ، فهو نوع

من الجن لا عنصر آخر غيره .

أمّا الايمان بالجن بشكل عام ، فهو منطلق من الايمان بالقرآن وانه كلمة الله الحقّة ، فما دام القرآن يخبرنا عن وجود مخلوق عاقل واع يسمى بالجن فعلينا ان نؤمن به ، تماما كما نؤمن بأي شيء آخر لا يخضع للحس ولا يقع تحت التجربة ، ولذا فلا يملك العلم بوسائله المادية طريقا الى اثباته ، كما لا يملك طريقا الى نفيه ، لانه لا يستطيع أن ينفي أي افتراض على سبيل الجزم الا بعد ان يحيط بكل الموجودات الكونية الظاهرة والخفية ، وهذا ما لا يدعيه العلم لنفسه .

اذن ! نحن نؤمن بأن القرآن كلام الله ، وقد اخبرنا ، في اكثر من آية ، بأن هناك خلقا غير الانسان يعيش في عالمنا الارضي ضمن وجود خفي ، يسمى بالجن ، وقد حدثنا عنه انه مخلوق عاقل مسؤول فمنه المؤمن ومنه الكافر ، وكما انطلقت الرسالات لتحمل الانسان مسؤولية السير في الحياة على ارادة الله كذلك كانت موجهة للجن لنفس الهدف ، وقد خصص القرآن الكريم سورة خاصة للجن ، كما تحدث عنه في بقية السور بمختلف الاساليب .

أمّا شكله وأمّا اوصافه ، فليس هناك صيغة دينية على مستوى الحقيقة أي - ١٠٠٪ - تحدد لنا ذلك .

أمّا الصور الموجودة في كتب الادب وقصص الف ليلة وليلة ، واحديث شعراء الجاهلية ، او في عقليات الناس واساطيرهم الشعبية فليس لها اساس ديني صالح بل هي في اطار الاساطير .

والخلاصة : ان الايمان بوجود الجن طريقه الايمان بالقرآن ، اما العلم فلا يثبت ولا ينفي ، ولكنه يترك القضية تعيش في اطار الاحتمال والامكان تماما كما هو قول ابن سينا « كل ما قرع سمعك فذره في

بقعة الامكان حتى يذودك عنه واضح البرهان « ليس عند العلم شيء مستحيل فهو يتقدم بالخيال والافتراض الذي يعمل من اجل ان يكتشف - بالبحث - جانب الحقيقة فيه .

وعلينا ان لا نخلط بين القول بأن العلم لم يثبت هذا الشيء وبين القول بأنه ينفيه ، لان الشك حالة طبيعية تعيش مع الانسان ما دام لم يضع يديه على الدليل ، أمّا النفي فهو تابع للدليل تماما كما هو الاثبات .

ملاحظة : ان الكثيرين من الثقة يدعون الاجتماع بالجن ، إمّا بطريق الصدفة ، أو بطرق روحية معينة يستخدمون بها الجن ، كل ذلك بطرق لا تقبل الشك عندهم ويلاحظ ان هؤلاء الذين يدعون ذلك يتمتعون بوعي كامل وعقل سليم وايمان عميق يجعلنا نميل الى القبول بشهادتهم ، أو الى عدم المبادرة برفضها على الاقل .

س ١٥: وردت كلمة « الأمي » وصفا للنبي محمد (ص) فما معناها ؟

ج : هناك عدة تفاسير منها :

١ - ان تكون النسبة لمكة التي هي « ام القرى » .

٢ - ان تكون منطلقة من كونه لا يقرأ ولا يكتب وقد عبرت عن هذا ، الآية الكريمة :

وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْكَ لَا زُنَابَ الْمُبْتَطِلُونَ ﴿٤٨﴾

[سورة العنكبوت : ٤٨] .

٣ - ان يكون منسوباً الى الاميين الذين هم غير اهل الكتاب وقد

ورد ذلك في الآية الكريمة :

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَأُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِينِ سَبِيلٌ . [سورة آل عمران : ٧٥] .

س ١٦ : في الجاهلية كان الشعر هو السائد في الكلام العربي ، فلماذا أتى القرآن نثرا ، وليس شعرا ؟

ج : جاء القرآن بأسلوب جديد يتحدى به الآخرين ليس هو بالنثر المألوف لدى العرب ، وليس بالشعر اذا اردنا به الكلام الموزون المقفى ، بل هو نسيج وحده وفريد نوعه .

ولو جاء القرآن على اسلوب الشعر لكان ذلك مبررا وحجة لخصومه الذين حاولوا ان ينفوا صفة الرسالة عن النبي محمد (ص) وليجعلوه في عداد الشعراء كما حدثنا القرآن في قوله تعالى :

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ . [سورة الطور : ٣٠] .

ومهما يكن الامر فان القرآن الكريم عندما خلا من الموسيقى الخارجية التي تنطلق من خلال الوزن فان الموسيقى الداخلية التي تنساب من بين معانيه وكلماته لا يرقى اليها أي شعر مهما عظم ومهما انطلق صاحبه في مجال الابداع .

س ١٧ : ما هي الماسونية ؟

ج : الافكار التي تحملها الماسونية ظاهرها : السلام والمحبة والخير والخدمة للانسان ولكن التعقيدات الموجودة في تنظيمها

وبحسب تاريخها والاضاع التي تمارسها ، والشخصيات التي تنتمي اليها تعطينا الفكرة الواضحة عن علاقتها بالاستعمار والصهيونية العالمية وربما نلمح ذلك في تبني الماسونية للتاريخ اليهودي وشعائره ، فقد عرضت الحركة الماسونية ، بعد هزيمة (٥) حزيران ١٩٦٧ ان تشتري المسجد الاقصى لتقيم مكانه « هيكل سليمان » .

وربما نحاول القاء مزيد من الضوء على هذه الحركة في حديث قادم ان شاء الله . .

الحلقة الثالثة

قضية العزّ والذلل في الاسلام
و
لكلّ سؤال جواب

مسؤولية الانسان المسلم إزاء قضية العزة والكرامة

[١]

يواجه المسلمون في اكثر من مجال من مجالات الحياة التي يتحركون فيها سواء في السياسة والثقافة والاقتصاد ، تحديات الواقع المعاصر الذي تسيطر عليه القوى العالمية في الشرق والغرب ، فتحاول - هذه القوى - في اكثر من اسلوب - تذيب شخصيتهم وخنق الشعور الاصيل بالعزة والكرامة في داخلهم ، والإيحاء اليهم - بطريقة وبأخرى - بضرورة التسليم بالامر الواقع المفروض عليهم ، والإنحناء امام هذه القوى والخضوع لمخططاتها العملية في جميع المجالات من اجل المحافظة على وجودهم ومصالحهم ! .

وربما نجحت هذه القوى في اكثر من محاولة ، فكانت توشي لبعض هذه المجتمعات الاسلامية ، بضرورة الاعتماد عليها في خلاصها من بعض القوى الاخرى التي كانت تسيطر عليها قديما ثم

المحاضرة التي القيت في ندوة الشباب المؤمن في بنت جبيل - لبنان في مساء السبت الواقع في ١٣ جماد الأول ١٣٩٢ هـ الموافق ١٩٧٢/٦/٢٤ م .

في الوقت الذي كان الجنوب اللبناني يعيش حالة القلق من جراء العدوان الإسرائيلي الغاشم .

تخطط للعمل ، وتثير مجتمعاتنا في ضوء هذه المخططات . وتنجح
الخطة ، ويتخلص المسلمون من السيطرة القديمة ، ويتلفنون هنا
وهناك ليجدوا انفسهم تحت سيطرة جديدة للقوى الجديدة التي جاءت
من اجل أن تحررهم من الاستعمار القديم لتخضعهم للاستعمار
الجديد الذي تمارسه هي بالذات لتمارس عملية الاستغلال والاضطهاد
وهكذا دواليك .

وتمثلت التجربة في وعود بريطانيا للعرب بتحريرهم من
العثمانيين لتكون النتيجة - بعد ذلك أن يعيشوا تحت حكم الاحتلال
البريطاني عشرات السنين . . وامتدت التجربة الى ألوان الاستعمار
الآخري من الفرنسي الى الأمريكي .

. . وبدأت من جديد تجربة القوى السوفياتية لتمارس هذا الدور
بصورة وبآخري بحجة تخليصهم من الاستعمار الغربي .

وكانت النتيجة المرعبة : اننا نعيش الآن الصراع الداخلي ، لا
من اجل مصالحنا الذاتية بل لحماية مصالح هذه الدولة او تلك ، حتى
تحول الكثيرون منا في حماسهم واندفاعهم الى أن يكونوا ملكيين أكثر
من الملك - كما يقولون .

وفقدنا . مع هذا كل شعور بالاصالة عندما فقدنا شخصيتنا
الاسلامية الاصيلة وبدأنا نتخبط امام هذا الواقع ونستمر في الخضوع
والذل لهذه القوة ، بحجة انها تمنحنا العزة والكرامة امام القوة
الآخري .

وهكذا تستمر الحكاية بأساليب جديدة وأشكال عصرية متنوعة .

على ضوء هذا الواقع رأينا ان علينا ان نتحدث - بعض الشيء
- عن مسؤولية الانسان المسلم ازاء قضية العزة والكرامة في عدة
علامات استفهام نثيرها امام الموضوع :

١ - هل قضية العزة والكرامة ، من القضايا الشخصية التي يملك
فيها الانسان حرية ممارستها او عدم ممارستها على اساس الدوافع
الذاتية والمصالح الخاصة .

٢ - هل يملك الانسان المسلم التحرك مع القوى التي تضاده في
الفكر والعقيدة والهدف ، والتبعية لها من اجل تحصيل عزته وكرامته .

٣ - هل يمكن للضعف أن يكون مبررا للمسلم ، لكي يخضع
لهذه القوة أو تلك .

٤ - كيف نفهم عملية اذلال الانسان نفسه من وجهة نظر
اسلامية .

وعلى ضوء الاجوبة التي تواجه علامات الاستفهام هذه ، نستطيع
ان نحاكم واقعنا الذي نعيش ، من اجل أن نصح انحرافه ونقوم
اعوجاجه ليسير في الصراط المستقيم الذي دعانا الله اليه في اكثر من
آية .

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ
سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ .

[سورة الأنعام : ١٥٣] .

[٣]

هل قضية العزة والكرامة من القضايا الشخصية ؟

هل العزة والذلة أمر شخصي يملك الانسان المسلم حرية

ممارسته على اساس المصالح والدوافع الذاتية ؟

الجواب عن ذلك في الوقوف مع الآية الكريمة :

وَمَا آذُرُكَ مَا سَبَّحِينَ ﴿٨﴾ [سورة المطففين : ٨] .

والانطلاق معها ، في ضوء التفسير الذي روي عن الامام جعفر

الصادق (ع) :

« ان الله فوضّ الى المؤمن اموره كلها ولم يفوضّ اليه أن يذل

نفسه ، ان المؤمن أعز من الجبل ان الجبل يستقل منه بالمعاول ،

والمؤمن لا يستقل من دينه شيء » .

فقد نفهم من وحي الآية الكريمة ان العزة من خصائص المؤمنين

بنفس القوة والاصالة التي يتصف بها الله ورسوله فكما لا يمكن تصور

الذلة في الذات الالهية أو في الرسول ، فكذلك لا يمكن تصورها

- عمليا - في المؤمنين ، لان الايمان يربط الانسان بالله ويجعل مواقفه

العملية في الحياة منطلقة من هذا الارتباط ومطبوعة بطابعه .

وقد يتضح هذا المفهوم اكثر من ذلك عندما نلاحظ الحديث

الشريف الذي حاول فيه الامام الصادق استيحاء الآية في اسلوب

تفسيري رائع .

فهو يقول لك : ربما كنت حرا في مالك تصرفه كما تريد ، ربما

كنت حراً في مطعمك ومشربك وملبسك ، ولكن مهما تقلبت الظروف وتغيرت الاحوال ، فلست حراً في اذلال نفسك او اخضاعها للاخرين لقاء مصلحة او شهوة او رغبة او رهبة ، لان عزتك ليست من القضايا الذاتية التي تملك فيها التصرف تبعاً لدوافعك الخاصة .

لماذا كل هذا ؟

قد يكون السبب انك عندما تخضع لأيّ انسان او أية سلطة ، أو ترضى بالذل والعبودية لغير الله ، فلن تكون أنت الخاسر وحدك ، ولن ينعكس ذلك على حياتك . بل سينعكس على ما تحمله من صفات الايمان ، أو تمثله من الارتباط بالله ، لأن عزة الافكار والمبادئ في المواقف الحياتية لا تنطلق من مجالاتها الفكرية فحسب ، بل تتمثل في الواقع الحياتي للأشخاص الذين يحملونها ويمثلونها في ممارستهم العملية .

وهناك جانب آخر : هو انك جزء من المجتمع الذي تعيش فيه ، وبهذا يكون موقف الاذلال الذاتي لنفسك سبباً في انطلاق الذل في حياة المجتمع كأي جزء يرتبط بالكل ارتباطاً عضوياً ، كما يرتبط به الكل في حركاته وأعماله .

وعلى ضوء هذا نفهم ان الاسلام لا يعتبر الانسان المؤمن حراً في اذلال نفسه واستعبادها اذا اراد ان يظل سائراً على خط الايمان .

اذن : فهؤلاء الذين يباركون عهد الاستعمار بشتى اشكاله والوانه ، أو يتعاطفون معه ، أو يتعاونون معه ، أو يتصرفون أي تصرف يكرّس الخضوع والعبودية والذلة ، لا يمكن ان يكونوا مؤمنين ، كما هو الايمان الاصيل ، او مسلمين كما هو الاسلام الصحيح .

وإذا لم يكن للمسلم مثل هذه الحرية ، فمن الطبيعي أن يتحمل المجتمع بأكمله ، أو بقاتته الحقيقيين مسؤولية الضرب على ايدي اولئك الذين يسيئون الى عزة الامة وكرامتها بالاساءة الى عزة انفسهم وكرامتها بأي نحو من الانحاء ، وبأي شكل من الاشكال سواء في ذلك الواقع الفردي او الاجتماعي ، على المستوى السياسي او العسكري او الاقتصادي .

[٤]

هل من مصلحة المسلم التحرك مع قوى الاعداء والتبعية لها من اجل تحصيل عزته وكرامته ؟

للجواب عن ذلك لا بد لنا من الوقوف مع الآية الكريمة :

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ يُبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا
﴿١٣٩﴾ . [سورة النساء : ١٣٨ - ١٣٩] .

فهي تمثل بعض النماذج الموجودة في كل زمان ومكان ، فمن يخيل اليهم ان الارتباط بالكافرين والسير معهم والتبعية لهم والانطلاق مع مخططاتهم سوف يمنحهم العزة والكرامة ، ولذلك فهم يربطون حياتهم بحياتهم ليحصلوا على ذلك .

ثم ، يتركون التعاطف والتعاون مع المؤمنين لانهم لا يشعرون بأن ذلك يصلح أساساً للعزة والكرامة والقرآن يشجب هؤلاء ويحاسبهم من ناحية واقعية تتصل بالايمان فهم يبتغون العزة عند هؤلاء لانهم اقوياء ، ولانهم يملكون بعض الامكانيات التي يملكها المؤمنون .

ولكن .. ألا يرى هؤلاء ان القوى الموجودة في الكون التي هي منطلق الشعور بالعزة والكرامة لمن يملكها ، هي ملك الله ، فهو الذي خلقها وسواها وأدارها ومنحها الاستمرار وهو القادر على اعطائها لمن يشاء ، ونزعها عن من يشاء حسب حكمته وقدرته ورحمته .

واذا كان الله هو الذي يملك القوة جميعا فهو يملك العزة جميعا ، وهو القادر على أن يمنحها لعباده اذا ساروا في الطريق المستقيمة التي جعلها - عبر قوانينه - للوصول الى الهدف .

فعلى المؤمن أن يطلبها من الله ، بالابتعاد عن كل تبعية لغيره وعن كل شعور بقدرة ذلك الغير على أن يقدم او يؤخر في الضرر والنفع ، لأنه اذا طلبها من غيره فسوف يعيش الشعور بالخضوع له والتبعية لمخططاته فيفقد عزته من حيث اراد تأكيدها وتحصيلها .

وهناك جانب آخر للمسألة نستوحيه من الآية ومن غيرها وهو ان هؤلاء ، الذين يختلفون مع الامة في مخططاتها وافكارها واهدافها وبالتالي في مصالحها ، لا يمكن ان ينطلقوا في خططهم في اتجاه مصالح الامة لأنهم - بذلك - يتعدون عن مصالحهم الذاتية ، ولا يمكن - بالاضافة الى ذلك - أن يعملوا على اعطاء الأمة أية قوة جديدة لانها ستتحول - بالتالي - الى خطر على مصالحهم واطماعهم بل القضية ربما تكون عكسية ، انهم سيستغلون هذه السذاجة الفكرية والعملية التي تعيشها بعض فئات الامة عندما تعتمد عليهم في عملية الحرية والكرامة فيحاولون استغلال هذه الثقة العمياء لتنفيذ مخططاتهم واستغلال هذه الجماعات لخدمة مصالحهم .. ثم .. الانقراض عليها ، بعد التخلص من العدو المشترك عندما يعودون ،هم ، بكل مظاهر القوة والسلطان ، وتعود الامة بكل مظاهر الضعف والذل ، لانها لم

تحاول تحصيل القوة الذاتية الجديدة بفعل اعتمادها على قوة الآخرين ، بل صرفت ما عندها من قوة احتياطية في صراعها مع القديم لمصلحة العدو الجديد .

وربما يشير الى هذا المعنى الذي استوحيناه من الآية بعض الآيات الكريمة كقوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُو نِجْمًا وَلَا وُدًّا
مَا عِنتَهُ قَدَبْدِكُمُ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا خَفِيَ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدَبْدِينَا
لَكُمْ الْآيَاتُ أَنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا
يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقَوْمُ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَسَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ
سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَقُولُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُخِيطٌ ﴿١٢٠﴾ . [سورة آل عمران : ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠] .

* * *

ولا نريد أن يفهم من حديثنا هذا ، اننا نعمل على أساس عدم الاستفادة من القوى الاخرى التي نختلف معها في الفكر والعقيدة والهدف ، ومعنى ذلك ، الوقوف في عزلة مميته عن القوى العالمية في مجال الصراع ، الأمر الذي يجعلنا نقف على هامش الاحداث ، ومن ثم على هامش الحياة فلا تؤثر بنا ولا تتأثر بها بل هو الجمود

المرعب . لا نريد أن يفهم هذا ، لاننا لا نعمل لذلك ، فلا يمكن لنا ان ننفصل عن العالم في مجال الحركة والتطور العلمي والاجتماعي بر كل ما نريده هو ان تعمل الامة على مواجهة واقع العزة والكرامة من خلال تجميع قواها الذاتية وتنسيقها وتصنيعها لخدمة القضية الكبرى ، هذا من ناحية عملية ، وقد ركز القرآن الكريم على هذا الجانب في اكثر من آية كآية الكريمة :

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

[سورة الانفال : ٦٠] .

التي توحى لنا بضرورة العمل على مواجهة العدو بالقوة الذاتية التي تحمي من جهة وترهب من جهة اخرى لتعطي الانطباع عن شخصية الامة وقوتها وعزتها الاصيله .

أما من ناحية ثانية ، وهي ناحية الايمان ، فبالاعتماد على الله الذي يعطينا القوة الروحية التي تجعلنا نواجه كل القوى دون ان يدب الينا الوهن أو يسيطر علينا الرعب .

فاذا تم لنا ذلك واحتاجت الامة إلى التعاون مع الاخرين كان التعاون من موقع القوة لا من موقع الضعف ، ومن موقف العزة لا من موقف الذلة ، لثلا يتحول التعاون الى عملية إعطاء صفة قانونية ساذجة لاستغلال القوي للضعيف كما هي الحال في المعاهدات والاحلاف التي تعقد بين الدول الكبرى والدول الصغيرة .

ان الفكرة هي كما يلي : ان تكون عزتك من خلال شعورك بقوتك المستندة الى قوة الله والمستمدة منها لتكون عزتك - من خلال

ذلك - مرتبطة بعزة الله ، لا أن تكون مستندة الى قوة الآخرين فتكرس
بذلك عبوديتك للآخرين .

[٥]

هل يمكن للضعف ان يكون مبررا للخضوع لهذه القوة أو
لتلك ؟

للجواب عن هذا السؤال نقف مع الآية الكريمة :

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجِرُوا
فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ
سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَفْضَحَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا
غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَجِدٍ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا
كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْنِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ
يُذِرْكَهُ الْمَوْتَ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

[سورة النساء : ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠] .

ان هذه الآيات الكريمة تتعرض لبعض النماذج الموجودة في كل
زمان ومكان ، وهم أولئك الذين يعيشون تحت نير الظلم وسلطة

الانحراف فيظلمون انفسهم باتباعهم الظالمين ، وينحرفون عن الخط بخضوعهم لسلطة الانحراف ، ويعيشون الذلة لشعورهم بالضعف .

وكانوا يظنون لانفسهم العذر في ذلك كله ، فهم مستضعفون لا يملكون القوة على المقاومة ، ولا يستطيعون مجابهة التحديات الموجهة اليهم ، ولا يجدون في انفسهم القدرة العملية على أن يرفعوا أصواتهم في مواجهة الظالم ليردعوه عن ظلمه او ليحتجوا على الظلم أو ليقولوا كلمة الاستقامة في مواجهة الانحراف ليصححوا الانحراف وليقوموا الاعوجاج ، ولهذا ساروا مع الظلم ينفذون مخططاته ويتبعون اساليبه ويعملون في خدمة أهدافه وعادوا قوةً مناصرة للظلم وهم يكرهونه ككل القوى التي لا تملك أن تريد او لا تريد وارتاحوا الى حياة الذل مع الظلم لأنها تجنبهم مشاكل الصراع والمقاومة ، وشعروا براحة الضمير في ذلك كله نظرا الى واقع الضعف .

فجاءت هذه الآية لتشجب هذا الواقع ، ولتحملهم المسؤولية في ذلك كله ، ولتقول للانسان الذي يستشعر الضعف امام قوة الظلم في الارض :

ان عليك ان لا ترضى بالامر الواقع ما دمت تستطيع الهجرة من بلد الظلم الى ارض جديدة لتتخذ موقفا جديدا من موقع قوة جديد .

وبهذا صنف هؤلاء الى قسمين :

القسم الاول : القادرون على الهجرة الى مواقع جديدة ، وقد قالت الآية لهؤلاء ان الارض ليست محصورة في النطاق الذي تعيشون فيه لتفقدوا الأمل في القدرة على المقاومة ، فهي واسعة يمكن الانسان ان ينطلق فيها من موقع الى موقع ومن مكان الى مكان فاذا ضاق

عليك بلد ، فهناك بلد آخر يتسع لك ، واذا فقدت القدرة على الحركة في مكان ، فهناك اكثر من مكان تستطيع ان تتحرك فيه ، واذن فان بإمكانكم الانطلاق من البلد الذي تشعرون فيه بالضعف مام قوة الظلم .. الى بلد تستجمعون فيه القوة لمواجهة الظلم .. ثم القضاء عليه . من هناك .

ثم ركزت على أن من يهاجر في الارض يجد في الارض مراغما كثيرة واسعة وأهابت بأن من يهاجر في سبيل الله ثم لا يبلغ هدفه فيما أراد فهو مجاهد في سبيل الله واجره على الله .

القسم الثاني : المستضعفون غير القادرين على الهجرة والانتقال ، هؤلاء الذين لا يملكون أية حيلة يتخلصون بها من المأزق الذي وقعوا فيه ، ولا يجدون أي سبيل ينطلقون معه بعيدا عن هذا الواقع .. فقد قالت الآية عن هؤلاء : ﴿ عسى الله ان يتوب عليهم ﴾ ولعل التعبير بـ « عسى » ينطلق من لفتة تحاول أن توحى لهم ببعض المسؤولية لتثير فيهم الشعور بالقوة من جديد .

* * *

[٦]

ما هو طريق الذل في الإسلام ؟

في أكثر من حديث نلاحظ تركيز الاسلام على اعتبار القاعدة النفسية أساسا للحكم على شخصية الانسان بالذلة أو العزة ، فلكي يكون الانسان عزيزا في نفسه ، لا بد له من ان يملك حرية التصرف امام رغباته وشهوته ، فلا تستعبده رغبة ولا تسيطر عليه شهوة لان ذلك هو السبيل الوحيد الذي يجنبه الانزلاق في مزالق الانحراف امام عوامل

الاعراء التي تدعوه لان يعطي من نفسه ومن مواقفه في الحياة الكثير
للآخرين ، على حساب عقيدته ووطنه من أجل ان يحقق رغبة أو
يستسلم لشهوة .

وقد نجد ملامح ذلك في حديث الامام الباقر (ع) .

بش العبد عبد له طمع يقوده ، وبش العبد عبد له رغبة تذله .

وحديث الامام جعفر الصادق (ع) .

ما أقبح المؤمن ان تكون له رغبة تذله .

ففي هاتين الكلمتين نلمح الفكرة التي قدمناها ، فالانسان الذي
تتحكم فيه رغباته يفقد السيطرة على نفسه ، وبالتالي يفقد القدرة على
التحكم في تصرفاته لأنه يكون مسوقاً في ذلك كله بوحى الرغبة التي
لا تخضع للعقيدة ولا تسير على خطى الحق .

وعلى أساس ذلك يستطيع الآخرون من الكافرين والمنحرفين
والطامعين ان يسيطروا عليه ، ويتحكموا فيه ، ليستغلوه ويستثمروه من
خلال اشباع رغباته وارواء شهواته وقد عشنا واقع هذه الفكرة في
الاساليب التي يتبعها الاستعمار في السيطرة على الشعوب المتخلفة من
خلال تحقيق الرغبات الشخصية لقادة هذه الشعوب من ملوك ورؤساء
وغيرهم .

فقد تتحكم في بعضهم رغبة الجنس حتى لا يملك لنفسه أي
زمام أمام سعارها فيحاول المستعمرون ان يحققوا له ذلك بأكثر مما يبلغه
خياله او تتطلبه رغبته فيتحول الى عبد ذليل لهم يحقق لهم من خلال
النساء اللاتي يرسلونهن اليه كل ما يريدونه من سيطرة على الحكم او
الاقتصاد او الثقافة وغير ذلك .

وقد تتحكم في البعض الآخر رغبة المال او رغبة الملك ، فيغدقون على الاول ما يشاء من اموال ، وعلى الثاني ما يريد من ملك ، فيجعلون البلد الواحد دولا عديدة ليحققوا لهذا رغبة الملك ولذلك رغبة الرئاسة ، ويحصلون من خلال ذلك على كل ما يريدون ، ما دام هذا الانسان او ذاك لا يستطيع أن يملك الخيار امام رغبته وما دامت الرغبة ملك ايديهم وطوع امرهم .

وقد شاهدت احداث الحرب العالمية الاولى والثانية كيف لعبت رغبة الجنس وغيرها دورا كبيرا في اذلال الكثيرين من القادة أمام النساء اللاتي كن صنيعة هذا المعسكر او ذاك من اجل التعرف على الاسرار العسكرية وغيرها ، ولا تزال قصص استخدام النساء الفاتنات في قضايا التجسس تلعب دورها الكبير في عالمنا المعاصر .

ولهذا كله يعتبر الاسلام ان السيطرة على الرغبة والتحكم في الشهوة هي الاساس للعزة الانسانية التي لا تتنازل ولا تعطي من نفسها أي شيء مهما كانت الظروف ومهما كانت الضغوط ، ومهما كانت درجة الحرمان وقسوة العذاب .

وهذا ما تعبر عنه - اصدق تعبير - كلمة الامام الحسين (ع) .

ألا وان الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة ، وهيهات منا الذلة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت ونفوس طهرت من ان نؤثر طاعة اللثام على مصارع الكرام .
وقوله الآخر :

لا والله لا اعطيكم بيدي اعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد .

وكلمة الامام الصادق (ع) :

ان المؤمن أعز من الجبل . ان الجبل يستقل منه بالمعاول
والمؤمن لا يستقل من دينه شيء .

ومن البديهي ان هذه المواقف لا يمكن ان تتحقق اذا كان
الانسان ينهار امام رغبة الحياة او ضغط الشهوات .

ولعل الفكرة تبلغ الذروة في الكلمة التي قالها الامام علي (ع)
في وصيته لولده الامام الحسن (ع) :

أكرم نفسك عن كل ذنبة وان ساقتك الى الرغائب فانك لن تعاض
بما تبذله من نفسك عوضا .

فكل موقف منحرف دنيء تقفه ضد مبادئك من اجل أن تحقق
رغباتك يقابله جزء من نفسك ومن كرامتك ، فأنت لن تحصل على
رغباتك مجانا فأنت تعطي العوض من نفسك .

ويريد الامام ان يوحي للانسان ان أي رغبة لا يمكن أن ترقى
الى ما تبذله من ذاتك وما تعطيه من نفسك ، مهما كانت قيمتها .

* * *

واذا استطاع الانسان أن يمسك زمام نفسه فيخضع كل تصرفاته
ورغباته لمبادئه وعقيدته ، أمكنه ان يخطو الخطوة الاولى في الاتجاه
السليم لحركة العزة والكرامة في الحياة ، فلا يقف في المواقف التي
تجعله يشعر بالحاجة الى الخضوع للآخرين أو الانسحاق امام رغباتهم
او شخصياتهم .

وقد نجد التعبير الواقعي عن ذلك في كلمتين للامام الصادق (ع)
اجاب بها عن سؤال واحد : كيف يذل الانسان نفسه .

قال : ان يدخل فيما يعتذر منه ، أو يتعرض لما لا يطيق .

أما الكلمة الاولى - فتمثل الموقف الذي يستسلم فيه الانسان لبعض الرغبات الذاتية فيتصرف بعض التصرفات غير المسئولة فيؤيد من لا يستحق التأييد او يرفض من لا يستحق الرفض ، او يتحرك في بعض الاتجاهات الخاطئة او المنحرفة او يقف موقفا سلبيا في بعض الحالات التي تفرض عليه مبادؤه ان يتخذ الموقف الايجابي ، أو يتكلم بعض الكلمات التي لا يؤمن بها او لا ينبغي له ان يتكلم بها لانها تختلف مع عقيدته او مع تهذيبه أو مع خط العدل والحق الذي يؤمن به ، او يقوم بأي مشروع لا ينسجم مع المصلحة العامة ، كل ذلك لقاء رغبة مستحكمة او نزوة عابرة ، او شهوة عارمة .

ثم ينطلق من جديد ليقف موقف المعتذر للآخرين ليخلق الاعذار من جهة او ليطلب تقدير ظروفه من جهة اخرى ليرضى عنه هذا ، ولثلا يغضب عليه ذاك ، الأمر الذي يجعله يشعر بانسحاق شخصيته عندما يضطر الى أن يقف موقف المعتذر امام الانسان الذي يؤنبه او يحاسبه .

ان الفكرة التي عالجها الامام الصادق تقول لك :

قبل ان تتخذ أي موقف في الحياة فكّر جيداً هل باستطاعتك تحمل مسئوليته ، وهل في قدرتك الدفاع عنه أو لا ، فاذا لم تجد في نفسك ذلك فوفر على نفسك مسئولية الاعتذار والوقوف امام الآخرين موقف الخضوع من اجل ان يعطوك العذر على ما قمت به كرماً وحناناً .

ان الانسان القوي العزيز في الاسلام هو الذي يعمل بما يؤمن به

ويتحمل مسئولية الدفاع عن موقفه حتى لو كان العالم كله ضده ، لانه يشعر - مقدما - انه موقف الحق .

* * *

أما الكلمة الثانية التي تحدد للانسان بعض مظاهر الذل في السلوك : ان يتعرض لما لا يطيق .

فتتمثل في الاعمال والمشاريع التي يقدم عليها الانسان وهو يعرف انها فوق طاقته ولذلك فهو يضطر معها - في نهاية المطاف - الى الاستعانة بالآخرين والخضوع لشروطهم وطلباتهم من اجل إكمال المشروع وتخفيف أعبائه ، وهذا سلوك يعرض الانسان لمواقف الذل أمام الآخرين . وربما نجد نماذج هذا السلوك في الواقع الفردي والاجتماعي .

ففي المجال الفردي ، نجد امامنا هؤلاء الذين يدخلون في مشاريع عمرانية وصناعية تفوق رصيدهم المالي والمعنوي فيسقطون بالآخرة تحت رحمة المرابين والمستغلين نتيجة عجز المشروع وحاجته الى مال جديد لا يملكه صاحبه .

وربما يكون من هؤلاء الذين يغريهم الشراء بالتقسيط لسهولته في بداية الامر مما يجعل الانسان يشعر انه قادر على توفير حاجاته المنزلية والكمالية بأسهل طريق ، دون أن يحسب حساب المستقبل عندما تبدأ مواعيد دفع الاقساط وهنا تتجمع الاقساط من هنا وهناك دون ان يستطيع سبيلا الى الوفاء فيضطر الى بذل ماء وجهه للمرابين ليفرضوا عليه الفوائد التي يريدونها وهكذا يتحول الى انسان يشتغل لهؤلاء المرابين ولمصلحتهم دون ان يملك القدرة على الوفاء بفوائد المال

فضلا عن اصله ، وقد يلجأ - بفعل ضغط هذا الواقع الى الرشوة والسرقة والخيانة والتجسس .

فمن الذي أوقعه في ذلك كله ؟

انه هو الذي أوقع نفسه في الذل وظلم نفسه عندما لم يدرس ميزانيته ومقدار طاقته على الوفاء ، فلم يصبر على رغبات نفسه ليفكر في تطبيق نظام المراحل على حاجته ليستطيع تحقيقها بعزة وكرامة .

وفي المجال الاجتماعي والدولي نجد أماننا الدول الصغيرة التي ترهق نفسها بالديون الكبيرة من الدول الكبيرة لتحقيق بعض المشاريع الحيوية دفعة واحدة ، دون ان تدرس الموارد الطبيعية وغيرها ومدى امكانياتها التي تمكنها من الوفاء في المواعيد المحددة فتكون النتيجة أن تضطر الى الخضوع لسيطرة هذه الدول تدريجيا عندما تحاول - تلك الدول - أن تضع ايديها على مصادر الثروة لتضمن لنفسها حماية ديونها وبالتالي تضع يدها على نفس البلاد لتحقيق لنفسها السيطرة على تلك المصادر فتسقط البلاد ضحية الاحابيل الاستعمارية - عبر الديون غير المدروسة التي عرضت البلاد نفسها - معها - لما لا تطيق .

ولا يزال تاريخ الاستعمار القديم والحديث يقدم لنا القصص الكثيرة عن البلاد التي سقطت تحت نير الاستعمار بحجة الديون الاستعمارية التي حاول الاستعمار ان يجعلها طريقا الى السيطرة على تلك البلاد . . ، وربما نجد هذا المبدأ يتمثل في الواقع العسكري للشعوب التي قد تدخل في مغامرات عسكرية يغذيها الحماس والانفعال الساذج دون حساب لما تملك من قوة ، وما يملك العدو من معدات ، وربما تكون قوة العدو اضعاف ما لديها من قوة ، وربما تكون الخطط التي أعدها للمعركة أكثر دقة من خططها .

فتكون النتيجة الهزيمة العسكرية والوقوع تحت سيطرة العدو السياسية او العسكرية .

وهكذا نفهم هذه القضية على جميع المستويات على النحو التالي :

ان على الإنسان الذي يريد ان ينطلق في أية قضية ، أن يجمع قواه ويفكر فيها تفكيراً واسعاً دقيقاً حتى يدخل فيها دخول الواطن الذي يعرف ما له وما عليه حتى لا يضطر للانسحاق أمام مفاجآت المواقف غير المدروسة .

ولن نحصل على ذلك حتى نفحص قوانا في كل شيء ونقدر حركاتنا وأعمالنا على أساس ما نملك من قوة ذاتية ، مادية أو معنوية ، سواء منها القدرة الفعلية ، أو الاحتياطية أو المستقبلية .

وأحسب أننا لو اتبعنا هذا الأسلوب - على مستوى الفرد والمجتمع - وتحركنا على أساس ما عندنا من قوى دون الانحراف مع الأساليب العاطفية ، لاستطعنا أن نوفر على أنفسنا خسائر كبيرة وهزائم كثيرة .

وربما كان الكثير من هزائمنا في التاريخ القريب ، منطلقاً من عدم حسابنا للقوى التي يملكها العدو ، بالإضافة الى القوى التي نملكها .

وقد يكون من الامثلة على ذلك - على مستوى الامة العربية في معركتها مع الصهيونية - الفكرة التي كان يخيل لنا فيها اننا نملك قوة مائة مليون عربي لاننا نملك هذا العدد من النفوس ، وربما كانت درجة الحماس كبيرة أمام عظمة هذا الرقم الذي يثير الكبرياء في النفوس امام حالات الاندفاع .

ولكن - وبحساب بسيط - ادركنا ان القوة التي نملكها للمعركة قليلة جدا ، لان دور الاكثرية الساحقة من هؤلاء ، هو دور المتفرجين الذين يتابعون الاخبار والتعليقات في الصحف وفي المذياع والتلفزيون دون أن يشعروا بمسؤوليتهم في المشاركة العملية بأقل قدر ممكن من الطاقات التي يملكونها لفقدان الاعداد السياسي والعسكري لهم من قبل المشرفين على القضية ليعيشوا المعركة بما عندهم من قوى وما يملكون من طاقات .

وكلنا يعلم - ماذا كلفنا هذا الواقع من أخطاء في الحساب ومن كوارث في المعارك، على مستوى الضحايا وعلى مستوى العزة والكرامة .

وبكلمة واحدة : ان قضية العزة والكرامة لا تخضع في حركتها الواقعية للتشنجات والانفعالات التي يثيرها الحماس والاندياع وانما تخضع للتخطيط الواعي الذي يحسب لكل خطوة حسابها الدقيق لكل الظروف والاحتمالات القريبة والبعيدة ، لنخرج بنتيجة حاسمة تحدد لنا موقع الحركة وتوقيتها على أساس ما نملك من قوة ، حتى اذا تحركنا ، كانت حركتنا حركة القوة الواعية التي تعرف ماذا تواجه وماذا تريد وبالتالي كان الموقف الطبيعي انسجاما مع ما نطبق لا تعرضاً لما لا نطبق .

وينبغي ان لا يخطر في البال : اننا ندعو الى الاستسلام والضعف عندما تكون القوى التي نقابلها أعظم منا في العدة وفي العدد ، بحجة ان التحرك يمثل تعرضاً لما لا نطبق .

اننا لا نحاول هذه المحاولة لاننا في سبيل التخلص من واقع الذل الذي يفرضه التعرض لما لا نطبق ، فكيف يمكن ان نشجع

الاستسلام للذل امام ما لا نطيق ؟

ولكن نقول : انك عندما تدرس قوة خصمك بالاضافة الى قوتك - ستحاول ان تفكر في مواقع جديدة للقوة ، وتحرك جديد للموقف ، وبالتالي ستنتقل نحو الهدف في حركة مرنة تحسب للعمل حساب وتحرك جديد للموقف ، وبالتالي ستنتقل نحو الهدف في حركة مرنة تحسب للعمل حساب الزمان والمكان ، ولو بعد حين ، دون أن تخوض معركة انتحارية لا تحل المشكلة بل تعقدها من جديد على حساب العزة والكرامة .

وخلاصة القول : ان قضية الذل والعز في الحياة هي قضية السلوك العملي الواعي للانسان الذي يشعر انه يملك زمام نفسه ، فلا تدعوه رغبته الى ان يدخل فيما يتعذر منه ، او تدفعه انفعالاته وشهوته الى ان يتعرض لما لا يطيق .

انها الخطوط العريضة للحياة العزيزة الكريمة ، يرسمها لنا الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة الصحيحة لنبداً من جديد رحلة التفاصيل الدقيقة للحياة ولنعرف كيف نضع النقاط على الحروف .

لكل سؤال جواب

- قضايا العدوان
- الهزيمة النفسية .
- مقومات الصمود .
- هدف الندوات .
- التلفزيون هل هو حرام .
- الحروف المقطعة في القرآن .. الخ .

س ١ - اننا نواجه العدوان الاسرائيلي الذي لا يفرق بين المدني وغيره ، ونحن نقف موقف المتفرج المنسحق امام الضربات المتوالية ، فهل يوافقنا الإسلام على هذا الموقف ؟

ج - من وجهة نظر مبدئية عامة ، يجب ان لا نقف موقف المتفرج او المنسحق امام هذا الواقع ، ولكن علينا أن نفكر في الطريق الى التحرك .

يعني القضية ليست قضية ما هو المبدأ في هذا الموقف فليس هناك شك في أن هذا الواقع ليس واقع العزة والكرامة .

ولكن القضية هي قضية ماذا نستطيع أن نعمل في هذا الاتجاه على أساس ما نملك من قوى على الصعيد المحلي وفي هذا الوقت بالذات .

ان الانفعال قد يدفعك الى التفكير بالثورة على واقعك ، ولكنه - وحده - لا يقدم لك أي نتيجة في طريق الحل .

فربما يشعر الانسان - في بعض الحالات النفسية - أمام بعض المواقف ، بالحاجة الى ان يدمر نفسه وما حوله وقد يكون في هذا السلوك

ما يفجر الغيظ ، وينفس عن الكبت المتحفظ للانفجار ، ولكنه لن يحل المشكلة .

ان الذي أحسبه هو ان الانسان العربي العادي وصل الى المرحلة التي حاولت ان تخطط لها السياسة الصهيونية ومن ورائها السياسة العالمية المتحالفة معها ضد قضية العزة والكرامة في حياتنا وهي مرحلة الضياع ، التي تضيع فيها الخطوط في الرمال المتحركة على اكثر من اتجاه ، وقد شاركت الأوضاع السياسية القلقة التي تقود عالمنا العربي في الوصول السريع الى هذه المعركة ، فقد لعبت المزايدات دوراً كبيراً في ابتعاد الانسان عن واقع القضية ، كما حاولت الاساليب الملتوية ان تخفي عنا الكثير مما يخطط لنا ويراد بنا في أروقة المحافل الدولية ، مما ساعد على أن تبقى الصورة مهتزة في عيوننا بين حالة الاقدام والاحجام وبين نوازع التفاؤل والتشاؤم . فإذا اصفنا الى ذلك الاساليب التربوية والتوجيهية التي تعتمد الحماس والانفعال في اثاره المشاعر وفي ربط الناس بالقضية على اساس سياسة النفس القصير التي تعدهم بالمعركة الفاصلة بعد مدة قريبة لتوحي لهم بأن المشكلة ستصل الى نهايتها الحاسمة في وقت قريب الامر الذي لا يجعل الانسان مستعداً لمجابهة الحرمان على المدى الطويل ليخطط لحياته على هذا الاساس ثم . . هناك الاساليب التي تدعم هذا الاتجاه ، المنطلقة في ربط الاخطار العدوانية . بأوضاع محلية خاصة لأبعادنا عن مؤامرة التخطيط العدواني الطويل الأجل للسيطرة على بلادنا وثرواتنا وبالتالي لأخراجنا من اوطاننا تحت شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» .

وقد نجحت الى حد بعيد في إثارة المشاكل الداخلية . وتضخيم الاخطاء الصغيرة وتوجيه الانظار الى فروع المشكلة لتحويلها عن جذورها

الاصيلة العميقة التي هي بكلمة واحدة العدوان الصهيوني على فلسطين .

وربما كان للسياسات المخدرة التي تتبعها كثير من انظمة الحكم لدينا الأثر الكبير في ابعادنا عن الاساس الصحيح للمشكلة وافقادنا الامل في امكانية الوصول الى حل لأبعادنا عن العمل من أجل تحقيقه في المستقبل اما نحن هنا في جنوب لبنان ، فقد نكون أقرب الى الصورة الواضحة لهذا المخطط المتعدد المراحل ، فنحن هنا نشعر امام الواقع المنسحق اقتصادياً واجتماعياً ، من خلال التخلف الذي تركه لنا التاريخ الطويل من الظلم والاضطهاد والافقار والتجويع والجهل ، وحاولت السلطات ان تكرسه بطريقة وبأخرى على يد الفئات المتزعمة التي تقود خطى هذا الشعب الى أمجادها التاريخية والحاضرة والمستقبلية . إننا نشعر - بأننا نعيش في أرض مكشوفة ، لا ابواب لها ولا سقوف نتيجة فقدان الحماية الجادة التي تختلف مبرراتها- حسب اختلاف تصريحات المسؤولين- بين عدم القدرة تارة ، وبين تحميلنا المسؤولية على افساح المجال لأسباب الخطر أخرى .

فإذا اضفنا الى ذلك السياسة الاعلامية المحلية والدولية التي تثير من جديد في افكارنا - ان نسينا- واقع الهزيمة امام رياح السياسة العالمية ، التي تحتضن فيها الولايات المتحدة وأكثر دول الغرب ، اسرائيل - بكل ضراوة حتى لتكاد توحي لنا باستعدادها للدخول في حرب عالمية ثالثة لحساب اسرائيل . كنتيجة حتمية لارتباطها العضوي بها تبعاً لارتباط مصالحها الاستعمارية ، الاستراتيجية منها والاقتصادية ، بوجود اسرائيل ومخططها الجهنمي ، بينما لا نجد المعسكر الذي ترتبط به ، ويحتضن القضية بهذا المستوى لا سيما في ظل سياسة التعايش والتفاهم السلمي التي انطلقت خيراً في حركة الدول الكبرى نحو اللقاء .

وربما تكمل الصورة اذا أضفنا إليها زاوية الخلافات العربية التي لا تهدأ الا لثور ، ولا تضعف الا لتقوى من جديد سواء على مستوى اليمين واليسار ، أو اليمين في داخله ، أو اليسار في داخله ، وبذلك اختلطت الأوراق حتى لم تعد تعرف المخلص للقضية- من الخائن لها ، ومن الطبيعي ان ذلك لن يتعد عن أصابع الأستعمار والصهيونية التي تتحرك في كل مكان ، ولكنه على كل حال - يكمل صورة الضياع في نفس المواطن العادي البسيط .

ان العدو بدأ يخطط للهزيمة النفسية للحصول على مكاسب الهزيمة العسكرية ، وما زالت الخطط تنفذ على مراحل ، يصنع هو بعضها ليدفع الخططة الى مرحلة جديدة ربما نقوم نحن الآن بصنعها على جميع المستويات من أجل ان يتقدم الى مواقع جديدة ومراحل متقدمة تقربه من الهدف .

اننا ننهزم الآن فكراً ، فقد نجد انفسنا نملك الكثير من السلاح والقوة . ولكن فكرنا بدأ يفقد القدرة على التركيز نظراً للشلل الفكري الذي انطلق يتحدى وجوده .

كل هذا الواقع جعلنا نشعر بالضياع ، ونحس بأن ارتباطنا بأية فئة من الفئات المطروحة في الساحة لا يحقق لنا أي شيء .

ولذا فمن الصعب في مستوى الواقع المحلي ، وفي هذا الوقت بالذات الذي يحاول العدو أن ينشر الخراب والرعب والدمار والموت في كل مكان بأية ذريعة تحلوه .

من الصعب ان يعيش الانسان عندنا الشعور بالعزة والكرامة ، ما دام لا يملك الحماية على مستوى الداخل ولا يملك القوة على مستوى الخارج ، ولا يملك النافذة الكبيرة التي يطل منها على الامل الكبير في

المستقبل المنظور .

ومن الصعب جداً ، في مستوى هذه المرحلة من وجوده ، أن نطالبه بالصمود والتضامن مع أية قوة أخرى ما لم نهيء له الظروف الموضوعية ، النفسية والفكرية والعملية ، التي تساعد على ان يخطو أول خطوة في طريق التماسك والصمود .. والنصر .

تلك هي الصورة فيما أظن فماذا عن الموقف ؟

أحسب اننا نستطيع أن نلخص القضية في كلمات بسيطة .

أن نبدل نظرنا الى خطط العدو ، فنتجاوز النظرة الساذجة الى النظرة العميقة التي تحاول كشف مخططات المستقبل من خلال تجاربه في الماضي والحاضر . ثم . . نخطط لحياتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية على هذا الاساس ، لنخرج بنتيجة واحدة ، هي ان الشعوب التي تنتظر أن تأتيها الحلول من خلال الأوضاع السياسية في العالم ، او يحل لها الآخرون مشاكلها . سوف تظل دائماً تقتات من دموع المشاكل واحزانها دون جدوى ودون نهاية .

وأن الأمم التي لا تنظر بعيداً في الافق البعيد سوف تواجهها الهوة وهي تحلم بالقمة في دروب المستقبل .

لقد خطط العدو لأحلامه فاستطاع ان يحولها الى واقع يهدد أحلام العالم في الحياة الهادئة المطمئنة ، فلماذا لا نخطط لواقعنا هذا المرتبك المضطرب من أجل أن نتجاوز احلاف اليقظة الى خطوات الواقع .

أما كيف نضع النقاط على الحروف فهذا حديث لا ينطلق في دروب الكلمات وإنما يتجه في دروب الواقع . . وحتى نصل الى بداية الطريق ، يجب أن نتمتع في دراسة هذا الواقع ، وننطلق في الاستفادة

من بعض اللحاحات المضيفة التي تبعث على التفاؤل ، لناخذ منها زاد الأمل للمستقبل . . وبالتالي لنبقى في تماسك داخلي متين .

س ٢ - انهم يطالبوننا بالصمود ، هنا ، في الجنوب ، واشغالنا معطلة .

ج - ربما يشعر الانسان - في بعض اللحظات - ببعض الكلمات التي يطلقها الوعاظ والمسؤولون ، ككلمة الصمود مثلاً - في حالة الانسحاق الداخلي للشعب - بأنها لا تمثل شيئاً حتى في أفكار قائلها ، بل هي مجرد كلمات جوفاء لا معنى لها ، ميتة لا روح فيها .

ان الصمود يحتاج الى مقومات ، ومن مقوماته اعداد الارض التي يصمد فيها الانسان ، لكي توفر له الحياة الكريمة ، ويشعر بأنها تمثل له الشيء الكثير في وجوده وفي كيانه الامر الذي يدفعه الى التعلق بها بإصرار بعيداً عن قصائد الشعراء وأحاديث الأدباء حول الوطن .

ومن أبسط وسائل الاعداد ، ايجاد المشاريع الزراعية والصناعية التي يشعر معها بالطمأنينة والاكتفاء الذاتي بعيداً عن هواجس الهجرة ومشاكلها .

ولكن قد يبدو لنا ان السياسة المتبعة في الجنوب سياسة مرسومة تستهدف ابقاء الجنوب متخلفاً لتبقى مبرراً للعدو في احتلاله . أمام العالم ، وربما تعيش مشكلة « مشروع الليطاني » في هذا الاطار ، وإلا فكيف نفسر هذه الحركة السلحفائية لهذا المشروع في دوائر الدولة وفي خطوات الدراسات التي تنتقل من خبير الى خبير دون جدوى ، وفي مسرحية السياسة التي تدور في تقدير المستوى بين ٦٠٠ و ٨٠٠ متر ألبا تبرز لنا اساليب التخدير والالهاء في ذلك كله ، التي ان ابعدتنا عن

الواقع فقد قربتنا من الاحلام . ربما يبدو لنا ان القضية قضية خطة مرسومة لابقاء الجنوب في تخلف .

اما دورنا فهو ان نتحدى هذه الخطة ونكشفها من أجل الغاء مخططاتها وألاعيبها ، وننطلق بعيداً من جو البساطة والسذاجة والتزلف الذي يجعلنا نحقق لهم اهدافهم بأبخس الأثمان وأيسر الوسائل .
س ٣ - متى يشعر الانسان انه انهزم نفسياً ؟

ج - عندما يفقد الأمل ، ومن هنا يبرز عنصر الايمان بالله كعامل حيوي في غرس الأمل في القلوب وهذا ما تمثله الآية الكريمة في جواب يعقوب مع اولاده ، وهو يستعيد الأمل في رجوع يوسف - بعد عشرين سنة من غيابه في ظروف وامارات تتجمع لتلغي كل بارقة أمل عادية .

« يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » ان مشكلتنا هي مشكلة النفس القصير التي تجعلنا نياس عندما نلتفت الى حدود الزمان والمكان وكأنها نختق كل بارقة للأمل .

وسوف تختلف القضية اذا عشنا النفس الطويل الذي يعتبر ان منطلق قضيته الحياة في امتدادها ، وان الأمل لا يمثل سذاجة في الفكر ما دامت الفرص كثيرة امام المستقبل ، ورجعنا الى تاريخ الأمم التي انهزمت وخسرت ثم انتصرت وعوضت خسارتها ، الأمر الذي يجعلنا نفكر ان الهزائم والخسائر ليست ابدية في حياة الامم ، وان العمل على مستوى التخطيط لمراحل العمل يحقق اكبر النتائج .

س ٤ - يقولون « مسافة ميل تبدأ بخطوة ، فما الخطوة الأولى التي يجب ان نخطوها في طريق الحل » ؟

ج - ان نفهم ما نريد ، ان نعرف هدفنا ونفكر بشيء من العمق

والجدية ، ثم ندرس قوانا ونؤمن بقضيتنا وننطلق على ضوءها في سلوكنا العملي .

ان علينا - قبل كل شيء - ان نُقنع أنفسنا بقضيتنا ، فنلتفت الى اعماقنا ونشعر أنها تعيش في الأعماق تماماً كما حدثنا القرآن الكريم عن الرسول الأعظم محمد (ص) :

وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ . [سورة الزمر : ٣٣] .

علينا ان لا ننطلق بفعل الحمى التي نعيش فيها ، فإذا عدنا الى أنفسنا وجدناها فارغة من القضية وليست هناك إلا بقايا الحماس والأنفعال .

وقد نجد المثل على ذلك في حالات الأزمات السياسية المحلية كالانتخابات النيابية الأخيرة فإذا لاحظنا القضايا التي طرحت ، والأساليب التي أتبع ، نجد أنها كانت تتجه بعيداً عن قضايانا المصيرية ومع ذلك فقد اندفعنا إليه بكل ما عندنا من قوة وعصبية وحماس وتركنا كل شيء خلفنا حتى كأننا لا نواجه مشكلة المصير .

هذا ليس عمل انسان يؤمنون بقضيتهم ، اننا لا نريد توزيع الاخطاء والمسؤوليات على الآخرين ، ولكننا في سبيل دراسة واقع ، انت عندما يؤلمك جرحك تنسى الأكل ، أليس من المفارقات المبكية المضحكة ان تتألم وتعيش الانسحاق بكل معنى الكلمة « ومع ذلك فأنت مستعد لأن يلهيك أي انسان بأي شخص ، أو بأي أسلوب » .

حتى الآن . . . كل ما حولنا من تصرفات وأساليب يجعلنا نشعر اننا لم نصل إلى مستوى الاحساس - بعد - بقضيتنا فطبيعة الاجواء التي حولنا ، أساليب التلقين ، والانتساب الى هذا الاتجاه أو ذاك ، والسير

مع هذا الشعار أو ذاك ، كلها عمليات تواجهنا من الخارج ، اما الداخل فلا يوجد فيه الا الاصداء وبقايا الانفعال ، عندما ننطلق من الداخل يجب أن يكون لدينا قاعدة ذاتية من إيمان وأخلاق . . . انهم يقولون الأخلاقيات لا مجال لها الآن ! ، اننا نعيش الواقع بكل ضراوته ، قد يكون هذا صحيحاً من بعض الجوانب . ان لديك واقعك الذي يجب ان تهتم له ، ولكن . . من أين يبدأ هذا الواقع ؟ وكيف يتحرك ؟ . . انه يبدأ من الانسان فهو الذي يطلق الكلمة ، وهو الذي يحل المشكلة ، وهو الذي يمسك المدفع ويقود الطائرة ، قل لي بربك ، كيف يمكن لهذا الانسان أن ينطلق بعيداً في قضية المصير اذا لم يعيش القضية بإيمان عميق وأخلاقية قوية لا تنهار أمام عوامل الاغراء .

اعطنا ايماناً وأخلاقاً تجد البداية الاولى لولادة القيادة التي تنطلق في إتجاه النصر .

س ٥ - كيف تحل مشكلتنا هذه كجنوبيين ؟

ج - لن تحل المشكلة إلا متى حلت المشكلة الكبرى ككل ، ان قضية الجنوب اصبحت جزءاً من القضية الفلسطينية وكل ما يقوله السياسيون ، أو يريده البعض من أن خروج الفدائيين من المنطقة سيحل المشكلة ، كلام في كلام ، وأقوال عابرة ، وتخدير مرحلي ، فهو قد يفقد العدو بعض مبرراته أمام العالم ، ولكن تجربتنا مع الصهيونية ، علمتنا أنه لا يعدم مبررات جديدة معقولة أو غير معقولة كلما احتاج إلى واحدة منها . ان الجنوب هو حلم اسرائيل منذ عشرات السنين ، وما زالت تسير نحو تحقيق هذا الحلم على مراحل

تحطم فيها القوى تدريجياً لتسيطر بعد ذلك دون أية مقاومة وبكل سهولة .

س ٦ - هل تؤمن ان مخطط اسرائيل هو « من الفرات الى النيل » ؟

ج - هذا هو مخطط اسرائيل الذي اعلنه مفكروها وقادتها بأكثر من طريق ، ونتمنى ان لا يتحقق ، ويجب أن نعمل على الا يحصل .

اننا نلاحظ ان اسرائيل في حروبها الثلاثة معنا ، كانت تحاول تصعيد التأزم في كل مرحلة من المراحل الى درجة الانفجار حتى تدخل حرباً جديدة ، لتكسب ارضاً جديدة ، ولذا فهي الآن تحاول من خلال مطالبتها بالمفاوضات المباشرة لتكرس هذا الواقع ، وأحسب أننا لو قبلنا معها ما تريد فسوف تخلق مشاكل جديدة لتشعل من جديد الحرب التي تعين وقتها الملائم لها لتكسب أرضاً جديدة .

تلك هي طريقة اسرائيل ، وذلك هو هدفها البعيد ، وعلينا ان نعمل على هذا الاساس لنعرف كيف نواجه الصراع بعقلية متحركة تدرس احتمالات المستقبل في أكثر من اتجاه ، وتتعامل مع الحاضر في أكثر من مجال .

س ٧ - ما هو الهدف الاساسي من هذه الندوات ؟

ج - الهدف هو التوعية الدينية التي تجعل الشباب يفتح على مشاكل حياته من خلال الدين ، ليؤمن بأن الإسلام لا يتنكر لحياته بل ينظمها ويخطط لها وسائلها وأهدافها على أساس من العلم والواقعية واليسر ، فلا يغفل جانباً لمصلحة جانب ، ولا يغلب موقفاً على حساب موقف آخر ، بل هو الاعتدال والاستقامة في كل الاتجاهات .

هدفنا : هو ردم الهوة المفتعلة بين الشباب وبين الدين بسبب
عدم وجود فكرة كاملة لديه عن الدين .

والمعرفة المرتكزة على الحوار الهادىء العميق الحر هي إحدى
وسائلنا لتحقيق هذا الهدف .

س ٨ - ما هو موقف الإسلام من التلفزيون وغيره من أجهزة
الاعلام التي تفتح على الخير والشر والحرام والحلال ؟

ج - للتلفزيون - ككل أجهزة الاعلام الاخرى - منافع ومضار تبعاً
للبرامج التي تعرض فيه ، فربما يكون البرنامج تربوياً أو توجيهياً أو
علمياً يستهدف انفتاح المستمعين على التطور التربوي أو العلمي في
العالم فتكون مشاهدته والاستماع إليه من الأمور التي يشجع عليها
الدين المنطلق أبداً مع كل تقدم يخدم قضية الانسان ونموه في
الحياة .

وربما يكون البرنامج خلاعياً يستهدف تحطيم المناعة الأخلاقية
لدى الشباب وتفتيت القيم الروحية في نفوسهم بإثارة غرائزهم وميولهم
بشكل داعر ، وربما يكون إجرامياً - ان صح التعبير - يهدف إلى
تشجيع الجريمة ومحاولة تصوير اللصوص والقتلة وقطاع الطرق بصورة
الأبطال في نظر المراهقين - الأمر الذي يشجع هؤلاء على الاقتداء بهم
وتقليدهم في كل شيء مما يفسح المجال لانتشار الجريمة في
المجتمع كما ورد في بعض احصائيات محاكم الاحداث الذين كانت
الدروس الاولى التي تلقوها في اللصوصية والقتل من أفلام الجريمة
والرعب التي شهدوها في السينما والتلفزيون .

ومن الطبيعي ان لا يشجع الدين ذلك كله ، لأن مثل هذه

البرامج لا تتلاءم مع الخط الذي يريد الإسلام للإنسان أن يعيشه في الحياة مع الآخرين .

إذن : فالتلفزيون نافذة تطل على الحياة الطيبة من جهة ، وعلى الحياة الشريرة من جهة أخرى ، فمن استطاع ان يغلّق النافذة الشريرة ، ليكتفي بالتطلع من النافذة الخيرة كان منسجماً مع امر الله ورسوله .

ومشكلتنا مع التلفزيون او السينما ، هي مشكلة الأجهزة التي تسيطر على شركاتها وتوجه برامجها ، فهي شركات تجارية تقوم على اساس الاعلان وتنطلق في مجال الاستثمار الاعلاني ولذا فهي تعتبر ضرورة كل برنامج يزيد من عدد المشاهدين وبالتالي يزيد في عدد المعلنين ، دون نظر إلى طبيعة الأثار التي يتركها في عقلية الناشئة وأخلاقتها في الحياة .

وقد قرأت مرة عن أحد الرجال الذين يملكون شركة التلفزيون عندنا انه سئل ما هو هدفك في الحياة فأجاب أنه المال المال المال قالها ثلاث مرات ، فماذا تنتظر من الشخص الذي يفكر هذا التفكير ؟

وبكلمة واحدة : ليست أجهزة الاعلام كالتلفزيون وأمثاله محرمة اسلامياً في ذاتها ، ففيها برامج مفيدة ، وأكثرها غير صالحة حتى الآن ، فمن استطاع ان يحمي بيته من الانحراف في برامجها فلا مانع من استعماله .

س ٩ - أسمع أن هناك ديناً باطنياً وديناً ظاهرياً فهل هذا صحيح ؟

ج - ليس هناك دين باطني ، بل الدين الذي نؤمن به هو الذي

نزل على محمد (ص) ليعرفه الناس ويفهموه بكل وضوح في مفاهيمه وأحكامه ، اما الدين الذي لا يفهمه الناس ، فليس ديننا ، ان الله - عز وجل - خاطب عباده بما يفهمون ولم يخاطبهم بما لا يفهمون .

نعم هناك مذاهب باطنية تعتمد التأويل والرمز في تفسير النصوص وترى ان للشريعة ظاهراً وباطناً وربما يعتقد بعضهم ان الظاهر هو شريعة العامة ، اما الباطن فهو شريعة الخاصة وقد يحاول البعض ان يجد في بعض الآيات القرآنية أساساً لدعواه ، ولكن ذلك كله لا يرتكز على أساس اسلامي لدعواه ، ولا يرتكز على أساس إسلامي متين ، بل يظل في مجال التأويلات والتعليقات التي لا دليل عليها ولا حجة لها .

س ١٠ - إذن كيف نفسر الحروف المقطعة في القرآن ؟

ج - هناك عدة آراء في موضوع تفسير الحروف المقطعة في القرآن مثل ألم ، كهيعص ، حم عسق ، الخ ، إلا أن أقربها إلى الفهم تفسيران :

الأول : انها تسكيت للكفار لأن المشركين كانوا تواصوا فيما بينهم أن لا يستمعوا للقرآن وان يلغوا فيه ، كما حكاه القرآن عنهم بقوله :

لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَافِ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ ﴿٦٦﴾ .

[سورة فصلت : ٢٦] .

فربما صنفروا وربما صنفقوا وربما لغطوا فيه ليغلطوا النبي (ص) في تلاوته فأنزل الله هذه الحروف فكانوا اذا سمعوها استغربوها واستمعوا إليها وتفكروا فيها واشتغلوا بها عن شأنهم فوق القرآن في سامعهم .

الثاني : أنها من قبيل تعدد حروف الهجاء ، والمراد بها أن هذا القرآن الذي عجزتم عن معارضته هو من جنس هذه الحروف التي

تتحدون بها في خطبكم وكلامكم فإذا لم تقدروا عليه فاعلموا أنه من عند الله ، وإنما كررت الحروف في مواضع تأكيداً للحجة .

تماماً كما يقول قائل - عندما يقف أمام عمل فني عظيم - أنني أستطيع عمل مثله ، فيقال له خذ هذه المواد الخام التي صنع منها هذا الأثر الفني ، واصنع كما صنع هذا الفنان إذا كنت تملك مثل فنه أو عبقريته . وقد ورد هذا التفسير في بعض الأحاديث الواردة عن أهل البيت (ع) .

ففي التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري (ع) أنه قال : كذبت قريش واليهود بالقرآن وقالوا : سحر مبين تقوله فقال الله تعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب ﴾ أي يا محمد هذا الكتاب الذي انزلناه عليك هو الحروف المقطعة التي منها ألف ميم وهو بلغتكم وحرف هجائكم فأتوا بمثله ان كنتم صادقين واستعينوا على ذلك بسائر شهادتكم .

س ١١ - كيف خلق الإنسان منذ البداية ؟

ج - النظرية الدينية تقول : ان الله خلق آدم وحواء بشرين سوين بقدرته ، وكان النسل منهما .

س ١٢ - يقال انه خلق من تراب ، فهل هذا مختص بالانسان الأول ، او بكل انسان على وجه الأرض ، وكيف ذلك ؟

ج - القرآن ينص : في أن الإنسان الأول خلق من طين كما ورد في احتجاج إبليس على أمره بالسجود لآدم ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وقول الله سبحانه مخاطباً الملائكة :

إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَادْأَسْوَيْنُهُ وَفَخَّنُ

فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُّوْهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ . [سورة الحجر : ٢٨ - ٢٩] .

أما بقية أفراد الإنسان فهم كذلك ولنحلل الموضوع باختصار :
من أين يتكون الانسان بشكل مباشر ؟

من نطفة ، والنطفة تتكون من غذاء ، والغذاء يتكون من الحيوان
والنبات ومرجعهما الى التراب والطين .

إذن فالانسان الأول مخلوق من الطين بشكل مباشر ، اما بقية
أفراد الانسان فهم مخلوقون منه بشكل غير مباشر .

س ١ - هل ورد في القرآن حديث عن وجود مخلوقات غير
منظورة وغير معروفة لنا ، فيما عدا الجن ؟

ج - ربما نلمح ذلك في بعض الآيات القرآنية كما في قوله
تعالى :

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾

[سورة الحاقة : ٢٨ - ٢٩] .

فقد تكون كلمة ﴿ما لا تبصرون﴾ إشارة إلى الحيوانات الدقيقة
التي لا يستطيع الإنسان إدراكها بطاقته العادية وقدرته الذاتية ، وربما
تكون إشارة إلى الحيوانات الصغيرة التي لا يستطيع الإنسان معرفتها إلا
بواسطة المكبرات بآلاف المرات أو أكثر .

أما عن العوالم الاخرى ، فقد نجد في بعض الاحاديث المنسوبة
الى الإمام علي (ع) ما يشير الى ذلك كما في الحديث المعروف « أن
في السماء مدناً كمدنكم هذه » .

والحديث المشهور عنه .

« سلوني قبل أن تفقدوني فإنني بطرق السماء أعرف مني بطرق الأرض » .

س ١٤ - ما هو الاساس الذي ارتكز عليه الإمام علي (ع) في قوله هذا الكلام ؟

ج - الاساس هو علم رسول الله (ص) المستمد من الله سبحانه بالوحي وبغيره وهو قول الإمام (ع) : « علمني رسول الله الف باب من العلم يفتح لي من كل باب الف باب » .

واحسب ان الإمام علي (ع) لم يدرس - حتى الآن - الدراسة الوافية الشاملة التي تستوعب كل مجالات ومنطلقاته وأفكاره .

بل كل الدراسات التي وجدت كانت تحاول التعرف عليه من خلال حكمه وزهده وبطولته . أما فكره فلم تعط الدراسة الكافية .

س ١٥ - ما معنى الطارق في الآية الكريمة :

وَالْتَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١٥﴾ .
[سورة الطارق : ١] .

ج - جاء في بعض التفاسير : الطارق : اصله كل ما يأتي ليلاً وأريد به الكوكب لظهوره ليلاً ﴿ وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب ﴾ المضيء لثقبه الظلام بضوئه ، أريد به زحل أو الثريا أو جنس النجم .

س ١٦ - ما معنى كلمة الخنس في قوله تعالى :

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾ .
[سورة التكوير : ١٥] .

ج - النجوم التي تخنس أي ترجع ، وهي ما عدا النيرين من الكواكب السيارة (الجوار الكنس) التي تكنس اي تخفي بالنهار أو في مغيبها وعن علي (ع) انها كل الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى وتكنس بالليل أي تأوي الى مجاريها فتأوي .

الحلقة الرابعة

اليأس والأمل في مفهوم الإسلام و لكل سؤال جواب

- اليأس والأمل في مفهوم الإسلام .
- لكل سؤال جواب .

اليأس والأمل في مفهوم الإسلام

[١]

الحديث عن اليأس في حياة الانسان ، حديث عن حالة عميقة الجذور في كيانه ، صعبة المعالجة في تعقيداتها المتشابكة وانفعالاتها المجنونة الهائجة .

ولذلك لا يعتبر هذا الحديث ترفا عقليا يراد به الأخذ بالأفكار التي تبتعد عن واقع الانسان وتقترب من خيالاته .

بل هو حاجة ملحة على مستوى الفرد والمجتمع والأمة كلها ، في الجوانب الخاصة الشخصية من مطامح الانسان ، او في المجالات العامة حيث الدين والفكر والسياسة والاقتصاد والاجتماع في حالة السلم والحرب .

أما التركيز في الحديث على موقف الاسلام من اليأس والأمل فلأننا نحاول الانطلاق في حياتنا على أساس النظرة الاسلامية للحياة ، ليكون موقف الانسان المسلم من واقعه منسجما مع الخط الاسلامي الأصيل في النظرية والتطبيق لثلا يعاني من ازدواجية الشخصية حين يحاول أن يواجه حياته في غير وجهة الاسلام فيما يواجهه من مشاكل ،

وفيما يتتابه من نوازع ، أو يهزه من أزمات .

[٢]

اليأس في طريق الانتحار :

يمثل اليأس الثورة النفسية على الحياة من جانبها السلبي عندما يطغى على وجدان الفرد وتفكيره ، فيشعر ان الحياة تختنق في داخله لتتحول الى سجن مظلم يعيش فيه ، دون أن يجد منفذا للنور او متنفسا للهواء .

فيتمرد على حياة عندما يشعر انها عادت عبثاً ثقيلاً يحمله ، ومصدراً دائماً للألم والدموع .

وقد ينتحر عقله في بعض الحالات إزاء شدة الأزمة وهول الصدمة . . وربما تنتحر حياته بيده ، في أكثر الحالات ، برصاصة او خنجر ، او سم يشربه ، او صدمة عنيفة تدمر جسمه عندما يلقي نفسه من علوشاهق في البر او البحر .

وقد نلمح الكثير من الأمثلة على ذلك في حوادث الانتحار العديدة ، في عصرنا لدى جميع الأمم . مع اختلاف الانظمة والثقافات ، وتنوع المستويات الاجتماعية . . فنجد الانسان الذي يشعر باليأس الخائق ، أمام الاخفاق في مشكلة غرامية خاصة تمثل عنده المتنفس الوحيد للأمل بالحياة ، ووضع عائلي معين ، أو حالة مزاجية خاصة في اطار البيت او الرفاق ، الامر الذي يجعله يفقد معنى الحياة معها ازاء الفشل .

وتكثر هذه النماذج لدى الشباب ، الذين يمرون بفترة المراهقة ،

من الفتيان والفتيات ، فهم يستسلمون لليأس لدى أول بادرة للفشل ، دون أن يتركوا للحياة الفرصة في تأكيد وجودها في ذواتهم بقوة ، فيسلمهم اليأس للانتحار . ولعل ركن المشاكل العاطفية ، او مشاكل القلوب في الصحف المعاصرة تستطيع أن تعطينا صورة حية للحالة النفسية اليائسة التي يعيش فيها هؤلاء الشباب أمام بوادر الفشل .

[٣]

وهكذا تمتد الاسباب الشخصية التي تدفع الذين يتتحرون أمام نوازع اليأس من وجود الجديد الذي يغريهم بالحياة ويبرر لهم الاستمرار معها حتى النهاية .

[٤]

وتتنوع الاسباب لتصل الى اليأس من حالة سياسية او دينية معينة عندما يصطدم بعض الاشخاص بواقع سياسي او ديني لا يملكون له تغييراً من خلال واقعهم الخاص وطاقاتهم المحدودة ، فلا يجدون معه متنفساً للحياة ، ويتعاضم اليأس في نفوسهم حتى يؤدي بهم الى الانتحار تخلصاً من هذا الواقع في بعض الحالات او محاولة لاثارة الآخرين ضد هذا الواقع من خلال الانتحار .

وهم في كلتا الحالتين ينطلقون من حالة اليأس من التغيير بغير هذه الطريقة : وقد نجد المثل على ذلك في حالات الانتحار عند البوذيين احتجاجاً على بعض الاوضاع السياسية . فهي وان انطلقت من جذور دينية تجعل من الانتحار عملاً دينياً يتصل بالحياة بعد الموت ، لكنها - في واقعها الأصيل - حالة يأس تجمع بين الفرار من الحياة ، أملاً في الراحة فيما بعد الموت .

وربما نلمح اليأس في حالات الانتحار من خلال الألام الشديدة التي يعانيتها المريض في مرضه ، او السجين في سجنه ، او الفقير في فقره .

وهكذا تنوع حالات اليأس الذي يدفع للانتحار تبعا لتنوع حالات الحياة لتجمع بين الفاشلين الذين ينتحرون أمام قمة الفشل وبين الناجحين الذين ينتحرون امام قمة النجاح . . وهكذا تمتد لتشمل هؤلاء الذين يختنقون باليأس امام اللذة ، وأولئك الذين يخنقهم اليأس من اللذة .

* * *

ذلك هو بعض الحديث عن حالة اليأس وآثارها في الجوانب الشخصية لحياة الانسان ، الفردية في مستوى نزواته وشهواته ، وآماله وآلامه ، ومطامحه ونواذعه وهمومه وغمومه .

فماذا عن الجوانب العامة لحياة الانسان ؟

وهل لليأس فيها دور ؟

[٦]

العاملون للحق أمام اليأس :

ربما نجد اليأس متمثلا في حياة العاملين من أجل المُثل العليا ، والقيم الكبيرة والمعاني السامية عندما يصطدمون بواقع الناس الذين لا يستجيبون لهم بسهولة ولا يتجاوبون معهم بسرعة ، بل يجدون أكثر من ذلك ، تمردا وجحودا وكفرانا .

وربما يواجهون بعض التعذيب والتنكيل والاضطهاد او السجن

والتشريد فيسقطون - في بعض الاحيان - صرعى أمام الصدمة ، ويخيل لهم أن القضية انتهت ، وأن زمن القيم الكبيرة قد ولى ، وأن ظروف الحياة لا تشجع على مواصلة السير من جديد .

فينكمشون ويتضاءلون ، ويختنقون باليأس فيوحون لانفسهم - في عملية تبرير للهروب - ان الحياة قد تجاوزت أفكارهم وان الناس قد انقلبوا على أعقابهم فليس هناك أمل في أن يسمعوا فضلا عن ان يعوا ويهتدوا .

وهكذا يسمحون للكفر والضلال والانحراف أن يمر ويعيش دون مقاومة، ويتركون للأفكار الضالة والكافرة ان تنمو وتمتد دون صراع ، بحجة انه لا جدوى من المقاومة ، ولا فائدة من الصراع .

وعلى ضوء ذلك ، نستطيع ان نقول : ان تاريخ المبادئ الكافرة والضالة والمنحرفة ، في أكثر الحالات هو تاريخ العاملين اليائسين الذين يقابلون قوافل تلك المبادئ بالحسرات والدموع والالتفات الى الماضي الزاهر بحنين سلمي لا يقترب من الحاضر الا ليثير انفعالات الرثاء .

[٧]

أساليب الاعداء في اثاره اليأس :

وقد نلمح في أساليب الكفر والضلال بعض الخطوات العملية الذكية التي تعمل على أن تزرع اليأس في نفوس العاملين بذرةً بذرةً ، بإعطاء الوقائع المعادية صورة أكبر منها بكثير ، وحشد الاجواء بالاوضاع المثيرة التي يشعر العاملون معها بأن الجو كله قد تحول الى صفوف الاعداء وتضخيم الأخطاء التي يقع فيها العاملون ، الى الحد

الذي يشعرون معه بانهيار معنوياتهم أمام الناس . . . وبذلك يفقدون الشعور بقيمة العمل وجدواه ، عندما يفقدون قداسة الفكرة في ضمير الناس .

وقد تتمثل الاساليب بالايحاز الى بعض المنحرفين عن الخط الصحيح بالسير في اتجاه الخط ، وحمل شعاراته ، كممثلين رسميين له ، لينسفوا الفكرة من الداخل بأساليب جهنمية ، وخطط شيطانية تلبس لبوس التقوى وترتدي رداء الايمان . الأمر الذي يجعل الدخول معهم في معركة اشارة لمعارك شخصية في نظر الناس وتمزيقاً لوحدة الصف في نظر آخرين .

وربما نلمح ذلك واضحاً في الصور المشوهة التي نشاهدها لأدعياء العلم والدين الذين استطاع أئمة الكفر والضلال أن يجعلوا منهم واجهةً لمحاربة أساس الفكرة في الصميم .

كما قد نلمحه في الواجهات التي يعرضها الاستعمار وعملاؤه أمام الشعوب كصورة رائعة للمبادئ الكبيرة والقيم الرائعة التي تنطلق نحوها أهداف الشعوب ، ليلتف الناس حولها بعفوية وبساطة فتكون النتيجة الخراب والدمار والضياع باسم القيم وتحت مظلة المبادئ والافكار الكبيرة .

[٨]

اليأس في المجال الوطني :

وينطلق اليأس - بعد ذلك - ليعيش في الاوضاع القاسية التي قد يمر بها الوطن عندما تشتد حوله الازمات وتثور في داخله العواصف حتى لتكاد أن تقتلعه من جذوره .

فقد يقع فريسة استعمار سياسي او عسكري او اقتصادي من قبل قوى كبيرة لا يملك أمامها أية قوة تقترب من قوتها فضلا عن ان تتساوى معها .

وقد يقع تحت رحمة تحديات خارجية او داخلية تتحدى عزته وكرامته وسلامته دون ان يجد في امكاناته وقدراته ، ما يجعله في مستوى مواجهة هذه التحديات . فيضعف ويتضاءل ويتعاضم لديه الشعور بالضعف حتى يتحول الاستسلام عنده الى واقعية ، ويعود الخضوع لديه ليتحوّل الى حركة بارعة من حركات المحافظة على القوة والسلام وينقلب الذل الوطني - في نظره - الى اسلوب ذكي من أساليب الحفاظ على السلامة الوطنية .

ويحاول الأعداء - في هذا الجانب - أن يخططوا لليأس في البلاد التي يستعمرونها لثلاث ثور ، او البلاد التي يريدون استعمارها او استغلالها ، لثلاث تحفز للنضال . . فيوجهون الاجهزة من الداخل ، لتفتش عن عوامل الضعف لتستغلها . وتبحث عن عوامل اليأس الرافدة في اللاشعور لتوقظها في خدمة الخطة الطويلة الأمد .

وينطلقون مع الاجهزة من الخارج ، من إعلام ومال ورجال وسلاح ليوجهوها الى هذا الوطن الصغير او الضعيف ليشر ، مع هذا المد الطاغي من الدعايات المضللة عن قوة المستعمر أو حلفائه من ناحية السلاح والمال والرجال ، أن لا فائدة من المقاومة والوقوف أمامه ولذا فلا بد من الاستسلام ليسلم ويعيش تحت رحمته راضيا مطمئنا انطلاقا من قول القائل :

إذا كنت مأكول الطعام فرحّب .

اليأس بصورة عامة :

وإذا جرينا مع اليأس في مجالات أخرى فسنجد انه يمثل الحالة التي نكرس التأخر والتخلف في جميع المجالات .

فهو يمنع العالم عن الانطلاق بعيداً في التفكير في حلّ المسائل المعقدة عندما يصعب عليه الحل السريع .

ان اليأس يجعله حائراً أمام علامات الاستفهام الحائرة دون جدوى وهو يمنع العاملين في المجالات الاجتماعية من السير قدماً امام التجارب الفاشلة الكثيرة في حياتهم العملية .

كما يشارك في تهديم الحياة العائلية عندما تواجه الاطراف المشاكل اليومية او الحياتية التي يحتاج حلها الى جهد وصبر طويل ، فقد يؤدي اليأس من معالجة هذه المشاكل لدى الطرفين الى عاملٍ قويٍ في إنهاء العلاقات الزوجية بسرعة دون مبرر .

وهكذا يشارك اليأس في تدمير حياة الانسان على المستوى الشخصي والفكري والوطني والحياتي بشكل عام .

فماذا نفعل أمام هذا كله ؟

وما هو موقف الاسلام من قضية اليأس والأمل في الحياة ؟

هل لديه شيء جديد ؟

اليأس موقف غير اسلامي :

لقد حاول الاسلام - في القرآن القرآن الكريم ، أن يعطي اليأس مفهوما دينيا يصل به الى مستوى الكفر بالله .

فمعنى أن تؤمن بالله أن يظل الأمل يبعث في نفسك اخضرار الحياة ، ومعنى أن تيأس ، أنك تعيش الكفر بالله في أعماق ذاتك ، وان كنت تعلن كلمة الايمان بلسانك .

أما كيف يكون ذلك فسنحاول التعرف عليه من خلال الآيات الكريمة :

يَا بَنِيَّ ذَهَبُوا فَخَسَسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ
إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

[سورة يوسف : ٨٧] .

٢ - ﴿ ونبتهم عن ضيف ابراهيم اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال : انا منكم وجلون ، قالوا : لا توجل انا نبشرك بغلام عليم ، قال : أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ، قالوا : بشركناك بالحق فلا تكن من القانطين ، قال : ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون .

* * *

فنحن نلاحظ في البداية ان الظروف التي أحاطت بالقضية التي تحدثت عنها الآية الاولى ، لا تشجع على الأمل من خلال الوقائع والاحداث التي تجسدت فيها انطلاقا من الرواية التي مثلها اخوة يوسف

بشكل مسرحي مثير يبعث على الاطمئنان ، الى المدة الطويلة التي يُقدِّرها بعض المفسرين بعشرين سنة دون أن يأتي عن يوسف أي خبر من قريب أو بعيد ، الأمر الذي يجعل موضوع الأمل بوجوده وعودته ، فكرةً خيالية تعيش في نطاق الآمال والاحلام اللذيذة البعيدة .

ولكن ذلك كله لم يمنع يعقوب أن يعيش الأمل في مثل الوحي الداخلي الذي ينبع من إيمانه ، حتى ليحس معه بطعم الحقيقة في روحه وكيانه فيبدأ في تذكّر يوسف في أكثر من مناسبة .

فتراه في بعض الحالات يقول : « . . . فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعا انه هو العليم الحكيم » الأمر الذي يدلنا على ان اليأس لم يتسرب الى وجدانه ، ولكن اللوعة لا تزال تشور في داخله كنتيجة للاحساس ببعده الأمل وصعوبته ، كما تشير اليه الآية الكريمة .

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوْسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ
فَهُوَ كَبِيرٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لِنَفْتُوْا تَذْكُرُ يُوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُوْنَ حَرَضًا
أَوْ تَكُوْنَ مِنَ الْمَالِكِيْنَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ
مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٨٦﴾

[سورة يوسف : ٨٤ - ٨٦] .

فهو يثير الحزن واللوعة في نفسه أمام الله ليهبه الطمأنينة والسلام الروحي ، والإيحاء الذاتي بالفرج القريب حتى وكأنه ينظر إلى المستقبل يشرق أمامه - بعد ذلك ، في إشراق روحي رائع يغمر قلبه فتنتطق كلماته بالأمل القريب الذي يستروح فيه روح الحياة من جديد وكأنه الحقيقة الماثلة أمامه في صدق وإيمان .

« ولما فصلت العير قال أبوهم اني لأجد ريح يوسف لولا أن
تفندون » .

وكان يخاف من لومهم وتأنيبهم لانهم لم يرتفعوا الى مستوى
الايمان الذي يرتفع اليه ، ولم يعيشوا مع روح الله الذي يغذيه بالأمل
كما عاش . ولهذا بادروه بهذه الكلمة اليائسة الخائفة : قالوا : « تالله
انك لفي ضلالك القديم » .

* * *

كيف حدث هذا كله ؟

هل هناك تعليمات معينة ووحى خاص من الله ليعقوب كما
يحاول بعض المفسرين أن يفترضوا ؟
او ان القضية قضية الايمان الذي يظل يزرع اخضرار الحياة في
نفس الانسان .

اننا نميل الى الفرض الثاني انطلاقا من طبيعة القضية ومن
أوضاع يعقوب ، ومن تركيزه على رفض عنصر اليأس باعتباره عنصرا
من عناصر الكفر والضلال .

* * *

أمّا في الآيات الأخرى التي حدثتنا عن قصة ابراهيم مع الملائكة
الذين وفدوا اليه رسلا مبشرين من قبل الله بسلام حلیم ، فأنكر عليهم
الفكرة في البداية على أساس القوانين الطبيعية التي تمنع حدوث
الولادة لمن كان في مثل سن ابراهيم وعمر زوجته التي تجاوزت الحد
الطبيعي الذي تحمل فيه المرأة كما تشير اليه بعض الآيات الكريمة في
سورة هود :

وَأَمْرَانَهُ قَائِمَةٌ فَضِحَكْتَ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ
يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا
إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ فَأَلَّوْا تَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ
وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ .

[سورة هود : ٧١ - ٧٣] .

فالقضية لا تشجع على الأقل من زاوية النظرة العادية التي
تخضع للقوانين المألوفة للأشياء .

ولكننا نلاحظ أن الملائكة أثاروا أمامه قضية اليأس والقنوط
وأوحوا إليه بأن هذا الموقف يمثل اليأس بعينه من رحمة الله ، فلم
تكن البشارة على أساس الوضع المألوف . بل هي خاضعة للقدرة
الالهية التي تتضاءل الحدود والقوانين المألوفة أمام قوتها اللامتناهية .
وهكذا رأينا ابراهيم يرجع الى القضية في اطارها الايماني فيقرر بصورة
لا تقبل الشك بأن الموضوع أصبح مختلفا من خلال هذه النظرة التي
تتجاوز القوانين الطبيعية . الى الافاق الواسعة لقدرة الله تعالى فأطلقها
قاعدة عامة للحياة توقظ الأمل في نفس الانسان عندما يختنق باليأس
أمام الواقع المنظور لتربطه بالواقع غير المنظور الذي تتحطم أمامه
الحواجز وتتلاشى القوانين .

قال : ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون .

* * *

ففي كلا الموقفين نجد اليأس يفرض نفسه على الانسان في ظل

الوقائع القاسية والقوانين المألوفة ، ومع ذلك يأتي الأمل من خلال
الايمان ليجعل النفس تعيش في جو الانفتاح والطمأنينة أمام رحمة
الله .

كما نلمح الاساس الديني في رفض اليأس في حديث ابراهيم
ويعقوب ، اللذين اعتبرا اليأس كفرا والقنوط ضلالا ، وكلاهما ينطلقان
من منطلق واحد ويرجعان الى أساس واحد .

* * *

أما كيف نعتبر اليأس كفرا وضلالا فهذا ما يشير اليه الفخر
الرازي في تفسيره الكبير ج ١٨ ، ص ١٩٩ بقوله :

« واعلم ان اليأس من رحمة الله لا يحصل الا اذا اعتقد الانسان
أن الاله غير قادر على الكمال ، او غير عالم بجميع المعلومات او
ليس بكريم بل هو بخيل ، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر فاذا
كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة ، وكل واحد منها
كفر، يثبت ان اليأس لا يحصل الا لمن كان كافرا » .

ومن خلال ذلك كله نعرف ان القرآن الكريم أراد أن يقتلع جذور
اليأس من نفس الانسان باعادته الى ايمانه لينطلق معه في وعي ويقظة
كبيرين يجعلانه يشعر بالأمل يتفجر من ينابيع الايمان كمثل الشعاع
المنسكب من قلب الشمس في روعة الشروق .

وبهذا يلتقي الايمان بالأمل في وحاة رائعة تجعل الروح التي
تفرض احدهما على الانسان تفرض الآخر عليها ككل شيئين متلازمين
في الوجود .

أما اليأس فجزوره تمتد الى الجذور الاولى للكفر وان لم يشعر

الانسان به بشكل مباشر .

وعلى ضوء هذا فان على الانسان الذي يعيش اليأس في قلبه أن يعيد النظر في إيمانه ليجده هل هو منطلق من أساس متين أو أنه ليس بعميق الجذور .

وقد نجد في بعض الآيات القرآنية ، روح الفكرة التي استوحيناها من الآيات السابقة في اشارة الأمل الأخضر في قلب الانسان عندما تجذب روحه بعوامل اليأس وذلك قوله تعالى :

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢٠﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٢١﴾

[سورة الطلاق : ٢ - ٣] .

فنحن نستوحي من هذه الآية انها تريد ان تصوّر للمؤمن الذي يتقي الله ، الحالات الصعبة في حياته سواء منها التي تتعلق بواقعه المادي ، او التي تشمل واقعه الحياتي بشكل عام ، عندما يلتفت الى كل الابواب فيجدها مغلقة ، والى كل الطرق فيراها مسدودة ، فليس هناك منطلق للحركة ، وليس لديه منفذ للتغيير .

تم توحى له بكل ثقة وطمأنينة ، انه سيجد المخرج من هذا المأزق حيث لا مخرج وسيلتقي بالرزق من حيث لا يحتسب ، فليست الوسائل للحياة هي هذه الوسائل المحدودة التي يراها الانسان في عالمه المنظور ، بل هناك ألف وسيلة ووسيلة ، وألف باب وباب ، لا يعلمها الانسان الذي لا يفكر الا من خلال ما حوله ولكن الله الذي

خلق الحياة ووسائلها يعلم ذلك كله لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء .

وإذاً فان على الانسان أن يثق بالله ويتوكل عليه فهو يكفي الانسان من كل شيء ومن كل ضيق .

وهكذا نجد في هذه الآية ، أنها لا تكتفي بمحاربة الجانب السلبي الذي يتمثل باليأس ، بل تحاول أن تثير في نفس الانسان الدوافع الذاتية للامل . من خلال الايمان بالله لتربطه بالجانب الايجابي للحياة الذي يجعله ينطلق بأفاهه الى أبعد من الواقع المنظور المحدود .

[١٠]

الامل من خلال النظرة الواقعية للحياة :

لا يكتفي الاسلام بإثارة الامل في نفس الانسان من خلال الايمان فحسب لان ذلك قد يفقد أثره - في بعض الحالات - ما لم يرتكز على أساس واقعي ملموس ، فان النفس عادةً تتأثر بالواقع المحسوس أكثر مما تتأثر بالفكر النظري .

ولهذا حاول القرآن الكريم ان يربط الانسان بالايان بالغيب من خلال التفكير بأسرار الحياة ودقائقها التي تربط الانسان بالينبوع الخالد للايمان . . وعلى ضوء ذلك ، اتخذ القرآن الكريم اسلوباً واقعياً في إثارة روح الأمل في الانسان ، انطلاقاً من السُنّة الطيبة التي أجرى الله عليها الحياة من ، أن الشدة يعقبها الفرج - والعسر يتبعه اليسر فالحياة تحتضن المشاكل كما تحتضن الحلول ، وتفرض الخسارة كما تفرض الربح وتزرع الابتسامات كما تهرق الدموع .

وإذا لم يكن في الحياة حالة نهائية فما معنى أن تتجمد في فكرك على هذه الحالة وتغلق بصرك عن الحالات الأخرى .

انك - بذلك - تنحرف عن التصور الصحيح للحياة فتعطي للحياة غير معناها وتتجه بها غير طريقها الطبيعي .

فاذا عصرتك ظروف الحياة الخانقة ، وأحكمت الطوق في عنقك حتى الاختناق فلا تتصور خلود هذه الظروف الصعبة ، بل التفت الى حياتك الماضية أو حياة الآخرين لتجد أكثر من شاهد على ان الظروف الصعبة تتغير الى ظروف طيبة سهلة تمحو عن النفس كل آثار الصعوبة ..

وعلى ضوء هذا ، فما الذي يجعل من ظروفك القاسية الحالية بدعاً من الظروف وما الذي يغير من حركة الحياة التي لا تستقر على حال .

ان القرآن - وهو يعرض للانسان صور الحياة المتحركة في اكثر من اتجاه- يحاول أن يغير نظرتك الضيقة التي تتجمد في حدود اللحظة الحاضرة ، لتشعر - من خلال ذلك - أنه لا مانع من أن يتبدل الحاضر ليعيش المستقبل مع الخير كما عاش الماضي معه - في تجاربك الذاتية الماضية ، او تلتفت الى حياة الآخرين الذين عاشوا في ظروف مماثلة لظروفك ، ومشاكل مشابهة لمشاكلك ، ثم عادوا وتغلبوا على المشكلة بأفضل الحلول التي اهتموا اليها من خلال البحث والصبر الايجابي الواعي ، وتمردوا على الظروف باصرار المترقب للفرج ، فانطلقوا مع الظروف الجديدة التي استطاعت ان تخرجهم من الواقع الخانق الى الواقع المنفتح على الحياة الواسعة بأرحب مجالاتها ومنطلقاتها .

وقد نلمح هذه الفكرة في الآيات الكريمة التي تتحدث عن الانسان الذي يياس عندما تنزع منه مظاهر رحمة الله ، وآثار نعمة الله ، دون ان يلتفت الى ان الذي نزع الرحمة بعد أن وهبها قادرٌ على أن يرجعها مرة ثانية كما أرجعها في حالات مماثلة في حياة الانسان وحياة لآخرين .

ولنقرأ الآيات الكريمة :

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسِكِفُورًا ﴿٩﴾ .

[سورة هود : ٩] .

لَا يَسْتَعِزُّ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤْسِقِفُورًا ﴿٤٩﴾ .

[سورة فصلت : ٤٩] .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا ﴿٨٧﴾ .

[سورة الإسراء : ٨٣] .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَتَمَأَفِدَمَاتٍ بِأَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ .

[سورة الروم : ٣٦] .

سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ .

[سورة الطلاق : ٧] .

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ .

[سورة الشرح : ٥ - ٦] .

فهي تشجب في الانسان يأسه وقنوطه أمام البلاء وتدعوه الى أن ينظر الى الحياة نظرة واقعية ، فلا تطفية النعمة ، ولا تصرعه النعمة بل يواجه الحالتين بروح المؤمن الواعي الواصل بالفرج بعد الشدة والعارف بأن الحياة لن تدوم على حال واحدة .

* * *

وخلاصة الحديث : ان اليأس من خلال ما قدمناه موقف غير اسلامي لانه يتنافى مع الجذور الاساسية لعقيدة الايمان بالله من جهة ، ويتعارض مع النظرة الواقعية التي رسمها الاسلام للحياة .

واذا وعى الانسان هذه الحقيقة استطاع أن يعالج حالات اليأس التي تعصف بروحه ، في حالة غفلته عن ايمانه ، وانحرافه عن التصور الصحيح للحياة ، وذلك بالعودة الى ينابيع الايمان ، والرجوع الى الآفاق الرحبة للحياة التي تفتح للانسان باب الأمل كأوسع ما يكون الأمل ، ليعود - بعد ذلك - الى حياته كأنسان ايجابي يواجه الحياة بقوة انطلاقاً من الموقف الصحيح بدلاً من الموقف الخاطئ .

فان المؤمن يمثل العودة السريعة عن الخطأ والرجوع الواعي عن الغفلة في أول لحظة لليقظة ، وأقرب فرصة للتذكر انسجاماً مع الآية الكريمة :

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ .

[١١]

النظرية في اطار التطبيق :

وما دامت القضية قد وضحت الى حد بعيد واستطاعت أن تمنحنا القدرة على إثارة الأمل في داخل الانسان ، من بين نوازع اليأس

وعوامله ، فقد يجدر بنا أن نبدأ في الانتقال بها من اطار النظرية الى واقع التطبيق ككل نظرة تتصل بالحياة وتؤثر في مسيرة الانسان .

* * *

ولعل من أكثر الجوانب إلحاحاً في موضوعنا هذا هو جانب الانتحار الذي يمثل قمة الآثار السلبية لليأس بالنظر الى أكثر حوادث الانتحار في العالم ، من دون فرق بين الناجحين وبين الفاشلين ، وفي الدول التي تحكمها النظم الرأسمالية والدول التي تحكمها النظم الاشتراكية كما ألمحنا اليه في بداية الحديث .

* * *

وقد عرفنا أن الانتحار ينطلق من الشعور بالاختناق أمام حالة اليأس من وجود الجديد في الحياة ، أو من تحقيق الرغبة الشخصية في موضوع عاطفي ، أو وطني أو ديني . . فإذا استطعنا أن نأخذ من واقع الحياة تعدد مجالاتها ، وتنوع مسالكها ، ففي كل يوم هناك جديد يتعلمه ، وفي كل منطلق هدف يتجه اليه ، والقمم في الحياة كثيرة ، فلا تنتهي الحياة عند قمة واحدة ينتهي اليها الانسان ، فهناك قمم أخرى يستطيع ان يبدأ طريقه اليها من جديد ، ليشعر بلذة الاكتشاف ويحقق رغبته الذاتية في التعرف الى المجهول ، فإذا أتخمته اللذة ، فقد يجد بعض راحته في بعض ألوان الحرمان ، وإذا أسكره النجاح حتى لم يعد يجد نشوة جديدة ، فقد يتجه اتجاهاً آخر يجرب فيه طعم الصعوبة والمشقة التي لا بد منها في الشعور باللذة من جديد .

* * *

أما الذين وقفوا امام رغباتهم الظمأى يائسين ، فلم يشعروا بطعم الحياة في ظلال الحرمان . . . فقد ينبغي لهم أن يتلفتوا الى الحياة هنا

وهناك ، ليشعروا بأن العسر سوف يتحول الى يُسر ، وان الصعوبات التي تعترض الاشخاص في طريق تحقيق رغباتهم ، ليست خالدة خلود الحياة .

وربما يجربون اعادة النظر بعض الشيء في رغباتهم ، فلعلهم يستطيعون تعديل بعض ملامحها ، وأوضاعها ، فقد يكون في ذلك حل المشكلة ، لان كثيرا من الصعوبات التي تواجه الانسان في طريق رغباته ، قد تنشأ من النظر فيها الى القضية من جانب ضيق ، معه الأمل .

أمّا اذا تبدلت النظرة الى مجال أوسع فقد يتسع الأمل حيث تتسع امكانية الحلول .

وقد يكون من الوسائل العملية للوصول الى ذلك أن يستعين الانسان بالأحداث التي واجهها الآخرون ممن كان لهم نفس مشكلته ، ونفس حالته ، فلم تتحقق رغباتهم ، ولم يصرعهم الحرمان بل تجاوزوه الى واقع جديد انفتحت لهم فيه آفاق جديدة ، عادوا يسخرون - من خلالها - من الماضي الذي كانت تلح فيه الرغبات المجنونة لانها تكشفت لهم عن أشياء هزيلة لا تستحق من الانسان أي اهتمام ، يشعر معه بضرورة التضحية امامها بأغلى الأشياء .

ان كثيرا من رغبات الانسان التي تندفع الى حياته بجنون ، ترجع الى نزوات عابرة ، يحولها الخيال الى وهم كبير يوحى للانسان باتصالها الوثيق بالحياة وارتباطها الكبير بقضية المصير .

ولكن قليلا من التحليل للدوافع والعوامل المحيطة بالقضية ، يكشف للانسان كيف يتحول السراب الى وهم كبير يحسبه الظمآن ماء

حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فيعرفه كيف تنطلق الحقيقة من خلال الصبر العميق .

* * *

أما ما يحتاجه الشباب والفتيات في الخروج من أزمة اليأس التي تهدد حياتهم بالاختناق ، وتتجه بها في اتجاه الانتحار . . فهو أن يقفوا قليلا ليقارنوا بين تفكيرهم الماضي وتفكيرهم الحاضر ليجدوا - في النتيجة - أن مرحلة العمر التي تجاوزوها قد استطاعت أن تمنحهم تجربة جديدة وسّعت أفق تفكيرهم ، فماذا يمنعهم أن ينتظروا المرحلة الجديدة ، ليشعروا بتفاهة ما كانوا يفكرون ازاء واقع المرحلة الحالية للفكر .

ان الحرمان لن يصرع الانسان ، اذا استطاع أن يكتشف مناطق جديدة تغذي جوع الانسان للحياة .

وللحياة أكثر من ينبوع يتفجر بالري ، وأكثر من حقل يهتز بالخضرة ، وفيما بين هذا وذاك يجد الانسان الحياة تفتح ذراعيها لكل متعب محروم .

* * *

أما العاملون من أجل الاصلاح والخير للانسان الذي تواجههم الصعوبات في الطريق حتى ليشعروا باليأس يتحدى خطاهم السائرة نحو القمة اما هؤلاء ، فقد لا نجد كثيرا من الجهد في الانطلاق معهم الى تجارب الأنبياء والأولياء والمصلحين الكبار في العلم الذي وقفت ضدهم عقبات الطريق بكل قوة حتى كأن الأفق ينتصب أمامهم كجدار يرتفع حتى ليحجب عنهم الهواء ولكن الحياة فتحت لهم أبوابها - بعد ذلك - فدخلوها بكل قوة واستطاعت رسالاتهم ودعواتهم أن تقتحم

الخلود لتسير معه في حركة الأجيال الصاعدة في كل زمان ومكان .

لقد واجه المسيح عليه السلام في رسالته كل ألوان الاضطهاد والتعذيب ، ولم يجد اليأس سبيلا الى قلبه لانه كان ينظر الى المستقبل بأمل يرتكز على النظرة الواقعية للحياة .

وامتدت رسالته بامتداد الزمان وتساقطت العقبات واحدةً واحدةً على الطريق ، وانفتح الدرب أمام خطي الرسالة .

وواجهت الصعاب النبي محمد (ص) كما لم تواجه أحداً من قبله ، وتحمل العذاب والحرب على جميع الجبهات ، ولم تكن عوامل الأمل كثيرة لديه من خلال الواقع المنظور ، ولكن الرسالة بما تحمله من وعي للحياة وفهم عميق لطبيعة التطور في حياة الأمم ، وإيمان كبير بالله استطاعت أن تملأ قلبه بالأمل الأخضر الذي امتد الى كل ما حوله ومن حوله ، فانطلقت الرسالة من خلال الخطوات الصغيرة الهادئة الى خطوات كبيرة واسعة تقتحم معها كل أسوار الحياة التي تنطلق في اتجاه القمم .

وعاشت الرسالة شاهداً على أن الخطوات التي تنطلق من خلال الأمل المنفتح ، لن تتعثر أبداً أمام عقبات الطريق .

ولم يكن هذا الأمل لدى الأنبياء والمصلحين ، نتيجة خيال واسع كبير يفتح أبواب المستقبل على أجنحة الاحلام .

بل كان نتيجة فهم واقعي لطبيعة عمليات التغيير في الحياة ، فان من الملاحظ أن التقاليد والأفكار الموروثة والرواسب الماضية التي استطاعت السنون الطويلة أن تعمقها في النفس الى حدّ التحجر . . لا يمكن أن تزول - فجأة - أمام الدعوات الجديدة ، او تنهار سريعا أمام

التحديات الصارخة بل لا بد لها من أن تستيقظ لتدافع عن نفسها أمام الغزو الفكري الجديد ، بكل ما لديها من قوى ذاتية تدفع اليها غريزة حب البقاء .

ولا بد للقوى الجديدة من أن تخوض عملية الصراع بكل ما تملكه من أساليب فكرية ، وقوى متحركة فتحاول أن تقتحم الاسوار في بعض الحالات والابواب في حالات أخرى ، لتستطيع من خلال ذلك أن تضع قدميها على الارض في حركة بارعة للنفاذ الى الأعماق حيث الجذور الاولى تمد فكر الماضي بقوة البقاء .

ومن الطبيعي ان حركة الصراع لا بد لها من أن تستمر وتمتد وتطول لكي يتسنى لها اضعاف الفكرة القديمة تدريجيا لتأخذ مكانها من جديد .

ان الانسان الذي يفهم الاساس العملي لتطور الحياة لا بد له من أن يعيش الأمل في أعماقه ، حتى في الأفق الذي لا يحمل أي بصيص من النور فقد يكون النور كامنا في طيات الأفق بانتظار ولادة الفجر الجديد .

* * *

ولعل أروع الآيات التي تمثل كيف يعيش الأمل في قلوب العاملين ، مهما كانت عوامل اليأس قوية ، هي قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَتِ امَّةٌ مِنْهُمْ لَمَنْ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَإِلٰهِهِمْ آلِهَةٌ أَوْ مَعَدَّةٌ لَهُمْ عِبَادًا
شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَعَلَيْهِمْ يَتَّقُونَ .

[سورة الأعراف : ١٦٤] .

فنحن نلاحظ أن الآية قد فرضت الجماعة التي يراد هدايتهم في مستوى الهلاك والعذاب المحقق يوم القيامة فليس هناك أي أمل يرجى لديهم ازاء الاعمال التي يقومون بها ، والجرائم التي يرتكبونها .

ولكن العاملين كانوا في مستوى الرسالة ، فهم يريدون أن يُعذروا الى الله سبحانه في اداء رسالتهم ويحاولون ان يلاحقوا الأمل البسيط ولو بنسبة واحد في المائة ، لثلا يفقدوا القدرة على الأمل . . فكأنهم يقولون لهؤلاء الذين يلومونهم : لماذا تياسون من هدايتهم ما دامت النفس الانسانية تخضع للحق وللخير في كثير من لحظات النور الذي يشرق في داخل الناس سريعا ثم يغيب ، فقد نستطيع في هذه اللحظات السريعة أن نجعل النور يستمر في النفس من خلال الرسالة التي تلاحق كل فرصة جديدة وكل أمل جديد .

* * *

أما الذين يصرعهم اليأس فيقعدهم عن النضال والجهاد في معركة العزة والكرامة عندما يبدأ العدو بحرب الأعصاب النفسية التي يخيل اليهم بأن العدو لا يقاوم وأن كثرة العدو وقوة سلاحه ، وتعدد مجالاته ، يجعل الحرب خاسرة منذ البداية .

وهكذا يستسلمون للاستعمار وللإستغلال ويستريحون للحياة الذليلة الخاضعة الخائفة التي توحى لهم بالأمن والطمأنينة والسلام .

أما هؤلاء فقد استطاع القرآن أن يخاطبهم ليشعرهم بأن الكثرة ليست مقياس الانتصار ، كما ان القلة ليست مقياس الهزيمة ، فهناك أكثر من فرصة للنصر أمام الفئات القليلة اذا استطاعوا استغلالها واستعمالها في طريق الصراع ، انطلاقا من التاريخ الذي يحمل كثيرا من النماذج التي تؤكد الفكرة ، ومن النظرة الواقعية لقضية النصر

والهزيمة التي تخضع لاساليب عديدة لا تجعل المسألة تعيش في اتجاه واحد .

وهكذا نستطيع ان نتغلب على الحرب النفسية التي يريد العدو من خلالها أن يخلق اليأس في نفوسنا ليبرح المعركة قبل أن يدخل المعركة . . باستخدام قوانا التي نملكها في المجالات التي تحرك القضية ، ومحاولة ربح قوى جديدة من خلال الظروف التي تحيط بنا ، والتطلع الى المدى الطويل الذي قد يخسر في حركته بعض المعارك ولكنه يستطيع في النهاية أن يربح الحرب .

وليس هذا حلما نحلم به ، أو خيالاً نتخيله ، أو تمنيات تعيش في النفس ، بل هو واقع الحياة العملية الذي يعيش في حساب القضية كما يتمثل في تاريخ الشعوب .

* * *

خاتمة المطاف :

وهكذا نبلغ خاتمة الحديث لنجد أمامنا القضية واضحة على مستوى النظرية وهي ان الايمان يساوي الأمل ، واليأس يساوي الكفر ، كما ان الأمل يمثل النظرة الواقعية العملية ، أما اليأس فيمثل النظرة الضيقة للحياة . أما على مستوى التطبيق فهناك أكثر من مجال ، وأكثر من منطلق يستطيع الانسان أن يعيش معه في حياته الخاصة والعامة ليشير الأمل في نفسه من خلال واقع حياته ومن خلال تجارب الآخرين في الماضي والحاضر .

وقد أراد القرآن الكريم من الانسان أن يتعلم من التاريخ كيف يجابه مشاكله من خلال الظروف التي عاشها الآخرون ليعرف ان الحياة

لن تتجمّد في زاوية واحدة وأن الجليد سوف يذوب مهما امتد الشتاء ،
ومهما اشتد الصقيع ، فان الربيع سرعان ما يخفق بدفء الحياة لينطلق
في حياة الينابيع من جديد عندما تتدفق السيول الهادرة لتغني للظالمين
أغنيات الحياة المتفتحة في كل زمان .

لكل سؤال جواب

- هل يحرم الاسلام على الانسان مباحج الحياة .
- ما موقفه من الحرية الشخصية في هذا الجانب .
- ما معنى : أتق شر من أحسنت إليه .
- ما معنى الحديث الشريف : تفكر ساعة خير من عبادة سنة .
- بين كلام الامام علي (ع) وكلام الامام زين العابدين حول صنع المعروف مع غير أهله .
- كيف كانت نشأة الطبقة الثانية للانسان ؟

س ١ - يتردد على لسان البعض : ان العقيدة الإسلامية تقيد حرية الانسان الشخصية وتحرم عليه التمتع بمباهج الحياة .

فهل للإسلام رد على هذا القول ؟

وما هو موقفه من الحرية الشخصية في هذا الجانب ؟

ج ١ - هناك جانبان للسؤال :

١ - موقف الإسلام - من وجهة مبدئية - من التمتع بمباهج الحياة .

٢ - نظرتة إلى الحرية الشخصية في هذا النطاق .

أما موقف الإسلام من الاستمتاع بالحياة ، بما تحويه من لذائذ وشهوات وما تشتمل عليه من مباهج فنستطيع أن نؤكد - من خلال النصوص الإسلامية - الفكرة التالية :

ان الإسلام يريد للإنسان أن يعيش في الحياة عيشة طبيعية ، تتمثل في اشباع الجوع الطبيعي للغرائز البشرية التي أودعها الله فيه ،

فلم يخلقها الله ، ليقوم الإنسان بتجميدها ، بل لتمارس دورها الطبيعي في عملية النمو والحركة والحياة .

ولهذا وقف الإسلام ضد الرهبانية وقفة حاسمة تلغي هذا الأسلوب من الإسلام رأساً ، فجاء الحديث الشريف ليقرر بكلمة جازمة . . . « لا رهبانية في الإسلام » لأن الرهبانية تمثل اغلاق النوافذ التي يطل منها الإنسان على نعم الله في الحياة .

وعلى ضوء هذه الفكرة انطلقت الآيات الكريمة في القرآن ، لتحدث عن الطيبات ، وتدعو الإنسان إلى الأخذ بها وعدم تحريمها على نفسه بأساليب عديدة ، تشدد وتلين حسب اختلاف الجو الذي يُراد إيجادها للفكرة .

فنقرأ في سورة الأعراف / ١٥٦ قوله تعالى : ﴿ ويحل لهم الطيبات . . . ﴾ في معرض الحديث عن الاساسية التي تركز عليها الدعوة الذي جاء بها النبي محمد (ص) .

ونقرأ قوله تعالى :

وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ .

[سورة المائدة : ٨٨] .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

[سورة النحل : ١١٤] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ .

[سورة البقرة : ١٧٢] .

ثم نقرأ بعد ذلك الآيات التي تنهي عن تحريم الانسان الطيبات على نفسه كما في قوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ .
[سورة المائدة : ٨٧] .

ثم نقف مع الآية الكريمة التي توجه الإنسان إلى أن يأخذ زينتته عند كل مسجد وتستنكر فكرة تحريم الزينة في الحياة والطيبات من الرزق :

يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَاطَيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ .

[سورة الأعراف : ٣١ - ٣٢] .

وربما نلمح الفكرة واضحة جلية في القصة التي يذكرها المفسرون في الأجواء التي نزلت فيها الآية المتقدمة ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل لكم ﴾ الخ ...

قال المفسرون كما في مجمع البيان - جلس رسول الله يوماً فذكر النار ووصف القيامة ، فرق الناس وبكوا واجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحي ، واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ولا

يقربوا النساء ولا الطيب ، ويلبسوا المسوح ويرفضوا الدنيا ويسيحوا في الأرض .

فبلغ ذلك رسول الله (ص) فأرسل إليهم وقال لهم : ألم أنبأ انكم اتفقتم على كذا وكذا ، قالوا : بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير ، فقال النبي (ص) إني لم أؤمر بذلك ، ثم قال : ان لأنفسكم عليكم حقاً فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا فياني أقوم وأنام وأفصوم وأفطر وآكل اللحم والدمس وآتي النساء ومن رغب عن ستي فليس مني .

ثم جمع الناس وخطبهم وقال : ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا . أما اني لست آمركم ان تكونوا قسيسين ورهباناً فإنه ليس في ديني ترك اللحم ولا النساء ولا اتخاذ الصوامع ، ان رهبانية أمتي الصوم وسياحتهم الجهاد اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان واستقيموا يستقم لكم وإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . . .

فنحن نلاحظ - أن النبي قد أعطى القضية أهمية كبيرة نظراً إلى أن هذا الفهم الخاطيء للموعظة وموقف الإنسان من مباحج الحياة ، يؤثر تأثيراً كبيراً على النظرة العامة للحياة ، بالتالي على الممارسة العملية في سلوك الإنسان المسلم ازاءها .

فلم يكتف النبي (ص) بإصلاح خطأهم وتوجيههم للخط الصحيح ، بل انطلق ليمنع تأثير هذه النظرة الضيقة على الأمة فانطلق يتحدث إليهم بشكل عام ليركز الفكرة الصحيحة على المستوى العام للأمة دون تحديد .

وقد نجد ملامح هذا الموقف الصلب أزاء الفهم الخاطيء الذي

يدفع الى السلوك المنحرف على أساس هذا الفهم - في حديث الإمام علي أمير المؤمنين (ع) الذي خاطب به عاصم بن زياد الذي لبس العباءة وتخلي عن الدنيا . فقد جاء في نهج البلاغة أنه قال له :

« يا عدي نفسه ، لقد استهام بك الخبيث ! أما رحمت أهلك وولدتك ! أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها أنت أهون على الله من ذلك » . ثم يحدثنا الرضي (رض) في النهج أن عاصماً اعترض على الإمام (ع) مشيراً إلى سلوك الإمام العملي الراض لمتمع الحياة ولذائدها قائلاً :

يا أمير المؤمنين ، هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك .

فقال له الإمام (ع) : ويحك اني لست كأنت ، ان الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيخ^(١) الفقير فقره .

وبهذا حسم الإمام الموقف كله ، فإن سلوكه العملي خاضع لمركزه القيادي الذي يفرض عليه أن يقيس نفسه بأضعف رعيته ، ليجد الفقير بالإمام أسوة حسنة فيصبر على فقره ريثما تحل مشكلته .

٢ - أما نظرة الإسلام الى الحرية الشخصية في هذا الجانب من الحياة فتنتقل من الفكرة التي تريد أن تصوغ الإنسان صياغة جديدة ترتكز على أساس التوازن في الحياة ، الذي يحقق له السلامة في جسمه وروحه وعقله .

وعلى ضوء ذلك كانت المحرمات التي حدد الإسلام فيها حرية الإنسان في ممارسة شهواته ولذائدها ، لتكون بمثابة الضوابط العملية

(١) يتبيخ : كي لا يهلكه فقره .

التي تحمي الإنسان من الهلاك الجسدي والروحي .

فأباح للإنسان استعمال الطيبات في الأكل والشرب ، ونهاه عن الإسراف في ذلك ، كما حرم عليه الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلَّ لغير الله والخمر وغير ذلك لأنها تحمل له الاضرار الصحية والروحية والعقلية وأباح له ممارسة الجنس ، فلم يعتبره عيباً بل جعله أمراً طبيعياً جداً ورغّب به في اطار العلاقة الزوجية ، ونهاه عن العلاقات الشاذة ، والعلاقات غير الشرعية مع غير الزوجة من المحرم والاجنبات لأنها تسيء الى النظام الذي يحقق سعادة الانسان الروحية والمادية في جو الأسرة ، وتساعد على الفوضى في ممارسة الجنس الأمر الذي يسبب للإنسان مشاكل كثيرة في جميع المستويات .

وأطلق للإنسان حرية اللعب واللهو وحرّم عليه الميسر والأساليب التي تسيء إلى أخلاق الإنسان وتضيع طاقاته في غير طائل . . وهكذا نجد أن حدود الحرية الشخصية تبدأ حيث تبدأ مصلحة الإنسان الفردية والاجتماعية وتنتهي حيث تتعرض حياة الإنسان للضياع والانهايار .

وبكلمة واحدة : أن الحرية المطلقة تساوي الفوضى ، التي تتحول الى قيد يخنق - في نهاية المطاف - حرية الإنسان وحرية غيره .

فلا بد لنا من تقييد الحرية ، بالقيود التي تضمن للإنسان ممارستها دون أن تسيء الى نفسه وإلى غيره .

ولعلنا نلمح ذلك في بعض الآيات التي عقبها الحديث عن الطيبات بالدعوة الى تقوى الله وشكره ، وعدم الطغيان ، والاعتداء كما في قوله تعالى في المقدمة في سورة المائدة : ﴿ ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ﴾ .

س ٢ - جاء - في نهج البلاغة - قول الإمام علي (ع) :

اتق شر من أحسنت إليه .

ما معنى هذا الحديث ؟

ربما يبدو للفهم الساذج - من هذا الحديث - أنه يوحي باستتباع الاحسان للشر الذي يجازي به الإنسان من أحسن إليه ، ولذا فإن على المحسن أن يستعد للشر ويحذره .

وربما يؤدي هذا الفهم الخاطيء إلى ابتعاد الإنسان عن أعمال الخير ومواقف الاحسان ، ما دام ذلك سيؤدي الى مبادلته بالشر والجحود والكفران ونكران الجميل الامر الذي يشعر الانسان معه بأنه في غنى عنه لا سيما اذا كان من الاشخاص الذين لا يطبقون الحياة في نطاق المشاكل والملابسات ولكن هذا بعيد عن مرامي الإمام (ع) ومقاصده الذي يطلب منا في بعض كلماته القصار أن نعاتب أخانا بالإحسان إليه وأن نرد شره بالأنعام عليه .

فماذا يريد الإمام من هذا الحديث ؟

الذي يبدو لنا : أن الحديث يحاول أن يخرج الإنسان من جو الثقة الساذج الذي يشعر به الإنسان ازاء الاشخاص الذين يحسن إليهم فيستسلم إليهم في اطمئنان ، ويتخلى عن الحذر في علاقته بهم وتعامله معهم ، انطلاقاً من استبعاد قيام هؤلاء الاشخاص بأي عمل شرير تجاهه ، لأن الخدمات التي قدمها لهم ، والاحسان الذي واجههم به ، يعتبر ضمانة قوية أمام كل احتمال آخر .

إن الإمام يريد أن يقول للإنسان - فيما نستوحيه من الحديث المذكور - ليس لك أن تعتبر الإحسان الى أي شخص ضمانة لك من

شره لأن هناك الكثير من الناس الذين لا يتفاعلون بالروح الخيرة التي تنطلق من الآخرين اليهم ، او الذين يشعرون بعقدة ذاتية ازاء الاشخاص الذين يقدمون إليهم خدمات الحياة ، أو الذين قد يكونون طبيين في بداية الأمر ولكن المصالح المعقدة والأطماع الطارئة التي يصطدمون بها معك ، تحوّلهم إلى أناس يشعرون بالحاجة الشديدة إلى الاعتداءات عليك ومقابلتك بالأساءة والنكران .

فإذا كان واقع الحياة يحتضن أمثال هؤلاء كما يحتضن غيرهم من الطيبين الذين يقابلون الأحسان بمثله والخير بأكثر منه ، فكيف يمكن أن يستسلم الإنسان إلى جو الأحسان كضمانة تحميه من كل شر .

ان الحديث يمثل الدعوة إلى الوعي والحذر وعدم الاستسلام الى الثقة المطلقة .

ومعنى الحذر أن يظل الإنسان متحسباً للطوارئ والعوارض فيحض نفسه ضدها ، حتى إذا ما واجهه الخطر كان مستعداً له فلا يؤخذ على غرة ، ولعل كلمة الإمام علي الأخرى التي يقول فيها :

« لا تثقن بأخيك كل الثقة فإن صرعة الاسترسال لا تستقال » .

لعل هذه الكلمة تعيش في الجو الذي يريد الإمام أن يضعنا فيه من خلال كلمته التي نتحدث عنها ، وهو جو الابتعاد عن الاسترسال في العلاقات الاجتماعية مهما كانت درجة الثقة ، ومهما كانت عواملها الداخلية والخارجية .

س ٣ - قيل : ان تفكر ساعة خير من عبادة سنة أو أكثر فمن هو القائل ، وفيم هذا التفكير ؟

ج - قائل هذا الحديث الشريف هو رسول الله (ص) والصحيح في نص الحديث - حسب ما جاء في حديث الإمام الصادق (ع) - :
« تفكر ساعة خير من قيام ليلة » .

أما مجالات هذا التفكير انها لا تنحصر في مجال واحد ، بل تسع لتشمل الأمور التي تقرب للإنسان معرفة الله ، وتفتح آفاقه على الكون الواسع الفسيح حيث يجد في كل ظاهرة من ظواهره دليلاً على عظمة الخالق ووجوده .

فيعيش الإنسان في عبادة روحية صامتة تحتضن في داخلها الصفاء والسمو الروحي والفكري في ظلال الله .

وتمتد مجالات التفكير لتسع لكل فكر يفهم الإنسان من خلاله نفسه ، ويتعرف على أخطائه ، ويكتشف واقع الحياة ومسؤوليته العملية ازاء ذلك كله .

وببدو لنا ان هذا التقييم للتفكير ينطلق من المنطلقات القرآنية التي اعتبرت التفكير الانساني في خلق السماوات والأرض ، وفي نفسه وفي غير ذلك ، الطريق الأمثل في الوصول الى الله ، وفي ادراك الحقيقة في الكون والحياة وفي اكتشاف الانسان نفسه من خلال ذلك كله .

اما اعطاء التفكير قيمة تفضل عبادة ليلة ، فربما نستطيع أن نفهمه اذا عرفنا أن دور العبادة هو الاتصال بالله والالتقاء بالمعاني الروحية الخيرة التي ترتبط به والانسجام مع هذه الصلة الالهية ، في نطاق تلك المعاني في حياتنا العملية ومن الطبيعي ان التفكير يستطيع أن يمنحنا هذا اللقاء بالله ، وبالمعاني الخيرة بشكل أعمق وأسلوب

هاديء ، ينساب في الداخل بعيداً عن ضجيج الكلمات ، ليلحق الكلمات التي تحلق في سماء المعرفة دون صوت . . وربما أمكن لهذا التفكير أن يعطي العبادة التي نمارسها - بعده - معنى أعمق حيث يتحول الاحساس بكلمات العبادة وأفعالها ، إلى احساس لا يطفو على سطح النفس وإنما يتصل بالينابيع التي تعيش في الأعماق وتهدرُ في حياة الانسان من بعيد .

وقد وردت لدينا أحاديث كثيرة عن أئمة أهل البيت (ع) تؤكد هذا الاتجاه في اعتبار التفكير عبادة وفي شمول التفكير للأفاق الواسعة التي عرضناها .

١ - ففي حديث الإمام الصادق (ع) : أفضل العبادة ادمان التفكير في الله وفي قدرته .

٢ - وفي حديث الإمام علي الرضا (ع) : ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم انما العبادة التفكير في أمر الله عز وجل .

٣ - وفي حديث آخر للإمام الصادق (ع) : التفكير يدعو الى البر والعمل به .

٤ - وفي حديث ثالث عنه : جواباً على سؤال : كيف يتفكر ؟

قال : يمر بالدار والخربة فيقول : أين بانوك ؟ أين ساكنوك ؟ ما لك تتكلمين .

وهكذا نجد ان الإسلام لا يريد من الانسان العبادة التي يعلق فيها نفسه على الحركات والكلمات الخاصة دون وعي ، بل يحاول أن يربط الإنسان بالله من خلال الفكر الواعي العميق في الكون الواسع الفسيح ، وفي احداث الحياة وظواهرها وقضاياها ، ليكتشف من خلال

ذلك معنى الايمان ، من خلال المعرفة ، ويتعرف روعة العبادة من خلال الفكر .

ونحسب ان هذا الاتجاه في اعطاء هذه القيمة لعبادة الفكر ، وتفضيلها على العبادة المألوفة التي لا تعيش مع المعرفة ، يعطينا الفكرة الصحيحة عن المضمون الإسلامي للحياة الذي يتعد عن الشكل ليرتبط بالمضمون ، ويرفض الصورة اذا كانت بعيدة عن الجوهر .

س ٤ - ورد في نهج البلاغة عن الإمام علي (ع) بعض الأحاديث التي تنهي عن صنع الإنسان المعروف مع غير أهله .

في بعض كلماته (ع) : . . . وليس لواضع المعروف في غير حقه وعند غير أهله من الحظ فيما أتى إلا محمداً اللثام وثناء الاشرار ومقالة الجهال ، ما دام منعماً عليهم : ما أجود يده ! وهو عن ذات الله بخيل .

وفي وصيته لولده الإمام الحسن (ع) : أحمل نفسك من أخيك عند صرمة على الصلة وعند صدوده على اللطف والمقاربة ، وعند جموده على البذل ، وعند تباعده على الدنو ، وعند شدته على اللين ، وعند جرمه على العذر حتى كأنك له عبد وكأنه ذو نعمة عليك . وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله .

وجاء في الحديث عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع) ، في وصيته لولده : يا بني اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله فإن لم يكن من أهله فأنت من أهله .

فكيف نوفق بين كلامي هذين الإمامين من أئمة أهل البيت

(ع) ، وهل يمكن أن يختلف لديهم الرأي ، ما دمنا نعرف أن كلامهم واحد لا يختلف أولهم وآخرهم فيه .

ج ٤ - الذي يبدو لنا - من خلال المقارنة بين الكلامين - هو اختلاف موضع كل منهما .

فالإمام علي (ع) ينطلق في كلمته الأولى من فكرة الإيحاء للإنسان بضرورة اختيار بذل المال الذي يملكه في المواضع التي يقوي فيها الخير ، ويثمر فيها العطاء بدلاً من المواضع التي تشجع الشر ، ولا تنتج أي نتيجة صالحة سوى ما يتزلف به المتزلفون من كلام لا يجدي الباذل شيئاً .

فالكلمة تتجه في اتجاه أولئك الذين يبخلون بأموالهم عن سبيل الله ، ويبذلونها في سبيل الشيطان طمعاً في المدح والثناء وما إلى ذلك .

ويشير إلى ما قلناه ، كلمة الإمام في ختام الحديث : وهو عن ذات الله بخيل ثم قوله : بعد ذلك .

فمن آتاه الله مالا فليصل به القرابة ، وليحسن منه الضيافة ، وليفك به الأسير والعاني ، وليعط منه الفقير والغارم ، وليصبر نفسه على الحقوق والنوائب ابتغاء الثواب فإن فوزاً بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ودرك فضائل الآخرة .

فنحن نلاحظ ان الإمام (ع) يريد أن يقارن بين مواضع العطاء ، ويفضل جانب الخير على جانب الشر .

أما كلمته الثانية : فتنتهي عن التسامح مع الذين يواجهون الإنسان بالصدود والقطيعة والشدة والتباعد اذا كان التسامح يزيد غلوائهم

وانحرافهم ويوحى لهم - على أساس العُقْد النفسية المركبة فيهم - أن ذلك الموقف المتسامح يمثل نقطة ضعف لدى صاحبه .

وبذلك يفقد الموقف الخَيْر معناه ، ويتحول الى موقف يغذي عقدة الشر لدى الشرير ، بدلا من أن يوقظ في قلبه معاني الخير والمحبة والسلام . الأمر الذي لا يجعل القضية في صالح المجتمع بأسره حتى هذا الشخص المنحرف الذي قد يخيل إليه أن أساليبه المنحرفة تمنحه خضوع الآخرين واحترامهم وتواضعهم وبالتالي تزيده أمعانا في ضلالة وعناده .

أما كلمة الإمام زين العابدين (ع) فإنها توجه الإنسان في اتجاه آخر ، فتوحى له ، بأن يستثير طبيعة العطاء في نفسه دون أن يلقي بالا الى طبيعة الانسان الذي يعطيه . . هل يستحق العطاء . . على أساس الأعمال التي قدمها هذا الإنسان في مجتمعه ليستحق من خلالها تقدير المجتمع واحترامه .

او انه لا يستحق العطاء لأنه لم يقم بأية خدمة تؤهله لذلك كله . . . وعلى ضوء ذلك فإن الفكرة التي تعالجها كلمة الإمام زين العابدين (ع) هي ان على الانسان في الحياة أن يعيش - في داخله - روح العطاء والبذل والخير للآخرين بعيداً عن الشعور بانطلاق العطاء عن عوض يقابله تماماً كما تعطي الشمس النور ، وكما يفيض ينبوع بالماء انطلاقاً من الطبيعة الذاتية للعطاء .

ولعل أقرب شيء الى هذه الكلمة الدعاء المأثور عن أهل البيت (ع) : « اللهم ان لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فرحمتك أهل أن تبلغني وتسعني لأنها وسعت كل شيء يا أرحم الراحمين » .

فالأهلية وعدمها ، هي أهلية الاستحقاق على أساس العمل لا أهلية العطاء من حيث تقبل العطاء بروح إيجابية واعية خيرة .

وخلاصة الحديث : أن الإمام علياً أمير المؤمنين (ع) ينهي عن صنع المعروف مع غير أهله ممن يضرهم أسلوب المعروف لفقدانهم الروح التي تتقبله بوعي .

اما الإمام علي زين العابدين (ع) فإنه يطلب صنع المعروف مع أهله ومع غير أهله ممن لا يستحقون المعروف لأنهم لم يقدموا شيئاً يمنحهم هذا الاستحقاق ، ولكنهم يتقبلونه ويتفنون به . اذا قدم اليهم . ومما يؤكد هذا التفسير الحديث المروي عن الإمام زين العابدين (ع) في رسالة الحقوق :

« واما حق من ساءك فإن تعفو عنه فإن رأيت ان العفو يضره انتصرت » .

وهكذا يلتقي الحفيد الكريم بالجد العظيم ، في رسالة الخير والمحبة والعطاء من أجل الحياة على أساس متين من الوعي في ملتي القيم .

س ٥ - هل نستطيع أن نعرف كيف كانت نشأة الطبقة الثانية في الإنسان ، وكيف تناسلت .

فهل تزوج أولاد آدم - ذكوراً واناثاً - اخوانهم وأخواتهم ، أو ان الله خلق لهم خلقاً آخر من السماء او الأرض فزوجهم منه كما تحدثنا بعض الروايات .

والسؤال هنا : كيف يسمح في بدء الخليقة - على أساس

الافتراض الأول - بتزويج الأخوة من الأخوات من الوجهة الدينية التي تحرم هذه العلاقة - كما نعلم - وتعتبرها علاقة غير شرعية .

ج ٥ - ربما نميل إلى اختيار الافتراض الأول - وهو أن الخليقة تطورت في المراحل الأولى من خلال العلاقة الزوجية الطبيعية بين الأخوة والأخوات من ولد آدم .

وقد نستطيع فهم هذا الرأي من القرآن الكريم كما حاوله بعض المفسرين - في تفسير الميزان - في قوله سبحانه وتعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً .

[سورة النساء : ١] .

فقد يظهر من قوله تعالى : « وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، انتهاء النسل إليهما لأنه جعلهما مصدر النسل الوحيد ، دون ان يحصل هناك عنصر آخر .

وليس في ذلك أي مخالفة للقوانين الطبيعية وإنما هو مخالف للشرائع السماوية التي حرمتها مؤخراً للمحافظة على المصلحة الإنسانية في استقرار الأسرة وعدم تعرضها للمشاعر الغريزية بين الأخوة والأخوات الذين يكثُر الاجتماع فيما بينهم بطبيعة جو الأسرة ونظامها وقد كان حلالاً قبل ذلك وإذا كانت شرعية العلاقة وعدم شرعيتها تابعة للحكم الشرعي الصادر من الله فلا مانع من أن يحلل الله شيئاً لمصلحة في ذلك ، كإحصار مبدأ النسل في آدم وزوجته فتكون العلاقة بين الأخوة والأخوات شرعية في ذلك الوقت .

ثم يأتي التحريم لأن المصلحة النوعية للانسان التي تدور حولها الاحكام والتشريعات ، تقتضي التحريم من أجل إيجاد الحواجز النفسية في داخل الاسرة بين أفرادها المباشر كالأخوة والأخوات والآباء والبنات ، لتستمر الأسرة بعيداً عن انفعالات الغرائز وفوضى الفحشاء ، فإن من الطبيعي أن الجو الحميم الذي تخلقه الألفة في أطار الأتصال المباشر داخل المنزل في كل وقت ، قد يؤدي إلى شيوع الفحشاء فيما بينهم ، لولا الحواجز النفسية التي يخلقها التشريع في نفوس الجميع .

وتتضح الفكرة تماماً في حديث الاحتجاج الذي ورد عن الإمام زين العابدين (ع) في حديث له مع قرشي يصف فيه تزويج هاويل بلوزا اخت قابيل ، وتزويج قابيل بأقليما أخت هاويل :

قال له القرشي : فأولداهما؟ . قال : نعم فقال له القرشي فهذا فعل المجوس اليوم ، قال : فقال ان المجوس فعلوا ذلك بعد التحريم من الله . ثم قال : لا تنكر هذا انما هي شرائع الله جرت ، الحديث .

ويعلق صاحب تفسير الميزان - على هذا الحديث فيقول :

وهذا الذي ورد في الحديث هو الموافق لظاهر الكتاب والاعتبار . وهناك روايات أخر تعارضها وهي تدل على أنهم تزوجوا بمن نزل إليهن من الحور والجان وقد عرفت الحق في ذلك .

الحلقة الخامسة

النقدُ والنقدُ الذاتي في الاسلام
و
لكلِّ سؤالٍ جوابٌ

- النقد والنقد الذاتي في الاسلام .
- لكل سؤال جواب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١]

بين يدي الحديث :

في حديثنا هذا .. نحاول الوصول الى فكرة موضوعية كاملة عن النقد بصورة عامة ، سواء منه الذي يتجه الى حياة الناقد ، أو الذي يقتحم حياة الآخرين .

ثم .. عن النقد الذاتي ، بصورة خاصة ، هذا الذي يعني الوقوف وقفة هادئة مع الذات في عملية اكتشاف للداخل ، من أجل معرفة مواطن الضعف ومواطن القوة ، فيها ، للوصول الى فهم أفضل لمنطلقاتها وحركاتها ، والحصول على وعي دقيق لأفكارها ومشاعرها كأساس لتقييم الذات من خلال طبيعة العمل ، أو تقييم العمل من خلال دوافع الذات .

* * *

وليس هذا الحديث الا محاولة متواضعة لاعطاء صورة واضحة عن حاجتنا الملحة الى هذا الاسلوب العملي في مواجهة واقعنا الذاتي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والفكري ، لان ذلك هو السبيل

الأمثل الذي ينبغي أن تسلكه عملية النمو والتطور في حياتنا العامة والخاصة ، لتتلافى كثيرا من الأخطاء والانحرافات التي قد تضيع معالمها في الطريق اذا لم تلاحقها عين الناقد ولم يناقشها فكره .

* * *

وإذا كان ذلك يعتبر حاجة ملحة ، فلا بد أن يكون للإسلام فيها رأي حاسم ينطلق به في ميادين التوجيه والتشريع ، ليرسم للإنسان الحدود التي لا يجوز له أن يتخطاها في تحقيق الهدف ، وليخطط له الطريق التي تصله بالغاية دون مضاعفات أو ملاحظات . . نظرا الى اختلاف الاساليب حسب اختلاف الأهواء الشخصية والاجتهادات الخاصة التي قد تذهب بالنقد مذاهب شتى تبتعد به عن هدفه ، وتتيه به عن مراميه .

* * *

وهكذا نجد أن هذا الحديث هنا ، لا يستهدف رسم صورة مجردة عامة ، بل يحاول إعطاء الصورة الحية للمفهوم الاسلامي للنقد من خلال تصور الاسلام للحياة ، ويعمل على اكتشاف الاسلوب العملي الذي يجسد له الصورة في الواقع ، ويحوّلها الى عمل وحياة . . لنصل من خلال ذلك الى الفكرة الاصلية الشاملة التي تقرر للحياة كل خطواتها الفكرية والعملية على أساس الاسلام ، انطلاقا من الحقيقة التي تفرض شمول التشريع الاسلامي لجميع الجوانب الحياتية للإنسان ، لئلا يضيع في متاهات النظريات المختلفة ، ويفرق في خضمّ التيارات غير الاسلامية ، فيستسلم للحيرة القاتلة التي تعقد له نفسه ، وتشوّه روحه وتفقدته الثقة بكل شيء .

* * *

ما هو النقد ؟

للنقد في كتب اللغة عدة معان ، ولكن أبرزها معنيان يرتبطان
بحديثنا هذا :

١ - التمييز بين الجيد والرديء من الدراهم والدنانير ، فيقال :
نقدت الدراهم وانتقدتها اذا أخرجت الزيف منها .

٢ - العيب والثلم والتجريح ، فيقال : نقدت رأسه باصبعي اذا
ضربتة ، ويذكرون شاهدا عليه حديث أبي الدرداء « ان نقدت الناس
نقدوك وان تركتهم تركوك » أي : ان عبتهم او اغتبتهم قابلوك بمثله .

* * *

ولعل المعنى الثاني ، هو المعروف الشائع من هذه الكلمة ، فقد
استعمل النقد في معنى تعقُّب الأدباء والفنيين والعلماء والدلالة على
أخطأهم واذاعتها قصد التشهير أو التعليم ، وشاع هذا المعنى في
عصرنا هذا وصارت كلمة النقد اذا أطلقت فهم منها الثلم ونشر
العيوب والمآخذ (١) .

ولهذا اعتبر النقد في كثير من المجتمعات مظهراً من مظاهر
العداوة والبغضاء وسبيلاً من سبل الاهانة والايذاء ، لأنه يمثل البحث
عن عيوب الشخص من أجل إظهارها للناس كوسيلة من وسائل التحقير
والتشهير .

أمّا المعنى اللغوي الاول ، فلعله أنسب المعاني وأليقها بالمراد

(١) أصول النقد الأدبي صفحة ١١٥ لأحمد الشايب .

من كلمة النقد في الاصطلاح الحديث من ناحية ، وفي اصطلاح أكثر المتقدمين من ناحية اخرى فان فيه معنى الفحص والموازنة والتمييز والحكم .

واذا ما وقفنا عند ما يقوله الثقات من النقاد رأيناهم لا يجاوزون هذه المعاني في حدّ النقد وفي ذكر خواصه ووظيفته .

فالنقد : دراسة الاشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها المشابهة لها او المقابلة . . ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها . . يجري هذا في الحسّيات والمعنويات ، وفي العلوم والفنون وفي كل شيء متصل بالحياة (١) .

* * *

ونحن هنا . . عندما نريد الحديث عن النقد والنقد الذاتي في الاسلام . . لا نريد ان نخص به معنى واحداً من هذين المعنيين ، فان لنا موقفاً مع كل منهما في شريعة الاسلام لأن كلا منهما يعبر عن مظهر حيٍّ من مظاهر السلوك الانساني في الحياة .

فهنالك الذين يعتبرون عملية النقد وسيلة من وسائل التشهير والتحقير والتخريب والتهديم ، كنتيجة طبيعية لحالة الحقد والبغضاء التي يعيشها الناقد ازاء الآخرين ، وهناك الذين يعتبرون النقد عملية تقييم للمواقف ، وتصحيح للسلوك ، من اجل وضع كل شيء في موضعه ، وإعطاء كل عمل قيمته ، وتمييز الخطأ من الصواب والصحيح من الفاسد . . انطلاقاً من الرغبة الذاتية في البناء والتركيـز واستقامة الخطى في طريق الحق .

(١) المصدر السابق - نفس الصفحة .

وإذا كانت الحياة تحتضن كلا هذين النموذجين ، فلا بد لنا من أن نفق معهما لتتعرف موقع اقدمنا في الطريق عندما نريد السير مع كل منهما فيما يحطط وفيما يريد ، لنعرف كيف نحفظ خطانا من الانحراف في غير طريق الله .

[٣]

النقد في نطاق التشهير :

أما الحديث عن النقد الذي ينطلق من مفهوم العيب والثلم والتجريح ، وموقف الاسلام منه . . . فقد نجد الكثير منه ومن احكامه في الاحاديث التي عرضت للغيبة واحكامها ، وللتعير والبهتان والتفتيش عن عثرات المؤمنين وزلاتهم وغيرها من المواضيع التي تلتقي عند نقطة واحدة ، هي محاولة التعرف على عيوب الانسان ونقائصة . . ثم مواجهته بها في حضوره ، او الحديث عنها في غيبته بما يكشف عن سره ويحط من قدره .

* * *

ولكي تبدو الفكرة واضحة أمامنا ، لا بد لنا من ان نطرح أمامنا عدة علامات استفهام تناقش اصل القضية وتبحث تفاصيلها . . وعلى هدى الاجوبة ، تتحدد النتائج ، وتتضح ملامح الفكرة .

أ- كيف ينظر الإسلام إلى الحياة الذاتية للانسان المسلم من خلال اعتبارها منطقة محرمة على الآخرين لا يجوز للآخرين اقتحامها أو الاقتراب منها وتسلق أسوارها ، أو منطقة مفتوحة يحق لكل إنسان اختراقها دون استئذان .

ب- هل يحق للانسان ان يواجه المؤمن بعيوبه وزلاته في أية حالة من الحالات ؟

ج - هل يحل لنا أن نتحدث عن الناس - في غيابهم - بما نعرفه عنهم من نقاط الضعف ؟ . . . وإذا كان ذلك حراماً ، فهل يختلف الحكم باختلاف الدوافع النفسية التي تدفع إلى مثل هذا الحديث ؟

د - متى يمكن اعتبار التشهير والتجريح ونشر عيوب الناس عملاً أخلاقياً وشرعياً ؟ وهل يختلف الحكم حسب اختلاف الحالات التي تحيط بأجواء النقد ؟

* * *

[٤]

حماية الاسلام حياة الانسان الذاتية :

ما هي نظرة الاسلام الى حياة الانسان الخاصة ؟ هل هي منطقة مفتوحة للناس أو هي منطقة محرمة عليهم ؟
والجواب عن ذلك ، ان لكل انسان حرمة مقدسة ، في نظر الاسلام ، فليس لأي شخص ان يقتحم حياته الخاصة دون رضاه ، أو يعتدي على أسرارها دون اذنه ، لان ذلك هو معنى احترام حرمة وكرامته التي قررها القرآن الكريم ، فله أن يمارسها ويحافظ عليها دون ان يملك الآخرون حق التدخل فيها بضغط أو في نطاق الشعور العام بالمسؤولية .

ولهذا حرّم الاسلام التجسس على حياة الآخرين في قوله تعالى في سورة الحجرات « ولا تجسسوا . . » لان في التجسس اعتداء على حرية الانسان في الاحتفاظ بأسراره الخاصة ، وحمايتها من الآخرين .
وجاء في الحديث الشريف ، النهي عن محاولة التحقق والتثبت من الظنون التي تتعلق بحياة انسان ما ، في أي جانب من جوانب حياته .

« اذا تطيّرت فامض ، واذا حسدت فلا تبغ ، واذا ظننت فلا تحقق . . . » لان محاولة التأكد من صحة ظنونك وفسادها تعتبر عدوانا على حياة هذا الانسان الخاصة ، من دون ضرورة تدعو الى ذلك سوى إشباع غريزة الفضول في داخل ذاتك .

وربما تعتبر بعض احاديث ائمة أهل البيت (ع) إحصاء زلات المؤمن ، من أجل تعبيره بها بعد ذلك ، من أقرب الامور الى الكفر ، ومن أبعد الاشياء عن الايمان .

ففي حديث للامام محمد الباقر (ع) : أن أقرب ما يكون العبد الى الكفر أن يؤاخي الرجل الرجل على الدين فيحصي عليه زلاته ليعنفه بها يوماً ما .

وفي حديث الامام جعفر الصادق (ع) قال : أدنى ما يخرج به الرجل من الايمان أن يؤاخي الرجل الرجل على دينه فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعيره بها يوماً ما .

بل قد نجد في بعض النصوص الدينية ما يحرم على الانسان المؤمن التحدث عن اسراره الخاصة التي تهدم كيانه وتهتك حرمة ، لانه لا يجوز للانسان ان يهتك حرمة نفسه . كما نجد في نصوص أخرى الارشاد للمؤمن الى الاستتار بالمعصية فيما اذا ابتلي بها ، لان الله لا يريد للانسان أن يفضح نفسه فقد ورد في الحديث : « اذا بليتيم بالمعاصي فاستتروا . . . »

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نقرر حماية الاسلام لحياة الانسان الخاصة ، فلا يمكن أن نجعل الفضول الشخصي مبرراً لاقتحام أسوار هذه الحياة .

وبهذا التشريع يغلق الاسلام باباً كبيراً من أبواب النقد الشهيري الذي يدور في نطاق العيب والتجريح ، لانه يمنع الانسان من تغذية المعرفة الشخصية بعيوب الناس وأسرارهم التي يتعمدون اخفائها ويرفضون السماح للآخرين بالاطلاع عليها ، ولا يبقى له الا ما يطلع عليه من طريق الصدفة ، أو ما ينقله الآخرون اليه .

ولا فرق في ذلك بين الصحفي وبين غيره ، فكما لا يجوز للذين لا يمارسون الصحافة أن يتلصصوا على حياة الناس الخاصة لمجرد إشباع الفضول الذاتي ، كذلك لا يحل للصحافيين ممارسته لمجرد إشباع الفضول الصحفي الذي يحاول التعرف على أكبر قدر ممكن من حياة الافراد الذين يعملون في الحقل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، من أجل تزويد الصحيفة بالمادة الدسمة من أخبار المجتمع أو السياسة أو الاقتصاد ، طمعاً في زيادة عدد القراء التي تتبع كمية الفضائح الخاصة والعامة التي تنقلها هذه الصحيفة أو تلك .

* * *

[٥]

مواجهة الانسان بعيوبه :

ونقف من جديد امام السؤال الثاني :

هل يحق لنا ان نواجه الانسان بعيوبه وزلاته في أية حالة من الحالات ؟

ولعل الجواب عن ذلك يختلف حسب اختلاف الدوافع التي تدفع الانسان الى هذه المواجهة ، او الأجواء النفسية التي يخلقها الحديث في نفس الطرف الآخر .

فقد يكون الدافع الذي يدعونا الى مواجهة الانسان بعيوبه ، هو النصح والتوجيه والارشاد من أجل أن يصحح هذا الانسان موقفه الخاطيء ، أو يغير طريقه المنحرف .

وربما يكون الدافع هو التعيير والتحقير او الايذاء والاهانة من اجل ان يحطم له شخصيته ، أو يخفف من شعوره بالكرامة .

ففي الحالة الاولى : نجد التشريع الاسلامي يتجه الى تشجيع مواجهة الانسان أخاه المؤمن بالاحاديث التي تكشف له عن عيوبه وأخطائه لتأخذ بيده الى الطريق المستقيم وتبعد به عن الطريق المنحرف ، لان ذلك يمثل الاسلوب العملي لتعاون المؤمنين مع بعضهم على تسديد خطاهم وتقوية شخصياتهم ، وتنمية ذواتهم في الاتجاه الصحيح انطلاقا من الفكرة الاسلامية التي عبر عنها الحديث الشريف الذي يخاطب كل مؤمن .

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . . . »

هذا من جهة .

ومن جهة اخرى نلتقي بالحقيقة الاجتماعية التي ترى أن انحراف الفرد يترك أثره الكبير على استقامة المجموع لما يحدثه من آثار سلبية على حركة المجتمع ونموه ، كنتيجة طبيعية للارتباط العضوي بين المجتمع وأفراده .

وقد حاولت النصوص الدينية التركيز على النقد في هذا الاتجاه

بأسلوبين :

احدهما : يدعو الناقد الى أن يقوم بهذه المهمة الصعبة تجاه اخوانه المؤمنين بروح ايجابية واعية تنطلق في طريق البناء لا الهدم ،

الامر الذي يجعل من عملية النقد عملية نصح وتوجيه .

ثانيهما : الاسلوب الذي يدعو الشخص الذي يواجهه بالنقد الى أن يشعر بالامتنان تجاه الناقد ، ويتحسس بالروح الخيرة التي تملي عليه نقده ، ويوجهه الى مطالبة اخوانه بأن يواجهوه بعيوبه ليقوم باصلاحها ، كما يواجهونه بحسناته ليستزيد منها دون أن يجد في نفسه أي رد فعل معاكس ازاء ذلك .

أما الاسلوب الاول : فيتمثل في الاحاديث المأثورة عن النبي محمد (ص) وعن أئمة أهل البيت (ع) التي تتحدث عن حقوق المسلم على المسلم .

فمن ذلك الحديث الشريف المأثور عن النبي محمد (ص) الذي ذكر فيه ثلاثين حقاً للمسلم على المسلم وجعل من تلك الحقوق . . أن يديم نصيحته .

ومن الواضح . . أن النصيحة تكون بتوجيه الانسان الى المواقف الصحيحة بدلا من المواقف الخاطئة ، كما تكون باعطاءه الرأي الحق في حالة المشورة .

ومن ذلك الاحاديث الشريف التي اعتبرت المؤمن مرآة أخيه ، كما في الحديث النبوي الشريف :

« المؤمن مرآة أخيه يميظ عنه الاذى . . . »

والحديث المأثور عن الامام جعفر الصادق (ع) :

« المسلم أخو المسلم هو عينه ومرآته ودليله . . . »

وفي حديث آخر عنه - وهو يعدد حقوق المؤمن على المؤمن - :

« الحق الرابع : ان تكون عينه ودليله ومرآته . . . » .

ولعلنا نقف من هذه الاحاديث على طبيعة الروح التي يعيشها
الانسان المؤمن تجاه أخيه من خلال التعبير بالمرآة .

فنحن نعرف أن مهمة المرآة ان تكشف للانسان عيوب وجهه في
نظافته واناقة بكل وضوح ، دون أي تأثير سيء ، بل كل ما هناك ان
تثير في نفسه الرغبة في الاصلاح والتغيير ، وبعبارة أدق : ان تضعه
وجها لوجه امام العيب في صورته أو الخطأ في اناقته ليتولى - بعد ذلك
- مهمة اتخاذ الموقف المناسب .

فاذا اعتبرنا المؤمن مرآة لأخيه ، وأضفنا اليه - بعد ذلك - أن
يكون عينه ودليله فس نجد أنفسنا نواجه الاساس النفسي للنقد ، وهو ان
ينطلق النقد عن قصد صحيح يستهدف تعريف الانسان ما لا يستطيع
معرفة - بنفسه - بسهولة ، تماما ، كما هي عيوب الوجه التي لا
يستطيع التعرف عليها بدون المرآة ، أو كما هي عيوب الاعمى التي لا
يتمكن من الاطلاع عليها بواسطة عيون الآخرين .

وعلى ضوء ذلك : نعرف حاجتنا الى الشعور بالمحبة في عملية
النقد ، تماما ، كما هو شعور الانسان الذي يحاول أن يدل الاعمى
على عيوب وجهه التي لا يراها ليكون له بمثابة العين التي يبصر بها .

أما الاسلوب الثاني : فيتمثل في الحديث الشريف المأثور :

« رحم الله امرءاً أهدي الي عيوبي » .

فهو يوحي لنا أن يكون شعورنا واحساسنا الذاتي ازاء الانسان
الذي يقدم لنا عيوبنا وأخطاءنا على طبقٍ من محبة ونصيحة ، كشعورنا

ازاءه عندما يقدم لنا حسناتنا ومآثرنا ، أو هدية ثمينة من المطعم والملبس أو غير ذلك ، في الاحساس بالامتنان لان قيمة الهدية انما تكون بمقدار ما تحل للانسان مشكلة أو تجلب له منفعة على اساس حاجاته الغريزية أو رغباته الذاتية .

ولن يكون هناك أسمى من ان يقدم له عيوبه التي تشوّه له روحه وتحطم كرامته من أجل أن يتفادى ذلك فيعيد الى روحه صفاءها ونقاءها ، والى كرامته قوتها وسلامتها .

وربما نجد بعض ملامح هذا الاسلوب ، في الحديث المتقدم الذي اعتبر المؤمن مرآة أخيه لانه في الوقت الذي يدعو المؤمن الى أن يقوم بدور المرآة الداخلية تجاه عيوب أخيه الذاتية كما تقوم المرآة بكشف العيوب الخارجية .

كذلك يوحي للمؤمن الآخر أن يعتبر اخوانه مرآة له ، ويتعامل مع نصائحهم وتوجيهاتهم ، كما يتعامل مع المرآة فيدعوهم الى نقد صفاته وأعماله ، كما يدعو المرآة الى كشف أخطاء نظافته وأناقته .

ولا يقتصر هذا الاسلوب على الحديث الشريف بل يتعداه الى الدعاء الذي يدعو به الانسان ربه ، فنجد في دعاء مكارم الاخلاق الفقرة التالية :

« . . . ووفقني لطاعة من سدّدني ومتابعة من أرشدني . . . » .

فهي تعتبر السير على هدى النقد في عملية التغيير الداخلي والاصلاح العملي حاجة دينية وانسانية تحتاج الى مزيد من توفيق الله ورعايته ، مما يجعل الانسان يحس بالرغبة الروحية الى أن يطلب ذلك من ربه في خشوع العبادة وروحانية الدعاء .

وخلاصة الحديث : ان الاسلام يحاول أن يوجه الناقد والمنقود ، الى ان يواجهها عملية النقد بروح واعية مخلصه ، ينطلق معها الناقد ، ليكتشف أخطاء الآخر بعوي ومحبة ، وينسجم معها المنقود ، ليشعر بالامتنان لذلك ، وليبدأ عملية التغيير على هذا الاساس .

* * *

وأما الحالة الثانية : وهي الحالة التي يتجه فيها النقد الى التحقير والإيذاء ، فتتحول المواجهة الى أسلوب حاقد يستهدف التحطيم فحسب .

أما هذه الحالة ، فنجد التشريع الاسلامي يرفضها رفضا قاطعا ، فلم يعط الانسان هذا الحق ولم يمنحه هذه الحرية .

نجد الاشارة الى ذلك في الحديثين المتقدمين عن الامامين الباقر والصادق (ع) ، اللذين اعتبرا إحصاء الإنسان زلّات أخيه المؤمن بداعي التعيير والتعنيف والإيذاء . من أقرب الاشياء الى الكفر ، ومن أبعد الامور عن الله .

وقد نلمح الاشارة الى ذلك في جميع الاحاديث التي تشجب ايداء المؤمن وتحقيره واذلاله بأي أسلوب من الاساليب .

وربما نتعرف على ذلك في حديث الامام جعفر الصادق (ع) .

« من أنّب مؤمناً أنّب الله عز وجل في الدنيا والآخرة » .

وفي حديث آخر عنه :

« من غير مؤمنا بذنب لم يمت حتى يرتكبه » .

وقد يكون السر في هذا الرفض ، وهذا التشديد ، هو تركيز

الاسلام على بناء العلاقات الانسانية بين المؤمنين على أساس احترام كرامة الانسان ، لان ذلك هو الذي يخلق عنده الشعور بانسانيته وبالتالي : يساهم في حفظ قيمة تلك العلاقات وتنميتها واستمرارها وحيويتها ودورها الايجابي في خلق المجتمع الاسلامي الصحيح الذي يرتكز على قاعدة متينة من المعرفة والمحبة والاحترام المتبادل ورعاية حقوق الجميع .

[٦]

النقد الغيابي أو الغيبة :

هل يحل لنا أن نتحدث عن الناس في غيابهم بما نعرفه عنهم من عيوب ونقائص ؟ وهل يختلف الحكم حسب اختلاف الدوافع ؟

* * *

هذا هو السؤال الثالث الذي يطرح نفسه علينا في محاولتنا لمعرفة الموقف الاسلامي من النقد - بمعنى العيب والثلم والتجريح - في حالة حصوله في غيبة الانسان . . هذا الذي تصطلح عليه الاحاديث المأثورة وكلمات الفقهاء ، باسم الغيبة .

ونحاول استحداث كلمة أخرى تنسجم مع حديثنا هذا ، لنصطلح عليه اسم « النقد الغيابي » وسواء جرينا على كلمة الغيبة ، أو « النقد الغيابي » فان الحكم واحد ، وهو الرفض الحاسم له في القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ففي القرآن الكريم تواجهنا الآية التي عرضت للغيبة وتحريمها بأسلوب يتحرك بطريقة رائعة ليثير في النفس القرف والاشمئزاز من الجو النفسي الذي حاولت الآية ان تضعه فيه .

قال تعالى : « ولا يفتب بعضكم بعضا أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ... »

تلك هي الصورة الحقيقية للغيبة .. أن يموت أخوك ، وتقف انت أمام جنازته .. والسكين في يدك تعمل في كلّ جانب من جوانب جسمه ، فتقطع جزءاً من هنا ، وجزءاً من هناك .. ثم تبدأ عملية التهام قطع اللحم الميتة ، لحم أخيك .. في نهم الجائع ولذته .

هل رأيت أبشع من هذه الصورة وأفظع ؟

وهل عرفت تعبيراً عن الوحشية والقساوة ، أوضح من هذا الانسان الذي يتحرك داخل اطارها ؟

فاذا ارتفع عندك الاحساس بالفظاعة ، والشعور بالبشاعة الى القمة .. فتعال الى الصورة المماثلة ، ثم انظر .. هل تحس معها بنفس الاحساس ، او تشعر بذات الشعور .

انها صورة اخيك الغائب عنك ، وصورتك - أنت - عندما تقف أمام حياته بكل ما فيها من عيوب ونقائص واخطاء .. وتبدأ العملية ذاتها في اتجاه آخر .

فالجثة هي كرامته وسمعته وشخصيته ، والسكين هنا كلماتك التي تقطع اوصاله تماما كالسكين .. وتنتهي القصة هنا ، كما انتهت هناك امام نهم الجائع ولذة المسعور .

ان الصورة هي الصورة مع اختلاف الخطوط والالوان .

فكرامة الانسان كجسده لها نفس الحرمة ، ونفس الحقوق ، وبهذا يلتقي نهش الكرامة بنشر العيوب ، بنهش الجسد ، بالتهام قطع اللحم الميت .

ان الصورة هي الصورة ، ولكن لماذا لا نشعر بالبشاعة مع هذه
كما نشعر ببشاعة تلك .

ربما يرجع ذلك الى اننا نتأثر عادة بالجانب الحي المحسوس
من الحياة ، اكثر مما نتأثر بالجوانب المعنوية ، ولذا اعتبرت الصورة
المحسوسة وسيلة من وسائل الايضاح للصورة غير المرئية في الحياة .

* * *

أما في الحديث الشريف ، فنجد في احاديث السيرة النبوية ، أن
الرسول الاعظم (ص) قال :

« الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الاكلة (١) في
جوفه » .

وفي حديث آخر عنه في وصيته المأثورة لأبي ذر (رض) :

« يا أبا ذر اياك والغيبة ، فان الغيبة أشد من الزنا ، قلت : ولم
ذلك يا رسول الله » ؟

قال : لان الرجل يزني فيتوب الى الله فيتوب الله عليه . والغيبة
لا تغفر حتى يغفرها صاحبها . يا أبا ذر : سباب المسلم فسوق ،
وقتاله كفر ، وأكل لحمه من معاصي الله . . .

* * *

(١) الأكلة : داء في العضو يأكل منه .

ما هي الغيبة :

جاء في الحديث عن الرسول الاعظم (ص) - جوابا عن سؤال
أبي ذر ، ما الغيبة - :

« انها ذكرك أخاك بما يكره »

ويتكرر السؤال من أبي ذر :

فإن كان فيه الذي يذكر به ؟

ويجيب الرسول فيما يقول الحديث :

« أعلم انك اذا ذكرته بما هو فيه فقد اغتبتّه ، واذا ذكرته بما
ليس فيه فقد بهتّه » .

وجاء في حديث الامام جعفر الصادق (ع) قال :

« ان من الغيبة ان تقول في أخيك ما ستره الله عليه ، وان من
البهتان أن تقول في أخيك ما ليس فيه » .

* * *

وعلى ضوء هذين الحديثين الشريفين . . نستطيع أن نعرف خطأ
الفكرة القائلة : ان كلمة الغيبة تعبر عن الحديث الذي تتحدث به عن
انسان ما في غيبته بذكر بعض العيوب أو النقائص التي تلتصقها به
الصاقا دون أن يكون لها اساس من الحق ، أو وجه من وجوه
الصدق .

ولعل هذه الفكرة الخاطئة عن مفهوم الغيبة هي التي توحى
للمغتاب أن يبرّر غيبته بأنه لا يتكلم الا حقا ، معتقداً أن الغيبة تمثل

الحديث الكاذب .

إن الحديثين الشريفين يحددان لنا مفهوم الغيبة ، بالعيب المستور الذي يعيش في واقع حياة الانسان .

أما العيب الذي ليس فيه ، فهو البهتان بعينه . . هذا الذي يجمع بين الكذب من جهة ، وإيذاء المؤمن من جهة أخرى .

* * *

[٨]

هل للدوافع السيئة دور في التحريم ؟

ويحاول البعض أن يربط الغيبة بدافع خاص فيعتبر للدوافع الذاتية دورا كبيرا في حرمتها . . فلكي نحكم بحرمتها لا بد لنا من أن نلمس النية السيئة لدى المغتاب ، كإرادة القدح والشهير والانتقاص .

أما إذا عرفنا خلو الحديث من النية السيئة ، وان لم يكن هناك نية حسنة أيضا ، كما إذا كان القصد من الحديث هو ملء الفراغ والتلهي بأقاصيص الناس وقضاياهم بكل ما فيها من خير وشر دون ان يكون هناك قصد غيره . . . أما إذا عرفنا ذلك فلا مجال للحكم بالحرمة .

ويحاول هذا البعض أن يبرر هذه الفكرة بالحديث المروي عن الامام علي (ع) انه قال :

« من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعتة أذناه مما يشينه ويهدم مروءته فهو من الذين قال الله تعالى فيهم » : ﴿ ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم . . . ﴾ .

فقد لاحظ ان الحديث جعل الغيبة في نطاق حب شياع الفاحشة الذي توعدت عليه الآية بالعذاب والرغبة فيها . . الأمر الذي يعبر عن النية السيئة في الحديث .

وهكذا نحصل على النتيجة الحاسمة وهي أن الحديث الذي يخلو من ذلك لا تشمله الآية الكريمة .

* * *

ولكن هؤلاء أخطأوا فهم الآية ، فهي تعبر عن فعل ما يوجب شياع الفاحشة ، لان المسألة ليست مسألة حالة نفسية تتحدث عن الانسان من خلال دوافعه ونواياه لتصنف الناس الى صنفين ، صنف يعيش دوافع الخير في تصرفاته مع الآخرين ، وصنف يعيش دوافع الشر في علاقاته معهم . . بل المسألة مسألة حالة اجتماعية يراد منها حماية الانسان من اعتداء الآخرين على حياته الداخلية ، بفضح اسرارها ، وكشف ما فيها من نقاط الضعف ، ومواطن النقص ، كما يقصد بها حماية المجتمع من أجواء الفحش والسوء والضعف التي تثيرها احاديث المنكر والفحشاء التي تتحدث عن فضائح الآخرين وجرائمهم مما يسبب خلق الارضية الصالحة لهذه البذور في حياة المجتمع، واذا كانت القضية كما عرضناها ، فلا يعود للقصد أي دور في هذا الموضوع الا من حيث اعتباره احد العناصر التي تهيء لمثل هذه الاحاديث ، تماما كبقية الاسباب التي تدعو لها ، مثل الرغبة في ملء الفراغ بما يتيسر من الحديث أياً كان لونه وطبيعته ، كما يحدث للكثيرين الذين يفقدون العمل الجدي الذي يملأ أوقاتهم ، فيعمدون الى اضاءة الوقت بأي شيء دون التفات الى نوعيته ، فقد تكون المصادفة ان يحفظ هذا الانسان احاديث الآخرين التي تتعلق بأسرارهم

وعيوبهم فيحدث بها لانها الحديث الجاهز لديه لا لأهمية خاصة ، أو لرغبة معينة ، ولذا ، فلا مانع عنده من أن يتحدث بحديث آخر بعيد عن الموضوع أو قريب اليه ولكن بلون آخر يصور فيه حسنات الآخرين وأعمالهم الخيرة كما يقول الشاعر .

« يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما » .

وهكذا نجد ان النقد الغيبي لا ينطلق من مبدأ ارادة التحقير والتشهير والاهانة ، بل يتمثل في مجرد ذكر العيب ، والتحدث عن مواطن الضعف التي يكره الانسان ظهورها وشياعها سواء كان الدافع اليها سيئا أو لم يكن .

ان القضية أولا وأخيرا هي ارادة المحافظة على كرامة الانسان من أن تُهدر ، وسمعته من أن تحطم ، وأسراره من أن تُجعل عرضةً للامتهان ، بدافع العبث أو اللغو او غيرهما .

ان الاسلام لا يريد لحياة الانسان الخاصة أن تخضع لمزاج الآخرين وحاجتهم للتنفيس عما في داخلهم من كبت ، أو في حياتهم من فراغ وحرمان ، ولذا حرم كل عدوان عليها بالكلمة أو بالعمل . . . وذلك هو سر تحريم الغيبة فيما نظن .

* * *

[٩]

الحالات الاستثنائية للتحريم :

متى يمكن اعتبار التشهير ونشر عيوب الناس عملا شرعيا أو اخلاقيا ؟

وبتعبير أدق : هل هناك حالات استثنائية يحل فيها للانسان غيبة

هذا هو السؤال الرابع الذي نواجهه ونحن نعالج النقد في نطاق التجريح . . . وربما نجد المبرر لهذا السؤال في الحالات الكثيرة التي تواجهنا بشدة في أكثر من موقف ، فتفرض علينا التحدث عن عيوب الأخريين ونقاط ضعفهم من أجل قضايا حيوية جدا لا يمكن للفرد او المجموع اغفالها واهمالها في قليل أو في كثير . . لان ذلك يضر بالمصلحة العامة للناس ، ويؤدي الى انحرافات واسعة في حياتهم .

فماذا نفعل ازاء هذه الحالات ؟

هل ندعو الانسان الى أن يمسك عن الخوض في حديث الناس ، وليكن ما يكون ، وليحدث ما يحدث ؟ أو نطلق له الحرية فيما يتحدث عنه ، وفيما ينقده في نطاق القضايا التي تواجهنا في الطريق وان كان في ذلك تشهير بالأخريين واساءة لكرامتهم .

لا يمكن أن نختار الحل الاول ، لان معنى ذلك جمود التشريع امام الحالات الصعبة وفقدانه القدرة على الحركة في معالجة مشاكل الأخريين ، الأمر الذي يجعله بعيداً عن حياة الناس متعسفاً في حله العملية . . وهذا ما لا ينسجم مع دور التشريع الاساسي ، وهو الاخذ بحياة الناس الى اهدافه ببسر وسهولة ، فلا يشعر الانسان معه بالحرج والضيق ، ولا يجد حاجة حياتية تضطره الى التمرد عليه تحت ضغط المطالب الملحة التي تجابهه في حياته ، وانما يشعر بدلا من ذلك بالراحة والطمأنينة الى شريعته لانها انطلقت من الواقع كما هو ، ولم تنطلق من المثالية والخيال .

ولا يمكن للتشريع الذي ارتكز على أساس فهم الواقع ووعي

جذوره الا أن تستريح له الحياة ويستجيب له الناس في محبة وواقعية دون حاجة الى الشكوى منه أو الانحراف عنه .

وعلى ضوء هذا . . فلا بد للاسلام ، الذي جاء من أجل أن يرفع مستوى حياة الانسان على أساس واقعي ، أن يكون تشريعه منسجماً مع هذه الخطة وسائراً في هذا الاتجاه ، فلا يمكن له - والحالة هذه - أن يحرم علينا غيبة الآخرين أو تقدمهم في غيابهم عندما تمس الحاجة الى ذلك أو تدعو المصلحة اليه ، لان في هذا التحريم ابتعاداً عن علاج مشكلة الحاجة الملحة ، أو مراعاة المصلحة اللازمة . . وبالتالي يؤدي الى ايقاع الانسان في الحرج الشديد الذي نفاه الله تعالى في قوله : ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج . . . ﴾

ولهذا فمن الطبيعي أن نختار الحل الثاني : وهو اعتبار الغيبة في القضايا الحية التي تمس حياة الانسان في الصميم ، خارجة عن نطاق التحريم فلا حرج علينا في الحديث عن عيوب الناس في تلك الحالة ، أمام الله وان أدى ذلك الى التشهير والتحقير .

أما الحالات الاستثنائية للتحريم فقد ذكر الفقهاء بعضاً منها في كتبهم الفقهية وأفتوا بحليتها انطلاقاً من الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة .

١ - المتجاهر بالفسق ، وهو الذي يرتكب المعاصي جهاراً دون أن يحاول التستر فيها ، فلا حرج علينا في غيبته ، لأنّ تجاهره بالتمرد على الله يفقده حقه في احترام حياته ما دام لم يحترم ربه .

وقد جاء في الحديث الشريف عن الامام الصادق (ع) قال :

« اذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة » .

وربما يرى البعض خروج هذه الحالة عن الغيبة أساسا ، لأنها تمثل ذكر العيب المستور ، والتجاهر يتنافى مع الستر .

٢ - الظالم لغيره ، فيجوز للمظلوم غيبته .. وذلك ، لقوله تعالى :

لَا يُجِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ . [سورة النساء : ١٤٨] .

وقد نجد في بعض النصوص الدينية اعتبار اساءة ضيافة الضيف ظلما له ومبررا للتحديث عنه .

فقد جاء في تفسير العياشي عن الإمام جعفر الصادق (ع) حول الآية المتقدمة ، قال :

« من أضاف قوما فأساء ضيافتهم فهو ممن ظلم فلا جناح عليهم فيما قالوا فيه » .

ولعل السبب في ذلك هو اننا لو منعنا المظلوم من التحديث عن ظلمه لأغلقنا عليه باب الانتصار لنفسه ، أو الأخذ بحقه من ظالمه .. وفي ذلك حرجٌ كبير عليه من جهة ، وظلمٌ له من جهة أخرى ..

ثم .. ان السلبية في هذا الجانب تقتضينا احترام الظالم في ظلمه وتشجيعه عليه وهذا مناف لسماحة الاسلام وعدله وانطلاقه في اثاره الحرب ضد الظلم والظالمين .

وقد جاءت الآية الكريمة التي توضح هذا المعنى - بالاضافة الى

الآية السابقة - :

وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْكَ مِنْ سَبِيلٍ ۗ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .

[سورة الشورى : ٤١ - ٤٢] .

٣ - نصح المؤمن .. فتجوز الغيبة بقصد النصح فيها اذا توقفت

النصيحة عليها، كما اذا استشار انسان انسانا في تزويج امرأة أو في شراكة شخص ، او الارتباط به في أي جانب من جوانب الارتباط ، ولم يكن للمستشير مصلحة في ذلك ، لنقص في المرأة يعقد له حياته ، أو عيب في الشريك يفسد ماله ، أو مفسدة ، في هذا الارتباط أو ذلك . . فاننا - في هذه الحالة - نستطيع التحدث عن ذلك - لو لم يكن هناك مجال آخر - وان لزم منه اظهار عيوب هؤلاء بل لا يبعد جواز ذلك - في نظر بعض الفقهاء - ابتداءً بدون طلب أو استشارة اذا علمنا بترتب مفسدة كبيرة على ترك النصيحة .

ولعل الاساس في هذه الفتوى هو الاخبار الكثيرة التي تدل على لزوم النصيحة للمؤمن - وقد تقدم بعضها فيما قدمنا من حديث .

٤ - اذا قصد المتحدث بالغيبة ردع المغتاب عن المنكر فيما اذا لم يمكن الردع بغير ذلك . فاذا علمنا أن شخصا يشرب الخمر او يسرق الناس مثلا ، وكان مستترا في ذلك ، ولم نستطع ردعه عن الجريمة أو المعصية الا بالتشهير به والتحدث عنه بذلك امام الناس ، لان ذلك يشق عليه ، فيتركه ليسترد كرامته ويحفظ نفسه . . فيجوز اغتيابه بل قد يجب ، لمادل على وجوب النهي عن المنكر بأي اسلوب من الاساليب الممكنة .

٥ - اذا خيف على الدين أو الوطن من الشخص المغتاب فتجوز غيبته دفعا لهذا الضرر وذلك في الحالات التي نعلم فيها بانسان يتجسس لمصلحة العدو ، أو يدعو الى افكار مبتدعة أو نحو ذلك مما يضر بالدين أو الوطن ، فانه يجوز لنا أن نعمد الى كل اساليب التشهير التي تفقدهم الثقة والاحترام لدى الناس ، فيبطل بذلك اثرهم في الحياة الاجتماعية .

أما الأساس في هذا الحكم الشرعي ، فهو أهمية دفع الضرر عن الدين أو الوطن ، من الإضرار بسمعة انسان مبدع أو جاسوس وفضحه بين الناس . . . وهذه قاعدة عامة يذكرها علماء الاصول . . وهي ان كل حالة من الحالات التي يتزاحم فيها حكمان متنافيان لا يقدر المكلف على امثالهما معا ، فيرجح ما كانت المصلحة فيه أهم في الواجبات ، أو ما كانت للمفسدة فيه اعظم في المحرمات .

وقد نستفيد ذلك من الحديث النبوي الذي نقله الامام جعفر الصادق (ع) :

قال رسول الله (ص) : « اذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي فأظهروا البراءة منهم وأكثروا من سبهم والقول فيهم والوقيعة وباهتوهم كيلا يطمعوا (أو يظغوا) في الفساد في الاسلام ويحذرهم الناس ولا يتعلموا من بدعهم يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات » .

٦ - اذا كان هناك خوف على حياة الشخص الذي تغتابه ، أو كان هناك ضرر كبير لا تستطيع دفعه عنه الا بالتشهير به ، فانه يجوز لنا اغتيابه حفظا لنفسه فان مصلحة حفظ النفس اعظم من مفسدة الغيبة .

٧ - جرح الشهود . . فاذا كانت هناك دعوى قضائية ، وجاء المدعي بشهود فاسقين لا يعرف فسقهم ، فيجوز لمن يعرف ذلك عنهم أن يذكر ذلك عنهم لثلا يقضي الحاكم بشهادتهم « فان الاجماع دل على جوازه ، ولان مصلحة عدم الحكم بشهادة الفساق اولى من الستر على الفاسق ومثله بل أولى بالجواز جرح الرواة فان مفسدة العمل برواية الفاسق اعظم من مفسدة شهادته ويلحق بذلك الشهادة

بالزنا وغيره لاقامة الحدود .

٨ - رد من ادعى نسبا ليس له .. فان مصلحة حفظ الانساب
اولى من مراعاة حرمة المغتاب .

٩ - نقد آراء الآخرين ، وان استلزم ذلك نقصا في اصحابها
كسوء الفهم وغيره ، اذا توقف حفظ الحق واضاعة الباطل عليه (١) .

ويحاول الشيخ مرتضى الانصاري - احد العلماء الكبار في الفقه
والاصول - ان يعفينا من تعداد الحالات الاستثنائية ، فيرسم لنا القاعدة
الكلية التي يلزمنا مراعاتها في كل حالة لنعرف مورد الحلال من الحرام
فيقول - في كتاب المكاسب المحرمة - :

« ان المستفاد من الاخبار المتقدمة وغيرها ان حرمة الغيبة
لأجل انتقاص المؤمن أو تأذيهِ منه ، فاذا فرض هناك مصلحة راجعة
الى المغتاب « الذي يحدث بالغيبة أو الذي يتحدث عنه ، أو الى
شخص دل العقل والشرع على كونها أعظم من مصلحة احترام المؤمن
بترك ذلك القول فيه وجب كون الحكم على طبق أقوى المصلحتين
كما هو الحال في كل معصية من حقوق الله وحقوق الناس .

ولهذا فان « الضابط في الرخصة وجود مصلحة غالبية على مفسدة
هتك احترام المؤمن ، وهذا يختلف باختلاف تلك المصالح ومراتب
مفسدة هتك المؤمن فانها متدرجة في القوة والضعف ، فرب مؤمن لا
يساوي عرضه شيئا من المصالح فالواجب التحرى في الترجيح بين
المصلحة والمفسدة » (٢) .

(١) المكاسب .. للشيخ مرتضى الانصاري ص ٤٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٦ .

وهكذا ، نعرف - مرونة الاسلام في الشريعة ، فاذا كان التشريع منطلقاً من مصلحة الانسان في الحياه ، فلا بد أن تلاحق الشريعة المصلحة أين كانت ، فلا تتجمد أمام حالة من الحالات بل تنطلق في حياة الانسان خيراً وسلاماً وبركة من اجل ان يعيش الانسان حياته في راحة وطمأنينة وكرامة بين يدي الله في الدنيا قبل الآخرة .

[١٠]

النقد في نطاق تقييم الآخرين :

هذا هو الوجه الآخر للنقد ، الذي نواجهه معه الحاجة الملحة الى التطلع في حياة الناس من أجل الوصول الى فهم دقيق واسع لها ، ومعرفة عميقة لهم ، ليكون تعاملنا معهم على اساس واضح متين ، لا ينطلق من النظرة الساذجة ، ولا يخضع للحكم السريع ، ولنحصل - من خلال ذلك - على معرفة صحيحة للمجتمعات التي نعيش فيها ، ونتحرك معها . . فان دراسة طبيعة الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع هو السبيل الامثل للحركة الواعية في الحياة ، لان أي حركة لا تخضع للحسابات الدقيقة لأجواء العمل وأشخاصه واطباعه ، لا يمكن ان تسير في الاتجاه السليم أو تنتهي الى اهدافها بسلام .

وقد لاحظنا في الكثير من النصوص الدينية ، الإشادة بهذا الجانب من النقد في حياتنا العملية ، وذلك بإثارة التساؤل والفضول في نفس الناقد ، حول الجوانب الخفية التي تحتاج الى دراسة وخبرة عميقتين ، لئلا يصدر في حكمه عن اللمحات السريعة التي قد يواجهها في بادئ الرأي .

وقد اختلفت اساليب هذه النصوص في هذا المجال . . فنجد

بعضها يتجه الى الحديث عن النماذج البشرية التي تبدو في مظهر معين يوحي بالثقة ، ويبعث على الاطمئنان ولكنها لا تلبث أن تنكشف عن موقف مضاد تماما ، أمام التجربة الحاسمة التي تكشف عن الخفايا الدفينة في النفس ، وتعبّر عن الصفة الحقيقية التي لم تستطع الاختباء طويلا أمام المظاهر الخادعة .

ونجد بعضها يتجه اتجاها اخر . . فيحاول تفسير كثير من المظاهر الطيبة بأكثر من وجه . . الامر الذي لا يجعلها معبرة تعبيراً حاسماً عن المعاني الطيبة ، ما دامت تلتقي مع المعنى الخبيث في بعض الحالات ، ومع المعنى الطيب في بعضها الآخر .

النقد أمام النماذج المزيفة من الناس :

ففي الاسلوب الاول : نلتقي بالآية الكريمة .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ اِنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾

[سورة الحج : ١١] .

فهي تصور لنا بعض النماذج الحية التي لا يتمثل الإيمان في حياتها إلا من خلال الحياة الطيبة الرخية التي يسير معها الإنسان . . فما دام الإيمان لا يقترب في مسؤولياته وفي نتائجه مع هذه الحياة . . فليس هناك ما يوجب التنازل عنه ، وليس لديه ما يمنع من السير معه .

أما اذا جاءت التجربة من خلال مواجهة الايمان المسؤولية ، فاقترب الأيمان من الحياة ليثير فيها المشاكل ، وليخلق لها المتاعب ، وليبعث معها بعضا من الخسائر وبعضا من الآلام .

أما اذا حاولت الفتنة ان تمتحن هذا الايمان ، أو تختبر حقيقة هذا الانسان فلا يبقى هناك ايمان ولا مؤمنون ، بل هو الانقلاب على الاعقاب والخسران المبين الذي يلاحق الانسان معه مصالحه وملذاته بعيدا عن الايمان ومسؤولياته ، والحق ومتاعبه .

ان هذه الصورة الحية تثير في أنفسنا الوعي نحو الاشخاص الذين نلتقيهم فلا ننخدع بمظاهر الايمان ، ولا نحكم عليهم بمجرد ذلك قبل أن نطلق بعيداً مع التجربة الواعية التي تنقد كل عمل نقداً عميقاً حتى تنفذ الى داخله لتكتشف ما فيه من حقيقة واصالة .

* * *

ونلتقي - مع هذا الاسلوب - بالآيات التالية :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجِبِّكَ قَوْلُهُ فِي الْجَوْرِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ أَلَدُّ الْإِخْصَارِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ
وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ أَخَذْتُ الْعِزَّةَ
بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَهَادُ . [سورة البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٦] .

ففي هذه الآيات نجد صورة الانسان الذي يستخدم فصاحته وبلاغته في إغراء الناس بالوعود المعسولة ، والاحلام الجميلة مستعينا بالايمان المغلظة ، شاهداً على ما في قلبه ، بكل حرارة واندفاع ، حتى إذا وصل الى غايته ، وحصل على هدفه ، تكشف نفسه عن دخائلها الخبيثة ، وانطلق يعبث ويفسد في عباد الله وبلاده ، دون أن يُلقَى بالآلى موعظةً أو تحذير أو تذكير ، بل تأخذه العزة بالاثم فيرى نفسه فوق الموعظة والواعظين .

ان هذه الصورة تضع ايدينا على كثير من النماذج البشرية التي نلتقي بها على مستوى السياسة أو الدين او الاجتماع ، فتثير في نفوسنا الشك في وعودها وفي أقوالها مع الآخرين ، بل لتخلق فينا طبيعة الحذر والبحث عن الاسس المتينة التي تبعث على الثقة وتوحي بالاطمئنان بعيداً عن كل مظهر خادع أو كلام ساذج .

أما قيمة هذا الاسلوب الذي يتمثل في الآيات الكريمة المتقدمة ، فهي في اعطاء الشواهد الحية من الحياة على خطأ الاسس النقدية التي ينطلق معها الناس في تقييم الآخرين فيسيئون - من خلال ذلك - الى انفسهم والى الحياة ومن ثم يتجه الى توجيه الانسان الى النقد الواعي المرتكز على الاسس التي تبتعد عن الانحراف والخطأ في أكثر الحالات .

النقد امام المظاهر الخادعة في الحياة :

وأما الاسلوب الثاني ، الذي يحاول تفسير المظاهر الطيبة بأكثر من معنى ليثير الحذر أمامها قبل التسرع باصدار الحكم على اساسها ، فنلتقي فيه ببعض النصوص الدينية المأثورة عن بعض أئمة أهل البيت (ع) :

ففي الحديث عن الامام علي (ع) ويروى أيضا عن النبي محمد (ص) قال :

« لا تنظروا الى كثرة صلاتهم وصيامهم وكثرة الحج والمعروف وطننتهم بالليل ، انظروا الى صدق الحديث وأداء الامانة » .

وفي حديث آخر عن الامام جعفر الصادق (ع) :

« لا تغتروا بكثرة صلاتهم ولا بصيامهم فان الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش ولكن اختبروهم بصدق الحديث وأداء الامانة » .

ففي هذين الحديثين نجد الرفض الحاسم للمقياس المعروف لدى الناس في تقييم ايمان الشخص ودينه ، انطلاقاً من كثرة الصلاة والصوم وممارسته الدائمة لبقية الاعمال العبادية واقباله على المعروف واعمال الخير .

أما السبب في هذا الرفض ، فهو خضوع كثير من هذه الاعمال الى العادة التي نشأ عليها هذا الانسان ، فهو ينطلق من الشعور بالالفة معها ، وبالوحشة في حالة تركها ، لا من أساس ديني عميق من الايمان والاخلاص ، فهي لا تعبّر عن الجذور الاصيلية في الداخل ولذلك فانها لا تصلح اساساً للتقويم وللاختبار ، بل لا بد من اتباع مقياس آخر لا يخطيء في أغلب الحالات ، وهو الصدق والامانة ، لأنهما ينطلقان من جذور الارتباط بالحق لا سيما اذا كانا ضد مصلحة الانسان المادية .

الامام زين العابدين يخطط للنقد :

ونلتقي - مع هذا الاسلوب - بحديث آخر عن الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) :

اذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وتمادى في منطقته وتخاضع في حركاته ، فرويداً لا يغرركم ، فما أكثر من يعجزه تناول الدنيا وركوب الحرام منها لضعف نيته ومهانتة وجبن قلبه فنصب الدنيا فخاً لها ، فهو لا يزال يختل الناس بظاهره فان تمكن من حرام اقتحمه واذا

وجدتموه يعفّ عن المال الحرام فرويدا لا يغرّنكم فان شهوات الخلق مختلفة فما أكثر من يتأبى عن الحرام ، وان كثر ، ويحمل نفسه على شوهاء قبيحة فيأتي منها محرما .

فاذا رأيتموه كذلك فرويدا لا يغرّنكم حتى تنظروا عقدة عقله فما أكثر من ترك ذلك أجمع . . ثم لا يرجع الى عقل متين فيكون ما يفلسده بجهله أكثر مما يصلحه بعقله .

فاذا وجدتم عقله متينا فرويدا لا يغرّنكم حتى تنظروا ليكون هواه على عقله ، أم يكون عقله على هواه ، وكيف محبته للرياسات الباطلة وزهده فيها فان في الناس من يترك الدنيا للدنيا ويرى أن لذة الرياسة الباطلة أفضل من رياسة الاموال والنعم المباحة المحللة فيترك ذلك أجمع طلبا للرياسة ، حتى اذا قيل له : اتق الله ، اخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبس المهاد ، فهو يخبط عشواء ، يقوده أول باطله الى أبعد غايات الخسارة ، ويمد به بعد طلبه لما لا يقدر في طغيانه ، فهو يحلّ ما حرم الله ، ويحرم ما أحلّ الله ، لا يبالي ما فات من دينه ، اذا سلمت له الرياسة التي قد شقي من اجلها . فأولئك الذين غضب الله عليهم وأعدّ لهم عذابا أليما .

ولكن الرجل كل الرجل الذي جعل هواه تبعا لأمر الله وقواه مبذولة في قضاء الله يرى الذل مع الحق أقرب الى عز الابد مع العز في الباطل ، ويعلم ان قليل ما يحتمله من ضرّائها يؤديه الى دوام النعيم في دار لا تبيد ولا تنفد ، وان كثيرا مما يلحقه من سرّائها إن اتبع هواه يؤديه الى عذاب لا انقطاع له ولا زوال ، فذلك الرجل فتمسكوا به واقتدوا بسنته والى ربكم توسلوا به فانه لا ترد له دعوة ولا يخيب في طلبه .

ففي هذا الحديث تحليل دقيق للدوافع المتنوعة التي تختفي خلف المظاهر الطيبة للانسان ، ومحاولة بارعة لتخطيط الاسس النقدية التي يركز عليها الحكم على طبيعة الاشخاص وذلك بملاحظة جميع هذه الدوافع والانتقال من بعضها الى البعض الآخر حتى يستنفدها بأجمعها ، ليخرج - بعد ذلك - بالحكم الصحيح المستند الى محاكمة واسعة دقيقة ، وتحليل بارع عميق .

ولعل ذلك كله يرجع الى ان الاسلام يريد للانسان أن يتعد عن السذاجة والسطحية في نظره الى الناس وتقييمه لهم ، لان ذلك يسيء الى طبيعة علاقاته العملية بهم ، والى فهمه للجو الذي يعيش فيه ، مما يجعله يعيش الفوضى والارتباك في حياته ، وحياة الآخرين ، بما تفرضه السذاجة من تأييد لمن لا يستحق الرفض وتعاطف مع بعض المواقف التي لا تنسجم مع مصلحة الامة ومستقبلها في جميع جوانب الحياة العامة والخاصة .

مناجاتك اذا أنا ناجيتك وما لي كلما قلت قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي عرضت لي بلية أزالتي قدمي وحالت بيني وبين خدمتك .

سيدي : لعلك عن بابك طردتني ، وعن خدمتك نحييتني ، او لعلك رأيتني مستخفا بحقك فأقصيتني ، أو لعلك رأيتني معرضا عنك فقليتني ، او لعلك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني ، او لعلك رأيتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني او لعلك فقدتني من مجالس العلماء فخذلتني أو لعلك رأيتني في الغافلين فمن رحمتك آيستني أو لعلك رأيتني آلف مجالس البطالين فبيني وبينهم خليتني ، أو لعلك لم تحب ان تسمع دعائي فباعدتني ، أو لعلك بجرمي وجريرتي كافيتني ، أو

لعلك بقلة حياتي منك جازيتني .

* * *

فنحن نجد في هذه الفقرات ان الانسان يجابه موقفاً داخلياً روحياً ، وهي انه لا يحاول الاقتراب من الله بالصلاة والمناجاة ، إلا ويجد المعوقات أمامه من الكسل والنعاس وفقدان الروح التي تتصل بالله بخشوع .

ثم نلتقي بموقف آخر يستسلم فيه الانسان الى رغبة ذاتية بالنظافة الروحية من الداخل باصلاح السريرة ، والتوبة الى الله من كل قلبه ، . . ولكنه يجد المزالق أمامه في الطريق لتتحرف به عن القصد ، ويواجه العقبات التي تحول بينه وبين الانطلاق بعيداً في اتجاه الخير واصلاح النفس .

انه يواجه هاتين الحالتين ، ويحاول ان يبحث لهما عن تفسير يبرهما ، ليعرف أين تكمن المشكلة ، فيعرف أين يكون الحل .

وهنا يبدأ عملية استعراض جميع الجوانب التي تصرف الانسان عن الخير وتحول بينه وبين ربه . . ليحللها تحليلاً دقيقاً ويحاكم هذا الواقع من خلالها - لينتهي الى النتيجة الحاسمة التي تتمثل في بدء عملية التصحيح من خلال الجذور العميقة التي تتصل بالمشكلة .

* * *

ولعل هذه الطريقة هي أفضل الطرق التي يعتمد عليها اسلوب النقد الذاتي ، لانها تركز على الاستقراء الكامل الذي لا يترك جانباً يرتبط به الواقع أو تتصل به الظاهرة ، إلا ويحاول إبرازه بوضوح .

وربما يجد الباحث الكثير من هذه النماذج في الأدعية المأثورة التي يتحول فيها الانسان الى ناقد واع ينقد نفسه وحياته بين يدي الله ، بكل اخلاص وروحانية وخشوع .

* * *

وقد أفاض علماء الاخلاق الاسلاميون في الحديث في موضوع النقد الذاتي تحت عنوان محاسبة النفس ، ومراقبتها ، وتركوا لنا الكثير من التجارب العملية ، والاساليب المتنوعة ، التي تعطي للانسان نظرة واعية للطريقة التي يمكنه فيها ممارسة هذا المبدأ في حياته ولا بأس بمراجعة كتاب احياء العلوم للغزالي وجامع السعادات للنراقي وغيرهما من كتب الاخلاق .

النقد الذاتي في الاسلام

أ - ما هو النقد الذاتي ؟

النقد الذاتي : هو نقد الفرد نفسه ، أو نقد الامة او بعض قطاعاتها الاجتماعية نفسها . . وذلك ، بالتحليل العميق الواعي ، من أجل تحديد مواطن النقص ، وأسباب العجز والمؤثرات المؤدية الى وجود العيوب والنقائص .

ويتمثل ذلك في الفرد ، في تحليل الدوافع الذاتية للعمل من جهة ، وتحديد المؤثرات الخارجية التي شاركت في اتخاذ هذا الموقف أو ذاك .

فقد يستسلم الانسان لموقف تأييد لبعض الاشخاص ، أو رفض لبعض آخر ، وقد يكون هذا الموقف محاطاً ببعض الجوانب الخاصة من جهة ، وبيعض الجوانب العامة من جهة أخرى .

فاذا أراد أن يعرف قيمة عمله من الداخل فبإمكانه تحليل الدوافع الخفية التي شاركت في اندفاعه للعمل ، فقد يكتشف الصفة

الخاصة ، وهو يتخيل انطلاقه من الصفة العامة ، وقد يكون هذا الموقف واقعا تحت رحمة مؤثرات عديدة ، ولا يعرف الانسان السبب الأعمق في التأثير ، فيكتشفه بعد التحليل ، ليكتشف طبيعة المؤثرات الخارجية التي تضغط على ارادته .

مثل ذلك في الامة ، في تحليل المواقف الكبيرة التي تفهمها من الأحداث ، او الأحداث التي تقتحم حياتها الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتؤدي بها الى تقدم أو تأخر ، وتقودها الى هزيمة أو انتصار . . فقد تختلط المؤثرات ، وتشابك الأسباب . . ويأتي دور النقد الذاتي الذي يحلل ذلك كله من خلال تحليل الافراد المسؤولين اعمالهم ، وتحديد المؤثرات العامة والخاصة ، وأسباب الربح والخسارة ، ومواطن النجاح والفشل . . وللوصول الى معرفة أعمق ، وفهم واسع لطبيعة الموقف وأبعاده . .

ب - حاجتنا الى النقد الذاتي :

تنبع حاجتنا الى النقد الذاتي من حاجتنا الى فهم أنفسنا في أبعادها الداخلية والخارجية ، والى فهم واقعا بكل ما يشتمل عليه من ظواهر وحركات ، فان الانسان الذي لا يعرف نفسه لا يملك معرفة وجهة حياته ، لانه لا يدري من أين تنطلق خطاه ، والى أين تسير . . . فهل تنطلق من قاعدة المنفعة الذاتية ، أو من واقع الرسالة العامة ؟

وهل تتجه الى القمة أو تنحدر الى الحضيض ؟

فقد يختلط الامر على الانسان ، فيخيل اليه أنه يسير على أساس الحق في لحظات الانفعال المرتجل ، ولكنه اذا فتش نفسه ، اكتشف انه يسير على اساس ذاتي محض ، لا يتصل بالحق من قريب أو

بعيد ، لان الدوافع الحقيقية للحركة لا تطفو على السطح ، بل تستقر في أعماق النفس ودهاليز الشعور ، بشكل لا شعوري ، فلا تظهر الا للبحث العميق الذي يفتش ويحلل ويحاكم . . . وتبقى الدوافع تعطي للعمل طابعه الظاهري الذي يخدع الأعين التي يبهرها السراب .

وهكذا قد نجد أنفسنا وجاهاً لوجه أمام الواقع الذي نتخبط فيه ونعيش في أجوائه سواء أكان واقعا دينيا أو سياسيا او اجتماعيا او اقتصاديا ، فقد يخضع فهم هذا الواقع لتفسيرات سطحية مرتجلة ناشئة عن النظرة الارتجالية التي تستسلم للأسباب القريبة الجاهزة التي تبدو للعين من أول نظرة ، دون ان تكلف نفسها عناء البحث عمّا وراء ذلك من أسباب ، أو تتعرف الى الجوانب البعيدة التي ساهمت في ولادة هذه الظاهرة أو نشوء هذا الواقع .

أما خطر ذلك ، فيتمثل في تشويه الصورة الحقيقية للمشكلة في ظل الواقع ، مما يسبب بعداً عنها وعن الحلول العملية الصحيحة لها ، .. فربما يكون الداء في جانب ، وتكون المعالجة لجانب آخر وربما ترتبط المشكلة بأكثر من جهة ، ويكون الحل منطلقاً من جهة واحدة . . . وهكذا تضيع الخطوط التي يسير عليها الانسان في الوصول الى فهم الواقع أو حل مشكلته .

ولن يختلف الامر في هذا الموضوع - بين أن يكون الموقف على مستوى واقع الفرد ، وبين أن يكون على مستوى واقع المجتمع او الامة بشكل عام ، لان كلاً منهما يرتكز على اساس طبيعة الفهم الحقيقي الذي يشارك في علاج الواقع . أو الفهم الخاطيء الذي يساهم في تعقيده وإرباكه من جديد .

فهناك بعض الحالات التي تعيش فيها الامة بعض الهزائم أو

الانتصارات ، فتحاول دراسة الاسباب التي هيأت للهزيمة ، أو شاركت في النصر . . فاذا انطلقت من خلال النظرة السطحية التي تحاول ان تنظر الى الجوانب الظاهرية للامور كانت النتيجة ابتعاداً عن القضية ، وعن الحل الصحيح للمشكلة ، او عن الدرس العملي الذي نستفيد منه للمستقبل ، فقد نرجع النصر الى القوة الذاتية التي كنا نملكها في المعرفة ، ونغفل بقية الاسباب التي قد يكون من بينها الموقف السياسي العالمي أو الاقليمي الذي استطاع أن يعطي بعض الفرص ، او يخلق بعض المؤثرات وستكون النتيجة اننا سنعتبر القوة كل شيء ، فيخيل لنا انها الاسباب الذي ترتبط به معارك المستقبل المماثلة . كما ارتبطت به معارك الماضي ، فتتصرف على هذا الاسباب بينما يكون الموقف السياسي مختلفا كل الاختلاف عن الموقف في المعركة الماضية .

وربما يكون للظروف الخاصة الداخلية والخارجية ، التي يعيشها العدو المهزوم بعض الاثر في هزيمته . . فاذا لم ندخلها في حسابنا - في حالة تحليل الواقع - فستكون النتيجة لمصلحته في الجولة القادمة عندما تتغير ظروفه التي ساهمت في انتصارنا او في هزيمته .

أما في حالة الهزيمة ، فقد نسيء فهم الاسباب التي شاركت فيها ، فنرجع السبب الى ظروف خارجة عن ارادتنا او قدرتنا ، في محاولة ساذجة للتبرير ، تعتمدها الشعوب المهزومة في عملية ساذجة لحفظ ماء الوجه ، او إيحاءً ببقايا الكرامة .

ومن الطبيعي ان ذلك سوف يخفي عنا الاسباب الحقيقية التي تكمن في تصرفاتنا العملية في واقعنا الفكري والسياسي والاجتماعي ، فربما يكون لها أكبر الاثر في ذلك كله ، دون ان نلتفت اليها او

نحسب لها اقل حساب .

ولن نحتاج الى جهد فكري كبير لنفهم ان ذلك سوف يكرّس الهزيمة للمستقبل ، كما كرّسها للماضي لاننا سوف نظل حيث نحن نراوح اقدامنا في مواقع الهزيمة وبدايات الطريق نتطلع الى خارج قدراتنا وارادتنا ، بعيداً عن الواقع الداخلي الذي ترقد في اعماقه الهزيمة .

وربما تتمثل الحاجة الى النقد الذاتي في دراسة بعض الاوضاع التي درجنا على ممارستها في شؤون الدين والدنيا ، انطلاقاً من عادات قديمة ، أو تقاليد مستحكمة ، أو نظرة خاطئة تجد في هذه الاوضاع الشاذة ضماناً لقيم معينة ، أو مبادئ كبيرة ، وترى أن زوال هذه الاوضاع يشكل خطراً على تلك القيم والمبادئ - كما نراه في الكثيرين الذين يصرون على ابقاء المظاهر المتخلفة لبعض الممارسات التي اصطبغت بصبغة دينية او اجتماعية ، بحجة انها هي التي تحفظ للمجتمع عقيدته او توازنه او ارتباطه بالقيم ، فاذا فقدناها فقدنا هذه الضوابط التي يحتاجها المجتمع في حياته الدينية والاجتماعية .

ربما نحتاج الى النقد الذاتي - في هذه الحالة - لنعرف كيف نشأت هذه الاوضاع ، وكيف انطلقت جذورها لتفرض وجودها على الدين والمجتمع ، ثم لندرس تأثيرها العكسي على الواقع الديني أو الاجتماعي بما تمثله من مظاهر التخلف . . ثم لتتعرف - من خلال فهمنا لواقعنا المعاصر - كيف يمكننا الحصول على ضوابط جديدة بعيدة عن التخلف ، لتحفظ للمجتمع عقيدته وتوازنه وتساهم في التوفيق بين طبيعة الوسيلة وبين طبيعة الغاية في مستوى الممارسة .

* * *

وهكذا نخلص - من خلال هذا العرض الموجز - الى نتيجة حاسمة : وهي ان حاجتنا الى النقد الذاتي ، تنبع من حاجتنا الملحة الى أن نكتشف في ذاتنا وفي حياتنا ، وأقوالنا وأفعالنا مواطن القوة ، ومراكز الضعف ، ونتعرف اسباب ذلك كله ، لنستطيع تطوير ما يمكن تطويره من مراكز القوة ، واكمال ما نستطيع اكماله من مواطن النقص ، وتقوية ما نقدر على تقويته من حالات الضعف .

وربما نحتاج الى النقد الذاتي في الحالات التي يتعرض فيها الانسان الى بعض الازواج الاجتماعية التي تتضخم فيها شخصيته ، وترتفع مكانته ، بفعل المؤثرات الخاصة التي تعطي الشخص اكثر من قيمته . . فقد يخيل اليه - في لحظات الانفعال العاطفي - انه يملك هذه الشخصية ، ويرتفع الى هذا المستوى ، فيقع ضحية غرور ذاتي يؤدي به الى الهلاك في النهاية .

ربما نشعر بقيمة الذاتي في هذه الحالة . . بالنظر الى أنه يفتح به على واقع حياته كما هو ، فيلتفت الى مواهبه ، وكفاءاته ليعرف حجم شخصيته على الطبيعة دون زيادة او نقصان ، لينطلق الى الحياة من خلال ذاته ، لا من خلال الورم الذي يتراكم عليها بلا معنى ودون حساب .

وقد نلمح الدعوة الى هذه الممارسة في دعاء في مكارم الاخلاق :

« اللهم لا ترفعني في الناس درجة الا حططتني عند نفسي مثلها ، ولا تحدث لي عزاً ظاهراً الا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها » .

فنحن نلاحظ ان الدعاء يهدف الى ان يلتفت الانسان الى مواطن الضعف التي تنزل بميزان نفسه الى واقعها الطبيعي بعيداً عن مظاهر الرفعة الظاهرة ، لثلا يختل التوازن في واقع حياته ، كما يدعو الى أن لا تشغله مظاهر العز التي يحصل عليها من خلال نشاطاته ومواهبه عن مواطن النقص التي توحى له باستشعار التواضع والذلة في نفسه ، كنتيجة طبيعية لذلك .

وقد نلمح ذلك فيما يروى عن الامام علي (ع) عندما كان يواجه بعض الناس بالمدح والثناء انه كان يقول :

« اللهم اجعلني خيراً مما يظنون وأغفر لي ما لا يعلمون » .

فنلاحظ ان المدح لم يصرفه عن النظر الى الجوانب الاخرى التي تكمن بعيداً عن نظر الناس في داخل ذاته .

ولن يختلف هذا الاسلوب بين الحالة التي يخلص الناس له فيها بالمدح عن اعتقادٍ بصلاحه وبين الحالة التي يحاولون ان يتزلفوا اليه ، أو يخدعوه عن نفسه ، لأنه - في كلا الحالتين - يتعرض لخطر الغرور الذي يؤدي به الى فقدان التوازن في حياته ، وهذا ما لا يريده الاسلام .

وقد نجد مثل هذا النموذج في واقع الهيئات والمنظمات السياسية والاجتماعية التي تنطلق - في البداية - نحو أهدافها العملية باتزان واستقامة ، فيحاول أعداؤها تفجيرها من الداخل ، بأسلوب التضخيم المتطرف لنشاطاتها العادية ، والتركيز على قياداتها بتسليط الاضواء على شخصياتهم بدون ميزان ، لينتهي الامر - بعد ذلك - الى الغرور والزهو الفارغ الذي يوحى لها بأنها فوق مستوى النقد ، مما يجعلها تعتبر

الخطأ صوابا ، والانحراف استقامة ، والباطل حقا ، دون التفات الى نقد الناقدين ووعظ الواعظين وارشاد المرشدين . . الأمر الذي يؤدي بها الى الوقوع في الاخطاء الكبيرة التي تجعل مقاتلها باديةً للاعداء دون مقاومة .

ان عملية النقد الذاتي - في هذه الحالة - تمثل جرس الانذار ازاء هذا الواقع قبل أن يستفحل ويستعصي على المعالجة ، لانه يكشف الأزمة قبل ان تتعقد ، ويرجع القافلة الى الطريق قبل أن تبتعد كثيرا في صحارى التيه .

ولذا فان القضية ليست قضية نظرية جامدة تعيش في متاحف النظريات ، بل هي قضية عملية يواجه فيها الفرد او الامة ، الواقع الحي على الطبيعة مجرداً عن كل خيال وانفعال ، من أجل التعرف عليه من جميع جوانبه ، والعمل على دفعه نحو التقدم في اتجاه المستقبل .

* * *

[١٢]

موقف الاسلام من النقد الذاتي :

عندما نقرب من النصوص الدينية التي عالجت موضوع النقد الذاتي ، ودعت اليه ، نلاحظ انها بدأت في ايجاد الجو الداخلي له .

ولعل ذلك يعتبر من الامور الضرورية في هذا المجال ، لان من غير الطبيعي أن يمارس الانسان عملية النقد في الأجواء الذاتية التي يشعر معها بالكمال النفسي الذي يتمرد على النقص ، ويعلو على النقد .

وعلى هذا الأساس ، جاءت الآيات الكريمة التي توحى للانسان بأنه ليس فوق مستوى الشبهات ، فهناك مواطن ضعف كثيرة تعيش في داخل نفسه وتفتحم عليه حياته . . وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة في سورة يوسف :

وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنْ التَّفَسَّرَ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي .

[سورة يوسف : ٥٣] .

فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾

[سورة النجم : ٣٢] .

فقد نستطيع أن نفهم من هاتين الآيتين ان الاسلام لا يوافق على منح النفس الحكم بالبراءة من كل سوء ، ما دامت النوازع الداخلية تثير في الانسان معاني السوء والشر والضلال ، وما دام الانسان يستجيب لها في بعض الحالات ، فكيف يمكن له أن يزكيها ويدعي لها العصمة من كل نقص والسلامة من كل سوء .

وقد حاولت بعض الآيات أن تشير الى بعض مواطن الضعف في الانسان بشكل صريح من أجل أن يلتفت الانسان الى ذلك فيحاول تحليل بقية مواقفه واعماله على ضوء ذلك ويعمل على محاكمتها في هذا الاتجاه .

وذلك كقوله تعالى :

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأْمُرِكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

[سورة الأنبياء : ٣٧] .

وقوله تعالى :

[سورة الإسراء : ١١] .

وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾

وقوله سبحانه : **وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا** [سورة النساء : ٢٨] .

* * *

ثم انطلقت الآيات الكريمة لتواجه الانسان بمسئوليته في أعماله امام الله سواء أكان العمل صغيرا أم كبيرا ، لتثير في نفسه الشعور العميق بالحاجة الى القيام بدور المحاسبة الدقيقة التي تفصل بين العمل الصالح وبين العمل غير الصالح .

اقرأ الآيات التالية :

يَوْمَ نَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا [سورة النحل : ١١١] .

وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ [سورة الصافات : ٢٤] .

وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أُخْطِئَتْهَا
وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا [سورة الكهف : ٤٩] .

ثم تنطلق الدعوة الى النقد والتأمل والتفكير فيما عمل الانسان ، وفيما قدم ، لإجراء كشف دقيق على جميع اعماله وأقواله في الدنيا :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِنَنْظُرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِخَدِّهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [سورة الحشر : ١٨] .

ان هذه الآيات تحاول ان تهيب الجو النفسي للقيام بهذا الدور تجاه نفسه ، ليعرف كيف يواجه الله بصدق وايمان .

* * *

وعندما تقترب من النصوص الدينية في نطاق الحديث النبوي الشريف ، وأحاديث أئمة أهل البيت (ع) نجد الدعوة الى المحاسبة والنقد الذاتي ، واضحة صريحة مؤكدة .

ففي الحديث النبوي الشريف :

« حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا وزنوها قبل ان توزنوا » . . .

وفي حديث نبوي آخر ، في وصيته المأثورة عنه ، لأبي ذر :

« يا أبا ذر : لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه ، فيعلم من أين مطعمه ، ومن أين مشربه ، ومن أين ملبسه ، أمن حلال او من حرام ؟ » .

ويروى عن الامام علي (ع) ان النبي (ص) قال :

« أكيس الكيسين من حاسب نفسه وعمل لما بعد الموت » .

فقال رجل للامام : يا امير المؤمنين كيف يحاسب نفسه ؟

قال : اذا أصبح وأمسى رجع الى نفسه وقال : يا نفسي ان هذا يوم مضى عليك لا يعود اليك أبدا والله يسألك عنه بما أفنيته .

فما الذي عملت فيه ؟ أذكرت الله أم حمدته ؟

أقضيت حوائج مؤمن فيه ، أنفست عنه كربة ، أحفظته بظهر الغيب في أهله وولده ؟

أحفظته بعد الموت في مخلفيه ؟

أكففت عن غيبة أخ مؤمن ، أعنت مسلما ؟

ما الذي صنعت فيه ؟

فيذكر ما كان منه ، فان ذكر انه جرى منه خير حمد الله وكبره
على توفيقه ، وان ذكر معصية ، أو تقصيراً استغفر الله وعزم على ترك
معاودته .

ونلاحظ - في هذا الحديث - انه يطرح نموذجاً لعملية
المحاسبة ، ليكون اسلوباً يمارسه الشخص في العمل فقد يكون
الموضوع الذي يواجه عملية الحساب فيه ، ماذا عمل ؟ ليكون التحليل
لمفردات العمل الذي صدر منه ، . أما اذا كان الموضوع هو دوافع
العمل ، فلا بد أن تكون النتيجة في الجواب تحديد النوازع الذاتية
التي انطلق منها العمل . . وربما تكون القضية قضية موقف خاطيء
صدر منه أو شارك فيه ، فينطلق السؤال في مواجهة المؤثرات التي
شاركت في الخطأ من قبله أو من قبل غيره .

وعلى أي حال ، فليس الامام في معرض التحديد لطريقة
المحاسبة ، ونوعية النقد ، بل هو في مجال إعطاء النموذج لذلك ليسيروا
الانسان على هداية فيما يماثله أو يشابهه من قضايا ومواقف . . . وعلى
ضوء هذا نعرف ان هذه النصوص وان ركزت على الحساب في الدنيا
من أجل مواجهة الحساب في الآخرة مما يوحي بأن المسألة ليست
مسألة النقد الذاتي في نطاق حياتنا التي تعيش . . الا أننا نلاحظ فيها
شمول النظرة من جانبيين :

الاول : ان الحساب الذي يهدف الى تصفية الانسان اعماله أمام
الله في الآخرة لا ينفصل عن المحاسبة في واقع حياتنا المعاش ، لان
حياتنا هذه ، بكل ما فيها من خير وشر ، أو قوة وضعف ، أو نجاح أو
فشل ، هي التي نحاسب عليها في الآخرة ، لان لكل جانب من هذه
الجوانب حكماً لله يراد من الانسان تنفيذه والاخلاص له ، فيثاب على

اطاعته ، ويعاقب على عصيانه والتمرد عليه ، سواء كان ذلك الشيء يتعلق بأصل العمل ، أو بنوعيته ، وأبعاده .

الثاني : ان هذه الاحاديث تستهدف وضع الانسان في جو النقد والمحاسبة ليسير في هذا الاتجاه ، . واذا تعلم الانسان كيف يحاسب نفسه من خلال الآخرة ، عرف - من خلال ذلك - كيف يحاسب نفسه في شؤون الدنيا ، لان طريقة الحياة واسلوبها في بعض الجوانب ينطبع على بقية الجوانب ، فان اسلوب الانسان في مواجهة حياته وممارستها لا يتغير ولا يختلف باختلاف مفرداتها وأبعادها .

ولعل أوضح كلمة تضع أيدينا على المعنى الشامل لهذا المبدأ هي كلمة النبي (ص) المتقدمة : « وزنوها قبل ان توزنوا . . » فانها دعوة الى القيام بعملية تقييم للنفس من الداخل والخارج قبل أن توضع في الميزان وفي عملية التقييم دون شعور .

وربما نجد في بعض النصوص الدينية ، الدعوة الى أن يمارس عملية النقد فيما يقدم عليه من اعمال وما يريده من مشاريع ، قبل ان يقدم عليها او يخوض فيها .

ففي نهج البلاغة : من كلام للامام علي (ع) :

« فليصدق رائد أهله ، وليحضر عقله ، وليكن من أبناء الآخرة فانه منها قدم ، واليهما ينقلب فالناظر بالقلب عامل بالبصر يكون مبتدأ عمله أن يعلم . . أعمله عليه أم له ؟ » .

فإن كان له ، مضى فيه ، وإن كان عليه ، وقف عنه فإن العامل بغير علم كسائر في غير طريق فلا يزيده بعده عن الطريق الا بعدا من حاجته ، والعامل بالعلم كسائر على الطريق الواضح فلينظر ناظر ، أسائر هو أم راجع ؟

وقد نجد في الأدعية الكثيرة التي وردتنا في التراث الاسلامي - عن أئمة اهل البيت (ع) نماذج حية من أساليب النقد الذاتي الذي يعتمد على تحليل المواقف والظواهر من اجل الوصول الى الاسباب التي شاركت في حدوثها ، أو الجوانب التي ارتكزت عليها ، او الآفاق التي تعيش فيها . . كل ذلك بطريقة روحية واعية ينطلق فيها الانسان بين يدي الله ، ليكتشف نفسه في أبعادها الخفية والظاهرة .
ولعل من اوضح هذه النماذج الفقرات التالية في دعاء ابي حمزة الشمالي الذي يقرأ في السحر في شهر رمضان :

« الهي ما لي كلما قلت قد تهيات وتعبأت واستعددت ، وقمت للصلاة بين يديك وناجيتك ، ألقيت علي نعاساً إذا أنا صليت وسلبتني مناجاتك إذا أنا ناجيتك » .

خاتمة المطاف :

وفي نهاية المطاف : نجد أننا نقف وجها امام قضية النقد على جميع ألوانه وأقسامه ، لنواجه الموقف الاسلامي الذي يدعونا الى السير به في نطاقه الذي أراده الله ، وهو الجانب الذي لا يستهدف الهدم لمجرد الهدم ، والتخريب من اجل التخريب ، بل يستهدف البناء والاصلاح والتقييم واعطاء الواقع صفته الواقعية دون زيادة ولا نقصان .

ثم . . . نلتفت الى ذواتنا واطواعنا العامة والخاصة ، لنعيد النظر فيها على اساس النقد الذاتي الذي يحلل للنفس دوافعها واعمالها ، ويفتش في الظواهر والاطواع عن اسبابها وأبعادها ، لنلتقي بالحقيقة الخالصة دون لف او دوران . . ولنصل في النهاية الى شاطئ الامان حيث يلتقي الانسان بالحق والخير والايمان جميعا ، بين يدي الله .

لكل سؤال جواب

- ما هو مدلول كلمة : « الدين أفيون الشعوب » وكيف نناقشها ؟
- هل الاساس في نشأة الدين هو حاجة الانسان المتخلف إلى العزاء ؟
- هل يكرس الدين عجز الانسان أمام الظواهر الكونية ؟
- كيف يمرر ماركس دعوة الدين إلى الانطلاق من الايمان من خلال المعرفة ؟
- هل الدين مخدر ؟
- ما هو موقف الاسلام من حوادث قتل الفتاة المنحرفة غسلأ للعار ؟

س ١ - هناك كلمة مشهورة عن الدين قالها « كارل ماركس » :
(انه أفيون الشعب) .. ما هو مدلول هذه الكلمة .. وكيف نناقشها ؟

ج - لعل أفضل تحليل دقيق لهذه الكلمة ، هو التحليل الذي
كتبه « هنري لوفافر » في كتابه « كارل ماركس » .

ولذا فاننا نحاول أن ننقله بكل امانة ، لتكون المناقشة مناقشة
علمية تركز على مصدر صحيح ، يبعدنا عن الافتراضات التي يدعو
اليها الهوى والغرض ذات اليمين وذات الشمال .

مدلول الفكرة :

قال هنري لوفافر :

كتب ماركس في احد مؤلفاته الاولى « المساهمة في نقد فلسفة
الحقوق عند هيجل » : « ان الدين أفيون الشعب » .

من الشائع ان هذه الصيغة تعني ، عن لسان ماركس ، ان
الشعب يشمل بالدين كما يشمل الانسان بالخمرة ، لكي ينسى متاعبه .

وان الشعب يُسقى هذا المهيج لكي ينسى مطالبه ودوره السياسي العظيم .

لا شك ان هذا التفسير يتلاءم مع فكرة ماركس . غير ان هذه الفكرة أرفع مدلولاً ، وأكثر دقة .

ولنعد الى قراءة الصفحة كلها :

« الانسان يصنع الدين ، وليس الدين يصنع الانسان . الدين وعي الانسان ذاته ، أما حين لم يكن قد وجد ذاته بعد ، واما اثر فقدته الذات . والانسان هو عالم الانسان الدولة والمجتمع . هذه الدولة وهذا المجتمع ، ينتجان الدين وهو وعي مزور عن العالم لانه يصدر عن عالم مزور . والدين هو النظرية العامة لذلك العالم ودائرة معارفه ومنطقه الشعبي ، ومفخرته الفكرية والروحية ، ومجال حماسته ، والبراءة التي ترضي حسه المعنوي والاخلاقي ، وشيء جليل يكمل ما يحسه من نقص ، وموضوعه الدائم الذي يجد فيه العزاء والتبرير .

ان البؤس الديني لهو التعبير عن البؤس الواقعي ، والاحتجاج على البؤس الواقعي في وقت معا . الدين زفرة الكائن المثقل بالالم ، وروح عالم لم تبق فيه روح ، وفكر عالم لم يبق فيه فكر . . انه أفيون الشعب . . . اذن فنقد الدين هو الخطوة الاولى لنقد هذا « الوادي الغارق بالدموع » حيث يركز الدين هالته . ان النقد ينتزع الازهار الوهمية التي كانت تغطي اغلال الانسان ، وذلك لا ليحمل اغلالاً عاطلة من الازهار والاحلام وانما ليلقي عنه اغلاله ، ويقطف الزهرة الحقيقية الحية . النقد ينزع الغشاوة عن عيني الانسان ، لكي يفكر ويمل ، ويكيّف حقيقته ، كما يجدر بانسان بلغ سن الرشد » .

ويعلق هنري لوفافر على هذا الكلام فيقول :

« يدل مجمل هذه الصفحة ، بوضوح ، على ان الدين في نظر
ماركس لا يتضاءل فيقتصر على « تحمس » فكري فظ . . . وهو لا
يأخذ على الدين افتقاره الى الجمال ، وانما يأخذ عليه انه يضيف الى
الحياة جمالا موهوما ، من شأنه ان يخلف الحياة الحقيقية في قبحها
فلا يغيرها . وهو لا يأخذ على الدين افتقاره الى الروح والفكر ، وانما
يأخذ عليه انه ليس الا روحا وفكرا - روح عالم بلا روح ، وفكر عالم
بلا فكر - وان الدين يحوّل الانسان عن نفسه باخفاء اغلال الانسان
تحت الازهار . وكيف لا يتنهد « المخلوق الرازح في آلامه » متضرعا
الى السماء؟ (١) .

* * *

ونستطيع أن نفهم - من خلال هذا الحديث - أن كارل ماركس
- يرتكز في فكرته على الدين على اساس التفسير المعروف لدى بعض
المفكرين في كيفية نشوء الدين . . وهو أن ولادة التفكير الديني
انطلقت من جهل الانسان وعجزه ، الذي يجعله يفكر في وجود قوى
خفية تحميه من الرعب الذي يسيطر عليه ازاء القوى الطبيعية . . . ثم
في حاجته الى العزاء الروحي أمام حالات الالم والاضطهاد الذي
يجعله يبحث عن العزاء فيما وراء الطبيعة .

وعلى ضوء هذا ، فان الدين - في نظر ماركس - الصورة الحقيقية
للواقع الذي يعيشه الانسان ، فهو نتاج الواقع الذي فقد العزاء في
الداخل فبدأ يبحث عنه في الخارج ، وصورة العالم الذي افتقد الروح

(١) كارل ماركس ، هنري لوفافر ، دار بيروت .

التي تمدده بالحياة في اوضاعه العامة ، فانطلق يتلمسها في آفاق بعيدة عن حياته واوضاعه .

ولذا فان علينا - من خلال وجهة نظره - أن ننطلق بعيدا في نقد الدين بازاحة الغشاوة التي تحجب عينيه عن حقائق الطبيعة ومؤثراتها ، وارشاده الى الطرق العملية للتغلب على مشاكلها التي تعترضه في الطريق ، ليشعر بفقدان الحاجة الى العزاء فيما وراء الغيب ، ما دام قادرا على ان يجد عزاءه في هذا العالم بازالة اسباب الاضطهاد التي اكتشفها بنفسه وبذلك يتحرر من الحاجة الى حماية القوى الخفية التي يفترضها خياله وتخلقها أوهامه كوسيلة من وسائل التفسير والتبرير .

وهذا هو الذي عبر عنه في حديث آخر يقول فيه :

« يجب نقد الدين ، بل ان هذا النقد لهو الشرط الاول لكل نقد . . . » فكيف نقده ؟ نقده بتفسيره ، وبالرجوع الى التاريخ لكي نرى كيف ولماذا بحث « الكائن المضطهد » عن عزاء له في ما وراء الطبيعة وتحليل الشروط الواقعية للحياة الانسانية يفسر لنا كيف أطلق الانسان على غيوم الغيب الخيالية صورته الخاصة ، وما يعتلج في نفسه من مشاغل وهموم ، فبدت مضخمة مثالية ، وذلك لان الوعي لا يحدد الحياة وانما الحياة هي التي تحدد الوعي (١) .

وهكذا يكون الدين نتيجة طبيعية للمواقع الذي يعيشه الانسان ، انطلاقا من الفكرة التي تقول ان الفكر نتاج المادة ، ليس عنصراً سابقاً لها يؤثر فيها في نطاقه المجرد ، وعلى ضوء هذه الفكرة ، يتحول

(١)المصدر السابق

الدين الى أفيون يخدر الانسان عن حياته ويبعد به عن مشاكله ، فبدلاً من أن يتجه الى حياته ليملاها بالحقيقة الحية التي تقيم اوضاعه كلها على اساس عقلي نجده يتجه الى الخيال ليجعلها تعيش في نقاب صوفي غامض - على حد تعبيره - .

* * *

مناقشة الفكرة :

اننا نحاول مناقشة هذه الفكرة من خلال عدة علامات استفهام نثيرها حول هذه الفكرة التي قررنا ماركس ، وتبعه عليها الماركسيون .

أ - اننا نريد ان نتساءل عن الاساس الذي انطلق منه التفسير الذي يربط نشوء فكرة الدين بالعجز والجهل ويفلسف الحاجة الى الدين بالحاجة الى العزاء خارج نطاق الطبيعة ، ليكون النقد نقدا يركز على اساس علمي ، لا على أساس افتراضي ، لان الافتراض لا يصلح ان يكون نقدا لافتراض آخر .

في البداية : لا بد من ان تكون القضية التي تفرض نفسها على الانسان ، هي الاجابة على السؤال التالي :

هل يمكن ارجاع العقيدة الدينية الى أساس عقلي متين أو لا يمكن ذلك ؟

فاذا كان الجواب ايجابا - كما يقرره المفكرون الدينيون - وأمكنا بذلك تبرير العقيدة الدينية من وجهة نظر عقلية ، فكيف يمكن اعتبار الاساس الوحيد فيها هو العجز والجهل والحاجة الى العزاء . . وهل تعدو المسألة على أقل الفروض أن تكون وقوفا بين الاحتمالين ؟

ان هناك فرقا كبيرا بين الحقيقة العلمية ، وبين الافتراض

العلمي . . . فالحقيقة العلمية تخضع للأسس التي لا تقبل الشك لكي تصل الى مستوى الحقيقة ، سواء منها الأسس المنطقية للتفكير ، او الأسس التجريبية للاستنتاج . . أما الافتراض فهو يعبر عن حدس مجرد قد يخضع لملاحظات ذاتية ، أو شواهد محدودة لا تستطيع أن تمنح الانسان الطمأنينة واليقين . .

ثم . . كيف نفسر وجود العقيدة الدينية لدى الشعوب التي استطاعت أن تقتحم الكثير الكثير من اسرار الكون حتى اصبحت تشعر بالثقة الكبيرة بنفسها ، وبما تملك من وسائل السيطرة على الطبيعة ، ولم تعد تحس بضرورة التعلق بالمجهول في فهم الظواهر الكونية أو في الشعور الذاتي بالامن والحماية .

وإذا أرجعنا العقيدة الدينية بين هذه الشعوب المتقدمة ، الى الرواسب التاريخية التي لا تزال تضغط على وجدان الانسان وتفكيره . . فكيف نفسر وجودها لدى الرجال الاقوياء من العلماء الذين واجهوا الكون بالشك من أجل أن يكتشفوه ويفهموه ، وانطلقوا معه بروحية العالم الدقيق الذي يحسب لكل شيء حسابه ، ويرى لكل ظاهرة سببها الطبيعي المعقول . . فهو لا يعيش العقلية التائهة في ضباب المجهول ، ولا يختنق في غيوم الغيب الخيالية في تفسير الكون ، بل يعيش في ملاحقة دائمة لكل سؤال ، ليضع أمامه الجواب .

هل نستطيع تفسير هذه العقيدة لدى هؤلاء بالرواسب التقليدية التي تمنعهم من التمرد على موروثاتهم وهم الذين تمردوا على كثير منها وحملوا راية الدعوة الى هذا التمرد ؟

وهل يمكن أن يكون الشعور بالجهل والعجز والحاجة الى

العزاء ، وهم الذين يعملون من اجل تغيير الواقع المتخلف الى واقع متقدم .

فاذا أمكن للقضية أن تبتعد عن التفسير الذي يحاول ماركس وغيره نقد الدين من خلاله فكيف يمكن اعتباره اطاراً للحقيقة العلمية المزعومة التي تجعل من الدين روحا لعالم يعيش بغير فكر .

اننا لا نمانع في قابلية هذا الافتراض للتطبيق على بعض الظواهر الدينية المنحرفة في بعض المراحل ولكننا نمنع تصحيح الافتراض كشيء يفسر لنا العقيدة الدينية بكل أشكالها وألوانها ومراحلها التاريخية .

* * *

وربما يجد بعض المفكرين الماركسيين ، ملامح هذا التفسير الماركسي للدين ، في النظرية التي يقرها كثير من « المفكرين » الدينيين الذين يعتقدون بأن ما رزح فيه الكائن البشري من عجز وبؤس يبرران وجود الدين .. ولكنهم يرون ان هذا واقع أبدي لا رآد له ، ويعتقدون أن حالة الانسان هذه المؤلمة ترتبط ارتباطاً حتمياً « بانحطاطه » وانحرافه عن جوهره « وسقوطه من الفردوس » .. « وبخطيئته الاصلية » .. وهذا ما لا يؤمن به ماركس ولا الماركسيون .

* * *

أما تعليقنا على هذا الرأي .. فهو ان هذه النظرية ليست نظرية كل المفكرين الدينيين بل هي نظرية البعض منهم ، فهل يمكن اعتبارها شاهداً على التفسير المتقدم ، ما دام القسم الآخر منهم لا يتبنى هذه النظريات ، فهو ينطلق في ايمانه بالدين من الاسس الفكرية التي تفرض هذا الإيمان كما انه يرفض فكرة الانحطاط والخطيئة

الاصلية ويعتبر الانسان كائنا يعيش الصراع في داخله على اساس تكوينه الطبيعي ، دون أن يخضع لخطيئة حتمية مفروضة عليه دون اختيار .

اننا نجد في هذا التعلق برأي هؤلاء ما نستطيع اعتباره شاهدا على ضعف الاساس الذي يركز عليه التفسير الماركسي للدين . .

* * *

ب - هل يكرّس الدين عجز الانسان أمام الظواهر الكونية ، ليكون ذلك بمثابة شاهد على انطلاق الدين من فكرة الشعور بالعجز امام الكون .

اننا نلاحظ - امام الجواب على هذا السؤال - ان القرآن الكريم لم يحاول التركيز على ضعف الانسان أمام قوى الكون ، بل حاول التأكيد على ضعفه امام الله من جهة ، وعلى ضعفه الذاتي من خلال تكوينه المادي من جهة اخرى ، تماماً ، كما هو الحال في الموجودات المادية الاخرى ، التي تتأثر وتتفعل بما حولها من الاوضاع الكونية .

ولكن التأكيد على ضعف الانسان أمام المطلق لا يراد منه التعبير عن انسحاقه نتيجة هذا الضعف ، بل يقصد منه الإيحاء بأن قوته ، مهما بلغت من العظمة والامتداد ، لا تستغني عن قوة الله ، فانها تستمد منها في كل لحظة شيئاً جديداً ، تماماً كما يكون امتداد الطاقة إزاء مصادر الطاقة في الحياة . . . ليعرف الانسان - من خلال ذلك - قيمة قوته ، أين تبدأ ، وأين تنتهي ، وكيف تنطلق ، ليكون اكثر واقعية ، وأشد تواضعاً في ممارسته لهذه القوة .

أما تكوينه المادي الذي يجعله يضعف فينفعل بما حوله ، فلا يوحي له بالضعف أمام القوى المادية الاخرى التي تحيط به ، بل

القضية - على العكس من ذلك - تتجه الى الإيحاء بإمكانية السيطرة عليها جميعا .

فقد قرر الاسلام - في اكثر من آية . اعتبار القوى الكونية مسخرةً للانسان . . . والتسخير قد يعطي معنى الانتفاع بفوائدها في بعض الحالات، وقد يعطي أنها مسخرة له فبإمكانه تطويرها واخضاعها لارادته في نطاق القوانين الطبيعية التي تتحكم فيها .

وقد نجد في بعض الآيات القرآنية الكريمة ملامح الإيحاء - ولو من بعيد - بقوة الانسان العظيمة وذلك لانه يحمل ما لا تستطيع القوى الكونية أن تحمله ، وان انحرف عن الخط في النهاية وذلك قوله تعالى :

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

[سورة الأحزاب : ٧٢] .

فان هذه الآية ، قد انطلقت في نطاق التعبير عن المسؤولية التي حملها الانسان ولم يتلاءم مع متطلباتها . . ولكن في التأكيد على عدم حمل السماوات والارض والجبال ، لما يحمله بعض الإيحاء بقدرة الانسان على أن يحمل ما لا تحمله هذه القوى الطبيعية العظيمة .

وهكذا نخلص الى النتيجة الحاسمة وهي : اننا لا نجد في الدين أيّ تكريس لعجز الانسان امام الكون ، بل القضية - على العكس من ذلك - هي التأكيد على قوته الكبيرة امامه .

* * *

ج - اذا كان الدين كما يتصوره ماركس وغيره - ينطلق من فكرة الجهل بالاسباب والقوانين الطبيعية التي تحكم الكون ، ولذا يحاول الانسان افتراض قوى غيبية تفسر له ما حوله من ظواهر وحركات . . اذا كان الدين - كما يتصورون - فكيف نفهم دعوة الدين الى أن ينطلق الانسان في طريق معرفة الطبيعة بكل ما فيها من ظواهر وقوى ، للوصول الى فهم اعمق يعرف فيه الانسان عظمة الخالق من خلال عظمة الخلق .

فنحن نلاحظ ان الاسلام لم يحاول دعوة الانسان الى الايمان الاعمى عندما دعاه الى الايمان بالله بل حاول دعوته الى الايمان الواعي المنفتح على المعرفة بالكون وأسراره .

وهنا يتخذ الاسلام الموقف القوي الذي يعكس الزعم الذي فسرت به النظرية الماركسية نشوء الدين ، فيعتبر المعرفة العلمية طريق الدين ، فكلما زاد الانسان علما زاد ايمانا ، وبهذا جاءت الآية التي تقول : ﴿ وقل رب زدني علما ﴾ ، كما يعتبر الجهل طريق الانحراف ، ومن هنا جاءت الآية التي تفسر الانحراف بقوله تعالى : ﴿ ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ . . . فكانت الدعوة الى تحكيم العقل ، وتطور العلم اساس الاسلام في دعوته وعقيدته . . ولم يكتف الاسلام بتقرير هذا الخط في أطار المظاهر الطبيعية للكون ، بل حاول ان يفسر الظواهر الاجتماعية بأسبابها النابعة من القوانين العامة التي تتحكم بمسيرة الكون وحركته في الحياة .

فهو عندما يتحدث عن انحراف الانسان يؤكد على ان انحرافه خاضع للواقع الذي يصنعه بيده وليس خاضعا لأوضاع غيبية خفية لا يعلمها ، كما في قوله تعالى - وهو يحدثنا عن الظلم الذي يمارسه

الانسان ضد نفسه ، ليربطه بارادة الانسان واختياره :

وَمَا ظَلَمُوا نَا وَلَا كُنَّا نُوْا اَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُوْنَ ﴿٥٧﴾

[سورة البقرة : ٥٧] .

أما اذا تحدث عن تغيير المجتمع ، فانه لا يتحدث عنه من خلال اوهام الغيب الخيالية - كما يحلو لماركس ان يقول - بل يتحدث عنه من خلال تصورات الانسان للحياة وارادته النابعة من ذاته وظروفه .

قال تعالى :

اِنَّ لِلّٰهِ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوْا مَا بِاَنْفُسِهِمْ .

[سورة الرعد : ١٢] .

وقال في آية اخرى :

ذٰلِكَ بِاَنَّ لِلّٰهِ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً اَنْعَمَّا عَلٰى قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوْا مَا بِاَنْفُسِهِمْ .

[سورة الانفال : ٥٣] .

فهو يقرر قانون التغيير في الحياة ، ويحدثنا أنه لا يخضع للصدفة أو للغيب .. بل يخضع لواقع الانسان الذي يصنع عملية التغيير من خلال فكره وممارساته في الحياة .

وفي الحديث عن الفساد والظلم الاجتماعي ، لا يعتبره قدرا مفروضا على الانسان من فوق دون ارادته بل يجعله منطلقا من عمل الانسان وتحركاته ، ولقرأ هذه الآية :

قال تعالى :

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ اَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا اَعْلَاهُمْ يَرْجِعُوْنَ ﴿٤١﴾

[سورة الروم : ٤١] .

فهو يشير أمام الانسان اسباب الفساد ، ويوحى له بالالام التي تنتج عنه ، ليكتشف طريق خلاصه من خلال عمله وارادته التي تتحكم في العمل .

اننا نحاول في هذا الحديث اشارة هذه الجوانب ، لا الافاضة في الحديث عنها ، لنؤكد الفكرة التي نحاولها وهي : ان الدين الذي يدعو الى معرفة اوضاع الحياة وظواهرها من داخل الحياة لا من خارجها ، لا يمكن ان ينطلق من فكرة الشعور بالعجز والجهل بتفسير الكون .

د- هل التصور الديني للحياة يحجب من الانسان مطالب الحياة وحاجاتها ليكون مخدراً يشمل به الانسان كما يشمل بالخمرة . . ومهيجاً يسقى به الانسان لينسى مطالبه ودوره السياسي العظيم .

ان الجواب عن هذا السؤال يفرض علينا التعرف على جوانبه . . فقد نجد هذا المعنى في دعوات الصبر والرضا بالقضاء والقدر ، أو التوكل ، أو الوعد بالجنة التي يجد فيها الانسان كل سعادة وكل راحة بدلا من هذه الحياة ولكن هل الدين يدعو الى هذا كله بالمعنى الذي يتصوره الآخرون .

اننا نلاحظ باختصار ، ان في هذه الدعوات معاني إيجابية تتعد عن هذا التصور المخدر ، وربما نفهم ذلك من دعوة الاسلام للانسان الى أن يمارس دوره في الحياة في اقامة العدل ، ودحر الظلم من خلال الكفاح في سبيل ذلك . . حتى الموت ، ويشجب موقف الضعف والذل والخضوع والاستكانة ، ويرفض اعتبارها مبرراً للانسان في مواقفه السلبية والايجابية المضادة ، كما يؤكد للانسان انه هو الذي يصنع مصيره ولذا فان عليه أن يجاهد في سبيل ذلك كله .

اننا لا نعرف كيف يكون مثل هذا مخدراً ينسى به الانسان مطالبه
ودوره السياسي العظيم . . .

ان ذلك هو واقع الدين في فكره الاصيل ، أما الممارسات
الدينية المنحرفة التي يحاول بعض المتاجرين بالدين او الجاهلين به ،
أن يفرضوها عليه . . فهذه لا يتحملها الدين ، ولا يمكن للمفكر
المنصف أن يعتبرها اساسا للحكم على الدين .

* * *

س ٢ - هناك واقع نعيشه في بلادنا العربية والاسلامية ، وهو
معاقة الفتاة التي تنحرف أخلاقيا بالقتل تحت شعار « الدفاع عن
الشرف » و « غسل العار » فما هو موقف الاسلام من ذلك ؟

* * *

ج - ان الاسلام يرفض هذا الواقع جملة وتفصيلا على أساس
الملاحظات التالية :

أ - ان الذين يمارسون هذا التصرف لا ينطلقون من فكرة
المحافظة على الشرف من حيث هو قيمة كبيرة من قيم الاخلاق في
الحياة ، بل ينطلقون - فيه - من فكرة التخلص من العار ومن مواجهة
تعبير الآخرين . . ولذا نجد الكثيرين من هؤلاء لا يهتمون للانحراف
اذا كان خفياً لا يعرف به أحد ، ولم يتحول الى فضيحة اجتماعية ،
كما نلاحظ في سلوكهم العملي في هذا المجال . . انهم لا يتصرفون
هذا التصرف في حالة انحراف الرجل ، لانه لا يمس شرف العائلة
الاجتماعي ، كما هو الحال في المرأة . . فكأنه قدّر للمرأة ازاء هذا
المفهوم الجاهلي - أن تتحمل مسؤولية الشرف ، دون ان يحمل الرجل
من هذه المسؤولية أي شيء حتى ولو كان - هو - صانع المأساة .

وربما يؤكد لنا هذه الصورة ، ان هؤلاء لا يقصرون هذا التصرف على حالة الانحراف بل يمارسونه في حالة حدوث إشاعةٍ حول الفتاة ، وان كانوا يعلمون انها كاذبة ، او في حالة إقدام المرأة ، او الفتاة على الزواج بشخص لا يرتضيه الاخ او الاب او القريب مع كونه كفؤا لها ومنسجما مع عقلها وذوقها وحياتها ، لان ذلك يسيء في مفهوم التقاليد العشائرية ، الى شرف العائلة وكرامتها .

وهذا كله بعيد عن شرع الاسلام وتفكيره ، لانه يعتبر القضية قضية قيمة اخلاقية تتصل بحياة الانسان الفردية او الاجتماعية ، التي يحمل الرجل مسئوليتها بنفس المستوى الذي تحمله المرأة من المسؤولية ، بل ربما يحمل الرجل - وحده - المسؤولية كاملة غير منقوصة ، وقد تتضاعف مسئوليته وعقوبته اذا كانت المرأة خاضعة لضغط الاكراه على الانحراف من قبل الرجل .

أمّا موضوع الشرف فليس مقياسه العرف الجاهلي المنحرف بل مقياسه الاول والاخير هو الاطار الذي وضع الاسلام فيه احكامه .

فالتهمة التي لا تتركز على أساس ثابت لا تبرّر أي عمل تجريمي مهما كانت الظروف والاحوال ، لانها لا تصلح - وحدها - اساسا للحكم . . كما ان الزواج بالكفؤ ، وان لم يرض به الاقرباء ، لا يعتبر عملا ضد الشرف ، وان رفضته الاعراف الاجتماعية والتقاليد العائلية ، لان الاسلام أعطى للفتاة حرية الزواج بالكفؤ ولم يجعل لأي انسان سلطة منعها من ذلك حتى لو كان - هذا الانسان - أباه ، ثم ان الاسلام - حتى في صورة الانحراف - لا يوافق على الفكرة التي تحمّل العائلة او القبيلة ضرر ذلك ليكون في ذلك تعريض لشرف العائلة للخطر ، لان شرف كل انسان يخصّه ولا يتعداه الى غيره في حالة

الاستقامة او الانحراف . فكل انسان ينعكس عليه عمله ولا ينعكس على غيره حتى ولو كان قريبا منه .

ب - ان انحراف الفتاة بالزنا . لا يبرر الحكم عليها بالموت مطلقا على اساس قانون العقوبات الاسلامي ، لان الزانية أو الزاني لا يحكم عليهما بالاعدام رجماً بالحجارة الا في حالة الاحصان ، وهو الزواج ونحوه ، أمّا في غير ذلك فالحكم الاسلامي هو الجلد حسب النص القرآني ، الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله .

وعلى أي حال فان الحكم الشرعي يخضع لعنصر الاختيار فلا عقوبة مع الاكراه من أي من الطرفين .

ج - ان هناك قاعدة شرعية مسّلمة بين الفقهاء ، وهي : ان الحدود تدرأ بالشبهات فلا حدّ الا فيما اذا ثبت الزنا بشكل لا يقبل الشك بأن يشهد الشهود الاربعة بتفاصيل الواقع ، او يقر الانسان على نفسه بالزنا بالشكل المحدّد الذي لا يحمل الشبهة .

ولعل مثل ذلك لا يتوفر في اكثر الحالات التي يمارس فيها هؤلاء هذا العمل .

د - ان السلطة الشرعية الحاكمة هي السلطة المنوط بها رعاية شئون هذه الامة فلم يجعل لأيّ انسان حق التنفيذ بعيداً عن حكم السلطة ونظرها ، لان ذلك يحوّل الامر الى فوضى تبعاً لأهواء الناس وشهواتهم ومنافعهم . وقد ورد ذلك في الحديث المروي عن الامام الصادق (ع) :

عن حفص بن غياث قال : سألت أبا عبد الله « الصادق » (ع)

من يقيم الحدود؟ السلطان أو القاضي؟ قال : إقامة الحدود إلى من إليه الحكم .

وربما يكون الاساس في ذلك ، هو ان ممارسة هذه العقوبة يتوقف على ثبوت الجرم ولا يتحقق اثبات الجريمة بعيدا عن الاهواء والاغراض الشخصية الا في نطاق السلطة الشرعية ، لان الافراد غير المسئولين يتصرفون غالبا على اساس انفعالاتهم التي تتركز على الشبهة والتهمة ، دون تثبت او اطمئنان .

ولهذا كله يعتبر الاسلام الذي يقدم على هذا العمل وهو تصفية حياة الفتاة - في هذه الحال - قاتلا يترتب عليه ما يترتب على القاتل من عقوبة دون أية ظروف مخففة ، كما يصنعه المشرع الوضعي في القانون المدني . . وهذا شيء متفق عليه في غير حالة الاحصان ، أما في تلك الحال ، فان الكثيرين من الفقهاء يرون ان القاتل لا يتحمل الا الاثم دون القصاص ، لان المقتول ليس بمحقون الدم فلا حرمة له ولكننا نميل الى رأي الفقهاء الآخرين الذين يقولون ان القاتل لا يملك سلطة تنفيذ الحكم على هذا الانسان ، ولذلك فهو قتل بغير حق ويترتب عليه ما يترتب على القاتل من عقوبات انطلاقا من أدلة القصاص .

الحلقة السادسة والسابعة

مَوْقِفُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِنْفِعَالِ
وَ
لِكُلِّ سُؤَالٍ جَوَابٌ

- الانفعال في علم النفس والأخلاق .
- موقف الإسلام من الانفعال .
- لكل سؤال جواب .

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كنا نود أن تكون حلقات هذه السلسلة متقاربة ، او متصلة ، حتى نظل على صلة بالقارىء الكريم ، ولكن الظروف العامة والخاصة ، أخرت صدور هذه الحلقة ، إلى هذا الوقت ، راجين من الله التوفيق لأصدار هذه السلسلة بشكل منتظم ودقيق ، لتستطيع المساهمة الفعلية المتواصلة في ايضاح المفاهيم الاسلامية ، للانسان المسلم ، حذراً من ان يظل يعاني الضياع في زحمة المفاهيم اللإسلامية .

واننا نود أن نوضح للقارىء الكريم ، أن هذه البحوث التي نعالجها في هذه الحلقات ، قد لا تخلو من الجدة في هذا الاطار الذي تحاوله ، لاننا لم نعثر ، حتى الآن ، على معالجة المواضيع التي أثرناها ، بهذا الشكل من الشمول والموضوعية .

ولذا فاننا - ونحن لا ندعي لانفسنا العصمة والاستيعاب ، فقد تكون هناك جوانب لم نهتد اليها ، وربما تكون هناك نقاط لم نوضحها - نرجو من القراء الكرام ان يوافقونا بملاحظاتهم في جميع هذه

القضايا ، لنصل إلى الهدف الذي نعمل من أجله . وهو تركيز المفاهيم الإسلامية ، بعيداً عن أيّ انحراف أو تحريف أو غموض والله سبحانه من وراء القصد . وهو حسبنا ونعم الوكيل .

محمد حسين فضل الله

الحلقة السادسة

القسم الأول

الانفعال في علم النفس والأخلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

الانفعال في علم النفس والاخلاق

القسم الأول

[١]

في حياة كل منا لحظات محمومة ، نشعر فيها بحالة غير طبيعية ، تأخذ على النفس كل جوانبها ، وتستفز كل مشاعرها فتوتر الأعصاب ، وتلهب الأحاسيس ، وتتصاعد من الأعماق رياحاً مجنوناً تجتاح في طريقها كل شيء .

إنها لحظات الأنفعال التي يعيشها الإنسان أمام أزمات الحياة ومساكلها عندما تتعقد في كيانه ، أو تفاجئه في حالات الصراع مع الآخرين الذين يعايشهم ويعاشونه ، فيغضب تارةً ، ويرضى أخرى . . أو يرزح تحت أثقالها في مصائب الدهر وخسائره وآلامه ، فتطغى معها عواطفه ، وتفيض بمشاعر الحزن التي قد يفقد لديها أية رؤية واقعية للموقف .

وقد تتمثل هذه اللحظات في الاندفاع المجنون أمام انتصاراته غير المتوقعة ، أو أرباحه غير المحترسة ، فتمتلىء ذاته بمشاعر الفرح الذي يتعاضم ويتعاضم حتى يأخذ على النفس وعيها وتفكيرها .

... وتتسرع اللحظات في أسبابها ، وتختلف في ألوانها ،

وتفترق - تبعاً لذلك - في مظاهرها التعبيرية ، من انقباض وتقلص ، وانبساط وانسراح ، أو صراخ او قهقهة ، او تصفيق ، او رقص او تطليل ، او حركات استعراضية ، او كلمات عاطفية .

فما هو موقفنا من ذلك كله ؟

هل نندفع مع هذه الأنفعالات . . فنجري مع التيار المجنون الهائج ، ونترك للنفس مداها في الأندفاع ، وحريتها في التعبير عن مشاعرها دون ضابط او رادع ، لثلاث تنكمش وتتعد وتختنق في أجواء الكبت الخائفة . كما يحلو للبعض أن يقول .

أو نقف وقفة هدوء وتأمل وتفكير ، فنعطي للنفس مجالها في التنفيس عن العاطفة دون أن نسمح لها بالتجاوز عن الحدود الطبيعية للمواقف، قبل أن يتحول الموقف إلى كارثة تأكل الأخضر واليابس .

ما هو موقف الاسلام من هذه الحالات ؟

هل هناك وجهة نظر اسلامية تحدد للانسان تصرفاته أو توجه له سلوكه امام حالات الانفعال .

هذا ما نحاول التعرف عليه لننتقل في حياتنا العملية على أساس المفاهيم الاسلامية الواضحة في الحياة .

[٢]

لماذا هذا الحديث ؟

ربما نجد الجواب في دراسة الواقع الحياتي للانسان المسلم الذي ابتعد عن مفاهيمه الاسلامية في الحياة فلم يعتبر ان للاسلام مفهوماً في هذا الجانب او ذاك ، بل القضية عنده في أغلب الظن ،

قضية احكام شرعية متفرقة تنهى عن فعل ، وتأمر بفعل ، وتبيح آخر ، دون ان يكون هناك قاعدة واحدة او مفهوم واحد يربط بين هذه الأمور ويوحد جوانبها .

وهكذا أصبحنا نعيش الفراغ الفكري والنفسي من المفاهيم العامة للحياة في مقابل امتلاء تشريعيّ نمارسه بحرفيته دون اهتمام بجذوره ومنابعه .

ولعل الخطورة في ذلك كله ، تتمثل في أنه يفسح المجال لولادة مفاهيم اجتماعية او نفسية جديدة تختلف عن المفاهيم الاسلامية وتتصادم في كثير من آثارها وظواهرها مع الممارسات العملية للتشريع الاسلامي في الحياة . . . الأمر الذي يجعل الانسان المسلم يتعد تدريجيا عن التشريع ، وبالتالي عن الاسلام ، بشكل لا شعوري ، وربما يخضع لاسلوب خادع يوحي له بأنه يسير مع الحق . . في الوقت الذي يذهب فيه بعيدا مع الباطل .

لذلك فنحن هنا نحاول أن نجتمع بعض المفردات التشريعية من هنا وهناك لنؤلف منها قاعدةً تشريعيةً إسلاميةً واحدة تنطلق الى الحياة من مفهوم اسلامي اصيل يمدّها بالروح ويموّنها بالتشريع . . . الأمر الذي يجعلنا نصل الى الهدف الذي نريد بلوغه ، وهو الخروج من الممارسة الجامدة للاحكام الشرعية ، إلى الممارسة العملية الحية الواعية التي تضم الروح والجسد في وحدةٍ رائعة يمتزج فيها الفكر بالعمل والايمان بالتطبيق .

* * *

ما هو اطار البحث ؟

هل نحن أمام حديث (سيكولوجي) نفسي يضيف الى ابحاث علم النفس شيئاً جديداً في تحليل طبيعة الانفعال ومدلوله النفسي ، ليشارك في عملية فهم أعمق للنفس الانسانية من اجل التغلب على عُقدتها المستحكمة وازماتها الداخلية الشديدة .

أو أننا نحاول الدخول في أبحاث اخلاقية تحدد القيمة الحقيقية للانفعال من وجهة نظر علم الاخلاق لتساهم في توجيه خُطى الانسان نحو الطريق الأقوم والهدف الأفضل .

أو أننا هنا لتلمس الأخطار والأضرار التي تلحق بالفرد والمجتمع من خلال السماح للسلوك الانفعالي في الانطلاق إلى حياة الانسان دون ضوابط تحدّ من جموحه ، وحواجز تخفف من اندفاعه ليكون حديثنا حديثاً وعظيماً يستنفر الناس ويخوّفهم من عواقب هذا السلوك .

* * *

الحديث في الاطار الواسع :

من الحق لنا أن يكون الجواب عن هذه التساؤلات ، هو اعتبار هذه الجوانب التي أثيرت مجالاً للبحث ومنطلقاً للحديث .

لأننا نريد من اثاره هذا الموضوع ، أن نضع اليد على المفهوم الاسلامي للسلوك الانفعالي في حياة الانسان لينطلق في سلوكه العملي على أساس عميق ودقيق ، من خلال النظرة الاسلامية العامة للحياة .

وعلى ضوء ذلك لا بد للحديث من أن يتشعب في جوانب

عديدة ، منها النفسي والأخلاقي والاجتماعي ، وغير ذلك من الأمور التي يرتبط بها الانفعال كحالة نفسية ، او ظاهرة اجتماعية او أخلاقية ، لان أيّ سلوك انساني ، لا ينحصر في دائرة خاصة ، بل يتسع لعدة مجالات في الحياة .

وإذا كان الأمر - كما أشرنا - فلا بد للإسلام . حينما يحدد موقفه من حالة معينة او ظاهرة خاصة ، من ان يدرس مصلحة الانسان من خلال جميع الجوانب الحية التي تحيط بحياته من خلال هذه الحالة ، او تلك الظاهرة ، لأن ذلك هو السبيل الى تحقيق التوازن الأصيل لحركة التشريع في نظامه المعصوم .

* * *

حديث الانفعال كظاهرة عامة :

أمام مجالات هذا الحديث ، فليست مختصة بجانب من الحياة دون جانب ، فلا تنحصر في الحياة الفردية التي يبش الانسان فيها نزواته الذاتية وأزماته الشخصية التي تثير في داخله هذا الانفعال او ذلك .

ولا تختص بالحياة الاجتماعية التي يواجه فيها المجتمع من خلال التحديات التي تواجهه ، والصراعات التي تتجاذبه ، والانفعالات الحادة التي تعصف به فتحوله الى كتلة من نار ، أو بركان من جحيم .

ولا تضيق به مجالات الحياة السياسية التي تلف وتدور وتناور وتحاور ، وتخدع وتغوي ، فتخلق الأزمات ، وتثير المشاكل ، وتبتدع الخلافات فتهمز الحياة من حولها فيما يشبه عصف الرياح ، وتخلق المشاكل والاضطرابات في أجواء العالم حتى تتحول إلى فوضى مجنونة تجتاح أمامها كل شيء .

وهكذا نستطيع أن نقرب به الى الحالات الحربية التي يتكلم فيها الحديد والنار فثير الرعب والخوف في كل قلب ، وتنشر الفناء والدمار في كل افق ، وترسل الصواعق فتصيب بها من تشاء .

فليست مجالات الحديث محصورة في واحدة من هذا أو ذاك ، بل الحياة كلها بجميع مظاهرها وأشكالها ومنطقاتها . . لأن مجال حديثنا هو السلوك الأنساني الذي يتحكم في الحياة على مستوى الفرد والمجتمع ، وعلى مستوى السلم والحرب والسياسة والاجتماع ، والنظرية والتطبيق .

ولذلك فانه يترك أثره في كل واحد منها تبعاً لطبيعته العملية التي قد تلتقي مع الضوابط القوية التي تحفظ له التوازن في الخطى والانسجام في الخطط ، وقد تبعد عنها ، فيكون الاختلال في الوسائل والارتباك في الأهداف .

انه حديث الانسان في كل منطقاته وتطلعاته ، في كل مراحل حياته ، وفي كل زمانٍ ومكانٍ .

كيف نفهم الانفعال :

حاول علماء النفس البحث عن طبيعة الانفعال ومدلوله واهدافه ، واختلفت نظرياتهم في ذلك اختلافاً شديداً ، قد يصل ببعضها الى حد الغرابة في بعض الحالات كما تلاحظ ذلك في نظرية جيمس لانج .

نظرية جيمس لانج :

وتتلخص ^(١) هذه النظرية في أن الانفعال هو مجموعة الاحساسات المختلفة المتسببة عن التغيرات العضوية وتختلف

(١) علم النفس . أسسه وتطبيقاته التربوية ص ١٧٠ - ١٧١ عبد العزيز القوسي .

الانفعالات بعضها عن بعض باختلاف هذه الاحساسات العضوية .

ويمضي جيمس بعيداً في هذه النظرية فيقول : إن المظاهر الجسمية والعضوية ليست نتيجة للانفعال بل هي السبب في ظهوره ، فنحن لا نبكي - في نظره - لأننا نشعر بالحزن ، ولا نضرب لأننا نشعر بالغضب ولا ترتعد فرائصنا لأننا نشعر بالخوف ، وانما نشعر بالحزن لأننا نبكي ، ونغضب لأننا نضرب ، ونخاف لأن فرائصنا ترتعد .

وقال ايضاً : انه اذا أمكن تجريد الفرد من جميع التغيرات الجسمية والعضوية في موقف ما ، فان الموقف يصبح موقفاً إدراكياً خالياً من أي شعور وانفعال .

ولكن هذه النظرية - فيما يظهر - انطلقت من « عدم التمييز بين الحالة الانفعالية والتغيرات الجسمية » وفوق ما تقدم ، فالمنطق السليم يقول : ان الانسان يهرب من الخوف ، ويقتل من الغيظ ، ولا يقول إن الانسان يغتاز من القتل ، ويخاف من الهرب .

نظرية مكدو جل :

وهناك نظرية أخرى لـ (مكدو جل) في كتابه علم النفس الاجتماعي .

وتتلخص هذه النظرية في اعتبار كل التغيرات الجسمية والعضوية المصاحبة للانفعال ذات غرض أساسي بيولوجي وهو خدمة الفعل الغريزي .

فاذا ما اثير انفعال الخوف فان الغرض الحيوي المطلوب يتحقق بسرعة الخلاص من الموقف . وقد يتم هذا الفعل عند الطيور

بطيرانها ، وعند الغزلان بالجري ، وعند الحيوانات المائية بالغوص في الماء .

ولكي يتم هذا نجد أن الاعضاء الداخلية تتكيف لتساعد على تحقيق هذه الغاية ، فيسرع القلب في عمله ليوزع الدم في شيء من السرعة على أجزاء الجسم ، وتسرع الرئتان في عملها لأخذ الهواء النقي وطرد غيره ، وبذلك تساعدان عملية الاحتراق الضرورية لاعطاء الجسم طاقته اللازمة ، ويتوزع الدم كذلك بحيث يترك أجزاء الجسم التي يمكن وقوف عملها في هذا الوقت ، فيترك المعدة والأمعاء وسطح الجلد ويتوزع في المخ وفي العضلات الأخيرة التي تساعدنا على سرعة الهرب ، وتتسع حدقة العين حتى تستقبل أكبر قدر ممكن من الضوء لتستعين به على ادراك الأشياء وتمييز المواقف .

ويتفق « شاند » مع مكدوجل في فكرته عن فطرية الانفعال ويعرفه بأنه استعداد فطري معقد ينظم الغرائز ومظاهرها الحاسية الحركية .

* * *

وتدرسه مدارس التحليل النفسي من زاوية الصراع القائم بين الفرد وبيئته ، وما تنطوي عليه هذه البيئة من آثار تدفعه الى كبت انفعالاته كبتاً لا شعورياً يؤثر في سلوكه ورغباته وذكرياته .

فيؤكد بولهانز أثر البيئة في نشأة وتطور الانفعال ، ويذهب إلى أنه يبدأ حينما يواجه الفرد موقفاً لا يجد له حلاً مباشراً سريعاً ، فيستعد الجسم لمواجهة التطورات النفسية التي يعانيتها الفرد فتزداد ضربات القلب وترتفع نسبة السكر في الدم لمدد الجسم بالطاقة التي يحتاج إليها ، وهكذا تستطرد هذه التغيرات لتحفز الفرد لمواجهة الموقف .

ويلخص « دوفر » أهم الصفات المشتركة بين جميع المذاهب المختلفة في دراساتها للانفعال فيعتبر « انه حالة نفسية معقدة تبدو مظاهرها العضوية في اضطراب التنفس وزيادة ضربات القلب واختلال إفراز الهرمونات . وتتميز مظاهره النفسية بوجودان يبدو في القلق والاضطراب ، وقد يؤدي هذا القلق الى قيام الفرد بسلوك معين ليخفف من توتره النفسي هذا ، وقد تعوق حدة الانفعال ، النشاط المعرفي للفرد (١) .

* * *

الغزالي يحلل الانفعال :

وقد تعرض علماء الاخلاق المسلمون للانفعال في بعض نماذجه ، ومنهم الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ، في حديثه عن الغضب الذي هو احدى مظاهر الانفعال ، فتلتقي فكرته مع فكرة « مكدوجل » في غريزية الانفعال ، وهدفه ، فنراه يعرف الغضب « بأنه قوة غريزية خلقها الله في الانسان لتدفع المهلكات عنه » .

ويوضح هذه الفكرة فيقول :

فخلق الله طبيعة الغضب من النار وعرزها في الانسان وعجنها بطبيعته ، فمهما صدّ عن غرض من اغراضه ، ومقصود من مقاصده ، اشتعلت نار الغضب وثار ثوراناً يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ، ويرتفع الى أعالي البدن ، كما ترتفع النار ، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجاة لون ما فيها . .

(١) فؤاد البهي السيد . الاسس النفسية للنمو ص ١٦٥ .

ويستطرد في كلامه فيقول : « وبالجملة فقوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام وانما تتوجه هذه القوة عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، والى الشفي والانتقام بعد وقوعها » .

* * *

وعلى ضوء هذه النظرية التي سبق الغزالي ، علماء النفس ، نستطيع ان نقرر ان الانفعال ليس قوة شريرة بطبيعتها بل هي من القوى الطبيعية التي اودعها الله في الانسان لحمايته من الاوضاع التي تحيط به ، او القوى التي تواجهه ، فتدفعه الى استنفار طاقاته الذاتية للدفاع عن نفسه ، او لتحقيق اغراضه .

ولكنها - كأى قوة أخرى من قوى الانسان - تبقى خاضعة لطريقة الانسان في استخدامها في سبيل الخير او في سبيل الشر .

* * *

الانفعال في صورتين :

للانفعال صورتان : احدهما في الداخل ، والاخرى في الخارج .

وربما تكون الثانية تنفسياً عن الاولى وتعبيراً عملياً لها - في اغلب الحالات - وقد تتعقد الاولى في كيان الانسان فلا تفسح المجال للصورة الأخرى بالظهور والبروز .

* * *

أما الصورة الاولى : فتتمثل في الحالة الشعورية التي تسيطر على الانسان امام عوامل التوتر وأجواء التأثير ، . . فهي حركة داخلية تنطلق من العوامل الخارجية التي تحيط بالشخص ، فتضغط على

الأعصاب ، وتلح على المشاعر فتتوتر وتلتهب بسرعة ، وبذلك يتحول الانسان إلى انسان ملبد في الداخل بفعل العواصف الهائجة المخبولة التي تعصف به .

وذلك كما في حالة الحزن العميق ، والخوف الشديد ، أو الفرح الداخلي ، أو الغضب المكبوت ، أو غير ذلك من الحالات النفسية التي تثيرها الخسائر او المصائب او الارباح أو الازمات .

وأما الصورة الثانية ، فتتمثل في السلوك العملي الذي يمارسه الانسان في حياته العملية - الفردية والاجتماعية - تحت ضغط تلك الحالات ، فيتحول الهياج الداخلي الى هياج خارجي يطبع تصرفاته وحركاته بطابع التوتر والاضطراب الذي تختلف اشكاله حسب اختلاف طبيعة تلك الحالة .

فنلمح الحزن يتمثل بالصراخ أو بالبكاء الهادئ ، او بتمزيق الثياب ، وخمش الوجه وشف الشعر ، ونلمح الفرح يتمثل بالضحك والرقص والغناء والتصفيق وغير ذلك .

ونجد الغضب في تحطيم الأواني والأبواب والضرب والصراخ الشديد والشتائم البذيئة وغير ذلك ونشاهد الخوف يتمثل في الهروب او في الانكماش والاختباء ونحو ذلك .

(١) ويشير الدكتور القوسي الى هاتين الصورتين من الانفعال فيقول

« يستعمل الناس عادة كلمة الانفعال لتدل على معان مختلفة ، أحيانا تؤخذ متفرقة ، وأحيانا تؤخذ مجتمعة ، فيعتبرون أن الانفعال هو الشعور الخاص ، كالآلم ، مجرداً من أي عنصر آخر ، وأحيانا يعتبرونه

(١) علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية - ص ١٦٩ .

المظهر الجسمي الذي يصحب الانفعال وأحياناً يأخذ ونهما معاً .
والذي أدخل المظهر الجسمي هو أن كل حالة انفعالية يصحبها تغيرات
جسمية نشعر ببعضها ولا نشعر بأغلبها » .

أين نحن من الصورتين ؟

أمام هاتين الصورتين نقف .

فأين يقع حديثنا منهما ، وما الذي نريده من هذا الحديث .

هل نحاول تبريد الانسان من الداخل . وتحويله الى شخص لا
ينفعل أمام عوامل الانفعال ، ولا يثور أمام دوافع الثورة .

هل القضية قضية صنع الانسان الذي يفكر بعقله بدلاً من
الانسان الذي يفكر بأعصابه ، فلا يتحرك داخله في حركة عصبية ، بل
يخضع لحركة العقل فقط ، وبذلك تتحول أعصاب الانسان الى جليد
لا يذوب الا على أساس حسابات دقيقة .

أو أن القضية ليست قضية الانسان في الداخل ، فلسنا هنا في
محاولة للتحكم بمشاعر الانسان ، وأعصابه ، بل القضية هي قضية
التصرفات العملية للانسان .

فنحن هنا في محاولة للتحكم بحركات الانسان وأقواله أمام
حالات التوتر الداخلي ، فليس من المهم ان لا يثور الداخل بل المهم
أن لا تنعكس الثورة الداخلية على اوضاع الانسان في الخارج .

* * *

في الجواب عن السؤال نقول :

إننا نواجه الحاجة الى الحديث عن كلا الوجهين للانفعال ،

الداخلي والخارجي ، فقد نشعر بضرورة الوصول إلى الهدف الكبير الذي يتمثل في السيطرة على الانفعال في الداخل في محاولة لخلق الشخصية العقلانية التي يتحرك فكرها بحساب ، وتنطلق مشاعرها بحساب ، فليس هناك إحساس طائش ، وليس لديها تفكير مرتجل .

ذلك ما تمثله نظرية تبريد الانسان من الداخل .

وقد نحتاج ، في سبيل الوصول الى هذا الهدف الكبير ، الى تحقيق هدف مرحلي أولي ، يتمثل في السيطرة على الانفعال في الخارج ، كمحاولة لايجاد الشخصية القوية التي تستطيع أن تخنق مشاعرها الملتهبة ، وتكظم غيظها العنيف ، فلا تدعها تتحكم في تصرفاتها العملية ، بل تظل التصرفات تسير على أساس فكري دقيق هادى ، وان كان الداخل يلهب بالنار .

وربما تشارك هذه السيطرة العملية على الانفعال كواقع حركي خاص ، بالإيحاء الدائم للداخل بالجو الهادى الذي يسيطر على الخارج ، لأن الخارج كما يتأثر بالداخل الشعوري في بعض الحالات ، فهناك الجانب الشعوري في الداخل يتأثر بالواقع الخارجي ، أو بالطريقة العملية التي يمارس الانسان بها حياته لأن الخارج هو البيئة الطبيعية التي ينمو فيها الداخل ويعيش .

ولعل من الخير للبحث أن نشير هنا ، ولو بشكل سريع - الى أننا لا نههدف في الهدف المرحلي أو الكبير إلى إلغاء الانفعال من حياة الانسان ، كمبدأ ، لان في ذلك إلغاءً لجانب ذاتي من جوانب الانسان التكوينية .

بل كل ما نريده هو تنظيم الانفعال و (تعقيله) . ان صح

التعبير ، ل يبقى الجانب الانفعالي من حياتنا مرتبطا بالجانب العقلاني
لثلا يتعد عن الطريق ، وينحرف عن الهدف .

* * *

هل الانفعال غريزة ؟

قد نجد في بعض كلمات علماء النفس ما يوحي باعتبار
الانفعالات التي تحدث للانسان في سلوكه ، من الغرائز فتلتقي بكلمة
غريزة الغضب ، وغريزة الخوف وغير ذلك .

ولكن الظاهر - كما يقول بعض علماء النفس - أن هذا التعبير
يفتقد الدقة ، فليس الغضب غريزة وليس الخوف غريزة ، بل هما
انفعالات ومظهران لغريزتين أساسيتين في حياة الانسان ، وهما غريزة
المقاتلة التي يتمثل انفعالها بالغضب ، وغريزة الخلاص او الهرب التي
يتمثل انفعالها بالخوف .

ولعل الذي أوقع هؤلاء في هذا الخطأ ، هو ثبوت الانفعال ، من
حيث نوعه في السلوك الغريزي ، فنحن نرى الاستعداد للمقاتلة يتمثل
في الغضب في حالة تعرض الانسان لإهانة شخصية ، او وقوع ظلم
على إنسان ضعيف أو مهاجمة عدو للوطن او التجديف على العقيدة من
كافر

فقد تختلف الدوافع والمثيرات للغضب حسب اختلاف طبيعة
الادراك ، ولكن الغضب يبقى هو هو في جميع الحالات مع اختلاف
في الدرجة .

وهكذا نجد الانسان يختلف في ممارسته لغضبه ، من الكلمة
القاسية ، الى الضرب الشديد ، إلى الشكوى للسلطة ، الى غير ذلك

من وسائل التعبير التي يتمثل فيها السلوك في حال الغضب . . ربما يكون لهذا التلازم ، بين الغريزة والانفعال في السلوك ، الذي يجعل الانفعال ثابتاً في طبيعة الانسان ثبوت الغريزة .

ربما يكون لهذا بعض الأثر في إضفاء صفة الغريزة على الانفعال ، إطلاقاً للسبب على المسبب كما يقول علماء البيان .

* * *

هل يمكن السيطرة على الانفعال ؟

ربما يبرز امامنا سؤال .

إذا كان الانفعال ملازماً للغريزة فكيف يمكن السيطرة عليه ، ما دمنا نعلم ان الغريزة من الامور الفطرية غير القابلة للزوال بذاتها ، وبآثارها .

ولعل الجواب الدقيق على هذا السؤال يرتكز على طرح سؤال آخر .

ما الذي نقصده من كلمة السيطرة على الانفعال ؟

هل هو إلغاء بالمرة ، او أن هناك معنى آخر نقصده ، وهو توجيهه الوجهة التي نستطيع معها أن نجعل منه قوة تخدم حياة الانسان بدلا من ان يكون قوة تؤدي الى الانهيار .

لن نريد المعنى الاول ، لان إلغاء الانفعال غير ممكن أساساً . كما المحنا الى ذلك فيما سبق - ولأن ذلك لا يخدم حياتنا - لو كان ذلك ممكناً - لان للانفعال نتائجه الايجابية الكثيرة التي يمكن توظيفها في نشاطات الانسان الفكرية والعملية - كما سنرى ذلك فيما يأتي من حديث -

ولذا فاننا مع المعنى الثاني ، وهو ترويض الانفعال وتوجيهه نحو التحرك الذي ينسجم مع مبادئ الانسان ومصالحه في الحياة ، ومنعه من ان يتحول الى عنصر يسيء اليه في مبادئه ومصالحه ، أو يساهم في إبعاده عن سلامة الوسائل والاهداف .

وقد أشار الغزالي الى ذلك في كتابه احياء علوم الدين فقال :

إعلم أنه ظن ظانون أنه يتصور محو الغضب بالكلية ، وزعموا ان الرياضة ، اليه تتوجه ، واياه تقصد . . وظن آخرون أنه اصل لا يقبل العلاج . وهذا رأي من يظن أن الخلق لا يقبل التغيير . وكلا الرأيين ضعيف ، بل الحق فيه ما نذكره ، وهو انه ما بقي الانسان يحب شيئاً ويكره شيئاً فلا يخلو من الغيظ والغضب وما دام يوافقه شيء ويخالفه آخر فلا بد أن يحب ما يوافقه ويكره ما يخالفه ، والغضب يتبع ذلك فانه مهما اخذ منه محبوبه غضب لا محالة ، واذا قصد بمكروه غضب لا محالة .

ثم يسترسل الغزالي في بيان الامور التي يحبها الانسان ويتعلق بها ، وينتهي الى نتيجة حاسمة ، وهي ان المطلوب هو السيطرة على الغضب برده الى الاعتدال في حالة ، وبازالة اسبابه في حالة أخرى حتى لا تعود هناك حاجة اليه .

ما هي وسائل السيطرة على الانفعال ؟

يذكر علماء النفس عدة وسائل للسيطرة على الانفعال ويطلقون عليها اسم «تعديل السلوك الفطري او الغريزي» ويذكرون له عدة أنواع .

الاول : التعديل من الناحية الادراكية ، فاذا كانت الدوافع

الغريزية تستثار بمثيرات طبيعية ، فيمكن العمل على استشارتها في مواقف غير المواقف العادية .

الثاني : التعديل من الناحية النزوعية ، وهي اساليب التعبير عن الانفعال التي يصل بها الى الغرض الغريزي .

الثالث : التعديل بسبب دوافع مختلفة في وقت واحد ، من أجل تحقيق التوازن بينها أو تغليب بعضها على بعض في عملية صراع بينها في مجال السلوك . . .

* * *

فنلاحظ في النوع الاول ، وهو التعديل من الناحية الادراكية ، ان الصوت العالي قد يكون مثيراً طبيعياً لانفعال الخوف ، ولكنه سرعان ما يفقد عنصر الاثارة عندما يضع الانسان يده على تجربة خاصة بصوت عال لا يقترن بالخطر ، وقد نجد في الظلام مثيراً مكتسباً للخوف نتيجة اقترانه بالتصور بوجود الحشرات المؤذية أو الحيوانات المفترسة ، أو المخلوقات الاسطورية التي تجعلها الاقاصيص تعيش في الظلام ، ولكنه يتحول الى شيء عادي ، بالوعي والممارسة الكثيرة للعيش في الظلام حيث يكتشف الانسان خطأ الفكرة التي توحي بالخوف فلا يثير في نفسه أي شيء غير عادي .

وعلى ضوء هذا يمكننا أن نلغي من حياة الانسان كثيراً من انفعالات الخوف الناتجة عن تصوره لعظمة قوى كثيرة مجهولة . بحيث يثير في نفسه الشعور العميق بالرهبة والانسحاق امامها ، الأمر الذي يجعله يعيش الاحساس الدائب بالخوف من سطوتها فيتحول هذا الخوف الى عبادة وتقديس عندما يمتزج بالشعور بقداستها ، كما نلاحظه في الشعوب التي كانت تعبد الانهار العظيمة وتقدم لها القرابين

لتأمين بذلك من مواجهة غضبها وطغيانها .

إننا نستطيع ان نلغي هذا كله من حياة الانسان اذا استطعنا ان نملأ وعي الانسان وادراكه بالحقائق الواضحة الملموسة لهذا الشيء ، الأمر الذي لا يترك هناك أي جانب خفي يوحى بالرهبة ويشعر بالقداسة .

وربما نحتاج الى هذا الاسلوب في واقع الشعوب المستعمرة إزاء القوى الاستعمارية التي تظل تعمق في وعي هذه الشعوب ، احساسها بالضعف في كل شيء أمام قوة المستعمر الذي يملك كل شيء مما يجعل قضية مقاومة نفوذه قضية خاسرة على كل حال ، فيتحول ذلك كله الى الشعور بالانهيار والانسحاق تحت ضغط هذا التفكير الخطر .

وربما نشعر بضرورتها في حركة العاملين من أجل التغيير الاجتماعي والفكري عندما يواجهون بالقوى التقليدية التي تملك كثيرا من القوى المادية ، في مقابل القوى الجديدة الناشئة التي لا تملك الا النزر القليل من ذلك مما يثير في نفس العاملين الشعور بالرهبة والخوف من مواجهتها ، أو تحدّيها بما تملك من وسائل التحدي الضعيفة .

ان الطريقة التي يمكن أن نلجأ اليها في هذه الحالات ، هي أن نكشف للشعوب ، او للعاملين طبيعة القوى التي يملكونها ذاتيا ، او التي يمكن أن تنضمّ الى قوى أخرى مساندة ، ونحاول - في الوقت ذاته - أن نعمق الاحساس بهذه القوة في انفسهم بالممارسة العملية المتنوعة .

ثم نكشف لهؤلاء نقاط الضعف الكثيرة الموجودة في تكوين

القوى الاستعمارية او التقليدية ، التي كانت تختفي وراء الصورة الزائفة للقوة المطلقة . ونعمل - من جهة أخرى - على إثارة الاحداث التاريخية والمعاصرة التي استطاعت فيها شعوب مماثلة أن تصرع هذه القوى ، بكفاحها الدائب ، وبقواها المتجددة ، فتخلص من سيطرتها وطمغيانها الى الأبد .

وبذلك تتحطم الصورة المزيفة ، ويتحطم - من خلالها - الواقع الذي يتحرك من خلال الحالة النفسية التي تترك أثارها عميقة على مسيرة الانسان في كل حركاته وافعاله .

ولكي تتضح الصورة جيداً للانسان في تأثير هذا الجانب في حياة الانسان من النواحي السلبية والأيجابية علينا أن نتلفت إلى وسائل الاعلام والتربية والثقيف التي تستخدمها الدول الاستعمارية ، او القوى التقليدية المتخلفة ، في العمل على أن تفقد الشعوب ثقتها بأنفسها وبتاريخها وبحضارتها وبقدرتها على الاستقلال بذاتها في ادارة مواردها ، وذلك باستغلال كل نقاط الضعف التاريخية والحضارية والفردية والاجتماعية في حياة هذه الشعوب .

وتحاول - في مقابل ذلك - أن تقوم بأعمال استعراضية في السلاح والثقافة والحضارة توحى بعظمة القوى الاستعمارية والتقليدية ، وتقدمها وسيطرتها التي لا تقهر .

إن الانتباه الى هذه الاساليب والعمل على محاربتها ومواجهتها بالاساليب المتنوعة ، يُفقد قوى التخلف سلاحها الأكبر في السيطرة على الموقف في جميع الحالات .

* * *

أمّا التعديل من الناحية النزوعية ، فنجده يتمثل في اختلاف

الحالات التي يلجأ إليها الإنسان في الوصول إلى غرضه ، عندما يفاجأ بفشل بعض الأساليب ، ولهذا نلاحظ تنوع طرق القتال ، فهناك الملاكمة والمصارعة والمبارزة واستعمال السلاح الناري ، والسباب والهجاء ، وتدبير المؤامرات ، وترويج الشائعات ، وحرب الأعصاب ، وحرب الميكروبات والحرب الذرية وغير ذلك (١) .

وهكذا نلاحظ أن الإنسان لا يشعر بالفشل في تحقيق أغراضه أمام سلوكه إلا ويحاول أن يلجأ إلى سلوك آخر يتفق مع الاتجاهات الجديدة والأوضاع الجديدة .

وعلى ضوء ذلك ، يستطيع العاملون في الحقل الاجتماعي والسياسي وغيرهما أن يغيروا بأساليبهم التربوية والعملية من وسائل التعبير عن الانفعال بما يستحدثونه من وسائل تتلاءم مع الأهداف والأغراض الكبيرة التي يستهدفونها في تقدم المجتمع ونموه .

« واما النوع الثالث من التعديل ، وهو استشارة أكثر من دافع واحد في وقت واحد ، فيحدث أن يستشار البحث عن أكثر من دافع واحد في وقت واحد ، فيحدث أن يستشار البحث عن الطعام والخلاص من الخطر في نفس الموقف فالجائع يبحث عن الجوع لأخذه ويمنعه الخوف (أو غير الخوف) من ذلك (٢) » .

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نثير في نفس الإنسان معاني مختلفة تمنع من انطلاق بعض الغرائز والشهوات في إثارة انفعال خاص ، أو سلوك معين كما يشير إلى ذلك الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين ،

(١) عبد العزيز القوسي . علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية ص ٤٨ - ١٤٩ .

(٢) عبد العزيز القوسي . علم النفس أسسه وتطبيقاته التربوية ص ٤٨ - ١٤٩ .

في حديث عن علاج الغضب بعد هيجانه وتعداد وسائل العلاج قال :

الثاني ان يخوف نفسه بعقاب الله وهو ان يقول قدرة الله اعظم من قدرتي على هذا الانسان فلو امضيت غضبي عليه لم آمن ان يمضي الله غضبه علي يوم القيامة احوج ما اكون الى العفو فقد قال تعالى في بعض الكتب القديمة يا بن ادم اذكرني في غضبك اذكرك في غضبي فلا أمحكك فيمن أمحق .

الثالث : ان يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمر العدو لمقابلته والسعي في هدم اغراضه والشماتة بمصائبه وهو لا يخلو من المصائب فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا وان كان لا يخاف من الاخرى . وهذا يرجع الى تسليط شهوة على غضب (١) .

نوجيه الانفعال بتوجيه النزعات الفطرية :

وهناك طريقة أخرى يمكن اعتمادها للسيطرة على الانفعال بالاتجاه نحو ميادين جديدة تلبي نداء الغريزة وتتفادى عملية الكبت المضرة بسبب ما تخلفه من عقد نفسية حادة تربك حياة الانسان وتبعثر طاقاته وذلك بالسير بالغريزة نحو ما يطلق عليه علماء النفس مصطلح (الاعلاء) وهو أن تسير بالطاقة الغريزية في اتجاه راق يحترمه المجتمع ويستفيد منه . فحب الاستطلاع يسير نحو الكشف والاختراع ، والميل للمقاتلة يسير نحو مقاتلة الامراض الجسمية والاجتماعية ، ومقاتلة ما من شأنه ان يضر بكيان للمجتمع . وهكذا يمكننا ان نحول الطاقة الغريزية من مجراها الطبيعي البدائي الى مجارٍ واقية تنفع الفرد والمجتمع .

(١) احياء علوم الدين ج ٣ ص ١٧٣ .

ولعل من مظاهر ذلك تحويل الانفعال الغريزي الذي يكون نتيجة غريزة الميل للمقاتلة والسيطرة في المجرى الطبيعي والذي يتمثل بالاتجاه نحو الانتقام بوسائله الخاصة تأكيداً لاثبات الذات الى اسلوب الصفع في حالة المقدرة ، فان اثبات الذات عن هذا الطريق يكون أعلى من اثباتها في طريق الانتقام (١) .

ولكن هذه العملية ليست مجرد عملية يسيرة يمارسها الانسان كما يمارس بعض اوضاعه اليومية ، بل يتعين علينا ، أن نعيد تنظيم الشخصية بكاملها على أساس جديد لتقوية جميع نواحيها وتحقيق وحدتها وتكاملها بتأثير المثل الاخلاقية العليا . والتربية السديدة الصالحة ، هي التي تحقق إعلاء الغريزة وتنقية الميول مما يشوبها من عوامل الاثرة والضعف ، وذلك بتحقيق وحدة الشخصية وتكاملها ، وبتقوية الارادة وتوفير وسائل ضبط النفس (٢) .

وهناك طريقة أخرى تحوّل النشاط الى نشاط آخر يختلف في طبيعته اختلافاً كلياً فينصرف الى عمل او رياضة بدلا من الانتقام - ويقصد به ان ينشغل الفرد عن اتجاه غريزي معين باتجاه آخر يختلف عن الاتجاه الاول في اصله . فالمراهق قد يشغل اوقات فراغه بالنواحي الرياضية والمعسكرات وبعض الاعمال الفنية وبذلك يتلهى عن الانشغال بالنواحي الجنسية التي لا يكون معداً لها من الناحية الاجتماعية (٣) .

-
- (١) القوصي . علم النفس ، ٣١ - ٣٣٢ .
(٢) مبادئ علم النفس العام ص ١٥٣ .
(٣) القوصي : علم النفس ص ٣٥١ .

اثر الانفعال في الحياة العقلية :

يلاحظ علماء النفس تأثير الانفعال في الحياة العقلية بنتائج سلبية تترك أثارها على سلوك الانسان وتفكيره ، فربما يساهم في اكثر الحالات ، كما في حالات الغضب ، في اختلال التفكير الدقيق المنظم ، الذي يركز على الصور الواضحة والمعاني الدقيقة ، التي يعمل الفكر على التنسيق بينها وربط بعضها ببعض لتحويلها الى نتائج جديدة .

ومن الطبيعي أن ذلك يحتاج الى أجواء هادئة في داخل النفس تفسح المجال لأكثر من فكرة أن تنمو وتتحرك وتترابط او تتصادم ، ليتحرك الفكر في اكثر من اتجاه فيتمكن من إعطاء فكرة كاملة عن الموضوع من جميع جهاته .

بينما يلاحظ بعض الباحثين إن الانفعال يثبت في داخل النفس فكرة واحدة ، فالغاضب الحزين لا يسيطر على عقله الا فكرة واحدة هي التي اثارت غضبه وحزنه . . هذا في حالة الانفعال الشديد .

أما في حالات الانفعال المعتدلة فنجد ان تفكير المرء يصطبغ عادة بصبغة وجدانية خاصة ويتبته المرء لنوع من الافكار دون الافكار الأخرى ، فاذا شعر المرء بالانقباض فانه يرى انه سيء الحظ ، ولا يرى فيما يرى ، او يفكر الا بعناصر الانقباض ولا يقدر النكتة او المزاح ، أما عند شعوره بالمرح فانه يرى السرور في كل شيء ويضحك للنكتة ويقدرها .

ويقول بعض الباحثين النفسيين ان مستوى النشاط الذهني اثناء الانفعال يكون أقل تماسكا وجودة من مستوى نشاط الشخص الهادىء

الضابط نفسه . فان الانفعال يؤدي الى تلاشي مراقبة الارادة للتفكير والعمل ، والى تساؤل مقدرة الشخص على النقد والتمحيص ، وعندما تضعف الارادة وقوة النقد يصبح الشخص خاضعاً لحوافز عمياء ودوافع جبرية .

... وعندما يستعصي علينا حل مشكلة عملية معقدة يتضخم الانفعال بتوالي المحاولات الفاصرة فنلجأ الى تبسيط المشكلة ، وحلها بطريقة غليظة تعسفية ، وقد يصحب الحل أحيانا شيء من المجازفة والتهور ويشاهد تحت تأثير الانفعال تفكك المعلومات المكتسبة حديثا ، والمعلومات الدقيقة المعقدة التي تكون قابليتها للاختلال والارتباك بدرجة تعقيدها ودقتها (١) .

وقد يذكر للانفعال بعض النتائج الايجابية في الحياة العقلية ، فنلاحظ أنه قد يكون عنصراً منشطاً للمخيلة ، فتدفق المعاني والصور بسرعة ، ويزغ نور الالهام فجأة بعد فترة من الخمول ومن المحاولات غير المجدية ، وقد يحمل هذا التيار الجارف من الصور والمعاني افكاراً جديدة تمهد السبيل الى الاختراع والابتكار (٢) .

ولكن علينا أن نلاحظ أن مثل هذه النتائج لا تنطلق من حالة مركزة ، بل تخضع في سلامتها ودقتها ، لطبيعة الحالة الوجدانية التي تتحكم في النفس من الداخل ، دون ان تتركز على أساس ثابت سليم يحميها من الاهتزاز والارتباك والخضوع لرغبات غامضة .

ولذا فان هذه النتائج الايجابية لا تشجع على اعتبار الانفعال في حركة النشاط العقلي ، حالةً صحيةً طيبةً بل لا بد من محاولة تطويقها

(١) و(٢) مبادئ علم النفس العام ص ١٢٣ - ١٢٤ .

وترويضها ببعض من الهدوء النفسي الذي يحاول أن يعطي الحالة الوجدانية بعض الهدوء الذي يخفف من حدة التوتر ويقوي من حركة الارادة .

وقد نستطيع الذهاب بعيداً في هذا المجال فنوافق الرأي القائل^(١) بأنه لا بد من شحنة وجدانية تصحب العمليات الذهنية لتغذية النشاط العقلي بالدوافع والرغبات ولتذكية الشوق الى مواصلة العمل . فباختلاف قوة هذه الشحنات يختلف مستوى النشاط العقلي فيرتفع حيناً ويهبط حيناً آخر .

قد يحدث ان تتناقض نتائج الانفعال في التذكر ، فقد نجد بعض الحوادث المصحوبة بانفعالات شديدة الايلام يصبح من الصعب نسيانها ، وان كانت بعض الحوادث الاخرى المماثلة تنسى نسيانا تاما في حالات شاذة .

ولكن الحالات الانفعالية المؤلمة تقلل الاستعداد للتذكر فالطفل الذي يتعلم تحت تأثير العصا يكون تقدمه أبطأ من غيره الذي يتعلم بالطرق الحديثة التي تعتمد على الحرية لا على الارهاب والعقاب في التخويف^(٢) .

* * *

اثر الانفعال في الحياة الاجتماعية والتربوية :

لا يستطيع الباحث أن ينكر قيمة الانفعال الأساسية في حياة الانسان من الناحية الاجتماعية والتربوية فقد نجد أن الانفعال يمثل أهم

(١) مبادئ علم النفس العام ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) القوصي . علم النفس ١٨٢ .

دوافع الانسان نحو العمل ، فلولا الشعور بالخوف لما شعر الانسان بالحاجة الى الدفاع عن نفسه ووطنه ومصالحه . أما احتمالات الخطر التي تواجهه من قبيل الآخرين ، الأمر الذي يمنحه القوة والثبات والاستقرار .

ولولا انفعالات الفرح والحزن والغيرة لما استطعنا أن نتعرف قيمة الحياة وأهدافها ومثلها العليا ، ولهذا نلاحظ أن من أفضل الوسائل لاستشارة الآخرين وتوجيههم نحو عمل ما يتعلق بحياتهم العامة والخاصة ، هو استشارة انفعالاتهم الذاتية وتوجيه مشاعرهم نحو هذا الشيء أو ذاك .

وربما نجد اوضح شاهد على ذلك ، هو ما يمارسه الاشخاص الذين يعملون في الحقل السياسي والديني والاجتماعي من التركيز على الاساليب العاطفية التي تثير المشاعر ، وتهيج الانفعال . وترتفع بالأحاسيس العاطفية الى أعلى درجة من التوتر ، مما ينتهي بالجماهير الى الثورة في بعض الحالات ، أو التظاهر والقيام بأعمال العنف الشديدة دون وعي وانتباه ، ولعل خطب الامام علي (ع) في نهج البلاغة ، في الحالات التي كان يريد فيها إثارة اصحابه نحو الجهاد، او غير ذلك من الامور المهمة ، هي أبلغ شاهد على ذلك حيث حشد الامام فيها كل ما يمكن من اساليب الاثارة العاطفية بالاضافة الى الاساليب الاخرى التي تربطهم بالفكرة ، من الجوانب الفكرية والروحية .

* * *

« وقد درس الناس كثيراً من العوامل التي تثير الانفعالات ، فمن هذه الموسيقى والشعر والفن التصويري والتمثيلي وغير ذلك .. وقد

كان للفنون بمختلف أنواعها أكبر الأثر في انهاض الأمم في جميع العصور» (١) .

* * *

ولكننا ، في الوقت الذي نؤكد على هذا الجانب الايجابي للانفعال في المجال الاجتماعي والتربوي . لا نريد أن نغفل الجوانب السلبية التي تتمثل في امكان استغلال الوسائل الانفعالية في اوضاع وأهداف لا تتفق مع مصلحة الجماهير والافراد كما نراه في الكثير من الحركات والثورات التي تملك قياداتها الاساليب الانفعالية الحماسية التي تستطيع إثارة الجماهير لتوجهها الى اهداف غير صالحة ، كما ربما نلمح ذلك في الآية الكريمة ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة . . . ﴾ حيث نجد أن تركيز القرآن على أن يتفرقوا مثنى وفرادى ليتفكروا وليحددوا مواقفهم ، لأن الجو الاجتماعي الذي يعيشون فيه ، كان يخضع لأساليب انفعالية لا تسمح لهم بأن يحددوا مواقفهم بحرية واستقلال ، في اتجاه الهدى والخير .

وقد تلجأ بعض القوى السياسية في الداخل والخارج ، الى إثارة الجماهير ودفعها نحو التظاهر والتخريب حتى لتحطم كل شيء تصل أيديها اليه ، وذلك في الاوقات الحرجة التي تمر بها البلاد فتختنق بالأزمات التي توحى بالثورة وتنفجر بالنقمة حيث تتحول الثورة المكبوتة والنقمة الهادرة الى هواء ، بفعل عملية التنفيس التي يتبخر معها كل شيء وهذا ما يفسر لنا إطلاق بعض الانظمة المنحرفة ، حرية الكلام والتظاهر ، حتى لا يتحول العسف في الجوانب الاقتصادية والسياسية

(١) القوصي . علم النفس / ١٨١ .

والاجتماعية إلى اختناق يؤدي الى الثورة العملية على النظام .

* * *

ولهذا كله كان الانفعال ضرورةً وخطراً في آن واحد ، الأمر الذي يجعل المهمة الاساسية للعاملين في الحقول العامة هي ، ضبطه وتركيزه على أسسٍ نفسية ثابتة لا تخضع للرياح المجنونة التي تعرف هدفها جيداً ، بل تسير مع الرياح الهادئة الوادعة التي يمكن أن تحمل العواطف على بساط من عقل وفكر لتواجه مشاكل الحياة بوعي واتزان .

* * *

الحلقة السابعة

القسم الثاني

موقف الاسلام من الانفعال

موقف الاسلام من الانفعال

تمهيد :

قد يكون من الخير لنا - امام هذا الحديث - ان نتحدث عن القاعدة الاسلامية التي تحكم السلوك بوجه عام ، ... فنلاحظ - في بداية المطاف - ان الاسلام ينظر الى الانسان كمخلوق حي فاعل يتحمل مسئولية بناء الحياة وتركيزها على قواعد ثابتة تتجسد فيها ارادة الله في الكون عبر نظامه الافضل ، لتكون الحياة الانسانية منسجمة في نظامها العملي مع النظام الكوني الشامل .

ولهذا فانه يريد منه أن يواجه الحياة من خلال الشعور بالمسئولية في حياته العامة والخاصة .

ولعل من الطبيعي له - وهو يتحرك في هذا الاتجاه - أن يواجه الموقف كله بدراسة موضوعية شاملة تعتمد على المعرفة الواعية للجوانب الاساسية المحيطة بالموقف ، أو المجالات العملية التي يتحرك فيها ، والاهداف الحيوية التي ينطلق من خلالها ويعيش من أجلها .

وعلى ضوء هذا ، كان اسلوبه في ذلك كله ، يتجه إلى الاسلوب العقلاني الذي يواجه الحياة ويقف معها وقفة موضوعية هادئة ، تدرس الموقف على الطبيعة ، كما هو ، دون زيادة او نقصان ، بعيداً عن الانفعالات الذاتية التي قد تعطي الصورة حجماً اكبر من حجمها الحقيقي ، في بعض الحالات، او أقل منه في حالات أخرى ، لنستطيع مواجهة الواقع بفهم حقيقي ووعي منفتح ، وبالتالي لنتمكن من السيطرة على ما فيه من مشاكل وقضايا شائكة معقدة .

* * *

قيمة العقل في الاسلام :

وربما يكون من مظاهر التركيز على هذا الجانب من الاسلوب ، هو الاهتمام الكبير الذي أولاه الاسلام للعقل من حيث هو قوة أساسية ، ترصد للانسان تفكيره ، وترعى خطواته العملية في الحياة ، فاعتبره مركز الدائرة في قاعدة المسؤولية ، ليوحي لنا بان العقل الهادئ هو الاساس في حساب المسؤولية ، فلا مسؤولية بدون عقل ، لانه لا معنى للمسؤولية ، دون النظر الى طبيعة العمل ونتائجه ، ووسائله وأهدافه ، ليعرف الانسان ، أين تكون البداية ، وأين تستقر النهاية ، ولا مجال لذلك بدون العقل .

ومن أوضح الأدلة على هذه الحقيقة الاسلامية ، الاحاديث الشريفة الواردة في ذلك .

ففي كتاب الكافي ، عن الامام ابي جعفر محمد الباقر ، قال :
لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له : اقبل ، فأقبل ، ثم قال له :
ادبر فأدبر ، ثم قال وعزتي وجلالي ، ما خلقت خلقاً هو أحب اليّ منك ، ولا أكملتك إلا فيمن أحب ، أما إني اياك أمر ، وأياك أنهى .

وأياك اعاقب ، وأياك أثيب .

وفي حديث آخر عن الامام جعفر الصادق (ع) : قال : قال رسول الله : اذا بلغكم عن الرجل حسن حال ، فانظروا عقله فانما يجازى بعقله .

ويروي أحد اصحاب الامام الصادق أنه قال : ذكرت لأبي عبد الله رجلا مبتلى ^(١) بالوضوء والصلاة ، وقلت : هو رجل عاقل فقال ابو عبد الله : وأي عقل له ، وهو يطيع الشيطان ، فقلت له : وكيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو . فانه يقول لك : هو من عمل الشيطان .

* * *

العقل في القرآن الكريم :

وقد تحدث القرآن الكريم في اكثر من خمسين آية ، عن اهمية العقل ودوره في بناء شخصية الانسان وانفتاحه على ما في الحياة من خير وصلاح ، وأشار إلى كثير من الانحرافات الفكرية والعملية التي طرأت على مسيرة الانسان فقادته الى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة ، وأوضح أن ذلك كله ، يرجع الى فقدان العقل او إهماله ، وترك استعماله ، كأساس للحكم على طبائع الاشياء ومعرفتها بعمق ، كما نلاحظ ذلك في الآيات التالية :

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾

[سورة الملك : ١٠] .

(١) اي بالوسواس في نيتهما او افعالهما او شرائطهما .

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ
 بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
 يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ . [سورة الحشر : ١٤] .

وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً
 صُمُّ بِكُمْ عَنِ فَمَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ . [سورة البقرة : ١٧١] .

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَرُعَابًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
 يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ . [سورة المائدة : ٥٨] .

وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٣﴾
 . [سورة المائدة : ١٧٣] * * *

ففي هذه الآيات إحياء ودلاله ، بأن فقدان العقل ، او سوء
 استخدامه ، يؤديان بالانسان الى الكفر والهلاك وإلى مواجهة الأمور
 الكبيرة بأساليب السخرية والاستهزاء . وينتهي بالمجتمع الى الانقسام
 والتمزق ، او القلق والضيق . . . لأن حركة العقل في الاتجاه السليم
 هي التي تعرف الانسان مواطن الخير والشرف في الاشياء . وهي التي
 تكشف له نقاط الضعف والقوة بما تفتحه من آفاق المعرفة الواسعة ،
 الأمر الذي يبعده عن الخضوع لأجواء الانحراف والضلال ، التي تركز
 على أسس عاطفية انفعالية تفرسها حالة البيئة ودوافع الاغراء .

وهناك آيات تدفع الانسان الى الشعور ، بقيمة الآيات الكونية
 التي اودعها الله في الطبيعة ، وفي الانسان ، كمنطلق للايمان ،

وتوجهه الى الاحساس بروعة الآيات الفكرية والتشريعية التي فصلها الله في كتابه الكريم ، كقاعدةٍ للعقيدة ، وتدعو العقل الى التحرك في اتجاه التفكير في ذلك كله من أجل أن يفتح وعي الانسان وفكره على جوانب العظمة في الكون وروائع الابداع في التشريع ، كما نجد ذلك في الآيات التالية :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَاهُ بِهِنَّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

[سورة البقرة : ١٦٤] .

كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

[سورة الروم : ٢٨] .

ولعل السرّ في ذلك ، أن الذين يعقلون ، هم الذين لا يمرون بالاحداث والظواهر المحيطة بهم ، مروراً خفيفاً ، لا يلامس إلا ظاهر الاشياء ، بل يحاولون الوقوف عندها ، والتعمق فيها ، والامتداد بانظارهم وافكارهم ، الى جميع جوانبها ، فيتعرفون من خلال ذلك - على أسس القضايا وجذورها ، وينفتحون منها على أفق جديد من آفاق الايمان والمعرفة الواعية العميقة .

* * *

القصة في القرآن . . في طريق العقل :

حتى القصة في القرآن الكريم . . لا يريد الله للانسان أن يمر بها كما يمر بالاقاصيص التي يملأ بها فراغ وقته ، او يشبع بها غريزة

حب الاستطلاع في ذاته ، او ينفعل بأحداثها وايحاءاتها انفعالا عاطفيا عابراً يثير أعماقه دون أن يترك فيها أي أثر كبير ، بل يريد له أن يجعل منها منطلقاً للتفكير حتى يستطيع أن يفهم طبيعة احداث القصة في الماضي ، وعلاقتها بالعقيدة والحياة ، وامكانية الاستفادة منها في حياتنا من خلال المبادئ العامة التي تتحرك في إطار القصة دون ان تنحصر في نطاق محدود من الزمان والمكان .

وبهذا كان التاريخ والحديث عنه - في مفهوم الاسلام - يمثل اسلوباً من اساليب القرآن التربوية ، التي يهدف - من خلالها - الى حشد التجارب الانسانية الماضية أمام الانسان ليأخذ منها العبر والعظات والدروس التي تنفعه في حياته الحاضرة ، بعيداً عن أي انفعال او علاقة عاطفية .

فالقضية قضية أن يرتبط الانسان باحداث التاريخ وقصصه من خلال ما تقدمه من تجارب ومبادئ عامة ، ليتحرك الانسان في اتجاه ذلك في خطواته العملية نحو التقدم والنمو ، على أساس ارتباطه بالجدور العميقة من حركة الحياة . ولعلنا نلاحظ ذلك في الآيات التالية :

فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿١٧١﴾ . [سورة الحشر : ٢] .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٢﴾ . [سورة البقرة : ١٣٤] .

* * *

وعلى ضوء الآية الأخيرة تبرز الصورة الواضحة التي تجعل القصة للفكر والسيرة ، لا للانفعال والعاطفة ، فما دامت الاحداث الماضية ،

لا تدخل في حساب مسئوليتنا المباشرة امام الله تعالى ، فلماذا نجعل منها مثاراً للانفعال غير المسئول الذي ربما يهدم الحاضر على أساس خلافات الماضي التي قد لا تمثل بالنسبة اليها اي شيء في اغلب الحالات إلا في بعض الجوانب التي ترتبط بتحديد موقف للعقيدة والعمل ، فنأخذ منها الموقف السليم ، ونترك كل شيء ما عداه في ذاكرة الزمن لمجرد الحفظ والاطلاع .

وبهذه الروح نتخلص من كثير من الخلافات الدينية والمذهبية وتأثيرها على حياتنا العامة ، وعلاقتنا الاجتماعية بسبب بعض التفسيرات لبعض قضايا التاريخ الديني عندما ننظر اليها نظرتنا الى أية قضية أخرى ، لمجرد الدرس والانتفاع .

* * *

ذلك هو الموقف العام للنظرة القرآنية للعقل ودوره الاساسي في حركة الانسان الفكرية والعملية . . . وقد حاولنا أن نعرض له بصورة إجمالية تشير الى بعض اللفظات القرآنية في هذا الجانب .

* * *

موقف قرآني بين الانفعالية والعقلانية :

وقد نجد في بعض الآيات الكريمة تأكيداً على هذا الاسلوب في القضايا التي تقع مشاراً للجدل والخلاف ، وتخلق في الساحة جواً انفعالياً حاداً يبعد الانسان عن معرفة الوجه الصحيح للقضية ، كنتيجة طبيعية للتأثيرات الانفعالية العنيفة . . . فيحاول الاسلام - من خلال الاسلوب القرآني ، إخراج الانسان من الأجواء الانفعالية ، الى الاجواء الهادئة التي تجعله يفكر بالقضية في اكثر من اتجاه ، بعيداً عن أي تأثير

سريع ليصير بعد ذلك الى معرفة الحقيقة من جميع جوانبها . ونجد ذلك واضحا في الآية الكريمة :

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَىٰ وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا
مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

[سورة سبأ : ٤٦] .

فهي تعرف جيدا ان مستوى الجماهير لا ينخفض عن السطح الا قليلا ، وتدرك - الى جانب ذلك - طبيعة الغوغائية التي تكمن في نفس كل واحد منهم ، وجانب الانفعال والحماس الذي سرعان ما يطغى ويشور . الأمر الذي يمهد للتهمة - أية تهمة - أن تنتشر وتمتد الى ذهن كل واحد منهم دون محاكمة او مناقشة ، حتى لتنتلق - بعد ذلك - في صورة تيار جارف يجرف المشاعر والأحاسيس ويحولها الى ما يشبه الطوفان ، ولذا فان الدعوة تدرك انها تعيش في موقف معقد ، لا بد لها - في معالجته - من الدقة والحذر فماذا فعلت ؟

إنها لم تحاول ان تتجه الى الجماهير - في وضع خطابي او اقناعي ، لتدفع التهمة عن صاحبها ورائدها الرسول الاعظم (ص) وذلك بتقديم الأدلة والبراهين التي تدحض هذه التهمة وتدفع هذه الفرية ، لأن الجماهير لا تدرك لغة الحجج والبراهين في طوفان الحماس والاندفاع ، فهي لا تستمع إليها ولا تلقي بالألما تقول .

.. إنها لم تحاول ذلك ولم ترد هي أن تقوم بنفي التهمة ، لأن صاحبها - في حسابان الجماهير - لا يعي ما يقول فكيف تقبل منه الحجة بالدفاع عن نفسه .

بل حاولت ان تدل هؤلاء على منهج البحث وطريقة المعرفة ،

وترجعهم الى ذواتهم وفطرتهم . . ولكن بطريقةٍ لبقة لا تشعر الآخرين
 بالغاية التي تنتمي اليها فقد دعتهم إلى أن يتفرقوا مثنى وفرداى
 وينفصلوا عن الجو العاصف الذي يعيشون فيه . ثم يحاولون دراسة
 هذه التهمة ، والتفكير فيها بعيداً عن المؤثرات العاطفية ليصلوا الى
 النتيجة الحاسمة التي يملها عليهم تفكيرهم الأصل وملاحظتهم
 الشخصية لافعال النبي (ص) وأقواله العامة .

فهي لم تقم بنفي الفكرة ابتداءً ، ولم تتخذ صفة الناقد لهم
 والموجه لافعالهم ، بل حاولت دعوتهم إلى أن يناقشوا الفكرة ، ويهيئوا
 لانفسهم الجو الهادى للتفكير والمناقشة . فهي في هذا الجو ، أشبه
 بالمتهم الذي لا يحاول ادعاء البراءة لنفسه أمام القضاة ، بل يكتفي
 بمحاولة ارشادهم إلى ان يراجعوا الوثائق والمستندات المتعلقة
 بقضيته . ليحكموا - عليه - من خلالها بما يوحي اليهم ضميرهم بعيداً
 عن أي تأثير وهو واثق - في الوقت نفسه - من ان النتيجة ستكون في
 صفه (١) .

الطريقة العقلانية تؤدي الى العمل :

وربما نجد في القرآن الكريم بعض الحديث عن هذا الاسلوب
 العقلاني الذي يعتمد على إثارة التفكير في المعالم الكونية في السماء
 والارض ، ومدى ما يستطيع أن يثير ، الانسان من التحول إلى
 المواقف العملية التي تحدد للانسان طريقه في الحياة بين يدي الله
 تعالى .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي
 الْأَبْصَارِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

(١) اسلوب الدعوة في القرآن ٦٧ - ٦٨ طبعة ثانية .

وَيَنفَكُرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا
سُبْحَانَكَ قِنَاعَ عَذَابِ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ
أَن آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا
وَتُوفِّعْنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ [سورة آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤] .

فنحن نرى ان التفكير العميق الهادف هو الذي قادهم الى معرفة
الله وعظمته من خلال عظمة خلقه ، وانتهى بهم الى النتيجة العملية
التي يشعرون فيها بالايمان يعيش في اعماقهم ينطلق في مناجاة خاشعة
واعية ، ثم يتحول بعد ذلك إلى ممارسة للمسئولية ، وترقّب للنتائج
الحاسمة لحساب المسئولية أمام الله . .

وهكذا نعرف - من خلال هذه الآيات - أن الرحلة الاولى التي
يريد الاسلام للانسان أن يبدأها في مجال التفكير لا يريد لها أن تقف
وتتجمد عند الحدود النظرية للفكر ، بل يريد لها أن تظل سائرة نحو
العمل في طريقها الى الله .

* * *

رفض الاسلام للتقليد الفكري للاباء :

ونخلص ، من هذا الحديث عن نظرة القرآن الكريم الى
العقل ، والى دوره الكبير في حياة الانسان من جميع جوانبها الفكرية
والعملية ، الى نتيجة حاسمة ، وهي رفض الاسلام لأي اتجاه او سلوك
يبتعد عن الاطار العقلي في شكله وطابعه ، ومنطلقه وأبعاده .

وعلى ضوء ذلك نفهم رفض الاسلام للفكر الذي يرتكز على أسس انفعالية وعاطفية ، وللسلوك الانساني الذي يرتكز على هذا الاتجاه .

وقد نجد من الخير أن نعرض - في نهاية المطاف - إلى شاهد قرآني من أوضح الشواهد على ذلك ، في الحملة التي شنها الاسلام في القرآن على أولئك الذين يبررون أفكارهم وعقائدهم ، باعتقاد آباءهم بها وانتمائهم إليها نظراً إلى الروح الانفعالية التي تنطلق من فكرة تقديس الآباء وتعظيمهم ، ومن الشعور بضرورة السير على خطى الآباء والاجداد ، لان الانحراف عن ذلك ، يخلق في داخلهم الشعور بالعار من جهة ، وبالإساءة لذكراهم من جهة أخرى .

وكان القرآن حاسماً في ذلك كله . . فالقضية عنده ، أن علاقة الأبوة وكل علاقات القرابة ، لا تفرض على الانسان الا التعاطف والتراحم ، والانسجام مع المشاعر العاطفية الخاصة ، سواء في ذلك ، حال الحياة ، وحال الموت .

أما العقيدة ، أما خط السير في الحياة ، فلا يخضع لأي شيء من ذلك ، لأنه مرتبط بدراسة الفكرة في ذاتها ، وفي موقعها من الواقع .

وإذا كانت القضية تسير في هذا الاتجاه ، فلا بد من التجرد ومواجهة الموقف بموضوعية كاملة لا تنظر الا الى طبيعة الفكرة ، بعيداً عن كل المؤثرات العاطفية التي لا معنى لها .

وبذلك ألغى الاسلام كل اعتبار للعلاقات الانسانية في حال العقيدة ، وحطّم كل قداسة للماضي الذي يرتبط الانسان بجذوره - في هذا المجال - ليفسح المجال للفكر كي ينطلق ويتحرك بكل قسوة وجفاف - إن صح التعبير -

وربما تتضح الصورة اكثر في هذه الآيات الكريمة .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ .

[سورة البقرة : ١٧٠] .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا
عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٤﴾ .

[سورة المائدة : ١٠٤] .

وَإِذْ تُنزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ
عَمَّا كَانْتُمْ يَعْبُدُونَ آبَاؤَكُمْ .

[سورة سبأ : ٤٣] .

بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ قَالَ أُولَٰئِكَ
جِبْتٌكُمْ يَأْهَدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ .

[سورة الزخرف : ٢٢ و ٢٤] .

فهنا منطق يرتكز على أساس الحالة النفسية التي ترفض الانحراف عن خط الآباء ، وتعتبر مخالفة أي فكرة لهذا الخط سبباً كافياً لرفضها وجحودها .

أما منطق القرآن فيرفض ذلك كله بقوة ، فهو يريد أن يفتح عيونهم على ذهنية آباءهم وتخلّفهم وإمكانية ابتعادهم عن الحق والهدى ، أو عدم ادراكهم للابعاد الحقيقية لذلك كله ، ويوجههم الى

أن يواجهوا الموقف من خلال قناعاتهم وتأملاتهم الخاصة ، بعيداً عن الشعور بقداسة الآباء والاجداد .

* * *

ولكن . . هل نرفض الانفعال من الاساس :

ولكن هل معنى هذا . . أن الاسلام يرفض الانفعال من الأساس ، فيجرد الانسان من كل نواذعه الانفعالية في حياته ، ويحوّله الى مخلوقٍ جامد جاف يتحرك بحساب ، ويقف بحساب ، بعيداً عن كل العواطف والانفعالات ، فليس هناك إلا الارقام التي تتكلم في ميزان الربح والخسارة ، في عملية الجمع والطرح .

لن يكون الجواب ايجابا - فيما نظن -

فللانفعال دوره الكبير في توجيه الانسان نحو نشاطاته الفكرية والعملية ، وتنمية دوافعه نحو العمل . . . وله تأثيره القوي في إعطاء العلاقات الانسانية طابعا روحيا حميماً يتجاوز لغة الارقام ، الى مجالات جديدة أخرى ، من العطاء والتضحية والايثار ، فان ذلك هو الحافز الأساسي الذي اذا فقده الانسان فقد احساسه بالحياة ، ككائن حيّ تموج المعاني الانسانية في اعماقه ، وتحوّل الى آلة تتحرك دون روح .

إن كل ما يهدف اليه الاسلام - فيما نفهم - هو تعقيل العاطفة ، وتنظيم الانفعال ، لأن من شأن العاطفة أن تندفق إلى حد الفيضان ، فلذا نشعر ازاء ذلك بالحاجة الى الحواجز والسدود التي تمنعها من الوصول الى المرحلة التي تتعرض فيها حياة الناس للخطر .

اما الانفعال ، فقد يطغى الى مستوى الجنون ، فلا يعي الانسان

معه - ما حوله - الأمر الذي يدعونا الى تنظيمه وتبريره حتى يعرف الانسان جيداً . حين يبدأ ، الى ان ينتهي به المطاف .

وبذلك يتحقق للانسان التوازن الذي يستهدفه الاسلام في حركة الانسان في الحياة ، التي يريد لها أن تركز على أساس المسؤولية الواعية التي تعرف طريقها جيداً ، فلا يسمح بطغيان جانب على آخر ، ولا يتغلب عنصر على عنصر ، بل هي الجوانب والعناصر التي تتحكم وتنسجم لتجسد النفس الانسانية الواحدة السائرة في الاتجاه السليم .

الاسلام أمام نماذج متنوعة من الانفعال :

لكي تتضح الصورة لا بد لنا من استعراض بعض الانفعالات التي حاول الاسلام أن يوجهها من الداخل ، على أساس تغيير الدوافع والاسباب التي تثير الانفعال ، وتحويلها إلى اسباب ودوافع جديدة يمكن ان يبنى الانفعال الحاصل منها حياة الانسان ويشارك في الاتجاه بها نحو الأفضل .

هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، يحاول الاسلام أن يضبط الانفعال في حالة انطلاقه ، ويحصره في نطاق محدود من الممارسة الانفعالية : فشق طريق الصبر والايمان حتى لا يشذ الانسان في انفعالاته ويأتي باشياء منكرة يأبأها الخلق والمجتمع فكبح الغضب في عدة سور من القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة وسيرة آل البيت الطاهرين .

قال الله تعالى :

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
وَمُهَيِّئْ عَلَيْهِ فَاحِشَةً بَيْنَهُمَا إِنَّزْلَ لِلَّهِ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ عَمَّا

جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
 لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ فَاسْتَبِقُوا
 الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَفُونَ
 ٤٨ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ لِيُبَيِّنَ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَالَّذِي أَنزَلَ اللَّهُ
 يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْنَا فَاعْلَمْنَا بِمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن
 يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكْمَ
 الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ٥٠

[سورة المائدة : ٤٨ - ٥٠] .

فلقد خلق الله الكون وأحسن خلقه وتيسيره . . . وسخر جميع
 الكائنات في الارض والبحار في خدمة الانسان . . فكل شيء
 بحساب ، وكل حركة بقدر . . من أصغر ذرة الى أكبر مخلوق . . فهي
 تتحرك وتتصرف وفقاً للنظام الحكيم بدقة وانتظام .

* * *

وتكتمل الصورة في مشهد آخر .

فالانسان لم يخلق عبثاً . . فهو - في الحياة - مخلوق ذو رسالة .
 يلزمه أن يجسدها في الحياة من خلال سلوكه وسلوك الآخرين ، ومن
 خصائص العمل الرسالي ، أن يحدد للانسان مسؤوليته - ويواجهه - بعد
 ذلك ، بنتائجها . في حساب الثواب والعقاب ، لينطلق في حياته على
 اساس مدروس ومنظم .

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۗ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴿٨﴾

[سورة الزلزلة : ٦ - ٨] .

وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ۗ ﴿٤٩﴾

[سورة الكهف : ٤٩] .

وعلى ضوء هذا كله .

فأين يكون الخوف ؟

في الحاضر أو في المستقبل

هل نخاف من القوى الكونية ؟

إنها ليست الا ظواهر طبيعية تخضع لأسباب معينة يمكن للانسان أن يتعرف عليها من خلال الثقافة العلمية المبسطة ويمكن له أن يوفر لنفسه سبل الحماية في كثير منها .

هل نخاف من قوى البشر ؟

إنهم لا يملكون لنا ضراً إلا بالله . فلا يجوز لنا أن نخافهم ما دام الله قادراً على أن يصرف عنا كيدهم ، وما دمنا نؤمن اننا مخلوقون مثلهم ، وانهم لا يملكون طاقة غير عادية لا نملك تحصيلها . . بل كل ما يملكون من طاقة فهو مماثل لما نملكه ، أو لما نستطيع أن نملكه في قليل أو في كثير . . وكله تحت قدرة الله وسلطته . .

وتلك هي صورة الانسان المؤمن الذي يواجه قدرة البشر كلها ،

يصورها لنا القرآن الكريم بقوله تعالى :

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا كُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا

حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلِبُوا بِنِعْمَةِ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلِ لَمْ يَمَسُّهُمْ
سَوْءٌ .

. [سورة آل عمران : ١٧٣ - ١٧٤] .

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ

. [سورة الأحزاب : ٣٩] .

إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا رَبَّكُمْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ .

. [سورة آل عمران : ١٧٥] .

هل نخاف من الفقر؟

إن الرزق بيد الله ، فهو مقدرٌ منه ، بحسب الظروف التي تحيط
بالانسان ، والقدرات التي يملكها ، والفوارق التي تتاح له لا يزيد ولا
ينقص .

إن لك أن تبذل كل جهدك . وكل قوتك ، منفرداً أو منضماً إلى
الأخرين في العمل ، وفي توفير الفرص في تهيئة الأجواء . . فهي
الأسباب الطبيعية التي تستطيع في اطارها التحرك من اجل الحصول
على الرزق . . ثم يبقى بعد ذلك الفرص التي لم تحتسب ، وغير
ذلك مما يوفره الله للناس بأسبابٍ غير عادية .

هل تخاف من المجهول؟

إن المجهول ليس قوةً مجنونةً تتحرك دون وعي ولا نظام ، حتى
تخاف منها أن تقتحم حياتك عليك فتدمرها! وتذهب بكل شيء .

إن المجهول . هو حياة المستقبل ، التي تخضع لتدبير الله
ونظامه ، وتتحرك وفق السنن الكونية التي أودعها الله فيه على أساس
الحكمة والرحمة ، تماماً ، كما هي حياة الحاضر والماضي التي كانت

سائرةً وفق الحكمة والنظام .

ولذا ، فان عليك ان تواجه التطلّع إلى المجهول بروح تحسب ما تستطيع عمله ، وتترك لتقدير الله وتدبيره ما لا تستطيع إدراكه او عمله ، لتشعر بالرضا والطمأنينة وتبتعد عن الشعور بالضياع والقلق المدمر .

وهذا ما يفسر مفهوم التوكل على الله ، الذي يجسّد الطمأنينة الهادئة بالمستقبل لانه في رعاية الله وتدبيره ، بعد أن قام الانسان بكل ما يجب عليه تجاهه .

وقد ورد في الحديث الشريف في تحديد معنى التوكل : ان لا تخاف أحداً الا الله . . من قوى كونية ، او قوى بشرية .

هل تخاف من الموت ؟

إن الأعمار بيد الله ، فهو الذي حددها ضمن النظام الكوني ، وهو الذي خلق الموت والحياة ، فاذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون .

ماذا تخاف منه ؟

أتخاف شكله أو أجوائه ، انه جواز المرور الى حياة جديدة ، أفضل من حياتك في السعة والامتداد والشمول والتجرد .

أتخاف من حدوثه ؟ كيف ؟ يمكن ان لا يحدث أبداً . . واذا كان أمراً حتمياً ، فاين يكون الخوف ؟ ما معناه ؟

* * *

إذن . . فالصورة ليست ضائعة الالوان والخطوط ، حتى نخاف وحشة الاشباح فيها . . فنحن جزء من هذا النظام . . وفي إطاره نتحرك ، في ظل رعايةٍ رحيمةٍ حكيمةٍ ، هي الاول والآخر في كل

شيء ، وليس لغيرها من الامر شيء .

فلماذا نخاف من الحياة ؟

ولماذا نخاف من الموت ؟

إنك في الحياة في رحمة الله ، وبعد الموت في رحمة الله . .

فاين يكون الخوف ، وما معناه ؟

* * *

وتزول المثيرات المادية للخوف من نفس الانسان ، بفعل الايمان

بالله ، والاطمئنان للقضاء والقدر .

ويبقى عنصر واحد يشغل عقل الانسان وروحه ، فيثير فيه

انفعالات الخوف من المستقبل ، ولكنه ليس مستقبل الدنيا ، بل

مستقبل الآخرة .

إنه عنصر المسؤولية العملية التي يتحرك فيها الانسان ، ليوافق

حسابها امام الله ، فيظل نهب الشعور بالخوف من التقصير والقلق من

الإهمال .

ويظل الخوف من الله ، من غضبه وعقابه ، يهز ضمير الانسان

المؤمن وكيانه ، ليحرك فيه الحافز الاعمق للسير في الخط المستقيم .

الذي يؤمن له الاطمئنان الى رضاء الله ورحمته .

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ .

[سورة الأنعام: ١٥] .

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ [سورة الأنعام: ٥١] .

يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾ [سورة النور: ٣٧] .

وحتى الخوف من الله . . لا يتحوّل الى عقدة مرضية تشلّ في
الانسان قدرته على العمل . . فهناك بابٌ يفتحه الاسلام للأمل والرجاء
لله ، في العفو والمغفرة . . ولكنه رجاء لا يبعث على التمادي في
الضلال ، كما كان الخوف لا يشجعه على اليأس والقنوط .

* * *

الغضب في مفهوم الاسلام :

في بعض النصوص الدينية : ان الغضب جمرة من الشيطان توقد
في قلب ابن آدم ، وان احدكم اذا غضب احمرّت عيناه وانتفخت
أوداجه ، ودخل الشيطان فيه .

وفي حديث النبي محمد (ص) : الغضب يفسد الايمان كما
يفسد الخل العسل .

وفي حديث الامام جعفر الصادق : الغضب ممحقة لقلب
الحكيم .

وفي حديث آخر له : الغضب مفتاح كل شر .

وفي حديث ثالث عنه : من لم يملك غضبه لم يملك عقله .

* * *

هذه هي بعض النصوص الاسلامية التي تتحدث عن الغضب ،
وعن آثاره في حياة الانسان الروحية والعقلية والعملية فنلاحظ في
الحديث الأول : انه اعتبره من الحالات الوجدانية التي تتقد في كيان
الانسان وقلبه ، كما تتقد الجمرة فتبعث الشرر واللهب فيما حولها ،
فيتحول الانسان الى أعصاب تلهب بالمشاعر العنيفة ، والى نوازع
تتحرك بجنون ، وعند ذلك تنطلق عوامل السوء ونوازع الشر . لتملأ

كيان الانسان فتحركه نحو غاياتها بكل سهولة ، لأن النفس تفقد - مع الغضب - وداعة الملاك وخيره ، لتخضع لجنون الشيطان وشره .

انها تتحول الى اعصاب ناثرة بدون عقل ، ومشاعر هائجة دون ردع .

وربما نجد ملامح هذا المعنى في الحديث الرابع : لان النفس إذا عاشت هذا الجو المحموم الحاد ، فقدت الحاجز الذي يغلّق عنها أبواب الشر ، الأمر الذي يهيم للشر ان يندفع نحوها بكل قوة وجنون .

* * *

اما الحديث الثالث والخامس فيتعرضان لآثار السيئة التي يتركها الغضب في عقل الانسان وفكره ، فهو يمحق قلب الانسان الحكيم (والمراد بالقلب : الفكر) لأن الغضب - كما ألمحنا إليه ، يساهم في اختلال التفكير الدقيق المنتظم الذي يرتكز على الصورة الواضحة ، والمعاني الدقيقة التي يعمل الفكر على التنسيق بينها وربط بعضها ببعض لتحويلها الى نتائج جديدة .

وكما يمنع الغضب من التفكير الدقيق ، يمنع - من جهة أخرى - من قدرة العقل على مراقبة العمل والتصرف ، ويخفف من حركته في مجال النقد والتمحيص ، وعندما تضعف الارادة ، ويتضاءل دور النقد لدى الانسان ، يصبح الشخص خاضعا لحوافز عمياء ودوافع جبرية .

* * *

وفي الحديث الثاني المأثور عن النبي (ص) نعرف تأثير الغضب في الايمان ، فنرى انه يفسد على الانسان ايمانه ، كما يفسد عليه عقله ، لان الايمان بالله يرتكز على وعي الانسان العميق ، لعلاقته

بالله ، وارتباطه بأوامره ونواهيه ، الأمر الذي يحتاج الانسان معه الى أن يظل على اتصال بالروح الهادئة والتفكير العميق .

وقد عرفنا ان الغضب يفقد الانسان هدوء روحه وسلامة تفكيره ،
وإذا فقد ذلك فقد وعيه لله والتزامه بارادته .

كيف يثور الغضب ؟

في حديث الامام جعفر الصادق (ع) : قال الحواريون ليعسى (ع) أيّ الاشياء أشد ؟ قال : أشد الاشياء غضب الله قالوا : بم نتقي غضب الله قال : بأن لا تغضبوا قالوا : وما بدء الغضب ؟ قال : الكبر والتجبر ومحقرة الناس .

* * *

فقد نلاحظ - في هذا الحديث - ان بعض اسباب الغضب - في مجال العلاقات الانسانية ، يكمن في شخصية الانسان من الداخل .

فالانسان الذي يعيش الكبر في نفسه ، والتجبر فيمن حوله ، ويشعر بالاحتقار للآخرين ، لا يستطيع أن يملك نفسه عندما يثار ، فهو يرى لنفسه الحق على الناس في كل شيء ، ولا يرى لهم عليه أي حق . . . وبذلك تبقى حياته معهم ، في حالة توتر دائم ، وقلق مدمر ، يُرهف جانب الاحساس الذاتي لديه ، حتى تتحول ذاته الى عقدة . . وتتطور العقدة الى جنون يشعر معه بنفسه وكأنه قدس الأقداس الذي ينبغي للحياة أن تظل صاغرة لديه تسبح لآلائه وتقدس رغباته .

وتتبدل نظرته الى ما حوله ومن حوله تبعاً لذلك ، فالحياة كلها في خدمته ، والآخرين - من بني الانسان - مسئولون عن راحته حتى

على حساب راحة أعصابهم ، فليس لهم أن يتكلموا معه إلا من خلال الشعور بقداسته ، والإحساس بعظمته ، وإلا ، فعليهم أن يعرضوا أنفسهم لغضبه ، فيما اذا صدرت منهم بعض الكلمات او الحركات او الاوضاع العامة او الخاصة التي لا تتلاءم مع مزاجه ، أو لا تنسجم مع رغباته ، وان لم يكن لها صلة به من قريب او من بعيد ، لأنه يرى أن من حقه ، ان يدرس الناس كل شيء من خلال راحته لا من خلال السنة الطبيعية للحياة .

إن هذا التركيب المرضي لطبيعة هذا الانسان هو الذي يدفع الانسان الى الثورة العمياء على من حوله وما حوله ، لدى أقل شيء مزعج ، وان لم يكن له أثر في نطاق الحياة العادية .

وهذا هو ما نشاهده بارزاً في سلوك كثير ممن يملكون الثروة الكبيرة أو الجاه العظيم ، او السلطة الواسعة .

ان الاشياء تتضخم عندهم من خلال شعورهم بضخامة شخصياتهم ، وحقارة شخصيات الآخرين حتى تتحول المطالبة بالحق - عندهم - الى عدوان على السلطة ، لانهم لا يشعرون بأن للآخرين حقاً لديهم ، ولذا فانهم يشورون ويغضبون لذلك ، وربما يقودهم الغضب الى الجريمة .

وقد تنطلق الكلمة طبيعيةً من الناس في عتاب أو غيره مما يشبهه ، فتتحول - في وجدانهم المريض - الى ما يشبه الشتم والسباب ، إذ ليس للناس ان يخاطبوهم كما يخاطبون بعضهم البعض حتى في أشد العلاقات الحميمة ، كعلاقة الزوج بزوجه . . فقد نلاحظ ان بعض هؤلاء يتصور ان على زوجته ان تعيش معه في إطار الاحترام المقدس حتى في الاوضاع الزوجية الخاصة جدا .

من الطبيعي أن نقرر ، أن مثل هذه الحالة تختلف في الانسان شدة وضعفاً ، ولذلك فإن تأثيرها في اشارة الانفعال يختلف في شدته وضعفه تبعاً لذلك ، فكلما ازداد الانسان شعوراً بذاته ، كلما ازدادت عوامل الاثارة لديه حتى فيما لا يثير بشكل عادي ، وكلما فقد الانسان الشعور بذاته بشكل مميز يجعل له الحق على الناس ، كلما كان أبعد عن الاثارة وأقرب الى الهدوء ، والى مواجهة القضايا من خلال ظروفها الطبيعية وأحوالها العادية .

* * *

وربما يظن بعض الناس : ان الغضب مظهر من مظاهر الشجاعة ، ووسيلة من وسائل تأكيد الذات ، وشعورها بالعزة والكرامة أمام عوامل الاثارة من قبل الآخرين . . ويذكرون شاهداً لذلك كلمة الامام الشافعي المعروفة : من استغضب ولم يغضب فهو حمار ، ويخيّل اليهم انهم حينما يغضبون او يشورون لا يفعلون شيئاً ، الا ما تمليه عليهم مواقف العزة والكرامة التي يريدونها الله للمؤمنين .

* * *

ولكن هذا الظن خطأ ، فان الغضب بعيداً كل البعد عن هذه المعاني الكبيرة ، وقد ورد عن النبي في الحديث المأثور « ليس الشديد بالصُّرعة ، انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » .

ويعجبني في هذا المجال كلام الغزالي في كتابه احياء علوم الدين قال :

« وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة ، جهل ، بل هو مرض قلب ونقصان عقل ، وهو لضعف النفس ونقصانها وآية أنه لضعف النفس ، ان المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والمرأة أسرع غضباً من

الرجل ، والصبي أسرع غضبا من الرجل الكبير ، والشيخ الضعيف أسرع غضبا من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضبا من صاحب الفضائل ، فالرذيل يغضب لشهوته اذا فاتته اللقمة ، ولبخله اذا فاتته الحبة حتى أنه يغضب على اهله وولده (١) . .

وقد ينطلق الغضب من الحالات الحادة التي تواجه الانسان بما يكرهه ، كالاعتداء على شيء يقدسه أو يحبه أو حرمانه من بعض الحاجات الشخصية ، او تعرضه لبعض المواقف المحرجة ، وغير ذلك من الحالات التي يفقد فيها الانسان انسجامه مع الواقع الذي يواجهه ، أو يحيط به ، فيتحول الى حالة انفعال حادة تشبه الهياج الجنوني الذي يفقد الانسان فيه عقله نتيجة فقدانه لتوازنه .

ولعل أقرب التحليلات للغضب في مثل هذه الحالات ، هو اندفاع الانسان للخروج من المشكلة التي تواجهه ، أو الموقف الذي يكرهه ، بطريقة سريعة ، يختصر فيها الوسائل العملية للوصول الى النتيجة بشكل لا شعوري ، او محاولة التعويض عن الشعور العميق بالفشل والعجز عن الوصول الى حل ، فيلجأ الى الغضب كأسلوب من أساليب تأكيد الذات .

كيف يمكن السيطرة على الغضب :

هناك طريقتان للسيطرة على الغضب .

الاولى : اسلوب السيطرة على دوافعه وأسبابه ، وذلك بأن نحصر مؤثرات الغضب في مجالات معينة محدودة وذلك بإزالة الكثير من المؤثرات التي تدفع الى ذلك .

(١) احياء علوم الدين ج ٣ ص ١٧٢ .

وهذا ما نسميه بعملية « التبريد من الداخل » .

فإذا عرفنا ان الغضب ينشأ - في كثير من حالاته - عن الكبر والتجبر واحتقار الناس - كما جاء في الحديث المتقدم - أمكننا أن نبدأ في التخطيط لازالة هذه الصفات من شخصية الانسان ، ليتحول الى انسان متواضع هادىء ، يحترم من حوله ، ولا يشعر بان له أي حق عندهم ، الا بمقدار ما يقدم اليهم من خدمات ، كما يتحسس بظروفهم واطواعهم الصعبة التي تدفعهم الى ممارسة بعض الاخطاء في علاقتهم به وبالأخرين . . . فيحاول من خلال هذه الروح ايجاد المبررات والاعذار لهم في ذلك ، مما يجعله يتقبل كل الاوضاع الشاذة بروحية هادئة غير منفعة .

ومن الطبيعي ، أن ذلك يحتاج إلى جهد كبير ومعاناة شاقة ، يشترك فيه التوجيه الفكري والروحي مع التدريب العملي والارادة القوية ، وهذا هو الذي يسعى اليه الاسلام في بناء شخصية الانسان المسلم في الاحاديث المأثورة عن أئمة اهل البيت (ع) التي تصور لنا المثل الحي للانسان المؤمن في الحياة .

فقد ورد عن الامام جعفر الصادق (ع) قال : ينبغي للمؤمن ان يكون فيه ثمانى خصال : وقور عند الهزاهز ، صبور عند البلاء شكور عند الرخاء ، قانعا بما رزقه الله ، لا يظلم الاعداء . ولا يتحامل للاصدقاء ، بدنه منه في تعب ، والناس منه في راحة ، إن العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والعقل أمير جنوده ، والرفق أخوه ، والبر والده (١) .

فقد رأينا - في هذا الحديث - الملامح البارزة للشخصية

(١) ومائل الشيعة ج ٦ / ص ١٤٣ .

الاسلامية التي يريد الاسلام للمؤمن ان يجسدها في نفسه ، من خلال المعاناة الطويلة المجهددة التي تجعله يعيش في حالة طوارئ داخلية من أجل ان يحصل على النفس القوية المتماسكة التي لا تنهار أمام عوامل الانفعال في ذاتها ، اومع الآخرين .

* * *

وقد كثرت النصوص الدينية التي تصور للانسان مساوىء الكبر ونتائجه السيئة في حياة الفرد والمجتمع . ثم تقارن بين هذه الصورة وبين صورة التواضع ونتائجه الحسنة في حياة الناس . . ثم تنطلق ، في محاولة ثانية ، لتطلب من الانسان القيام بعملية تدريب طويلة ، بأساليب عديدة ، للوصول الى الحالة التي يصبح فيها التواضع خلقا طبيعيا للانسان يتعلم فيه الانسان كيف يحترم من حوله من خلال ظروفهم واطواعهم الخاصة والعامة .

* * *

وقد نجد - الإيحاء بهذا الاسلوب - في الاحاديث الكثيرة الداعية الى الحلم ، والمرغبة فيه ، ببيان النتائج الكبيرة التي يحصل الانسان عليها في الدنيا والآخرة من خلال الاتصاف به .

والحلم : « هو طمأنينة النفس بحيث لا يحركها الغضب بسهولة ، ولا يزعجها المكروه بسرعة ، فهو الضد الحقيقي للغضب ، لانه المانع من حدوثه ، وبعد هيجانه » (١) .

وقد يتمثل في الحالة النفسية الهادئة التي تواجه عوامل الغضب بهدوء ، وقد يتمثل في الممارسة العملية الهادئة التي يواجه بها الانسان حالات الغضب بعد هيجانه وثوراته .

(١) الزاقي . جامع السعادات ج ١ ص ٢٩٥ .

وقد دعا الاسلام الى كلتا الحالتين ، في اكثر من حديث ،
وطلب من الانسان أن يدرّب نفسه على تكلف الحلم ، إذا لم يكن
الحلم خلقاً طبيعياً له ، ليتحول بالتدريب الى انسان حلیم .

ففي نهج البلاغة : إذا لم تكن حلیماً فتحلمّ فانه قلّ ان تشبه
أحدّ بقوم الا وأوشك ان يكون منهم .

وفي حديث النبي (ص) : ان الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة
الصائم القائم .

وفي حديث آخر عنه (ص) : ينبغي فيه اعتبار الحلم ذلاً - ما اذل
الله بحلم قط .

وقال : علي بن الحسين (ع) : انه ليعجبني الرجل أن يدرّكه
حلمه عند غضبه .

وفي نهج البلاغة : أول عوض الحلیم عن حلمه ، ان الناس
انصاره على الجاهل .

* * *

ولعل من اقرب الاساليب الموصلة الى هذا الهدف - اعني تبريد
النفس من الداخل - هو تعويد الانسان نفسه على أن يفكر في كل قضية
تعرض عليه ، وفي كتل مشكلة تواجهه ، ويتدبر جذورها ونتائجها ،
ليستطيع الوقوف بهدوء ووعي عميق ، لان أغلب دوافع الغضب ،
تتمثل في فهم الموقف من وجه واحد بشكل سريع . فقد جاء في
حديث السيرة النبوية ، ان رجلاً جاء الى النبي فقال أوصني يا رسول
الله ، فقال له النبي فهل انت مستوصٍ إذا انا أوصيتك قال : بلى يا
رسول الله ، ويكرر النبي السؤال ثلاث مرات ، ويجب الرجل

بالإيجاب ، فيقول له النبي (ص) في نهاية المطاف ، اذا انت هممت
بأمر فتدبر عاقبته ، فان يك رشدأ فأمضه ، وان يك غيا فانته عنه .

* * *

الثانية : اسلوب السيطرة على نوازهه ونتائجه ، فنحن نعلم أن
الغضب الذي يحدث في الداخل ، يحاول أن يعبر عن نفسه في
الخارج بأساليب متعددة ، تختلف حسب اختلاف ذهنية الشخص
وثقافته وبيئته ، فقد يكون اسلوب التعبير عملاً يدوياً ، كالضرب
والقتل ، وما إلى ذلك ، وقد يكون عملاً آخر كالسب والشتم والفحش
بالقول او تحطيم ما حوله من أثاث وغيره ، وقد يتحول الى خطة عملية
تعتمد على اسلوب اللف والدوران الذي ينتهي الى الايقاع بالمعتدي
بطريقة لبقة .

وقد توفرت النصوص الدينية الكثيرة ، على الحديث عن الغضب
من خلال نتائجه السيئة ، ففي حديث الامام علي بن موسى الرضا
(ع) : ان كفر احدكم في غضبه ولا خير فيمن كان كفره في غضبه
(^١) ، وفي حديث الامام جعفر الصادق (ع) كان أبي يقول : أي شيء
أشد من الغضب؟ ان الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله ويقذف
المحصنة . وفي حديث الامام محمد الباقر (ع) : ان الرجل ليغضب
فما يرضى ابدأ حتى يدخل النار .

وقد عالجت بعض الاحاديث ، الاساليب التي يمسك الانسان
فيها نفسه عن التصرف في حالات الغضب ، ففي بعض الاحاديث
تذكير للغاضب ، بغضب الله عليه بسبب معاصيه ، كما يغضب ، هو ،
بسبب إساءة الآخرين اليه ، ووعدته بأن كف الغضب عن الناس يؤدي

(١) وسائل الشيعة ج ٦ / ص ٢١٤ .

بالنتيجة الى كف الله غضبه عنه .

ولا بد للمؤمن الذي يرجو رضا الله عنه ويخاف من سخطه عليه ، أن يعمل للحصول على هذه النتيجة الطيبة لكف غضبه عن الآخرين ، كلما عرضت له عوامل الغضب ، ودعته الى ان يتصرف بسوء .

ففي الحديث عن النبي (ص) من كف غضبه عن الناس كف الله عنه عذاب يوم القيامة .

وفي الحديث عن الامام محمد الباقر (ع) : مكتوب في التوراة : فيما ناجى الله به موسى : أمسك غضبك عن ملكتك عليه أكف عنك غضبي .

وفي الحديث عن الامام جعفر الصادق (ع) : أوحى الله الى بعض انبيائه يا بن آدم اذكرني في غضبك اذكرك في غضبي ، وربما نستفيد من هذا الحديث معنى آخر ، وهو ان على الانسان أن يذكر الله عند غضبه ، ليمنعه شعوره برقابة الله عليه وإطلاعه على ما يعمل ، من ان يتصرف تصرفاً في غير رضا الله . . فيهدأ ويطمئن بعد ذلك ، لان التفكير في العواقب والخشية من الله يدفعان الانسان الى فهم الموقف فهما عميقا لا يسمح بالوقوع في الخطأ في اغلب الحالات .

* * *

وقد أشارت بعض النصوص الى الطرق التي تشغل الانسان عن الاندفاع بعيداً في غضبه ، وذلك كالاتعاذة من الشيطان والجلوس ان كان قائماً ، والاضطجاع ان كان جالساً ، والوضوء او الغسل بالماء البارد ، ومس ذي الرحم ان كان غضبه على ذي رحم فان الرحم اذا

است سكنت .

ولعل قيمة هذه الافعال ، انها تخرج الانسان من جو الغضب ، الى جو جديد يرجع فيه الانسان الى نفسه ، ليبدأ تفكيراً جديداً في لموقف ، يبدل فيه مشاعره ونوازه .

* * *

كظم الغيظ :

وقد اكثر النصوص الدينية ، من الآيات القرآنية ، والاحاديث الشريفة ، من التحدث عن كظم الانسان غيظه ، واعتبرته من الصفات الكبيرة التي ترفع من مكانة الانسان ، ومنزلته عند الله وعند الناس فقد قال الله تعالى ، في معرض الحديث عن صفات المتقين الذين وعدهم الله بالجنة والمغفرة والرضوان .

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

[سورة آل عمران : ١٣٤] .

ويلاحظ في هذه الآية الشريفة ، انها لم تكتف بأن يكبت الانسان غيظه ، بل أرادت أن يعيش الانسان روح العفو عن الناس ، لثلا يتحول الغيظ المكبوت في نفسه إلى عقدة ، ثم طلبت منه ان يتبع ذلك بالاحسان ليزول عنه كل أثر .

وفي الحديث عن النبي (ص) : من كظم غيظا - ولو شاء ان يمضيه لأمضاه - ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا .

وفي حديث آخر عنه (ص) : من أحب السبيل الى الله جرعتان : جرعة غيظ يردّها بحلم ، وجرعة مصيبة يردّها بصبر .

وفي الحديث عن الامام الصادق (ع) : ما من عبد كظم غيظا الا زاده الله عزا في الدنيا والآخرة .

* * *

وتهدف هذه النصوص الى تربية الانسان على هذا السلوك من خلال الثواب الكبير عليه ليمارسه الانسان على أساس الحصول على الثواب في البداية ، ويتعود عليه من خلال ذلك حتى يتحول الى طبيعة جديدة ينطلق فيها بشكل عفوي دون التفات الى شيء ، تماماً ، كالصفات الطبيعية المودعة في ذاته .

* * *

الأدب حالة الغضب :

في الحديث المأثور عن النبي (ص) انه نهى عن الادب وقت الغضب .

ولعل السرّ في ذلك ، ان التربية تستهدف تقويم اعوجاج المنحرف ، وتصحيح خطأ المخطيء ، وتقوية نقاط الضعف ولا بد للانسان الذي يمارسها - من خلال هذه الاهداف - أن يكون واعياً لدوره ، مالكاً لاعصابه ، حتى يستطيع معرفة ماذا يجب عليه أن يفعل ، وماذا يجب أن يترك ، لأن للتربية ميزاناً دقيقاً لا بد من رعايته ، فربما يكون الرفق هو سبيل التأديب في بعض الحالات ، فاذا لجأ الانسان الى العنف انقلب الموقف الى ضده .

وهناك من الناس ، من تصلحه الكلمة ، فلا يجوز ممارسة الضرب معه لان ذلك يخلق عنده عقدة مضادة ، وهناك قسم آخر ، يصلحه الضرب فلا يمكن للكلمات أن تؤذيه ، وتؤثر فيه شيئاً .

وعلى ضوء ذلك ، لا يمكن للتربية أن تؤدي رسالتها في حالات الغضب ، لان التصرف قد ينطلق من الحالات النفسية الغاضبة ، فيتحول الموقف الى عملية تفجير للعقد النفسية المكبوتة إزاء المواقف السابقة البعيدة عن حالات الأدب والتربية ، كما نشاهده كثيراً في موقف بعض الآباء والمعلمين الذين يأتون الى البيت ، او الصف ، وهم يعانون أزمة نفسية حادة بسبب خلاف ، مع بعض الناس ، او فشل في بعض المواقف . . وتكون الصدمة أن يخطأ التلميذ او الولد خطأ ليس بسذي بال ، فيتجمع الغيظ في صدر الاب او المعلم ، ويتفجر حُمماً في وجه الولد او الطالب المسكين دون ان يكون قد فعل شيئاً يوجب ذلك لولا الازمة النفسية التي يعانها المؤدب .

الغضب العقلاني :

وهناك نوع من الغضب ، تحدثت عنه النصوص الدينية بكثير من التقدير وهو الغضب لله . ويعبر عن حالة النفسية التي يعيشها الانسان إزاء التعدي على بعض حرمانات الله ، والتي تدفعه الى التصرف الشائر لأجل حفظ هذه الحرمانات فقد ورد في نهج البلاغة : من أحد سنان الغضب لله قوي على قتل اشداء الباطل .

فقد اعتبر الغضب لله ، من احدى الوسائل العملية التي تعطي الانسان قوة مضاعفة على مواجهة انصار الباطل وجنوده الاشداء ، بما يعطيه الغضب من حيوية واندفاع للموقف . .

وقد تحدث القرآن الكريم عن موسى (ع) انه غضب واشتد به الغضب عندما قدم من مناجاته لربه ليرى قومه وقد اتخذوا العجل ، فكان غضبه محاولة منه للسيطرة على الموقف من جديد ، لا مجرد

انفعال عفوي يصدر منه دون ارادة .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
مِنْ بَعْدِي أَيُّ مَجَلْسَةٍ أَمْرًا رَبِّكُمْ وَالَّذِي لَا لُؤْلُوعَ وَآخِذٍ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ
قَالَ ابْنُ أُمَرَ أَنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشِيتْ بِي
الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي
وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

[سورة الأعراف : ١٥٠ - ١٥١] .

ويحلو لنا أن نسمي هذا الغضب « الغضب العقلاني » لانه
ينطلق من خطة واعية تعتبر الغضب اسلوبا من اساليب تنفيذ الخطة .

ومن مظاهر هذا الغضب ، أن نجد له هدفا معينا يقف عنده ، لا
يتجاوزه لغيره ، كما أنه لا يتعدى الحدود المرسومة له شرعاً في وسائل
ممارسته ، وفي طريقة التعبير عنه .

وربما نجد في بعض الاساليب التي تتبعها التيارات الاجتماعية
والسياسية والدينية ، في إثارة موقف معين حاداً ضد الفئات الأخرى
على أن لا يتجاوز حداً معيناً تقتضيه الخطة المرسومة .

ولعل قيمته تكمن في أنه يدل على عظمة الله في نفس
الغاضب . الأمر الذي يجعله يفعل في حالة الاعتداء على مقدساته
وحرماته ، انفعالا يتجه لرد الاعتداء بالاسلوب الذي يرضي الله ولا
يتعدى حدوده .

* * *

الغضب في نهاية المطاف :

وهكذا نعرف ان الاسلام لا يريد للغضب أن يتحرك ، كما تتحرك الرياح المجنونة التي تنطلق لتحطم كل شيء أمامها بل يريد له أن يتحرك ، في عقلانية واعية يحقق الانسان من خلاله هدفاً معيناً خطط له في البداية ليكون الغضب جزءاً من خطة ، ومرحلة في طريق الهدف .

... حتى إثارة الغضب لدى الآخرين لا يراد منه - في حال ممارسته - الا خلق حالة من الاندفاع القوي لديهم نحو العمل حيث يساهم ذلك في تفجير وعي العمل من الداخل .

وبهذا يدخل الاسلوب العقلاني في توجيه الغضب نحو الهدف الأمثل ، توجيهاً يخدم الحياة ويشيرها في طريق الايجابية ، دون أن يترك أية نتائج سلبية في الطريق .

* * *

الاسلام امام انفعالات الحزن :

الحزن من الانفعالات التي تحدث للانسان في حالات المصيبة ، وفي حالات الفشل ، وفي حالات الألم ، ويختلف التعبير عنه ، حسب اختلاف الشخص الحزين ، في نفسه ، وفي درجة الحزن .

فكيف واجه الاسلام هذا الانفعال ؟

إنه واجه الحزن في عدة مواقف .

فهناك الحزن الذي يحصل للانسان في حالة المصيبة .

وهناك الحزن الذي يحدث له في حالة الفشل في عمل او
دعوة .

وهناك الحزن الذي يغمره في حالات الخسارة .

* * *

الحزن في حالة المصيبة :

أما الموقف الأول ، فقد احترم الإسلام فيه حزن الإنسان ، وأقره
واعتبره علامةً من علامات الإنسانية التي إذا تجرد الإنسان عنها ، تحوّل
إلى مخلوق يشبه الحجر في قسوته وجموده .

ثم اقترب الاسلام من وسائل التعبير عنه ، فشجع الوسائل
الهادئة التي تعبر عن الحزن بهدوء ، دون أن تُفقد الانسان تماسكه ،
وصموده امام الصدمة . . فسمح للدموع أن تنساب بهدوء ورحمة ،
ولكنه لم يسمح للانسان أن يتكلم بكلام غير مسئول ، ولم يسمح
للسائل العنيفة التي يدفع اليها طغيان الحزن الى حد الجزع ، كاللطم
وخدش الوجه وبتف الشعر ، وما إلى ذلك من الوسائل التي تعبر عن
فقدان الانسان لتوازنه ، وانهيار شخصيته القوية امام المصيبة .

فقد ورد عن رسول الله (ص) انه وقف امام جسد ولده الوحيد
ابراهيم وقال :

تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما لا يرضي الرب .

فللقلب أن يحزن ، لان الحزن دليل العاطفة الانسانية التي
يعتبرها الاسلام حداً فاصلاً بين الانسان وغيره .

وللعين ان تدمع ، لأن للعاطفة الحق في التعبير عن نفسها لثلا

تتعقد في الداخل ، ولكن ليس للعاطفة أن تظني على ايمان الانسان بالله ، فتتكلم كلاماً لا يرضي الله . . . حتى في الكلمات التي يعبر بها الانسان عن حزنه وعن مشاعره تجاه الميت ، يمنع الاسلام الانفعال أن يظني فيمدحه بما ليس فيه ، أو يتكلم عنه كلاماً ليس في محله ، تدريبا للانسان على أن يلجم انفعاله عندما تنطلق المبادئ لتتكلم وتسير .

وعلى ضوء هذا يريد الاسلام للانسان ، حتى ، وهو يعيش الاحساس الدامي بالمصيبة ، أن يعيش التفكير بالحدود التي يجب أن تقف عندها العاطفة . ولهذا حارب الاسلام الجزع الذي يعبر عن الحالة الوجدانية العنيفة الذي لا يملك الانسان فيه قيادة نفسه في الداخل وفي الخارج ، لأنه يحوّل الانسان الى شخص غير مسئول ، لا ينظر إلا الى الزوايا العاطفية من القضية ، فلا يلتفت الى بقية الزوايا الأخرى التي تقف فيها شخصية الانسان أمام تطلعات المستقبل ، وتتجلى معها طبيعة النظام الكوني الذي يحكم الاشياء .

وقد تحدث الامام علي (ع) في كلماته القصار في نهج البلاغة عن الصبر والجزع في عدة أساليب .

ففي بعض كلماته : من لم ينجح الصبر اهلكه الجزع .

وقال : الصبر يناضل الحدثان والجزع من أعوان الزمان .

وفي الحديث الذي يرويه جابر عن الامام محمد الباقر (ع) قلت له : ما الجزع ؟ قال : أشد الجزع الصراخ بالويل والعيول ولطم الوجه والصدر وجز الشعر من النواصي ، ومن أقام النواحة فقد ترك الصبر وأخذ في غير طريقه .

وفي الحديث عن النبي (ص) : ضرب المسلم يده على فخذة عند المصيبة إحباطاً لأجره .

وهكذا يحاول الاسلام الإيحاء للانسان بالتصرف المشئول عند المصيبة بالطريقة التي لا تحبط أجره ولا تُخمد عاطفته ، ولا تفقده توازنه ، الأمر الذي يجعل الانسان واعياً لايمانته حتى في أشد المواقف حرجاً .

* * *

اسلوب الاسلام في التعزية بالميت يؤكد الفكرة :

وقد نلاحظ في الكلمات المأثورة عن بعض الأئمة (ع) في تعزية اهل الميت .. ان الفكرة لم تكن هي أن يخلق في أنفسهم روح العزاء فقط ، بل كانت ، هي ، ان تثير في داخلهم التفكير العقلاني ، بطبيعة الحالة التي هم عليها ، لينطلق العزاء من حالة فكرية ، لا من حالة وجدانية خالصة .

ونلاحظ ذلك في اسلوب التعزية التي تحدث بها الامام علي (ع) مع بعض الناس :

إن هذا الأمر ليس بكم بدأ . ولا إليكم أنتهى ، وقد كان صاحبكم يسافر فاحسبوه في سفر ، فان قدم عليكم وإلا قدمتم عليه .

ففي هذه الكلمات اتجأ الى ربط القضية بالسنة الكونية التي تشمل كل الناس في الماضي والحاضر والمستقبل ومحاولة لاثارة نور جديد للامل من خلال الايمان الحق باللقاء في الدار الآخرة ، الأمر الذي يجعل العزاء مرتبطاً بالواقع من جهة باعتباره أمراً طبيعياً ، وبالانسان من جهة باعتباره مصدراً حقيقياً للامل .

وعلى ضوء هذا نفس التوجيهات الدينية الكثيرة التي توجه الانسان نحو التكلم ببعض الكلمات التي تبذر في النفس العزاء ، وتخلق في داخلها روح الصبر ، وذلك كما في قوله تعالى في القرآن الكريم .

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
 وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَذَكَّرُونَ ﴿١٥٧﴾

[سورة البقرة : ١٥٦ - ١٥٧] .

فان هذه الكلمة تربط الانسان بالواقع من خلال الايمان ، كما اوضحها الامام امير المؤمنين (ع) في نهج البلاغة ، إنا لله اقرار بالملك وانا اليه راجعون إقرار بالهلك .

ففي ذلك يعيش الانسان روح التسليم بالواقع وعدم مفاجاته بأي حديث او مشكلة ، ليواجه الحياة بروح واقعية هادئة لا تهتز امام الاحداث ، ولا تنهار امام المصائب .

* * *

الحزن في حالات الفشل :

اما الموقف الثاني : وهو الذي يحدث للانسان في حالات الفشل ، في عملٍ يحبه ، أو دعوة يؤمن بها ، كما يحدث للانبياء أو أصحاب الدعوات الكبيرة في الحياة ، أو رجال المشاريع الانسانية والاجتماعية ، عندما ينطلقون للتبشير برسالاتهم أو القيام بمشاريعهم ، بكل اخلاص واندفاع من اجل رفع مستوى شعوبهم ، فاذا بالعقبات تنتصب في الطريق لتكون جداراً ضخماً يحول بينهم وبين البلوغ الى

ما يريدون من اهداف ، واذا بالذين يعملون من اجل رفع مستواهم بقفون في الواجهة في موقف الاعداء ، ليكونوا أول من يطعن الدعوة ويحاربها ويرمي دعائها بأبشع النعوت وافظع التهم ، ويضطهدهم في حياتهم العامة والخاصة .

* * *

وهنا يقف النبي أو المصلح ، ورجل الاعمال ، وقفة الحزن والأسى ، وتتحول مشاعره الى حالات حادة ، تجعله يضيق بدعوته في بعض الحالات ، ويترك الساحة يأساً وهروباً ، وربما يقف وقفة الحزين الكئيب الذي تمتلىء اعماقه بالألم واللوعة لينهار امام ذلك من أجل نفسه ، ومن أجل الآخرين .

وقد صور لنا القرآن الكريم هذه الحالات من خلال التوجيهات الألهية التي كانت تلاحق النبي (ص) في مسيرة الدعوة ، وترصد خطواته ، لتسدده في كل ما يقبها وفي كل ما يفعل ، أو يشعر به من مشاعر أو يتعرض له من انفعالات .

ففي بعض الآيات صورة لحالة الضيق النفسي الذي يشعر به الانسان أمام حالة التمرد ، ويدعوه إلى ان ينسحب من المعركة في يأس ولوعة .

فَلَمَّا كَثُرَ نَزْلٌ مِنْ سَمَوَاتِكُمْ فِي أَيَّامِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَأَخْلَصُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَكَانُوا لَهُمْ حَقِيقَةً
فَلَمَّا كَثُرَ نَزْلٌ مِنْ سَمَوَاتِكُمْ فِي أَيَّامِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَأَخْلَصُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَكَانُوا لَهُمْ حَقِيقَةً
كُلِّ شَيْءٍ وَكَيْلٌ .

[سورة هود : ١٢] .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

فهذا موقف يتعرض فيه النبي (ص) إلى الاقتراحات التعجيزية التي كان يمارسها الكفار ضد النبي ويحاولون أن يشغلوه بها عن مهمته ، ليتحول الى شخص لا شغل له إلا الاستجابة لتمنياتهم وتحدياتهم التي لا معنى لها ، لانها لا تصدر عن محاولة للاقتناع ، ففي معاجزه التي قدمها لهم كل كفاية ، بل تصدر عن رغبة في التحدي لمجرد التحدي .

ومن الطبيعي ان مثل هذا الاسلوب في المعاندة لا يجدي فيه أي اسلوب سلبي او إيجابي مقنع ، لانهم لا يريدون ذلك ، كما قدمنا ، ولهذا كانوا يتحولون من عرض الى عرض ، ومن اقتراح الى اقتراح .

ولذلك كان يضيق صدر النبي - او هكذا يحاول القرآن أن يوحي من وجهة تربوية - الى المستوى الذي قد يبلغ في قوته درجة الرغبة في الانسحاب في بعض هذه المواقف المزعجة .

فجاء القرآن الكريم ليقول له .

لما يضيق صدرك بكلامهم وتحدياتهم ؟

إنك قد قمت بمهمتك ، وهي الانذار والابلاغ بكل ما تملك من طاقة ، فلم تدخر جهداً في ذلك ، ولم توفر أي وسيلة .

وإذا قام الانسان بما يجب عليه في نطاق قدرته ، فليرجف المرجفون ، وليقل المتقولون ، فلا قيمة لذلك كله في حساب الله وفي حساب الناس .

* * *

وفي بعض الآيات تصوير لحالة الحزن التي يواجهها النبي (ص) إمام حالات الكفر، تارةً، من جهة تكذيبهم له، وأخرى من جهة موقفهم من الله وتحديدهم لارادته وكلماته، وثالثة، من جهة حزنه عليهم لانهم لم يهتدوا للإيمان .

قَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ يُخْزِنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ بِمُحَدِّثُونَ .

[سورة الأنعام : ٣٣] .

وَلَا يُخْزِنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا .

[سورة آل عمران : ١٧٦] .

فَلَا نَأْسُ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

[سورة المائدة : ٦٨] .

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ آسَفًا .

[سورة الكهف : ٦] .

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .

[سورة فاطر : ٨] .

إن هذه الآيات بأجمعها، تطلب من النبي أن لا يستسلم لانفعال الحزن أمام هذه الحالات لانه إذا كان يحزن لأجل الله، بسبب تحديدهم له وتمردهم عليه فإنهم لن يضروا الله شيئاً . أما إذا كان الحزن، من أجل تكذيبهم له فليس التكذيب موجهاً له بل هو موجّه لله لأنه يحمل رسالة الله، كما أن القضية ليست بدعاً في مجال النبوات، فلطالما كُذِّبَ الأنبياء السابقون من قبل أقوامهم . . . وإذا كان الألم من أجل المكذبين أنفسهم لأنهم لم يؤمنوا، فإنهم لا يستحقون الألم، ما داموا قد اختاروا طريق الهلاك في الدنيا والآخرة .

وهكذا تتنوع الآيات في تحليل كل حالة من الحالات لترجع الموقف إلى جذوره الأساسية التي انطلق منها ، فلا يعود للانفعال أي مبرر ، أو أي معنى .

ليس الموقف موقف تسلية او تعزية :

ويطيب لنا أن نؤكد على نقطة مهمة في هذا المجال وهي : إن الآيات التي تطلب من النبي (ص) عدم الحزن على حالات الجحود من المشركين ، لا تستهدف تسليته وتعزيته ، كما يخيل لبعض المفسرين ، بل كانت تستهدف تفريغ نفسه من الانفعال العنيف الذي ينطلق من الشعور بالخيبة أمام العمل .

وذلك بإثارة حقيقة واقعية تفرض نفسها على الموقف ، وهي : أن قضية النجاح والفشل لا تنطلق من عنصر واحد يتمثل في جهد العامل ونشاطه ، بل تنطلق منه ، ومن عناصر عديدة تشترك فيها الظروف الموضوعية المحيطة بالعمل بما في ذلك مؤثرات البيئة وغيرها ، ولذا فلا بد للعامل من أن يُدخل ذلك في حسابه عندما يبدأ العمل، ولعل من بين الأسس التي يركز عليها الموقف هو انطلاق الانسان من نقطة أساسية ، وهي المجالات التي يستطيع أن يتحرك فيها من خلال قدرته ونطاقه ، فهي التي ينبغي أن تثير اهتمامه وانفعاله . . أما المجالات التي لا تخضع لارادته وقدرته ، فعليه أن لا يخضع لأي انفعال امامها لانها لا تمثل إلا جهداً ضائعاً في هذا المجال .

* * *

الحزن في حالات الخسارة :

اما الموقف الثالث ، وهو حالة الخسارة ، فالاسلام يقف من الانفعال موقفا فلسفيا رائعا ينطلق من واقع الحياة الذي يخضع للقوانين الطبيعية التي تتحكم في مسيرتها ونظامها ، الأمر الذي يجعل الخسارة أمراً وارداً وطبيعياً في نطاق الظروف الموضوعية العامة والخاصة ، كما يجعل الربح أمراً طبيعياً في هذا المجال ، ولذا فلا داعي للانفعال أمام كلتا الحالتين ، لأن الانفعال ينطلق من فعل وضع غير طبيعي يحدث للانسان ، ومن حالات غير منتظرة . أما الحالات الطبيعية المنتظرة ، فهي لا تحدث للنفس إلا احساسا هادئاً بالموقف ينسجم مع الجو الملائم بكل هدوء واطمئنان .
وذلك هو قوله تعالى .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا . إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ .

[سورة الحديد : ٢٢ - ٢٣] .

* * *

وتلك هي مهمة الايمان بالقضاء والقدر الذي يعبر عن خضوع الازواح الحياتية لقوانين محددة تجعل لكل ظاهرة او حادثة ظروفها الموضوعية التي تتحرك في إطارها ، وتتحدد النتائج من خلالها . وهذا هو ما يفسر حالات الرضا والاطمئنان التي يقابل بها المؤمنون الطيبون مصائب الحياة وخسائرها بنفس هادئة ومطمئنة لأحساسهم بأن ما ادركهم لم يكن ليفوتهم ، وما فاتهم لم يكن ليدركهم ، فلماذا الحزن هنا ؟ ولماذا الفرح هناك ؟ ما دامت القضية جارية على السنن الطبيعية الحكيمة الخاضعة لارادة قادر حكيم رحيم .

ونلاحظ - ونحن نتابع موقف الاسلام من السلوك الانفعالي .
بعض النصوص الدينية التي تجعل من السلوك العقلاني في حالة
الانفعال ، مقياس شخصية المؤمن ، ودليل إيمانه .

فقد ورد في حديث مستفيض عن النبي (ص) .

ثلاث خصال من كن فيه فقد استكمل خصال الايمان .

إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل .

وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق .

وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له .

* * *

فاننا نجد - في هذا الحديث - ثلاث حالات تمر بالانسان ، هي
حالة الرضا عن الآخرين ، وعن بعض المواقف ، وحالة السخط
والغضب عليهم ، وحالة القدرة والسلطة ، فان هذه الحالات تثير في
نفس الانسان انفعالات مختلفة حسب اختلاف حالة كل منهم ، فالرضا
والحب قد يتعاطم في نفس الانسان الى المستوى الذي لا يقبل فيه
المحب أي اتهام أو نقد لمن يحب ، ويحاول في الوقت نفسه إضفاء
افضل الصفات والنعوت عليه بدون حساب او استحقاق . . وفي مقابل
ذلك ، نجد السخط والكره والعداوة ، فقد تبلغ الحد الذي لا يرضى
الانسان معه بأن يذكر خصمه بأية صفة خير ، أو يتصرف معه بأي
تصرف يشتمل على الانصاف .

أمّا السلطة او القدرة ، فانها تخلق في داخل الشخص شعوراً
بالطغيان الذي يجعله يمارس قدرته فيما ليس له بحق ، فيطلب ما لا
حق له فيه ، ويمنع غيره مما له فيه حق .

وقد اهتم الاسلام بتربية الانسان على الشعور الدائم بالارتباط بالحق حتى في اشد الحالات حرجاً ، فكانت الآيات الكريمة التي تتحدث عن الشهادة بالحق ، وعن كلمات المدح والذم ، وعن الحكم مع الاعداء والاصدقاء .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ
 أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ
 أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا وَتُعْرَضُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
 كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ [سورة النساء : ١٣٥] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
 شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ [سورة المائدة : ٨] .

وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ . [سورة الأنعام : ١٥٢] .

فنحن نلاحظ التركيز في الآيات الثلاث ، على الانطلاق بعيداً عن العاطفة التي تنحرف بالانسان عن خط العدل ، نتيجة علاقة قرابة أو صداقة أو عداوة ، فللقرابة أو الصداقة دورها الذي يتمثل بالتعاطف مع الارحام في شؤون الحياة العائلية والاجتماعية ولكنه اذا اقترب من الحد الفاصل بين الحق والباطل ، والظلم والعدل ، فعليه أن يقف عند حده ، فلا يتجاوز الحق الى الباطل او الظلم الى العدل .

وللعداوة مظاهرها المتمثلة في المقاطعة ونحوها ، ولكن على أن

لا تكون سببا للحكم بالباطل عليه ، او منع الحق له فيما اذا كان له الحق .

وقد ركز الحديث النبوي المتقدم على هذه النقطة ، فاعتبر الوقوف مع الحق في حالات الرضا والغضب ، والقدرة والضعف علامة للايمان الحق ، لان ذلك يدل على وجود القاعدة الايمانية التي تحرك الانسان في اتجاه الحق دون أن تضغط عليه النزاع النفسية والمواقف العاطفية .

* * *

ونلمح التركيز على هذا في دعاء الامام زين العابدين علي بن الحسين (ع) في الصحيفة السجادية .

اللهم .. وارزقني التحفظ من الخطايا ، والاحتراس من الزلل في حال الرضا والغضب حتى أكون بما يرد عليّ منها بمنزلة سواء ، عاملا بطاعتك ، مؤثراً لرضاك على ما سواهما في الأولياء والأعداء حتى يأمن عدوي من ظلمي وجوري ويأس وليّ من ميلي وانحطاط هواي .

* * *

وقد أشار القرآن الكريم الى بعض الحالات الانفعالية التي يعيشها الفرد إزاء حالات العطاء والمنع فيتعرض لانفعالات متعاكسة ، فالعطاء يثير في نفسه انفعال المحبة الطاغية للمعطي حتى ليدفعه ذلك الى أن يمنحه كل الصفات الكبيرة دون استحقاق ، بينما يثير المنع في داخله انفعال السخط والبغض حتى ليراه جديرا بكل صفة قبيحة توجب القدح والذم .

قال الله تعالى .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلُزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا
مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ .

[سورة التوبة : ٥٨] .

وقد عبر الامام زين العابدين عن هذه الحالة ، وعن هذا الموقف في دعاء مكارم الاخلاق في الصحيفة السجادية .

« اللهم وصن وجهي باليسار ، ولا تبتذل جاهي بالاقتار .
فاسترزق اهل رزقك ، وأستعطي شرار خلقك فأبتلى بحمد من أعطاني
وذم من منعني ، وانت من دونهم ولي الاعطاء والمنع » .

* * *

السلوك العقلاني في رد الاعتداء :

وهناك حالات يتعرض فيها الانسان للاعتداء على حياته أو على
كرامته ، أو على احد اقربائه ، فتمتلىء نفسه بروح الانفعال الذي
يشعر معه بالحاجة الى تدمير المعتدي ، فيرد الكيل كيلين ، والصاع
صاعين ، لانه يرى ، في غمرة الانفعال ، ان الكرامة الجريحة لا ترجع
إلا بذلك ، أو يشعر بأن الثأر لن يُنال إلا بقتل القاتل وكل اقربائه ، أو
أفضل قرابته ، لان القتل لا يعادله أحد في المكانة والمركز . . وهكذا
ربما تتحول الانفعالات الحادة التي يثيرها الانفعال ، الى كارثة تدمر
المجتمع وتهدر سلامة الابرياء الذين لا حول لهم ولا قوة ، فيه .

لهذا جاءت التعاليم الاسلامية ، لتضع حداً معيناً لا يتعداه في
اخذ حقه ، وهو رد الاعتداء بمثله دون زيادة قليلة او كثيرة .

فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

[سورة البقرة : ١٩٤] .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ

[سورة النحل : ١٢٦] .

وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .

[سورة الشورى : ٤٠] .

* * *

ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل .

* * *

فقد أكدت هذه الآيات على مبدأ المماثلة التي تدفع الانسان الى ضبط انفعالاته التي تدعوه للزيادة وللطغيان ثم حاولت أن تثير - في نفسه - نوازع العفو والتسامح والصبر ، لتبرّد له انفعالاته نهائيا .

ومن الطبيعي ، أن ذلك يستدعي منه تفكيراً طويلاً يحدد الانسان فيه موقفه على أساس الخط الذي أراده الله .

ونلاحظ في الآية الأخيرة التركيز على أن لا يتعدى القصاص القتال ، وإلا كان ذلك اسرافاً في القتل ، يرفضه الله ، وينكره الشرع .

* * *

الامام علي (ع) يطبق الحكم على نفسه :

وقد تجسدت الناحية التطبيقية في موقف الإمام علي (ع) من قاتله في حادثة مصرعه ، على يد عبد الرحمن بن ملجم فقد التفت الى قومه قائلا :

يا بني عبد المطلب : لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوفا . تقولون : قتل امير المؤمنين . قتل امير المؤمنين ، ألا لا يقتلن بي الاقاتلي .

... انظروا إذا أنا متُّ من ضربتي هذه ، فاضربوه ضربة بضربة فإنني سمعت رسول الله (ص) يقول : إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .

* * *

إنه موقف الانسان المسلم الذي عاش الاسلام في روحه وفي ضميره وفي مشاعره وعواطفه حتى عادت انفعالاته صورة حية لإسلامه إنه هنا يفكر في آخر لحظات حياته بكل هدوء وروية ومسئولية في تطبيق حكم الله في قضيته بالذات فهو لا يعيش انفعالات الحقد والعداوة والبغضاء والتدمير ، إزاء الانسان الذي قضى على حياته التي هي ملك الاسلام بكل ما يملك من امكانيات .

بل يعيش التفكير في افضل السبل لضبط حركات أهله واولاده ، لثلا يطغى بهم الحزن إلى الحد الذي يتجاوزون به حكم الله ، عندما يفكرون في القضية من زاوية خطيرة ، ان عليا لا يعادله أحد في مركزه وقداسته ، واذا كان الأمر بهذا الشكل ، فلا بد من الشار على هذا المستوى ، أن لا نبقي أحداً ولا نذر من كل من يمت الى القاتل بصلة القرابة او الفكر .

ان صوت الاسلام النقي الهادىء المنطلق من قلب عليّ المسلم
الاكمل يرفض هذا المنطق بقوة .

ألا لا يُقتلنَّ بي إقَاتلي .

وإذا كانت الضربة واحدة ، فلتكن ضربة القصاص مثلها ، لأن
التكرار يلغي المماثلة المطلوبة في الاسلام لا تمثيل ولا تنكيل .

لأن الموقف لا ينطلق من عقدة التشفي والانتقام الذاتيين ، بل
يرتكز على قاعدة التطبيق لحكم الله وهكذا ضرب لنا الامام علي (ع)
مثلا حيا في السيطرة على اقوى الانفعالات الذاتية التي يشعر بها
الانسان امام قضية حياته .

* * *

قد يقول قائل : إن الموقف هنا موقف علي .

ومن لنا ، بمن يبلغ هذا المستوى او يقترب منه .. أبلغ بنا
الطموح ان نصل الى مستوى علي .

ونقول لهذا القائل : ان القضية ليست قضية علي الذات ، بل
القضية قضية علي المسلم الذي أراد إعطاء المسلمين القدوة من
عمله ، ليتبعوه فيه ، حتى يشعروا ان حكم الله ليس مجرد فكرة تعيش
في عالم المثال ، بل هي حركة تتجسد في عالم الواقع عقلا وفكرا
وروحاً وعملاً ينطلق من روح الله .

* * *

أما الاعتداء على الكرامة بسبب او نحوه ، فالموقف هو
الموقف .

إنه رد الاعتداء بمثله - دون زيادة - أو العفو والتسامح .

الكلمة تقابل بالكلمة - لا بالضرب .

والضربة الواحدة تقابل بالضربة الواحدة ، لا بضربتين ولا بالجرح .

والجراح لا تقابل بالقتل ، بل بالجراح ، تحقيقاً لمبدأ المماثلة .

ولدينا - في هذا المجال - قصتان تجسدان التطبيق العملي للاسلام .

* * *

١ - قصة النبي مع اليهودي :

فقد جاء في الحديث الشريف عن الامام ابي جعفر محمد الباقر (ع) قال :

دخل يهودي على رسول الله (ص) ، وعائشة عنده فقال : السام عليكم ، فقال رسول الله (ص) وعليكم . . . ثم دخل آخر فقال : مثل ذلك فرد عليه كما رد على صاحبه .

ثم دخل آخر فقال مثل ذلك فرد رسول الله كما رد على صاحبيه .

فقالت عائشة : عليكم السام والغضب واللعنة ، يا معشر اليهود ، يا اخوة القردة والخنازير ، فقال لها رسول الله (ص) يا عائشة : ان الفحش لو كان ممثلاً لكان مثال سوء ، ان الرفق لم يوضع على شيء الا زانه ، ولم يرفع عن شيء إلا شانه .

قالت : يا رسول الله : اما سمعت الى قولهم : السام عليك . فقال : بلى ، أما سمعت ما رددت عليهم قلت : وعليكم .

فنحن نلاحظ ان هؤلاء اليهود الثلاثة حاولوا إثارة النبي وتحديده بالدعاء عليه بالموت باسلوب يوهم السامع الغافل ، انهم يسلمون عليه .

وفهم النبي القصة ، فرد عليهم الدعاء بمثله ، دون أن يزيد حرفا ، لانه لا يريد الدخول معهم في نزاع أولاً ، ولينسجم مع التعاليم الالهية التي بشر بها ثانيا ، وذلك بالاكتفاء برد الاعتداء بمثله .

ولما وقفت عائشة لتعبر عن انفعالاتها العنيفة بالكلام العنيف . والاسلوب الفاحش ، ووقف النبي بكل هدوء ليعرفها : انه انتصر لنفسه اولاً ، بهدوء ، وليوجهها الى ان هذا الاسلوب الذي اتبعه هو الاسلوب الذي ينتصر في النهاية ، اذا عرف الانسان كيف يستعمله بحكمة ، دون ضعف ، كما هو الحال ، في موقف النبي الذي انطلق من نقطة قوة ، لا نقطة ضعف لأنه كان قادرا على أن يبادرهم بالشدة والعنف بكل الاساليب الممكنة في هذا المجال .

* * *

٢ - قصة الامام علي مع الخارجي :

والقصة الثانية : هي قصة الامام علي مع احد الخوارج .

ففي نهج البلاغة : ان الامام علي كان جالسا ذات يوم مع اصحابه ، فمرت امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال الامام ان هذه الفحول طوامح ، وان ذلك سبب هبابها ، فمن وجد منكم في نفسه شيئا فليلمس امرأته فانما هي امرأة كامرأة .

فقال : احد الخوارج - وهو يعبر عن اعجابه بهذه الكلمة - قاتله الله كافرا ما أفقهه .

فوثب اليه القوم ليقتلوه .

فقال الامام : رويداً انما هو سب بسب او عفو عن ذنب .

* * *

فقد تناول الامام القصة بكل بساطة ، ووضعها في نطاقها الطبيعي من حكم الاسلام ، فقد سبَّ هذا الخارجي الامام بتلك الكلمة .. والموقف الاسلامي هنا ، ان الاعتداء يقابل بمثله ، وهو السب أو بالعفو عن الذنب ، أما القتل فهو غير وارد في هذا المجال مهما بلغت درجة الاساءة ، ومهما كانت درجة المعتدي بازاء درجة المعتدى عليه .

* * *

وهكذا نجد في هذا التطبيق العملي ، المثال الحي الواضح ، على ان الانسان المؤمن ، يستطيع اذا استحضر ايمانه في حالة انفعاله ، ووعى حكم الله ، وخاف من عقابه ، أن يضغط على انفعاله . ليوجهه في اتجاه العفو ، او في اتجاه حكم الله دون زيادة في قليل او كثير .

خاتمة المطاف :

والآن .. ما هي حصيلة الحديث كله :

لقد رأينا كيف انطلق الاسلام من نقطة اساسية هي أن يربط الانسان بالحياة من خلال الاسلوب العقلاني الذي ينظم للانسان طريقة تفكيره من جهة ، وطريقة ممارسته لعواطفه وانفعالاته من جهة أخرى .. حتى لا يبتعد الانسان عن موقع الشعور الواعي بالمسئولية

في كل ما يعمل ، وفي كل ما يقول .

وعرفنا ان الاسلام لم يحاول الغاء الانفعال من حياة الانسان بل حاول ان ينظّمه ويهدّبه ويضبطه لكي يتحول الى عنصر حي فاعل ، يعطي الحياة طراوةً دون أن يُفقدَها قوة الموقف .

لكل سؤال جواب

- هل حرم القرآن تعدد الزوجات .
- كيف نفهم الآيات التي تنص على تفضيل بني إسرائيل في القرآن الكريم .

س ١ : هناك من يقول ، ليس في القرآن حكم بأباحة تعدد الزوجات ، بل القضية ، على العكس ، فهناك تركيز على تحريمه ، لأن النص الذي تحدث عن إباحة التعدد ، ربط الحكم بالحلّ بشرط غير مستطاع - حسب نص القرآن - مما يجعل الحكم غير وارد ، لانتفاء الحكم بانتفاء شرطه ، كما يقول علماء الاصول .

أما كيف ذلك ؟ فنستطيع معرفته بالمقارنة بين آيتين :

فَانِكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَتِلْكَ وَرُبَاعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ آدَنَى الْأَقْوَامِ ۗ

[سورة النساء : ٣] .

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَذَرُّوهُمَا كَالْعَلَاقَةِ ۖ وَإِنْ تَصِلُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝١٢٩

[سورة النساء ١٢٩] .

فنحن نلاحظ أن الآية الأولى أمرت بالاقصرار على واحدة في حالة خوف عدم العدل ، مما نفهم منه اشتراط الاباحة بالعدل وجاءت الآية الثانية ، لتصرح بان العدل غير ممكن للزوج حتى لو بذل جهده ، وإذا لم يكن العدل ممكنا ، فكيف يمكننا الحكم بالاباحة مع فقد الشرط .

وربما نلمح في بعض الكلمات ، نسبة التناقض الى القرآن في مضمون هاتين الآيتين ، لأن تعليق التشريع على الشرط يؤذن بإمكان الشرط ، فكيف يصرح باستحالته بعد ذلك ؟

* * *

ج ١ : لعل هؤلاء الذي يريدون استنباط حكم تحريمي قرآني لتعدد الزوجات ، لم يتأملوا في الآية الثانية ، كما يجب ، لأنها لم تحاول التركيز على فساد العقد الزوجي ولغوئته ، لعدم استطاعة العدل ، بل وجهت النداء الى الأزواج ، ودعتهم الى أن لا يتحول الميل الى ممارسة عملية حادة تجعل الزوجة كالمعلقة ، الأمر الذي يؤكد شرعية الزواج ، بدلاً من أن يكون حجة على عدم الشرعية .

ولعل السر في ذلك ، هو أن العدل المفروض شرطاً في الآية الأولى ، هو العدل في النفقة وفي سائر الحقوق الزوجية الخاصة ، أما في الآية الثانية ، فهو العدل في الميل القلبي الذي لا يملك الانسان أمر التحكم فيه ، لذلك ركزت الآية على عنصر بقاء هذا الميل في الداخل لكيلا يُفسد على المرأة حياتها العائلية وقد ورد الحديث بذلك عن الامام جعفر الصادق (ع) فقد روى في الكافي ، باسناده عن نوح بن شعيب ومحمد بن الحسن قال : سأل ابن ابي العوجاء هشام ابن الحكم قال له : أليس الله حكيمًا قال : بلى هو أحكم الحاكمين قال :

فأخبرني عن قوله تعالى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة اليس هذا فرض ؟ قال : بلى قال : فأخبرني عن قوله : « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فتذروها كالمعلقة » أيّ حكيم يتكلم بهذا . فلم يكن عنده جواب . فرحل الى المدينة الى ابي عبد الله (ع) فقال : في غير وقت ولا حج ولا عمرة قال : نعم جعلت فداك لأمر أهمني ، إن ابن ابي العوجاء سألني عن مسألة لم يكن عندي فيها شيء ، قال : وما هي ؟ قال : فأخبره بالقصة ، فقال له أبو عبد الله أما قوله : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدة يعني في النفقة ، واما قوله « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » يعني في المودة . فلما قدم عليه هشام بهذا الجواب واخبره . قال : والله ما هذا من عندك .

ولعل التدقيق في سياق الآيتين يؤكد على هذا الفرق في المعنى .

* * *

س ٢ : لقد ورد في القرآن الكريم : في اكثر من آية ، الحديث عن تفضيل بين اسرائيل على العالمين ، مما يؤكد الفكرة التي يحملها اليهود عن انفسهم من انهم شعب الله المختار ، مع ان هذه الفكرة مرفوضة اسلاميا ، فكيف نفسر ذلك .

ج ٢ : هناك تفضيل في القيمة والمنزلة والمكانة ، وهناك تفضيل في النعمة وتوجيه المسؤولية ، أما التفضيل بالمعنى الاول فهو الذي يتبنوه ، فيعتبرون انفسهم اولياء الله وأحباءه ، وهذا يرفضه الإسلام

بنص القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى :

وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السماوات والارض وما بينهما واليه المصير ٥ / ١٨ .

وفي قوله تعالى :

قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا
الْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ . [سورة الجمعة : ٦] .

أما التفضيل بالمعنى الثاني : فهو الذي تحدث القرآن عنه ، وركز عليه ، فان الله قد أنعم على بني اسرائيل في الماضي بالكتاب والحكم والنبوة ، والنعم الوافرة الكثيرة فلم يقوموا بشكرها ، ولذا استحقوا لوم الله ، وتأنيبه وعقوبته ، وهذا ما يصرح به القرآن في قوله تعالى .

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَأَنبَأَهُمْ بِبَلِيَّتِكَ مِنَ الْأَمْرِ
فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْغِيًّا لِيَنهَضُوا إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ .

[سورة الجاثية : ١٦ - ١٧] .

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ . [سورة البقرة : ٤٧] .

وَأَتِيكُمْ مَا لَمْ تَرْجُوا أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ . [سورة المائدة : ٢٠] .

فهذه الآيات بأجمعها تتحدث عن نعم الله التي أفاضها على بني اسرائيل فلم يؤدوا شكرها ، فعاقبهم الله على ذلك في الدنيا والآخرة ولعل هذا الذي ذكرناه ، يبدو واضحا لدى دراسة الآيات بامعان .

* * *

الحلقة الثامنة

النزعة الواقعية في الاسلام
و
لكل سؤال جواب

بسم الله الرحمن الرحيم

يلتقي المعنيون بالدراسات الاسلامية والعاملون في سبيل الدعوة الى الاسلام بألوان مختلفة من علامات الاستفهام التي تثار امام مفاهيم الاسلام عن الحياة او التشريعات الاسلامية التي تمثل الصيغة القانونية العملية لتجسيد هذه المفاهيم .

ومن الطبيعي أن يتجه الحديث الى الصورة الحقيقية للشخصية الاسلامية التي يهدف الاسلام الى بناءها في كيان الانسان المسلم باعتبارها التجسيد الحي المتحرك لفاعلية الاسلام في الحياة في مفاهيمه وفي قيمه وتشريعاته .

وتتجسد علامات الاستفهام في أكثر من سؤال ، يطرح نفسه من خلال الجوانب التي يفكر في اطارها الدارسون والعاملون .

ففي اطار الواقعية والمثالية يتساءل البعض .

أين يقف الاسلام في مواجهة قضايا الحياة ؟

- (هل هو مثالي) . يصوغ للانسان المثال . بعيدا عن الواقع

ليدعوه بعد ذلك الى ان يتطلع اليه كما يتطلع الى الحلم المسحور . . . ثم يبدأ عملية التسلق والزحف والطيران نحو القمة التي تتباعد عن منطلق خطواته بقدر بعدها عن حياته . . . ولذا فانه سيظل يعيش عقدة القمة دون ان يصل الى النتيجة المطلوبة ويسقط بعد ذلك صريعا امام الوسائل العقيمة والافكار الخيالية في مرحلة بعيدة جدا عن المثال ، الحلم .

وتلك هي الفكرة التي تحاول ان تلغي الجسد تماما لحساب الروح فليس للجسد اي حساب في مواجهة الروح فهو الذي يمثل القذارة والدنس والحقارة بينما تمثل الروح الرفعة والبراءة والطهارة وليس للدنيا قيمة في مقابل الآخرة ، ولذا فان الحياة لا تمثل - في نظر الاسلام - من خلال هذا الفهم - اي معنى في حساب القيم الكبيرة التي تلهب طموح الانسان وتوجه مسيرته .

- (او هو واقعي) يضع الواقع امامه ، عندما يريد ان يدرس المشاكل ، وينطلق من الواقع ، عندما يريد أو يحاول ان يضع الحلول .

حتى القمم التي يريد ان ينيها للانسان في الحياة ليثير فيه روح الطموح نحوها ، كوسيلة من وسائل دفع الإنسان إلى الحركة الواعية في آفاق المسؤولية من اجل الافضل . . حتى القمم هذه . . ليست بعيدة عن الواقع الا بالمقدار الذي تبعد به الغاية عن بداية الطريق ، ولذا فان الانسان يظل في قلب الحياة ، وهو يتحرك من اجل الوصول اليها ، لانها تمثل اعلى مراحل الواقع .

وتلك هي « الفكرة » التي تحسب للجسد حسابه كما تحسب للروح حسابها ، ما دامت الحقيقة التي تفرض نفسها ان الانسان ليس

جسدا وحده وليس روحا وحده . . وتنظر للدنيا كما تنظر للاخرة ، ما دامت الاخرة تنطلق من خلال بناء الدنيا على اساس الحق .

وقد يطرح البعض السؤال في صورة اخرى تتحدث عن علاقة الشريعة بالانسان وقيمتها في اطارها . هل الانسان في خدمة الشريعة ؟ او العكس هو الصحيح ؟ فالشريعة كانت وما زالت في خدمة الانسان . . . فقد يرى البعض ان الشريعة هي كلمات الله وارادته المتمثلة في نصوص الاحكام وموادها التشريعية ، ولا بد للانسان من أن ينحني انسجاما مع عبوديته لله وخدمته له فلا قيمة للانسان امام الشريعة لانه لا يمثل قيمة ازاء ارادة الله .

وكان هذا البعض اعتبر الشريعة ارادة منفصلة عن حياة الانسان وواقعه ، ولذا فانها لا تمثل لديه الا شيئا مقدسا يمارس معه طقوس القداسة ، بالخضوع وشعائره ، تماما كمن يمارس طقوس التقديس للقرآن الكريم بالتقبيل والاجلال والاحترام كأى رمز لا اثر له غير ذلك .

بينما يذهب بعض آخر الى ان الشريعة في خدمة الانسان لانها نزلت من اجله وشرعت لمصلحته ، على اساس من الحكمة والعدل ، ولذا فانها تظل تلاحق حياة الانسان وخطواته بالرعاية من خلال الواقع فاذا انطلقت في طريق يؤدي الى ضرر الانسان ووقوعه في مركز الضيق الشديد والخرج الكبير وقفت ، حيث هي ، واومات للانسان ان يتقدم ، حيث لا يمارس حياته في حرج ولا يقع معها في ضرر .

وقد يحاول البعض اثاره القضية من زاوية علاقة الغاية بالوسيلة فاذا كانت هناك اهداف محدودة للانسان في حياته واصطدمت تلك الاهداف ببعض الوسائل العملية ، التي تتسجم مع هذه الاهداف ولا

تنسجم مع اهداف اخرى ، فما العمل ؟ ...

هل يصح ان نقول ان الغاية تبرر الوسيلة فاذا كانت الغاية نبيلة فان وسائلها كلها ، مهما بلغت درجة خطورتها او مفسدتها او حرمتها ، تصبح في مستوى نبل الغاية .

أو أن الغاية لا تبرر الوسيلة فللوسيلة وجود مستقل عن الغاية ، وحكم مستقل عن حكمها ، فلا بد لنا ان نبحث للغاية الخيرة عن وسائل خيرة فاذا لم نجد لها جمدنا الغاية ، ووقفنا ، حيث نحن في بداية الطريق ، حتى لا نقع في مشاكل السير مع الخطى الضالة في الطريق الضال ، وان كانت الغاية تعيش في اطار الهدى والصلاح ، لان طبيعة الوسيلة تترك اثرها الكبير في طبيعة الغاية وقيمتها باعتبار الارتباط العضوي الذي يربط الوسيلة بالغاية .

تلك هي بعض القضايا التي يمكن ان يثيرها الدارسون والعاملون ، في اطار التعامل مع المفاهيم والتشريعات الاسلامية .

ولعل هذا العرض السريع الذي عرضناه لعلامات الاستفهام ، التي يمكن ان تطرح في اكثر من اتجاه ، يعطينا النظرة العميقة لخطورة هذا الموضوع واهميته في حياة الانسان المسلم على جميع الاصعدة وفي مختلف المستويات لانه يتصل بالطريقة التي يمارس فيها الانسان حياته ، ويتعامل فيها مع وسائله وغاياته ، وبالتالي مع الصورة الصحيحة لبناء شخصيته على اساس الاسلام الامر الذي قديعده الانسان عن التعامل مع الاسلام فكريا وعمليا ، على اساس بعض جوانب السؤال ، وقد يقربه اليه على اساس البعض الاخر .

فالفهم المثالي للحياة - في نظر الاسلام - يجعل الانسان يشعر

بالحاجة الى الهرب من حياته لكي يحوز على رضا الله ، ولذا فقد توقعه الصدمة في هوة اليأس من الوصول الى هذا الهدف ، في بعض مراحل الطريق ، لتنتهي به اما الى الانحراف واما الى الانتحار .

أما الفهم الواقعي فيمثل لديه الشعور العميق بالحاجة الى الاندماج في حياته دون أن يشعر بانه قد ابتعد بذلك - عن طريق مرضاة الله ، فلا يعيش - حينئذ - الازدواجية بين حبه لحياته ، وبين حبه لرضا الله ، لان باستطاعته التوفيق بينهما دون حرج او انحراف .

ولهذا فاننا نجد ضرورة التوفر على معالجة هذا البحث ومواجهته بدقة ووضوح لان كثيرا من جوانبه تفتقر الى الخطوات الهادئة التي تضع اليد على المشكلة بكل هدوء لئلا تضيع خطوطها المتشابكة في الضباب الكثيف .

ان القضية التي تواجهنا في امثال هذا البحث هي قضية الصورة الحقيقية للمفاهيم الاسلامية وللتشريع الاسلامي ، باعتبارهما الركيزتين الاساسيتين للقاعدة التي يبنى عليها الانسان المسلم صورته وشخصيته في الحياة .

أما قيمتها العملية فتتمثل فيما نواجهه في صعيد الواقع من الصور الفكرية للاسلام والاضاع الواقعية للمسلمين ، التي تتنوع في افضل الطرق لتشويه الصورة الحقيقية بمختلف الاصباغ والاشكال ، الامر الذي يجعل الانسان - الذي يبحث عن الاسلام - يعيش في واقع مشوه فكريا وعمليا يبتعد به عن الاسلام عندما تبتعد الصورة الحقيقية للاسلام عن فكره وحياته .

كيف نفهم النزعة الواقعية

عندما نريد ان نعالج الاسلام في اطار الواقعية والمثالية علينا ان نحدد المصطلح لثلاث نفع في فوضى الالفاظ والمفاهيم .
فما الذي تعنيه كلمة « الواقعية » و « المثالية » .

قد يكون لهاتين الكلمتين اكثر من معنى يتسع ويضيق حسب اختلاف موقع الاصطلاح ، من فلسفي او اخلاقي او غير ذلك ، ولكننا - هنا - نريد لهما ان يتحركا في نطاق النظرة للحياة وللانسان من حيث ارتباطها بالواقع الموضوعي لهما او ابتعادها عنه .

وعلى ضوء ذلك نستطيع ان نحدد هذين المصطلحين ..

فالواقعية تعني الاتجاه الذي يحاول فهم الاشياء وتفسيرها من حيث واقعها الموضوعي المتحرك في ظروف حية من الزمان والمكان ، والموجودات المحيطة بها ، والمؤثرات التي تتحرك في داخلها .. فاذا اردنا ان ندرس الانسان في اطار النزعة الواقعية فيجب أن ندرسه من خلال بشريته ، التي تتمثل في هذا الوجود الذي تعيش فيه غرائز الانسان وشهوته وحاجاته المادية والنفسية وعلاقاته الانسانية .

ولا بد للتشريع الذي يريد ان يتحرك مع الواقع - وفي اطار هذه النظرة - من أن يراعي كل تلك الجوانب مجتمعة ، دون أن يطغى جانب على جانب .

فلو أراد أن يلغي بعض الحالات الاساسية ، فلا يحسب لها حسابا في تشريعه ، او يحاول ان يشرع لها بعض الاحكام التي تجمدها ، أو تخنقها ، لكان - في ذلك - مبتعدا عن الواقع لان معنى ذلك هو الغاء حالة تتصل ببشريته وذاته اساسا ، الامر الذي يجعل قضية التمرد على التشريع شيئا طبيعيا في حياته .

ولعل من الطبيعي لهذا الاتجاه ان يدرس الجانب الروحي والمادي لانهما يمثلان الاساس التكويني لوجوده ، على خلاف الاتجاه الذي يدرس الانسان من حيث هو « مادة » فقط فان ذلك يعتبر انحرافا عن الخط الواقعي للدراسة ، كما المحنا اليه .

واذا عرفنا ان الواقعية تمثل فهم الاشياء من خلال ظروفها الموضوعية ، فان « المثالية » تعبر عن الفهم الذي يبتعد عن ذلك ، فيحاول ان ينظر الى الانسان من حيث هو « ملاك » ليس له غريزة البشر ، او روح يمكن ان تنفصل تماما عن خصائص المادة .

وهذا ما تعبر عنه الفلسفات التي تدعو الى التجرد عن الحياة كل الحياة ، حتى الذوبان في الموت ، كقيمة روحية كبرى ، ويتمثل ايضا في الفهم المنحرف للدين الذي يدعو الى رفض الحياة بكل ما فيها من متع وشهوات ولذاذ كاتجاه يقرب الانسان الى الله في ذاته .

اننا في هذا الحديث نحاول ان نتلمس في الاسلام - مفهوما وشريعة - الاتجاه الواقعي الذي يرسم الخط في اطار الواقع ، ولا يعتبر

المثال الذي يعيش خارج نطاق الواقع - أساسا لحركة الاسلام في الحياة .

وسنحاول ان نجد - من خلال هذا الحديث - خطأ الفكرة التي ترى في الدين مثالية غير واقعية .

وقد حاولنا ان نحدد الاتجاه الواقعي - بهذا التحديد - لتمييزه عن الاتجاه الذي يغفل جانب الروح في الانسان انطلاقا من الفكرة المادية التي لا تؤمن بالانسان الا من خلال كونه ظاهرة مادية خالصة ليس لها حركة الا من خلال الوجود المادي فحسب ، وبهذا تعتبر أي اتجاه ينطلق من فرضية وجود الروح اتجاها مثاليا يتعد بالانسان عن واقعه ككائن مادي .

اننا نرفض هذا الاتجاه لاننا نرفض الاساس الفكري الذي يرتكز عليه من اعتباره الانسان كائنا ماديا فحسب ، وعلى ضوء ذلك نرفض اعتبار الاتجاه المادي اتجاها واقعي في نظرتنا للانسان .

ملامح النزعة الواقعية :

لقد طرحنا في بداية الحديث ثلاثة اسئلة :

هل الاسلام واقعي او مثالي في نظرتنا الفكرية والتشريعية ؟

هل الشريعة في خدمة الانسان او الانسان في خدمة الشريعة ؟

هل الغاية تبرر الوسيلة - في الاسلام - او لا ؟ ...

ولعل هذه الجوانب توضح لنا ملامح النزعة الواقعية في الاسلام ، وتلقي الضوء على طبيعة الاتجاه الواقعي ، بشكل عام ، وربما كانت القضايا الثلاث مرتبطة في نتائج البحث ، فاذا استطعنا في

الجواب عن السؤال الاول . أن نصل الى النتيجة التي تحدد الصفة الحقيقية للاسلام ، في اطار الواقع ، أمكننا ان نتقدم في الجواب عن السؤالين التاليين : ...

لان الاسلام اذا كان يعيش في نطاق الواقع كان لخدمة الانسان ، وبهذا تخضع وسائله لهذه الواقعية العملية في المفهوم والتشريع .

وعلى هذا الاساس . نبدأ الحديث لنضعه في فصول ثلاثة .

الفصل الأول

هل الاسلام واقعي أو مثالي؟

- النظرة الواقعية في الاسلام للانسان .
- القرآن مع فكرة البشرية وجهاً لوجه .
- وخلق الانسان ضعيفاً .
- وكان الانسان عجولاً .
- الانسان أمام الشدة والرخاء .
- نوازع الضعف أمام مواطن القوة .
- المفهوم الاسلامي للحياة .

قلنا في تحديد الاتجاه الواقعي :

انه الذي يرسم للانسان حياته من خلال واقعه ، ويتعامل معها في اطار ظروفها الموضوعية ونحن هنا من اجل أن نتلمس هذا الاتجاه في نظرة الاسلام الى الانسان ، والى الحياة ، والى التشريع .

١ - النظرة الواقعية في الاسلام للانسان :

في نظرة الاسلام للانسان نجد الواقعية تنطلق من تأكيده بشريته ، التي ترافقه في جميع مراحل حياته التي تتصاعد في قمة السمو ، حتى تبلغ درجة النبوة ، أو تنحدر الى اقصى درجات الانحطاط حتى تقترب من درجة الشيطان . . . فهو ، في كلا الحالتين ، البشر الذي يجلس على القمة منتصرا على عوامل الضعف او الذي يهوي في الهاوية مستسلما لنوازع الشر .

ولهذا جاءت الآيات الكثيرة ، في القرآن الكريم ، لتؤكد على بشرية النبي أمام الذين يفترضون فيه صفة اخرى غير هذه الصفة ، او

يتطلبون منه عملا فوق قدرة البشر .

فقد حدثنا القرآن عن صفة النبي - أي نبي كان - انه يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ويفرح ويحزن ويتألم ، وتمثل فيه مواطن قوة الانسان في حياته العامة ، كما تمثل فيه مواطن ضعفه التي تظل في اطار البشرية ، دون ان تنحرف به الى ما يتنافى مع خط النبوة او قداستها .

وبذلك استطاع ان يعيش آلام البشر ومشاكلهم فيحيا معهم ويعالج قضاياهم من خلال ظروفهم التي يفهمها فهما جيدا من خلال الطبيعة البشرية المتمثلة فيه .

حتى فكرة وجود الملاك مع النبي ، والنبي - الملاك ، التي كانت تراود افكار الناس الذين اعترضوا على فكرة النبي - البشر ، أو الذي ينطلق بالرسالة وحده دون ان يكون معه ملك منزل من السماء .

حتى هذه الفكرة المطروحة آنذاك عالجها القرآن بشكل حاسم ، يضع القضية في اطارها الطبيعي الذي يقرر - بوضوح - ان الله لو شاء ان ينزل ملكا يرافق النبي لوجب ان تكون له خصائص البشر ليكون صالحا لمركز النبوة او لاعطاء القوة العملية .

قال الله تعالى :

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ
إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ .

[سورة الفرقان : ٧] .

وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ لَأَيُّنظُرُونَ

﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَكَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾

[سورة الأنعام : ٨ - ٩] .

فقد رأينا ان « البشرية » لا تنفصل عن كيان « الانسان » حتى في اطار اتصاله بالله عن طريق الوحي وانفصاله عن الناس بارتباطه المباشر بكلمات الله . . فلا يتحول في نظر الناس الى اله او نصف اله . بل هو- بالرغم من خصائصه الكبيرة - بشري يوحى اليه ، ولا يعلم الغيب الا بمقدار ما يليقه اليه الله من وحيه ، ولا يستطيع اجتراح المعجزات إلا بقدرة الله ، في إطار محدود ، ولذا فهو لا يستجيب للتحديات التي تقترح عليه ما شاءت من اقتراحات ، لا تنطلق من الحاجة إلى الاقتناع بل تنطلق من مواجهة الموقف بالتحدي لمجرد التحدي .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴿١١٠﴾

[سورة الكهف : ١١٠] .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تُفْعِلَنَا مِنِ الْآرِضِ بَيْنُوعًا ﴿١١١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَيْنٍ فَتُفَجِّرَ الْآبِهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿١١٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْفَآؤُنَا نِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا ﴿١١٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْفٍ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا

بَشَرًا رَسُولًا ﴿١١٤﴾ [سورة الإسراء : ٩٠ - ٩٣] .

وَلَوْ كُنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوْءُ

[سورة الأعراف : ١٨٨] .

تلك هي حالة الإنسان البشر في جانب السموات حتى القمة .

أما الإنسان الذي يهوي إلى هاوية الخطيئة كنتيجة لاستسلامه لنقاط الضعف ، فإنه لا يتحول إلى شيطان تمنعه شيطانيته من العودة إلى رحاب إنسانيته ، بل يبقى إنساناً خاطئاً يمكن أن يعمل على تصحيح خطئه ، لأن الخطيئة ليست ذاتية له ، بل هي امر طارئ يعرض له من خلال مواجهته حالات الضعف بإرادة ضعيفة ، ولذا فإنه يظل في الطريق إلى الله ليتعلق به في حال التوبة ويرتفع - من خلال ذلك - من جديد إلى السطح الصاعد أبداً نحو القمة في عملية عودة إلى قمة البشرية المنطلقة أبداً إلى الله وهذا هو سر عظمة النظرة الإسلامية إلى الإنسان فهي لا تجعله تحت رحمة الشعور بخطيئة أصلية مفروضة عليه ، تتعد به عن مستوى القمة . ولا تدعه يرتفع - مهما سما إلى المستوى الذي ينفصل فيه عن تشريعه ليتخذ لنفسه صفة الإله .

فالعقيدة الإسلامية تجعل الإنسان يتطلع إلى الله . وهو في قمة مجده ليشعر بضآلة هذا الجسد ، أمام مجد الله ، كما توجهه إلى أن يتطلع إلى الله ، وهو في أشد حالات الانحطاط ليعرف كيف يمكن للخطيئة ، أن تذوب أمام غفران الله لينطلق - من جديد - في السير مع نفسه في درب القمة إلى الله .

إنها الواقعية التي تنظر الى الانسان على الطبيعة كأننا يعيش بالرجاء الى حد ما ، لثلا يقع في قبضة الغرور ، ويخلد الى الخوف الى حد ما ، لثلا يقع في قبضة اليأس .

القرآن مع فكرة « البشرية » وجها لوجه :

لقد درس القرآن بشرية الانسان ، في حالات الاعتدال وفي حالات الانحراف ، فأثار في حديثه عن ذلك ، نقاط الضعف الموجودة لديه ، المنطلقة من بشريته ، ولكن من حيث هي قابلية واستعداد ولذا فانها لا تفقده حرية الاختيار في حشد نوازع القوة وعواملها ، التي يمكن لبشريته ان تأخذ بها وتسير معها في عملية نمو وتكامل ، لانه يملك قابلية القوة كما يملك قابلية الضعف ، ولكل منهما مؤثرات ومحركات فيما حوله من عوامل الهدى ونوازع الضلال . . . فحاول ان يثير لديه الشعور بضرورة التغلب على نقاط الضعف ، بالتركيز على مؤثرات القوة ، من الايمان بالله في جانب ، وابرار الصورة المضيئة في الانسان القوي الذي ينتصر على ضعفه في مواجهة الصورة السوداء التي ينهار فيها الانسان امام رغبات نفسه الأمارة بالسوء من جانب آخر ، وبالاساليب الرائعة في التشريع التي حاول القرآن من خلالها أن يعالج حالة الرغبة ، باغلاق بعض النوافذ من جهة مع فتح نوافذ اخرى تكفل لها الانفتاح من جانب ثالث .

وخلق الانسان ضعيفا :

فنراه يتحدث عن ضعف الانسان امام رغباته فلا يتركه في اسر الرغبة او ضغط الشهوة ، بل يطلق للشهوة مجالها وللرغبة أميالها ، في عملية تنظيم دقيق بين الحاجة والواجب .

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيُنْوِبَ عَلَيْكُمْ
وَاللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْوِبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشَّهْوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ

الإنسان ضعيفا ﴿٢٨﴾

[سورة النساء : ٢٦ - ٢٨] .

وبهذا انسجم الاسلام مع الواقع فاحترم نوازع الضعف لدى الانسان فلم يطلب منه الغائها وتجميدها تجميدا تاما . بل هيا له مجال التعامل معها على اساس ايجاد الجو الذي تتنفس فيه دون ان تفقد الروح - معه - طهارتها او ينهار - معها - الانسان في شخصيته .

وكان الانسان عجولا :

وهكذا ينطلق القرآن في كل حالة ليصور الانحراف باعتباره حالة طبيعية من حالات الانسان على اساس النمو غير السليم لبعض خصائصه .

وهو يتحدث عن حالة العجلة التي يفسر فيها دعاءه للشر واستعجاله للعقاب ، واستباقه للامور قبل ان تتكامل ، دون النظر الى نتائج ذلك او البحث في طبيعته .

قال الله تعالى :

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٢٧﴾

[سورة الإسراء : ١١] .

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَلِكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَجِيبُونَ ﴿٢٧﴾

[سورة الانبياء : ٣٧] .

« لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه » .

فقد تجسدت حالة العجلة في دعاء الانسان واستعجاله للشر ، دون التفات منه الى طبيعة الموقف . ومدى امكانية انفجاره في غير

مصلحة الانسان ، بل هي الحالة النفسية التي تجعل الانسان ينطلق من الشعور باللحظة الحاضرة من غير مراعاة للمستقبل ، فيهزأ بالوعيد ، دون تبصّر ، ظنا منه انه غير واقعي من غير أن يفكر بمصدر القوة التي توعدت ، وطبيعة الاسباب التي هيأت للوعيد . وتحاول الآيات ان توحى له بأنه لو اعطى نفسه فرصة التفكير ورجع الى منطلقات الايمان التي تمنحه فرصة التأمل والتفكير ، لما استعجل ما استعجله وسخر مما سخر منه .

الانسان امام الشدة والرخاء :

ونراه في اكثر من آية يصور لنا حالة الانسان امام الشدائد والاهوال والخطر المدهم التي تجعله يتجه الى الله بقلبه وبروحه مبتهلا متضرعا راجيا منه أن ينقذه من الشدة والهول والخطر العظيم معطيا - على نفسه - العهد الكبير لله في تصحيح انحرافه واصلاح حاله فاذا استجاب الله دعائه رجع الى حالته ونسي ما كان يدعو اليه . قال الله تعالى :

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ .

[سورة يونس : ١٢] .

وتصوره لنا بعض الآيات ، في حالات تبدل اوضاعه من فقر الى غنى او بالعكس ، كيف ينطلق بحالة انفعالية لا تركز على اساس متين .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُؤْسِكُمْ
 كُفُورًا ﴿١٠﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولُنَّ زَهَبَ
 النَّيِّبَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١١﴾

[سورة هود : ٩ - ١٠] .

انها قصة اللحظة الحاضرة التي تتحكم بتصرفات الانسان
 واعماله وتوجه انفعالاته ومشاعره فاذا غابت عنه استسلم للحظة جديدة
 تعيش في جو جديد .

نوازع الضعف امام مواطن القوة :

ونحن نعرف - من هذا العرض كله - ان الاسلام يتعامل مع
 الانسان على اساس وجود نقاط الضعف عنده ، واعتبارها حالة طبيعية
 ناتجة من تكوينه البشري عندما يلتقي بآلام الحياة ومشاكلها . . . ولكنه
 لا يراها معقدة بالمستوى الذي يسقط معها الانسان عن قدرته على
 الحركة بحرية واختيار ، بل يحاول ان يثير لدى الانسان الشعور العملي
 بالجانب الايجابي منها ، بالاسلوب الذي يفجر فيه طاقة المقاومة عندما
 يضع الموقف في اطار الاختبار والابتلاء والامتحان الذي تتجلى فيه
 النفوس القوية بايمانها امام النفوس الضعيفة تبعا للموقف الذي يقفه
 الانسان من ذلك كله . . .

أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾

[سورة العنكبوت : ٢ - ٣] .

فالقضية كلها قضية فتنه يختبر فيها الانسان قدرته على الوقوف
 مع مبادئه ضد شهواته ومع ايمانه ضد أطماعه ، ثم لا يترك القضية

تتجمد في هذا الموقف بل يحاول في اكثر من آية ان يوحي له بقيمة الثبات والصبر والصمود امام نوازع النفس واغراءات الرغبة ويعرفه ما اعد الله للصابرين من ثواب ورضوان ومغفرة ونصر كبير وفتح قريب .

إِنَّمَا يُوفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ . [سورة الزمر : ١٠] .

وَلَجَّزِئَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَأَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

[سورة النحل : ٩٦] .

وهكذا نشعر بالجانب البشري للانسان يخطو مع نوازع الضعف تارة ، ولكنه لا يسمح لها ان تصرعه . بل يحاول ان يسرع للحاق بمواطن القوة ليثيرها في نفسه ، ويتعامل معها في حياته ، من اجل أن يسير في طريق الفلاح والنجاح . .

وتتنوع الاحاديث في القرآن الكريم عن نجاح التجربة في هذا الاتجاه فيما يحدثنا به عن المؤمنين الذين أفلحوا وانسجموا مع خط الايمان وجاهدوا بانفسهم ، وعن المتقين الذين استطاعوا ان يتجاوزوا خطأ الغفلة بيقظة الايمان . . .

قال الله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ . [سورة الأعراف : ٢٠١] .

« قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم للزكاة فاعلون . . » الى آخر الآيات . .

كل ذلك بطريقة واقعية تواجه النفس بالعلاج تارة وبلاستجابة
لبعض نوازعها أخرى وبالوقوف بوجهها بأسلوب مرن متحرك مرة ثالثة .

وفي ذلك كله . . تبقى رحلة الانسان مع غرائزه وشهواته وكل
نقاط الضعف لديه رحلة صراع واقعية ، لا تتنكر للواقع ولا تغرق في
اوحاله ، بل تنتصر تارة لتفلاح وتفوز وتنهزم اخرى لتخيب وتخسر .

قال الله تعالى :

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْتَهَا ۖ فَآلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ^٧
وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۗ^٨

[سورة الشمس : ٧ - ١٠] .

٢ - المفهوم الاسلامي للحياة

تختلف النظرة للحياة تبعاً لاختلاف النظرة لما وراء الحياة . .
فاذا رفضنا وجود حياة اخرى غير هذه الحياة التي نحياها فاننا نواجه
أهدافاً تنبثق من طبيعة هذا الكون الذي نعيش فيه باعتبار هذه الحياة
الفرصة التي لن تتكرر أو تتجدد ، ولذا فان الطيبات والشهوات تمثل
القيمة الكبرى في وجود الانسان وتفكيره . . فهي النعيم الكبير بينما
يمثل الحرمان الجحيم الاكبر في حياته لانه يجسد العذاب النفسي
والجسدي الذي يعيشه الانسان في كل لحظة من لحظات الحرمان .

واما عندما نؤمن بوجود حياة اخرى فالموقف يختلف لان اللذة لا
تمثل قيمة كبرى كما ان الألم لن يكون ضد هذه القيمة بل القضية
تكون نسبية . . فاذا كانت هناك حياة اخرى تشتمل على لذة اكبر او
حرمان اكبر فان الحرمان هنا من اجل اللذة الكبرى لا يعتبر جحيماً
وعذاباً ، كما ان اللذة التي تستتبع الحرمان الابدي لن تكون نعيماً
وسروراً . . تماماً كما هو الحال في الحياة نفسها - هذه التي نعيش
- عندما يتعرض الانسان لحالة حرمان طارئة في اطار العمل من أجل
المستقبل الكبير فانه لن يعتبر ذلك حرماناً اذا استطاع التعويض عنه

بالهدف الكبير ، والعكس هو الصحيح ، في الطرف المقابل .

وعلى ضوء هذا ، نحدد واقعية النظرة الاسلامية للحياة ، فقد انطلقت الفكرة الدينية من وجود حياتين للانسان ولكل منهما مهمة . . فالدنيا دار المسؤولية والعمل ، والآخرة دار نتائج المسؤولية . . فلا بد من أن يقاس التشريع ، او المفهوم العام ، بمقياس هذه النظرة .

لن نحاول استخدام كلمتي « المادة » و « الروح » في معالجتنا للفكرة لاننا نعتبر أن هاتين الكلمتين ، بما لهما من مدلول فلسفي ، ليستا من الالفاظ القرآنية التي تحدثت عن الفكرة ، بل نستخدم كلمة الدنيا والآخرة ، فالدنيا - في القرآن الكريم - تمثل الحياة التي نحيهاها ، بما فيها من متع ولذائد وأموال وعلاقات . . أما الآخرة . . فانها تمثل القيم التي تحكم هذه المتع واللذائد والعلاقات ، وتنظمها في نطاق مخصوص ، وانما اعتبرها من أمر الآخرة ، باعتبارها تمثل الاطار الذي تعيش فيه هذه الاوضاع والاهداف التي تتجه نحوها ، الأمر الذي يجعل الانسان يواجه نوعا من الحرمان على أساس رضا الله .

وعلى ضوء هذا ، نستطيع أن نقرر أن الاسلام لم يواجه انفصالا في العمل بين الدنيا والآخرة ، فقد أعطى الانسان نصيبه من الدنيا بكل ما تمثله من حاجات حسية ومعنوية ، وطلب منه - الى جانب ذلك - أن يراعي القيم التي وضعها الاسلام في حياته ، واصبحت تمثل الحد الفاصل بين التقييد والاطلاق ، او الفوضى والتنظيم ، كأساس من اسس تنظيم الواقع وعلاقة الانسان به .

لعل أبلغ آية تصور لنا النظرة الاسلامية العامة ، في هذا المجال ، قوله تعالى :

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا
 وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ . [سورة القصص : ٧٧] .

فهي تركز على الهدف فيما يملكه الانسان من اشياء ، وفيما يمارسه من اعمال ، ولكن على أساس مراعاة التوازن بين طبيعة الهدف وطبيعة الواقع ، فلا يستغرق الانسان في جو القيمة ، بالشكل الذي يغفل فيه عن حياته وعن واقعه ، كما يفعله بعض المتصوفة ، بل بالطريقة التي يحفظ فيها نصيبه من الدنيا . . . ولعل التركيز على المسؤولية تجاه الآخرين بالاحسان اليهم ، والمسؤولية تجاه الكون بترك الفساد في الارض . . . يرسم الخط العريض للقيمة التي تحدد للانسان خط الدنيا وخط الآخرة عندما يلتقيان في طريق واحد كما يوضح لنا الخط الذي ينفصل فيه احدهما عن الآخر فاذا استغرقت في الدنيا حتى تحولت الى انسان أناني يفكر بنفسه ، ولا يهتم بالآخرين وبحاجتهم اليه ، فلا يتعاطف معهم في شيء ، أو استسلمت لنزواتك الذاتية التي تجعلك خاضعا لنوازع الفساد والافساد . . . فانك تقف في الخط المقابل لخط الآخرة .

اما اذا استغرقت في الآخرة - القيمة - الهدف . . فاهملت حياتك وتركت نصيبك من الدنيا ، أو عشت في سكراتك الصوفية الحاملة المغرقة في أجواء الخيال . . . فانك تقف في الخط البعيد عن خط الدنيا الواقعية التي يريد بها الاسلام للانسان في الحياة .

وربما نفهم هذه الفكرة من الآية الكريمة التي تصور لنا النموذج

الذي يطلب الدنيا ، فيقتصر على لذاتها وشهواتها لانها - في نطاقها الخاص - لا تعني الا ذلك . . اما النموذج الاخر الذي يطلب الاخرة فانه يطلب الدنيا والاخرة على أساس التفكير الاسلامي الذي يرى القيمة الروحية الواقعية في مواجهتها كوحدة عملية رائعة .

قال الله تعالى :

فَمَنْ التَّاسِرِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠١﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٢﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٣﴾

[سورة البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢] .

وفي الحديث الشريف :

« ليس منا من ترك دنياه لآخرته ومن ترك آخرته لدنياه » . وفي

الحديث المشهور :

« إعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كأنك تموت

غدا » .

ان ذلك هو الذي يحقق للانسان التوازن بين حاجاته

وواجباته . . .

ونستطيع ان نلمح ذلك في الحشد الكبير من الآيات المختلفة

التي أنكرت تحريم الطيبات من الرزق ، وما أخرجها الله لعباده من

الزينة ، ودعت الانسان الى اكل الحلال الطيب مع التحفظ في ترك

اتباع خطوات الشيطان ، وطلبت منه القيام بشكرها عمليا ، وعدم

الاعتداء فيها .

قال الله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا
اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ .

[سورة المائدة : ٨٧ - ٨٨] .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ .

[سورة البقرة : ١٦٨] .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ .

[سورة البقرة : ١٧٢] .

وربما تلمح ، في بعض الآيات ، الإيحاء بان الله يريد ممارستها
من الإنسان ، باعتباره الذي اخرجها ورزقها للانسان وأرادها - بعد ذلك
- خالصة للانسان المؤمن في يوم القيامة ، لا يحاسب عليها لانه قام
بواجبها ورعاها حق وعابيتها كما شرع الله وأراد .

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ
لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِّلُ الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ .

[سورة الأعراف : ٣٢] .

وتنطلق في هذا الاتجاه الاحاديث الكثيرة المروية عن ائمة اهل
البيت (ع) التي تعتبر ، أن الدنيا اذا اقبلت فاحق الناس بها ا خيارها لا

اشرارها لا فجارها .

والحديث النبوي الشريف :

« حُب الي مَنْ دنيَاكم ثلاث الطيب والنساء وقرّة عيني الصلاة » ...

وهناك الآيات الكريمة التي توضح لنا ما اودعه الله في الانسان من محبة للشهوات والاموال والبنين والخييل والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة وغيرها من الامور التي يتجه اليها بطبيعته فعليه ان يوازن بينها وبين ما تطلبه الدار الآخرة من انظباط واتزان .

ونلاحظ ، في هذا الاتجاه ، حوار الامام علي (ع) مع العلاء الذي شكاه اخوه للامام ، لانه لبس العباءة وتخلّى عن الدنيا ، فبادره الامام بقوله . « يا عدي نفسه لقد استهام بك الخبيث أما رحمت اهلك وولدك ؟ أترى الله احل لك الطيبات وهو يكره ان تأخذها ، أنت اهون على الله من ذلك واستمع العلاء الى الامام يلقي عليه هذه الموعدة ففاجأه ذلك ، لانه يرى سلوك الامام العملي مرتكزا على ترك الدنيا فبادره بقوله :

يا أمير المؤمنين هذا انت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك .

فقال الامام : ويحك اني لست كأنت ان الله فرض على ائمة العدل ان يقدروا انفسهم بضعفة الناس لكيلا يتبغ بالفقير فقره . وهكذا نجد ان رفض الحياة بطبيعتها ولذائذها ليس قيمة اسلامية كبرى ، يجاهد الانسان من اجل الحصول عليه لينال بها الحظوة عند الله والثواب منه في الدار الآخرة ، بل العكس هو الصحيح ، باعتباره يجسد السلوك الطبيعي الذي يجعل الانسان يمارس فيه حياته بطريقة

واقعية ، لا يسيء فيها الانسان لنفسه ولا يهرق بها غيره .

اما اجاديت الزهد التي كثرت في السنة الشريفة ، فانها تنطلق معه ، من حيث هو حالة نفسية ، تمثل الشعور بالغنى الذاتي تجاه الحياة ، مما يجعله لا يواجهها مواجهة الجائع الشره الذي يقدم كل شيء ويضحى بكل شيء ، في سبيل الحصول على متعة او لذة ، حتى لو كان الشيء الذي يضحى به دينه او عقيدته ، بل يواجهها مواجهة الانسان الطبيعي الذي يملك حرية الاختيار ، فيأخذ منها ، بحرية ، ويدع ما يدعه منها بحرية واختيار .

وربما يصور لنا ذلك الحديث الشريف الذي يروى عن الامام علي (ع) في نهج البلاغة .

« جمع الله الزهد في كلمتين لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

انها الفكرة التي تقول لك ان عليك ان تواجه خسائر الحياة وأرباحها بنظرة واقعية ، لا تعتبر أيا منها حالة غير عادية ، ولذا فانها لا تترك في النفس أي شعور غير طبيعي ، وكتيجة طبيعية ، لعدم الشعور بالعلاقة القوية التي تجعله يعيش تحت ضغط الحاجة اليها بشدة ، لانها لا تمثل الا حاجة عادية ككل وقائع الحياة التي تأتي وتروح تماما كما هو الليل والنهار . . والفصول الاربعة .

وعلى هدى ذلك كله نعرف ان الاسلام واجه في نظرتة الى الحياة وممارسته لها الموقف على اساس واقعي ، لا يغفل حاجات الانسان الجسدية ، ولا يتسامح في قيم الانسان المعنوية التي ترتبط بالوجود الثاني للانسان . . وربما نلتقي ، في هذا المجال بنقطة

مهمة ، تؤكد لنا هذه النظرة الواقعية ، وهي : ان الدين عندما دعا الانسان الى ممارسة الحرمان عن اللذات التي حرمها الله ، وعده بالثواب الحسي في الآخرة ، حيث يمارس الانسان فيه لذائذه الحسية بشكل أفضل ، بالاضافة الى الثواب المعنوي ، فهو يعد الانسان المؤمن بالحدود والولدان والنعيم الكبير وغير ذلك ، - ثم يضيف اليها قوله : ورضوان من الله اكبر . . .

ولعل هذا الاتجاه ، في جعل الثواب منسجما مع احساس الانسان بالحاجات الحسية للجسد للجسد في الدنيا وفي الآخرة ، يلتقي مع النظرة الواقعية للانسان التي تبعده عن الشعور بالحرمان الابدي مما منع عنه الدنيا - الامر الذي يجعله طبيعيا في مواجهة حالات الحرمان .

الفصل الثاني

هل التشريع لخدمة الانسان ؟ أو العكس هو الصحيح ؟

- النزعة الواقعية في التشريع :
- مع الخطوط العامة للتشريع :
- مهمة الرسول في رسالته .
- قاعدة الحرج .
- قاعدة لا ضرر .
- حديث الرفع .
- واقعية التشريع في بعض المواطن الخاصة :
- رد الاعتداء بمثله .
- مقياس الشرف في التشريع .
- علاقة المؤمن بغيره .
- طريقة العبادة في التشريع .
- الحيل الشرعية .
- الزواج الموقت .
- في نهاية المطاف .

النزعة الواقعية في التشريع

ما هي الفكرة التي تتحكم في حركة التشريع الاسلامي في الحياة .

هل هي ارهاق الانسان بالواجبات والمحرمات التي تتركه لاهثا ورائها لا يستطيع - معها - ان يلتقط انفاسه لتكون مهمة الشريعة - ممن خلال ذلك - ان تكبل الانسان بالقيود فلا تترك له اية حرية في الحركة - جاهدة - على ان تضعه في القمقم .

ذلك هو ما نحاول ان نتلمسه من خلال الخطوط العامة للتشريع وفي ضوء التشريعات والتوجيهات الثابتة في بعض المواضع الخاصة .

مع الخطوط العامة للتشريع :

لعل افضل النصوص التي عالجت هذه القضايا من وجهة عامة هي النصوص التي عرضت للدين من خلال الخطوط العريضة له وسنستعرض بعضها بايجاز .

١ - مهمة الرسول في رسالته :

قال الله تعالى :

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي بَعَدَ مِنْهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَيْهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ
لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُنْهَى عَنْهُمْ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ
وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

[سورة الأعراف : ١٥٧] .

فنحن نلاحظ انها تصور - من خلال تحديدها لمهمة الرسول في رسالته - أن الحلية والحرمة خاضعة لطبيعة الاشياء في واقع الحياة - في اطار مصلحة الانسان - فالطيب حلال ، والخبيث حرام ، وهدف الشريعة ، هو أن ترفع عنهم اثقالهم وتحط عنهم اغلالهم التي كانوا يرسفون بها في حياتهم الماضية ، ابعادا لهم عن المشقة والجهد في ممارسة الحياة .

٢ - لا يكلف الله نفساً إلا وسعها - لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها :

ان القدرة هي حد التشريع الذي يقف عنده فلا يتحرك الا معها - فاذا انتهت القدرة - وقف التشريع حيث هو لا يتقدم ولا يتأخر في حساب المسئولية .

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ .

[سورة الحج : ٧٨] .

مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرْجٍ وَلَكِنْ يَرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

[سورة المائدة : ٦] .

ليس هناك ضيق في التشريع على الانسان ، بل هو المجال
الواسع الذي يجعله يتحرك براحة وحرية ، فاذا ضاق عليه حكم وسَّعه
حكم آخر . كما نلاحظه في أمر الوضوء والتيمم الذي جاءت الاية من
اجل تبرير تشريعه على هذا الاسلوب .

وقد نجد لهذا الخط - في نفي الحرج - تطبيقا عمليا في اكثر من
حكم . . . فنلاحظ في تشريع الجهاد - استثناء بعض الحالات التي
يكون الجهاد فيها حرجا ، وهم الضعفاء والمرضى واصحاب
العاهات ، كالأعرج والاعمى ، والذين لا يملكون نفقة المسير .

قال الله تعالى :

لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يُنْفِقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾

[سورة التوبة : ٩١] .

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ .

[سورة الفتح : ١٧] .

ونجد هذا الخط في آية اخرى تلتقي مع هذه الآيات في

الفكرة ، وان اختلفت عنها في الاسلوب واللفظ .

قال الله تعالى :

وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ
الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِيُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِيُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى
مَا هَدَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

[سورة الأعراف : ١٥٧] .

فقد انطلق التشريع بالرخصة هنا ، من حالة الشدة والعسر الذين
يقع فيهما الانسان من تشريع الصيام كفريضة في حالة المرض او حالة
السفر ، ولهذا اتسعت له الرخصة لتتسع له الحياة في نطاق التشريع .

قاعدة الحرج :

وقد استطاع الفقهاء ان يجدوا في هذه الآيات قاعدة فقهية عامة
تحكم على ادلة الاحكام فترفع أي حكم حرجي بشكل طبيعي ، من
دون حاجة الى خاص يرفعه ، فأطلقوا عليها قاعدة لا حرج . وحاولوا
ان يعتبروا هذه الآيات بمثابة المؤشر الذي يشير لنا الى الحدود التي
يعيش في اطارها أي تشريع آخر . . .

فكل حكم من الاحكام الالزامية التي تتسع لحالة اليسر والعسر ،
والحرج والسعة ، لا بد لنا من ان نتجاوزه لنقف به عند حدود
الحرج ، ليختص بالحالات التي لا يشعر الانسان معها بالضيق الذي
يواجهه من جراء امتثاله .

وقد اصبحت هذه القاعدة من القواعد المهمة في الدراسات
الفقهية الاجتهادية وانطلق الفقهاء - معها - يبحثون جوانبها ، في دقة

وشمول ، فحصرها البعض في الواجبات ، فلم تتسع لديه للمحرمات فلم يجوز لنا - بحكم هذه القاعدة - ان نطلق الرخصة بلا حساب في المحرمات لمجرد ان الانسان يقع - من خلال امثالها - في حرج وضيق شديد لا يتحملها في الحالات العادية .

وأطلقها بعض آخر فرأى ان النصوص اذا كانت شاملة للمحرمات فلا نجد هناك ما يخرجها عنها وهذا هو ما نرتثيه وفقاً لبعض اساتذتنا المحققين .

وعلى ضوء هذا الشمول في فهم القاعدة ، يستطيع المؤمن الذي يواجه حالات الحرج التي يمر بها في المجتمعات الكافرة والضالة . . . أن يمنح نفسه حرية ممارسة بعض المحرمات اذا كان الانسجام مع خط التحريم يوقعه حالات الحرج الشديد . .

وتحدث الفقهاء كثيراً حول قضية الحرج الذي يقف الحكم عنده ، هل هو الحرج الشخصي الذي يعتبر حالة شخصية للانسان ، او هو الحرج النوعي الذي لا يراعى فيه الجانب الشخصي ، بل يخضع للحالات النوعية ، وانطلق الفقهاء - كعادتهم - في ابحاث التخصيص والتعميم - في هذه القاعدة ، ولكل رأيه ، الذي قد يختلف فيه معه وقد نتفق ، مما لا يعنينا الدخول في تفاصيله ، في حديثنا هنا ، بل كل ما يعنينا من هذا كله ، هو أنهم لا يختلفون في الخط العام الذي يعتبر حالة الحرج من الحالات الرافعة للتكليف بشكل عام .

وقد نجد في بعض كلماتهم التركيز على ان هذه القاعدة مما يستقل بها العقل في طريقة التشريع القانوني قال صاحب العناوين الميرفتاح :

يمكن ان يقال . ان قضية العقل السليم عدم وقوعهما (العسر والحرج) في التكليف نظرا الى ان المتفق عليه عند اصحابنا وجوب اللطف على الله سبحانه ومعناه التقريب من الطاعة والتباعد عن المعصية التي هي المهلكة العظمى ولا ريب ان التكليف البالغ حد الحرج يبعد عن الطاعة ويكون باعثا الى كثرة المخالفة ، والله سبحانه أرحم بعباده من ان يفتنهم بما يوقعهم في العذاب غالبا ، وكما أن التكليف بما لا يطاق ممتنع عليه تعالى ، للزوم القبح والخروج عن العدل فكذلك التكليف بالحرج فانه مناف للطف والرحمة .

ويقول - بعد ذلك - : وان شئت توضيح ذلك فانظر إلى طريقة العقلاء في مقام التربية فان الارشاد الى الحسن والقبيح والامر والنهي من لوازم التربية ، ولا يتحقق بدونهما ، مع انه لو أمر أمر بأمرٍ مستصعب أو نهى عن شيء يعسر اجتنابه للمأمور جدا ، فخالف ، لكان العقلاء يذمون الأمر ويقولون ان هذا ليس مقتضى اللطف ، بل اللائق أن تأمره بما لا يشكل عليه ، ولا تأمره بما يوجب خذلانه ، وبالجمله فرق بين كون الداعي مجرد نقص النفس والتمرد على الاطاعة - اعاذنا الله منها - وبين كون ما يصدر عن الأمر له مدخلة في ذلك ، لا في تحقيق موضوعه ، بل في صدوره عن المكلف ، ولهذا لو اعتذر العبد المخالف حينئذ عند الناس بان التكليف مثلا بكذا بهذه المشقة هل هو طريقة المولى ، وكيف أتحمل انا هذه المشقة ، وكيف السبيل الى غير المخالفة في ذلك ، يقبله العقلاء ويخطأون المولى وذلك واضح (١) .

وعلى ضوء ذلك يرى كثير من العلماء - ومنهم صاحب العناوين

(١) العناوين - ميرفتاح ١٩٠ - ١٩١ .

- ان هذه القاعدة غير قابلة للتخصيص بل هي جارية في كل مجال من مجالات الحرج والمشقة الطبيعيين . . وقد يرى آخرون غير ذلك فيقررون انها قاعدة عامة ، تخضع لما تخضع له القواعد العامة من التخصيص ، ويذكرون لذلك بعض الموارد التي قد يختلف فيها الرأي من حيث أنها داخلة في موضوع هذه القاعدة او خارجة مما لا سبيل لنا لذكره ولا حاجة بنا الى الدخول في تفاصيله .

قاعدة لا ضرر :

وهناك - في نطاق الخطوط العامة للتشريع - قاعدة أخرى هي قاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام أو على مؤمن - إنطلاقاً من حديث الرسول الأعظم محمد (ص) في قصة سمرة بن جندب الذي كان له عذق وكان طريقه إليه في جوف منزل رجل من الانصار فكان يجيء ويدخل الى عذقه بغير اذن من الانصاري فقال الانصاري يا سمرة لا تزال تفجأنا على حال لا نحب ان تفجأنا عليه فاذا دخلت فاستأذن فقال : لا استأذن في طريقي - وهو طريقي الى عذقي - قال : فشكاه الانصاري الى رسول الله (ص) فارسل اليه رسول الله (ص) فأتاه فقال : ان فلانا قد شكاك وزعم انك تمر عليه وعلى اهله بغير اذن فاستأذن عليه اذا اردت ان تدخل فقال : يا رسول الله أستأذن في طريقي الى عذقي فقال له رسول الله خل عنه ولك عذق في مكان كذا وكذا فقال لا قال فلك اثنان قال لا اريد فلم يزل يزيده حتى بلغ عشرة أعذق فأبى فقال له رسول الله انك رجل مضار ، ولا ضرر ولا ضرار على مؤمن قال : ثم أمر بها رسول الله (ص) فقلعت ورمي بها اليه وقال له رسول الله (ص) انطلق فاغرسها حيث شئت . (وسائل الشيعة باب ١٢ من كتاب احياء الموات) .

وقد اعتبر الفقهاء هذا الحديث بمثابة القاعدة العامة التي تحكم على ادلة الاحكام كلها فتحصرها في غير حالة الضرر .

وعلى ضوء ذلك حكموا بمنع الانسان من التصرف في ماله اذا كان فيه ضرر على جاره او على الآخرين . ورخصوا له ممارسة بعض المحرمات كالتحاكم الى قضاة الجور اذا توقف استنقاذ الحق على التحاكم اليهم ، باعتبار ان الحكم بالتحريم هو من الاحكام الضرورية على الانسان .

وقد تحدثوا عن هذه القاعدة وافاضوا في الحديث كما تحدثوا وافاضوا في الحديث في القاعدة السابقة ، من حيث شمولها للضرر النوعي او عدم شمولها له ، وعمومها للمحرمات او اختصاصها بغيرها ، الى غير ذلك من التفاصيل التي لا شأن لنا في الخوض فيها هنا .

بل كل ما نريده - في هذا المجال - هو ان هذه القاعدة تنطلق من الخط العام الذي ألمحنا اليه في بداية الحديث وهو ان لا يكون التشريع مصدر ضرر للانسان بل يقف عند هذه الحالة وقفة حاسمة ، تجعل الانسان يرتاح لإلزاميات الشريعة كما يرتاح لرخصتها ، ليكون التشريع رحلة طيبة في حياة الانسان ، لا مرحلة شاقة من مراحل حياته العملية .

حديث الرفع :

وفي هذا الاتجاه يلتفت الاسلام الى حالات الخطأ والنسيان والجهل والاضطرار التي يواجه فيها الإنسان موقف الانحراف عن الحكم الشرعي . وتجاوز حدوده كنتيجة طبيعية لوجود إحدى هذه

الحالات فيأتي الحديث النبوي المشهور ، وهو حديث الرفع . ليقرر رفع الحكم في هذه الحالة ، أو رفع مسؤوليته ، لثلا يعيش الإنسان عقدة الذنب ازاء مخالفته للشريعة في هذه الحالة . ويشعر بالأمتان العملي للجو التشريعي الذي يوحى إليه . بالسعة لا بالضيق ، وبالراحة لا بالتعب .

قال النبي محمد (ص) رفع عن امتي تسعة أشياء الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه وما لا يعلمون وما لا يطيقون وما اضطروا إليه والطيرة والحسد والوسوسة في الخلق .

ورأى الفقهاء في هذا الحديث قاعدة عامة . استفادوا منها ، في حل كثير من المشكلات التشريعية في حالات الجهل والنسيان والاكراه والخطأ بشكل خاص . فألغوا - ببركتها - قانونية التصرفات الصادرة عن الإنسان عن اكراه سواء في ذلك التصرفات العملية ، التي توقع الإنسان تحت مسؤولية العقوبة في الدنيا والآخرة ، أو التصرفات العقدية التي تفرض على الإنسان التزامات ومسؤوليات قانونية على أساس التزاماته العقدية . في حالة الاكراه .

وهكذا اطلق الفقهاء من هذا الحديث قاعدة البرائة التي حكموا فيها بأن أي حكم لا يعلمه الإنسان فهو مرفوع عنه ، لا يؤاخذ به ، ولا يحاسب عليه في الدنيا وفي الآخرة من غير فرق بين أن يكون الجهل بالحكم نتيجة للجهل بالموضوع أو لإرتباك في مصدر التشريع للحكم .

وقالوا ان هذه القاعدة ، رفعت عن الانسان حكماً كان من صلاحية الشارع أن يضعه ، من خلال الحفاظ على المصلحة التي

انطلق منها الحكم . . . ولو جعله الشارع ، لوقع الإنسان من ذلك في ضيق و حرج ولكنه رفعه عنه انطلاقاً من سماحة الشريعة وسهولتها . . . أما الحكم الذي كان يمكن للشارع أن يجعله في هذا المجال فهو ايجاب التحفظ في نطاق النسيان .

وقال الفقهاء والأصوليون : ان هذا الحديث واقع في موقع الامتنان من صاحب الشريعة على الأمة . فكأنه يريد ان يشرح منة الله عليهم ولطفه بهم ورأفته بحالهم ، عندما رفع عنهم هذه الأمور التي لو وضعها عليهم أو حملهم مسؤوليتها لوقعوا في حرج عظيم .

وبهذه الروح قالوا : ان هذا الحديث لا يرفع إلا الأحكام التي يعتبر رفعها عن الأمة امتناناً على الأمة بشكل عام ، لا على شكل خاص ، لأن الأحكام الشرعية لا ترفع أو توضع ، انطلاقاً من مصلحة خاصة ضد مصلحة خاصة أخرى ، بل من المصلحة العامة ، وان هدرت معها بعض المصالح الخاصة . . . ولهذا قالوا ان هذا الحديث لا يرفع حكم الضمان على من أتلف مال غيره خطأ أو جهلاً أو نسياناً لأن رفع هذا الحكم لا يعتبر امتناناً على صاحب المال بل هو ضد الامتنان عليه وإن اعتبر امتناناً على المتلف لأنه يرفع عنه حكم الخسارة .

وليس من شأننا الخوض في ذلك كله . ولكننا نريد أن نضع هذا الحديث في الأطار العام للفكرة التي قررناها من ارتكاز التشريع على الأسس الواقعية التي تدرس الإنسان من خلال ظروفه الواقعية من دون حرج .

واقعية التشريع في بعض المواطن الخاصة :

ربما نجد في بعض الحالات التشريعية الخاصة . وضوح الخط

الواقعي الذي يقترب فيه التشريع من الحالات الطبيعية للجو الداخلي الذي يعيش فيه الإنسان ، ازاء بعض الأوضاع المعينة التي تواجهه في حياته فيشعر - معه - الإنسان بالانسجام مع الأحكام الشرعية التي تريد اخضاع حياته لأرادة الله وتشريعه وسنحاول استعراض بعض النماذج الحية في هذا الاتجاه .

١ - رد الاعتداء بمثله :

في التشريع الإسلامي يعتبر الإسلام مقاومة الظلم من قبل المظلومين حقاً أساسياً مقدساً ركز عليه القرآن الكريم في أكثر من آية ، ودعا الإنسان إلى الأخذ بهذا الحق ، مع مراعاة جانب العدل في ذلك ، بعدم الزيادة عليه في رد الفعل ، على المستوى الذي جاء به الفعل ، سواء في ذلك ، بالكلمة فيما اذا كان الظلم بالكلمة ، أو بالفعل فيما اذا كان الظلم بالفعل .

قال الله تعالى :

فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَأَتَّوُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

[سورة البقرة : ١٩٤] .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ

[سورة النحل : ١٢٦] .

ولعل في بعض الآيات ايحاءاً بأن الإنسان الذي ينتصر لنفسه في حالة تعرضه للعدوان والبغي ، هو في مركز القيمة في نظر الإسلام .

وذلك قوله تعالى :

وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا
فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾

[سورة الشورى : ٣٩ - ٤٠] .

فقد جعل الانتصار على البغي والظلم الذي يصيب الإنسان من الآخرين صفةً ممتازةً من صفات المؤمنين مما يجعل الإنطلاق في العفو، في اطار القيمة الأخلاقية ، حركة وجدانية لدى الإنسان تنبع من تقديره للواقع .

ولعل التركيز على ذلك يتجه إلى ترك القضية للإنسان ليمارسها كما يريد بإعتبار القضية حقاً له يمارسه بالعفو تارة وبالقصاص تارة أخرى ، لأن كلا منهما يمثل القيمة الإنسانية في حساب الكرامة .

وربما كان هذا الاتجاه في تقدير الموقف مرتكزاً على أساس حساب العامل الذاتي الذي يبحث عن الثأر لنفسه من خلال الرد العملي ، وعن الروح المتسامحة التي تنطلق مع العفو، من خلال واقع الحق الطبيعي في القصاص .

٢ - مقياس الشرف في التشريع :

ونلاحظ في التشريع الإسلامي التأكيد على جانب المسؤولية الفردية في العمل الأمر الذي يجعل الإنسان يشعر بالأمان تجاه الله والناس على أساس شرعي فيما اذا كان أحد أقربائه منحرفاً في سلوكه بأي شكل من أشكال الانحراف وذلك قوله تعالى :

وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِعْتَابَهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٦٤﴾

[سورة الأنعام : ١٦٤] .

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُودِهَا عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

. [سورة النحل : ١١١]

قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

. [سورة سبا : ٢٥]

ونلاحظ في هذا التشريع أيضاً أن استقامة الآخرين وصلاحهم لا
يجدي المنحرفين شيئاً من ناحية عملية أو معنوية وذلك قوله تعالى :

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾
تَمَّ مُجْزِيَةُ الْبِحْرَاءِ الْآوْفَىٰ ﴿٤١﴾

. [سورة النجم : ٣٩ - ٤٠ - ٤١]

وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا

. [سورة لقمان : ٣٣]

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عَبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ
وَوَجِّعْ لِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَسَمِلِهِ وَوَجِّعْ لِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾

. [سورة التحريم : ١٠ - ١١]

وقد نجد في هذا الاتجاه التشريعي أساساً لجعل المقياس الواقعي للشرف ، هو السلوك الفردي للإنسان نفسه ، فلا أثر لسلوك الآخرين في التقييم ، من هذه الجهة ، سواء أكان الآخرون عشيرته أو أخوانه أو أهل بلده لأن كل إنسان يمثل نفسه ، ولا يمثل غيره ، فهو المسؤول الأول والأخير ، عن عمله أمام الله وأمام الآخرين ، ولذا يختص العقاب به وحده سواء في ذلك حال الدنيا أو حال الآخرة .

قال الله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ .

[سورة المائدة : ١٠٥] .

وَإِنْ كَذَّبْنَاكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا عَمِلُوا
وَإِنَّا بِرَأْيِهِمْ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ .

[سورة يونس : ٤١] .

وَمَا الشَّاهِرُ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ .

[سورة الطور : ٢١] .

وعلى هدى ذلك كله نقرر أن ما يسمى غسلًا للعار وحفظاً للشرف ، في حالة انحراف الفتاة التي تربطها بالقاتل صلة قربي ، هو أمرٌ مناف للمفهوم العام للشرف في الإسلام ، فإن الفتاة لم تسيء بإنحرافها لأحد بل أساءت لنفسها ، لأنها هي التي تتحمل مسؤولية نفسها أمام الله وأمام المجتمع الذي تحكمه شريعة الله لا شريعة الجاهلية . وربما كانت هذه التقاليد منطلقة من الأنظمة العشائرية التي تعتبر العشيرة وحدة قائمة بذاتها ، يتحمل المجموع فيها مسؤولية ما

يقوم به الفرد ، كما يتحمل الفرد نتائج ما يقرره المجموع^(٥) ، أو ما يقومون به ، كما ان التفرقة بين انحراف الفتاة وبين انحراف الشاب يرجع الى المفهوم الجاهلي للشرف الذي يعتبر عرض الأنثى مقياساً للشرف الرفيع ، بينما لا يعتبر عرض الشاب بهذه المنزلة ، ولذا نجده يحاسب الفتاة اذا انحرفت بما لا يحاسب به الشاب في هذه الحال .

وقد انتهى الإسلام من هذا كله ، بما قرره من المسؤولية الفردية التي تجعل الإنسان وحده وجهاً لوجه أمام عمله ، كما تجعل شرفه خاضعاً لما يقوم به من عمل وما يمارسه من سلوك وما يتمثل في حياته من مبادئ وقيم .

٣ - علاقة المؤمن بغيره :

كيف تكون علاقة المؤمن بغيره كافرأ كان أو ضالاً . . . قريباً كان في نسبه أو بعيداً .

هل يفرض الإسلام على المؤمن أن يقاطع غير المؤمن أو يهجره أو يتنكر له في علاقاته ومعاملاته وكل جوانب حياته .

إننا نواجه واقعية التشريع في نطاق الجواب التشريعي على هذا السؤال ، فإذا انطلق التشريع في اتجاه المقاطعة الكلية كان التشريع - في ذلك - بعيداً عن الواقع لأنه يكلف المؤمن ما لا يستطيع الانسجام معه إلاً بجهد جهيد . أمأ إذا وقف بين طبيعة الإيمان وما يفرضه من مواقف ، فرسم له مواقفه ، وبين طبيعة الحياة وما تفرضه من علاقات ، فأباح لها علاقاتها ، ونظمها على أساس متين . . فإنه ينسجم مع الواقع ويغري الإنسان المؤمن بالسير معه بعيداً في هذا المجال .

وقد انطلقت الشريعة لترسم للتشريع خطوطه العملية في هذا الاتجاه الذي يجمع بين واقع الإيمان وواقع الحياة فقد حددت علاقة المؤمن بالكافر على أساس اعتبار العقيدة أساساً للرابطة الوثيقة التي يسميها القرآن الكريم بـ (الموادة) و (الموالة) لأنها العلاقة الوثيقة التي يخضع لها صدق الإيمان في الضمير ، أما العلاقة العامة التي تخضع للواقع المعاش على أساس مالي أو اجتماعي أو أخلاقي ، فقد تركها الإسلام للإنسان دون أن يحدد له أي تكليف إلزامي إلا المحافظة على نفسه من الغدر والخيانة والإنحراف .

وبهذا يشعر الإنسان المسلم بالحرية في حياته العامة والخاصة ، عندما يريد التعامل والتعايش مع الآخرين دون أن تحدد ذلك قضايا العقيدة وغيرها ، لأن واقع الحياة الملي يمنع ذلك التحديد . . . وقد أكد الإسلام ذلك في علاقة الإنسان المسلم بالرحم الكافر ، فاعتبر له حقاً واحداً على المسلم ، وهو حق الرحم ، كما أكد على معايشة الوالدين ومصاحبتهما بالمعروف ، بالرغم من كفرهما ودعوتهما ولدهما الى الكفر . . . وتلك هي أسمى درجات الأخلاق والواقعية في حركة التشريع الإسلامي .

قال الله تعالى :

وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا .

[سورة لقمان : ١٥] .

٤ - في طريقة العبادة في التشريع :

أرادنا الله أن نعبده ، وجعل عبادتنا له فرضاً واجباً تؤديه في كل

يوم ، واعتبر العبادة مقياساً لقرب الإنسان إليه وبعده عنه في حالة ممارسته لها أو تركه لها .

ولكن كيف نعبده ؟ هل يريدنا الله أن نجهد أنفسنا حتى السقوط من شدة العياء ، هل يمثل الأرهاق في العبادة قيمةً دينيةً ، يدعونا الإسلام إليها ، وهل في حساب الإسلام تصنيف للذين يتركون كل شيء في الحياة للعبادة البدنية ، من صلاة وصيام ونحوهما ، ليرفعهم ، من خلال ذلك ، إلى الدرجات العليا ، كما يريدنا الأسلوب الوعظي الذي درج الواعظون من مؤلفين وخطباء أن يملأوا أفكارنا به من خلال قصص أولئك العباد الذين نذروا أنفسهم للعبادة في الصوامع والكهوف وقمم الجبال ليدللوا على أن هؤلاء يمثلون القيمة كل القيمة والعظمة كل العظمة .

لقد كان الإسلام واقعيًا في ذلك كله فقد خلق الله الإنسان وهو يعرف ما أودعه فيه من قوى وقدرات ومجالات يتحفز كل منها ليؤدي دوره في الحياة ، دون اختناق ، فكل طاقة في داخلنا تشعر بحاجة إلى أن ترتاح وتتنفس ، وكل قدرة من قدراتنا تحس بضرورة التخفيف من ضغط العمل والمسؤولية . . .

وكل مجال من مجالاتنا العملية يحتاج إلى أن يتفتح وينفتح على أكثر من أفق ، لأن الأفق الواحد في حركة الحياة يحول الحركة إلى روتين ميت . ولهذا أراد لنا الإسلام أن نتخفف من عناء العمل وعناء العبادة فلا نثقل أنفسنا بهما إلا بمقدار ، فلم يرد لنا أن نرهق أنفسنا بالعبادة لأننا بذلك نلتقي بردود الفعل الذاتية التي تنشأ من الداخل ، كنتيجة طبيعية للشعور بالضغط والأختناق الداخلي ، عندما تفقد المتنفس الذي تتنفس فيه بحرية ، خارج حدود الواجب ، كما يلتقي

برود الفعل الخارجية التي تنشأ من شعور الآخرين بصعوبة الانتماء لهذا الدين الذي يأخذ على الإنسان كل مجالات حياته دون ان يفسح المجال للحركة الحرة خارج نطاق العمل الديني . ففي حديث نهج البلاغة عن الإمام علي (ع) :

« إن للقلوب إقبالاً وإدباراً فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل وإذا أدبرت فاقصروا بها على الفرائض » . وفي حديث آخر : « إن للقلوب شهوة وإقبالاً وإدباراً فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها فإن القلب إذا اكره عمي » . وقال : « . . . وخادع نفسك في العبادة وخذ عفوها ونشاطها » .

وفي حديث الإمام جعفر الصادق (ع) قال : « مر بي أبي وأنا بالطواف ، وأنا حدث ، وقد اجتهدت في العبادة فرآني وأنا اتصابُ عرقاً فقال لي يا جعفر يا بني ، إن الله إذا أحب عبداً ادخله الجنة ورضي عنه باليسير » .

وفي حديث آخر للإمام الصادق عن رسول الله (ص) وهو يوصي علياً (ع) قال :

« يا علي ان هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك فإن المُنبَتَّ (المفرط) لا ظهراً أبقي ولا أرضاً قطع فاعمل عمل من يرجو أن يموت هراماً واحذر حذر من يتخوف أن يموت غداً » .

وفي رواية أخرى : ولا تبغض الى الناس عبادة ربك .

اما الانقطاع للعبادة والتخلي عن الحياة كل الحياة ، فهي من

الرهبانية التي اعتبرها الإسلام - في القرآن الكريم - بدعة لا يقرها للخط العملي للإنسان لأن ذلك ضد طبيعة الحياة .

ان القضية في العبادة في الإسلام ليست في الكم بل هي في الكيف ولذا ورد في مضمون الحديث عن العبادة .

ليس لك من صلاتك إلا ما أقبلت فيه على ربك ، وليست في طبيعة ما تأتيه من عبادات ، بل بمقدار ما تُحقِّق من اهداف تربوية وروحية من خلال العبادة .

وقد ورد في الحديث النبوي الشريف - من لم تنته صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً - وقد جاء في نهج البلاغة - رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ورب قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر ، حبذا نوم الأكياس وفطرتهم .

إنه الأسلوب التشريعي الذي لا يريد أن يحوّل الانسان الى آلة متحركة بدون وعي ، تُمارس الركوع والسجود بدون حساب ، بل يريد ان يتحول الإنسان الى كيان نابض حي متحرك يعيش اللقاء الروحي بحياته من خلال اللقاء الروحي بربه ويشعر بأن موقفه في العبادة يمثل جانباً حياً من جوانب المسؤولية التي تتحرك في داخل الذات لتحولها الى طاقة كبيرة زاخرة بالمعاني الكبيرة في الصحياة ، وتتفجر في حياة المجتمع ينبوعاً من ينابيع الخير والعطاء والمحبة ، دون حساب . إنها عبادة المعنى وليست عبادة اللفظ وعبادة المضمون وليست عبادة الشكل وتلك هي سر عبودية الإنسان لربه التي تمثل فيها الكرامة والأخلاص والشعور العميق بالمعنى الكبير لعلاقة المخلوق بالخالق وعلاقة الخالق بمخلوقه . وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

الحيل الشرعية :

وهناك باب يذكره الفقهاء في كثير من أبواب الفقه يطلقون عليه اسم « الحيل الشرعية » ويريدون بها الوسائل التي يحاول فيها المكلف التخلص من الوقوع في الحرام ، وذلك بالحصول على بعض نتائجه مع اختلاف الوسيلة والعنوان ويسررون ذلك بأن الأحكام الشرعية من حرمة أو وجوب أو غيرها تابعة لوجود موضوعها فإذا وجد الموضوع وجد الحكم وإذا انتفى انتفى ، ولا يرون في وحدة النتيجة ما يمنع من اختلاف الحكم لأن طبيعة الحكم قد تتبع الغاية المرتبطة بوسيلة معينة ، لا الغاية بأي وسيلة كانت . وهكذا يجوز للإنسان أن يتوصل إلى أخذ الزيادة على المبلغ الذي اقتضه ، بطريقة البيع الخياري أو البيع بشرط الخيار ، وهو عبارة عن أن يبيع الإنسان شيئاً عقاراً كان أو غيره بثمان معين ويجعل لنفسه حق الخيار ، والرجوع بالبيع في حالة إرجاعه الثمن الى البائع في مدة معينة ، ويصبح العقار في هذه الحالة ملكاً لصاحب المال ، ولا يعود صاحب العقار مدينماً لصاحب المال بشيء ، فكل منهما قد ملك ما انتقل إليه في مقابل ما انتقل عنه من مال ، وله أن يتصرف فيه كما يريد ، كأبي مالك آخر ، وليس هناك تحفظ في هذا المجال إلا التحفظ الذي يوجبه حق الخيار لصاحبه فحسب وعلى ضوء هذا يمكن لبائع العقار أن يستأجر العقار من صاحب المال الذي انتقل إليه بالشراء ويستحق - بناءً على ذلك - الأجرة التي قد تلتقي بالنتيجة مع الفائدة ، ولكنها تختلف عنها بالطريقة الشرعية .

وقد يرى بعض الناس في هذا المجال حيلة صورية تأخذ أسم الشرع لا حكمه ، ولكننا نجد فيما يعتبر في هذه المعاملة من شروط :

ان القصد والجدية والالتزام الشامل بالالتزامات التي يفرضها هذا التعاقد وغير ذلك من الأمور هي من العناصر الأساسية لشرعية هذه المعاملة في الحساب القانوني للنتائج الشرعية . . ولعل من أوضح الأمور في هذا المجال أن صاحب العقار لو جاء في مدة متأخرة عن موعد الخيار ، ولو بمقدار دقائق ، لما كان له أي حق على صاحبه ، في ارجاع العقار ، مهما كانت الظروف التي اقتضت التأخير والتأجيل . الأمر الذي يجعل من المعاملة قضية تتعدى الجوانب الشكلية الى الجوانب العملية الحقيقية .

وإذا كان بعض الناس يمارس هذه الحيل ممارسةً لا تتعدى النطق بالالفاظ التي تدل عليها دون القصد الى مضمونها ، فليس معنى ذلك ان التشريع يستجيب لأمثال ذلك ، أو يبرر للقائمين به ذلك ، وليس للشرعية ذنب ، بأن اتباعها يسيئون استخدام رُخصها كما يسيئون الحفاظ على واجباتها او الالتزام بترك محرماتها ، وان خيل إليهم أنهم يلتزمون بها كلاً أو بعضاً ، فيما يوحون به لأنفسهم أو يوحى إليهم به الآخرون . . ولعلّ هذا الوضع في سوء استخدام هذه الطرق هوالذي اعطى الانطباع السيء عنها لآخرين . .

وربما نجد في بعض الاحاديث الواردة عن أهل البيت (ع) الايحاء بأن هذه الحيل الشرعية تعيش في اطار الحاجة الى الخلاص من واقع معين يضغط على الانسان ولا يستطيع الانسجام فيه مع الخط فيلجأ إلى ما يبرر له هذا الخلاص بالطريقة التي لا تهدم بناء واقعه ولا تسيء الى سلامة التزامه بالخط العام للشرعية تماماً ، كما نلاحظ في الحالات الصعبة التي يعيش فيها الفرد المسلم في المجتمع الرأسمالي الذي يركز على الربا دون أن يجد لنفسه أي طريق لترتيب أوضاعه

وعلاقاته من غير هذا الطريق ، فيقف إزاء هذا الواقع الضاغط بين الخروج من دينه ، وبين الخروج من واقعه بالاساءة الى كيانه ، وفي كل ذلك بلاء عظيم .

أما في المجتمع الذي يركز على أساس الإسلام ويعتبر التعاون بين المسلمين وبذل المعروف لبعضهم البعض ، أساساً للقاعدة التي يركز عليها المجتمع الإسلامي . . أما في هذا المجتمع فلا يحتاج المسلم الى سلوك هذا الطريق لتركيز حياته ، لأن الدائن ينطلق من فكرة المعروف في علاقاته بإخوانه ، والمدين لا يشعر في ضوء هذا بضرورة لممارسة ذلك ، إلا في الحالات الخاصة التي يحتاج فيها المجتمع إلى سلوك ذلك لمواجهة بعض الحالات الاقتصادية الصعبة التي تفرض ذلك .

وقد نجد هذا الايحاء الذي ألمحنا إليه في ما روي من حديث الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر (ع) - فيما رواه ولده جعفر الصادق (ع) عنه - كان محمد بن المنكدر يقول لأبي يا أبا جعفر رحمك الله ، والله انا لنعلم انك لو أخذت ديناراً والصرف بثمانية عشر فدرت المدينة على أن تجد من يعطيك عشرين ما وجدته وما هذا إلا فرار فكان أبي يقول صدقت والله ؟ ولكنه فرار من باطل الى حق . .

فقد نلاحظ ان حالة الفرار هي من الحالات التي يشعر فيها الانسان بالحاجة إلى ممارسة ذلك لا على أساس طبيعي عادي . ومهما كان الأمر ، فإن اتجاه الفقهاء إلى الفتوى بجواز الحيل الشرعية كمبدأ ، مهما اختلفوا في مواردها وطبيعتها ، يدل دلالة واضحة على مدى المرونة الواقعية التي يتصف بها التشريع الإسلامي في نطاق الخطوط العامة التي رسمت له من قبل صاحب الشريعة ، لأن الفقهاء

فيما يفتون به أو يرتأونه ، لا يخضعون لتأثيرات ذاتية أو استحسانية ، بل يخضعون لما يجدونه أمامهم من الأدلة الصحيحة ، للأحكام الشرعية ، بالشكل الذي يجدون فيه العذر في فتاواهم أمام الله سبحانه وتعالى .

ونحن نعرض مثل هذه الآراء مع تحفظنا في بعض التفاصيل المتعلقة بالموضوع ، للتدليل على الشواهد الحية للنزعة الواقعية للتشريع في آراء الفقه الإسلامي من دون أن نلزم أنفسنا به بشكل حاسم .

الزواج المؤقت أو « زواج المتعة » :

وقد نجد في تشريع الزواج المؤقت الذي يجمع المسلمون على أصل تشريعه وإباحته في الإسلام من قِبَل النبي محمد (ص) في صدر الشريعة ، وإن اختلفوا بين من يذهب إلى نسخه وتحريمه بعد ذلك من قبل النبي (ص) ، وهم جمهور المسلمين ، غير الشيعة الإمامية ، وبين من يذهب إلى بقاء إباحته ومشروعيته ، لأنه لم يثبت لديهم نسخه ، من صاحب الشريعة ، بل يروون أن النسخ والتحريم كان متأخراً عن وفاة النبي محمد (ص) وذلك بأمرٍ من عمر بن الخطاب الذي خطب المسلمين وقال - فيما يروونه من كلامه - متعتان كانتا على عهد رسول الله (ص) حللتهما وأنا أحرمهما واعاقب عليهما ويعقبون على ذلك : أن هذا التحريم ربما كان اجتهاداً شخصياً ، يخضع لظروف معينة ، تضع القضية في حدود الزمان والمكان ، تماماً ، ككثير من القضايا الادارية ، التي تعيش في ظرف معين لضرورة معينة كما ينقلونه عنه في إلغاء سهم المؤلفلة قلوبهم من الزكاة ، لا على أساس إلغاء التشريع ، بل على أساس تجميد

المصرف لعدم الحاجة إليه في ذلك الوقت نظراً لقوة الإسلام وانتشار سطوته في العالم . . . وربما يكون لأشياء أخرى ، أو قناعات خاصة تجعله يعتقد أن التحريم والتحليل ، في بعض الموارد ، يمكن أن يمتد بعد النبي (ص) ليكون إحدى صلاحيات من يرى نفسه أو يراه الناس ولي أمر الأمة .

وأياً كان الأمر ، فإذا ثبت لدينا الأساس الاجتهادي لشرعية هذا الزواج من ناحية النصوص الشرعية الواردة في هذا المجال ، فقد نجد أن هذا الحكم يخضع للنزعة الواقعية التي يتصف بها التشريع الإسلامي ليخلص الناس من حالات الحرج والضيق الذي يفرضه عليهم الالتزام بالزواج الدائم ، كطريقة وحيدة لممارسة الغريزة الجنسية لدى الإنسان .

فقد عرفنا من خلال الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الشريفة أن الإسلام قد اعتبر الغريزة الجنسية حاجة طبيعية ملحة في حياة الإنسان بالمستوى الذي يرى فيه الإنسان ، الذي لا يستجيب لها ، ناقص الدين بمستوى النصف أو الثلثين نظراً لتأثيرها الكبير على السلوك العملي للإنسان الأمر الذي يهيء لأجواء الانحراف أن تنمو وتتعاظم وتتسع في حياته في خلال الكبت والحرمان .

وعلى هدى ذلك ، فإنه لا يعتبر ممارستها وتلبية نداءها لدى الرجل والمرأة ، بالطرق المشروعة ، امتهاناً لكرامة المرأة أو الرجل . . ما دامت السنة الطبيعية التي اودعها الله في الإنسان اقتضت أن لا يحصل هذا الاكتفاء لأي منهما إلا بالعلاقة المشتركة .

ولذا فإن المفروض في التشريع الواقعي ، ان لا يترك اي فراغ تشريعي في واقع الحياة ، أمام المشكلة التي تبحث عن حل .

وفي هذا الاطار ، يرى الباحثون الاجتماعيون ، ان الزواج الدائم لا يحل المشكلة وحده ، بالنظر لخضوعه لأحكام والتزامات لا يستطيعها الإنسان في بعض مراحل حياته لأن للضغوط المادية او الأجماعية او الثقافية التي تحيط به فمماذا يفعل .

هل يطلب منه العفة الدائمة ، والصبر الطويل على الحرمان ، وهذا يخالف طبيعة الواقع ، او يسمح له بالإنحراف ، وهذا يخالف طبيعة التشريع ، أو يؤمر بالزواج الدائم وهذا يخالف طبيعة القدرة العملية .

فلم يبق إلا أن نتجه إلى تشريع عملي ، يضع المشكلة في إطار الحل الذي ينظر إلى الواقع ، ليسمح للإنسان بالاستجابة إلى نداء الغريزة ، من دون فرق بين حاجة المرأة إلى ذلك ، أو حاجة الرجل - في الاطار النظيف للعلاقة ، على أساس الزوجية التي يتفقان على بدايتها ونهايتها ، بدلاً من الزوجية التي يملك الرجل وحده امر نهايتها بعيداً عن ارادة الزوجة واختيارها إلا في بعض الحالات الطارئة . . ثم يسير التشريع في تحديد مسؤولية هذه العلاقات لدى الطرفين وتحديد العدة ، واعطاء الولد - الذي يكون نتيجة لهذا الزواج - كل صفات الشرعية وكل حقوق الولد الشرعي الذي يكون نتيجة الزواج الدائم . .

ولعل ما يؤكد لنا واقعية هذا الحل هو في حاجة البشرية في ظل الزواج الدائم إلى الإنحراف عنه بممارسة الزنا في الحالات غير الطبيعية للإنسان . . وإلا . . فأى حاجة إليه إذا كان الزواج الدائم يستطيع حل المشكلة التي تعتبر حالة مَرَضِيَّة للإنسان على كل حال ، ليقال إن الإنسان ليس ملزماً بالاستجابة لواقع الحالات المرضية التي تعيش في نطاق الأفراد بعيداً عن الوضع الانساني العام .

وربما كان الحديث الشريف الوارد عن الإمام علي (ع) يشير إلى هذه الحقيقة الواقعية في حياة الناس ، فقد روي عنه أنه قال : « لولا ما نهى عنه عمر من أمر المتعة ما زنا إلا شفا (أي قليل من الناس) » وفي رواية أخرى . . ما زنا إلا شقي ، أي انسان مريض معقد لا ينطلق زناه من حاجته إلى ذلك ، بل من تمرده على الله ، وانحرافه عن الخط .

وعلى أي حال ، فإننا نعود لنؤكد حقيقتين المحنا إليهما في بداية هذا الحديث عن زواج المتعة .

الأولى : ان هذا التحليل الذي حاولنا أن نضع التشريع في إطاره ، لا يعتبر اساساً تشريعياً للحكم بل يعتبر موضحاً لطبيعته الواقعية ، بعد ثبوت تشريعه بالوسائل الاجتهادية المعروفة .

الثانية : ان تشريع زواج المتعة ، لا يعتبر امتهاناً لكرامة المرأة باعتبارها وسيلة لمتعة الرجل ، كما حاول أحد الكتاب أن يشير إليه ، لأن هذا الزواج ليس في مصلحة الرجل فحسب ، بل هو في مصلحة المرأة أيضاً ، وإن اكدت الاحاديث على الدور الكبير للرجل في هذا الزواج ، كما اكدت على ذلك في الزواج الدائم ، باعتبار أن الرجل يمثل ، في حركة الاوضاع الاجتماعية التاريخية ، العنصر الإيجابي الذي يتسلم زمام المبادرة في عرض الزواج والمطالبة به ، لأن حياة المرأة الذاتي والتقليدي والاجتماعي يمنعها من التصريح بالحاجة إلى ذلك .

ولو اردنا ان نسير في اتجاه اعتبار حصول المتعة للرجل ، عن طريق علاقته بالمرأة شيئاً سيئاً إلى كرامة المرأة ، لوجب ان نلغي أصل العلاقة . . ولكن القضية لا تسير في هذا الاتجاه لخضوع القضية

للسنة الطبيعية التي اودعها الله في الحياة .

يبقى هناك شيء واحد لا بد لنا من التركيز عليه في هذا الجانب ، وهو أننا لا نرى ، من وجهة نظر إسلامية ، أن دور المرأة ، الزوجة في الحياة يقتصر على أن تكون اداة لتلبية رغبات الرجل . . بل ان لها مسؤوليات والتزامات في الحياة العملية للأسرة وللأمة بشكل عام ، تماماً كالرجل ، مع التحفظ في بعض ذلك مما تقتضيه طبيعة الاختلاف النوعي البيولوجي ، بين الجنسين وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة . . . ﴾ .

ان الاستمتاع بتلبية نداء الغريزة الجنسية ، هو بعض مظاهر العلاقة الزوجية التي تستفيد منها المرأة ، كما يستفيد منها الرجل ، وليست كل هذه الحياة واقعاً وشريعة وغاية .

في نهاية المطاف :

وفي ختام هذا الفصل من الفكرة العامة للحديث ، نجد أن النماذج العامة والخاصة التي عرضناها تستطيع أن تقف بنا على الأساس الواقعي للتشريع الإسلامي بشكل عام . . ولعل في هذا الذي عرضناها كفاية لمن أراد أن يعرف الفكرة بشكل واضح .

ومن خلال ذلك كله نعرف أن الشريعة وجدت لخدمة الإنسان ، ولذا تقف حيث يقع الإنسان في الضرر من خلال التشريع ، لتعطيه الرخصة ، وتنطلق حيث تكون الرخصة ضرراً لحياته وواقعه .

الفصل الثالث

هل الغاية تبرر الوسيلة؟

- أولاً؟ ...
- موقع الوسيلة من الغاية :
- قاعدة التزامح .
- التزامح في مقام التشريع .
- الكذب من أجل الاصلاح .
- الكذب في حالات الخوف .
- حكمتان للامام علي (ع) .
- الكذب على أهل البدع .
- الغيبة ومسوغاتها .
- الوفاء لأهل الغدر والغدر لأهل الوفاء .

موقع الوسيلة من الغاية

كنا طرحنا في بداية الحديث ، فكرة علاقة الوسيلة بالغاية ، من حيث تجسيدها للمظهر الحي ، للنزعة الواقعية او غير الواقعية ، في الاسلام ، حسب اختلاف النتيجة النهائية للفكرة سلبا او ايجابا .

فربما يلتقي العاملون ، في طريق العمل ، ببعض الحالات التي لا يملك الانسان فيها سبيلا الى ممارسة واجبه ، والوصول الى غايته ، الا بتجاوز المحرمات الشرعية والتمرد عليها .

ويمثل له علماء الاصول . في النطاق الفردي ، بانقاذ الغريق ، اذا كان الطريق لانقاذه يمر في ارض مغصوبة لا يرضى صاحبها بالمرور فيها ، وذلك في الحالات التي ينحصر فيها المرور الى النهر ، أو البحر باملاك الآخرين الذين يرفضون السماح للناس بالمرور عليها فماذا نفعل ؟

هل نقف عند حدود الحرام ونتجمد فيه ، فنترك الغريق يواجه المصير المحتوم ، لان الحكم الشرعي لا يسمح لنا بالتصرف باملاك الناس من دون إذن او رضا منهم ؟

او أننا نتجاوز الحرام وتنخطاه ، تقديماً للواجب الأهم وهو انقاذ حياة الانسان المحترمة .

ويمثل له الفقهاء ، في النطاق الجماعي ، بالاسرى المسلمين الذين وقعوا في قبضة العدو الكافر ، اذا وضعهم العدو في خط النار ، من أجل تعطيل حركة المسلمين الذين يقاتلون في الهجوم والدفاع ، حفظاً لارواح هؤلاء .

فماذا يفعل الجيش المسلم ؟

هل يجوز له ان يقتل هؤلاء الاسرى في معركته مع العدو ، اذا دعت مصلحة المعركة الى ذلك ، كما اذا توقفت ممارستنا لحرية الحركة في القتال ، على اتباع هذه الوسيلة .

او لا يجوز له ذلك ، بل يترك الجيش نفسه تحت رحمة واقع الهزيمة لمجرد الالتزام بحرمة قتل الاسرى المسلمين .

ولا تقتصر القضية على هذين المثالين . بل تتجاوزهما الى كل حالة من الحالات التي يقف فيها الانسان في نطاق الواقع الفردي او الاجتماعي ، ليجد نفسه بين اختيارين لا ثالث لهما ، فاما ان يحقق واجبه ، واما ان يرتكب ما حرمه الله عليه . وفي نطاق الدولة عندما تقتضي المصلحة الاسلامية العليا القطعية ، تصرفاً لا نملك معه إلا تجاوز حدود الحرام في الاموال وفي الاوضاع العامة والخاصة . سواء في ذلك حالات السلم او حالات الحرب ، في واقع السياسة او في واقع الحياة الاجتماعية ، لا سيما في الحالات التي يحاول فيها العدو أن يلجأ إلى اساليب اللف والدوران ، وكان العمل الواقعي لقضيتنا ان نحاربه بأساليبه ، لانه لا يفهم الا بتلك الاساليب ، او لان الانتصار

عليه يفرض اللجوء الى ذلك في واقع الحياة السياسية والاجتماعية .

فما الذي يريده الاسلام من المسلم في هذه الحالات .

هل يتركه تحت رحمة الواقع السيء ، حيث يبقى متجمدا امام حالات التحريم التي تمنعه من الحركة ، حتى لو كان العدو يحاول ان يقضي عليه وعلى الاسلام ، او كانت المصالح الكبيرة تتعرض للخطر . او يترك له الحرية ولكن بحذر ومراقبة دقيقة لله ولحدوده فيما يتجاوزه ، وفيما يقف عنه .

ان الجواب على هذه التساؤلات هو الذي يحدد لنا واقعية الشريعة العملية ، او بعدها عن الواقع العملي للاشياء . ونعتقد ان الاسلام لا يجمد اتباعه في حدود التحريم ، الا بحساب ، ولذلك فهو يترك لهم حرية الحركة في إطار القيم الكبيرة للدين الاسلامي . . . ثم ممارسة الحرية في الوقوف عند الحكم او تجاوزه في ضمن هذه الحدود ، لثلا تتحول الرخص الى انفلات غير مسئول ، يسيء الى القضية بنفس القوة التي يسيء بها التجميد غير المسئول .

وعلى ضوء ذلك ، يرى العلماء في مثال انقاذ الغريق ، والاسرى المسلمين ، ان على الانسان ان ينقذ الغريق ويتجاوز حرمة التصرف في الارض المغصوبة ، وان على الجيش المسلم أن يهاجم العدو ليحقق النصر للاسلام ، ولو كان ذلك على حساب حياة الاسرى المسلمين ، على ان تدفع ديتهم من بيت المال .

قاعدة التزاحم في الامتثال هي الاساس الاجتهادي للمسألة :

اما الاساس الاجتهادي الذي يركزون عليه الفكرة ، فهو ما يسمى بقاعدة التزاحم ، بين الاحكام ، في مقام العمل ، وذلك « بان

يكون امام المكلف تكليفان يكون امتثال احدهما متوقفا على مخالفة الآخر لعجزه عن امتثال كليهما ، كما اذا توقف انقاذ الغريق على التصرف في الارض المغصوبة ، او كان هناك غريقان لا يقدر المكلف إلا على انقاذ احدهما . ولما كانت القدرة على امتثال الحكم شرطا عقليا في موضوع الحكم ، إما من جهة حكم العقل بقبح تكليف العاجز وإما من جهة اقتضاء طبيعة التكليف ذلك ، وكان المكلف غير قادر على امتثال التكليفين معا ، كان من الطبيعي ، في هذه الحال ، ان يكون اختياره لاحدهما مقتضيا لعجزه عن امتثال الآخر . .

والقضية المطروحة هنا ، هي الاساس الذي يختار المكلف فيه احد الامرين ، ويتمثل معه أحد التكليفين .

وقد ذكر الاصوليون عدة مرجحات للاختيار ، وقالوا ، ان انتفاء المرجحات يجعل القضية خاضعة لاختيار المكلف ، وذكروا من بين هذه المرجحات ان يكون احد المتزاحمين اهم من الآخر فيجب تقديم الهم على المهم بحكم العقل ، وقالوا ، ان هذا المرجح من القضايا التي قياساتها معها ، فان تقديم الاقل اهمية يوجب تفويت المقدار الزائد من المصلحة بخلاف تقديم الهم (١) .

... وخلاصة هذه القاعدة في اطار الترجيح بالاهمية ، ان المصالح والمفاسد الثابتة في الاشياء لما كانت اساسا للحكم ، كان الحكم تابعا لها وجودا وعدما ، سعة وضيقا ، فاذا التقينا بحالة كانت مشتملة على مفسدة في عمل ، تقتضي حرمة ، وكانت لدينا مصلحة اخرى في عمل آخر ، تقتضي وجوبه ، وكانت الصدفة ، اننا لم

(١) مصباح الاصول ٣٥٨ - ٣٦٠ .

نستطع امثال كلا الحكمين ، لان القدرة لا تتوفر الا لاحدهما ، فاذا اردنا امثال احدهما فلا بد من عصيان الحكم الآخر ، فماذا نفعل ؟

ان العقل يحكم ، في هذه الحال ، بتغليب الملاك الاكثر اهمية على الذي هو دونه في حساب الاهمية لان ذلك يوجب استيفاء المصلحة الكاملة ، الامر الذي يجعلنا نجمد الحكم في احدهما ، لمصلحة الحكم الذي هو في مركز الاهمية تبعا لاهمية ملاكه .

ولتطبيق هذه القاعدة على الواقع . . نطرح المثالين المتقدمين امامنا . . فنحن نعرف ان التصرف في مال الانسان الذي لا يرضى بتصرف الآخرين في ماله ، محرم شرعا ، لوجود مفسدة الغصب ، ولكننا لا بد لنا من تجميد هذا التحريم اذا توقف انقاذ المؤمن من الموت على هذا التصرف ، لان مصلحة حفظ نفس المؤمن اكثر اهمية لدى الشارع من اي شيء آخر ، كما نعرفه في اكثر من مجال .

ونحن نعرف ان قتل المؤمن غير جائز ، فانه من اعظم المحرمات ، ولكنه اذا اصطدم بتعطيل النصر في المعركة الدائرة بين الاسلام والكفر ، او بانهزام المسلمين في المعركة كنتيجة للالتزام بالتحريم ، اصبح تجاوزه لازما او جائزا حسب طبيعة الاحوال .

وفي ضوء ذلك نقرر ، ان علاقة الوسيلة بالغاية ، ذات بُعد واقعي ينطلق من طبيعة الوسيلة والغاية ، وربما تكون الحالة تجميد الحكم في الوسيلة ، لمصلحة الغاية ، وربما يكون الامر على العكس من ذلك ، اذا كانت المصلحة في الوسيلة اكثر اهمية من المصلحة في الغاية ، كما اذا توقف انقاذ شخص عادي من الموت على قتل عدة اشخاص مثلا ، فاننا في هذه الحال ، نترك عملية الانقاذ ، لمصلحة حفظ نفوس الآخرين .

قال استاذنا المحقق السيد الخوئي : في حديثه عن وجوب قبول الولاية من الحاكم الجائر - التي ورد الحكم بحرمتها - اذا توقف الامر بالمعروف والنهي عن المنكر عليها - فيما نقله عنه صاحب مصباح الفقه - في تقرير درسه .

ان المقام من قبيل توقف الواجب على مقدمة محرمة ، وعليه فيقع التزاحم بين الحرمة المتعلقة بالمقدمة ، وبين الوجوب المتعلق بذوي المقدمة ، نظير الدخول الى الارض المغصوبة لانقاذ الغريق ، او اطفاء الحريق ، ويرجع الى قواعد باب التزاحم المقررة في محله . وعلى هذا فقد تكون ناحية الوجوب أهم فيؤخذ بها ، وقد تكون ناحية الحرمة أهم فيؤخذ بها ، وقد تكون احدى الناحيتين بخصوصها محتمل الأهمية فيتعين الأخذ بها كذلك ، وقد يتساويان في الملاك ، فيتخير المكلف في اختيار اي شيء منها ، هذا ما تقتضيه القاعدة ، إلا ان كشف أهمية الملاك والعلم بوصوله الى حد الالزام في غاية الصعوبة

التزاحم في مقام التشريع :

وربما تتجسد قاعدة التزاحم . في اطار التنازع بين المصالح المتعددة ، او المصلحة والمفسدة في الشيء الواحد ، فتكون الغلبة للمصلحة الاقوى ، او المفسدة الاقوى ، حسب اختلاف طبيعة الاشياء ، وهذا ما يسمى التزاحم بين الملاكات (٢) .

(١) مصباح الفقه ج ١ ص ٤٤٢ .

(٢) وهذه القاعدة تلقي بالتزاحم في مقام الامتثال بالنتيجة ، الا ان الفرق بينهما هو ان الاولى تجري في نطاق حالة المكلف واختياره وتقديره للاشياء في مقام الامتثال ، بينما تخضع الثانية لتقدير الشارع ، واختياره في مقام التشريع . ولذلك فربما يجد المكلف بعض الصعوبة في التقدير السليم لأهمية مناطات الاحكام ، لأن ادراكها ليس بهذه البساطة والسهولة .

وقد نجد في الفقه الاسلامي ، الكثير من الشواهد على هذه الفكرة . . فنلتقي بالكذب الذي هو من المحرمات الشرعية العظيمة فقد ورد التأكيد على حرمة ، بشكل حاسم ، في اكثر من حديث . . ففي الحديث عن الامام ابي جعفر محمد بن علي الباقر (ع) « ان الله جعل للشرا اقلالا ، وجعل مفاتيح تلك الاقفال الشراب ، والكذب شر من الشراب » .

ولكن المصالح الكثيرة التي قد يحتاجها المجتمع في الحالات الضرورية ، والاضاع الصعبة ، تفرض حلية الكذب او وجوبه في بعض الاحوال ، وذلك في حالة انحصار المصالح العامة في سلوك هذا السبيل ، فان جانب الاهمية في نطاق المصلحة ، يغلب على الجانب الاقل اهمية ، وفي نطاق مفسدة الكذب ، مما يفقد المفسدة قدرتها على التأثير في التشريع للحكم بالحرمة . لترك المجال للمصلحة الراجحة ، للتشريع على مقتضاها من الحلية او الوجوب ، ويذكرون لذلك عدة موارد .

الكذب من اجل الاصلاح :

منها ، الكذب من اجل الاصلاح ، وذلك في حالة وقوع خلاف بين اثنين من المؤمنين ، او جماعتين منهم وأمكن إصلاحهما ، لكن توقف ذلك على ان تنقل لاحدهما حديثا لم يقله الآخر عنه ، بقصد تقريب وجهات النظر او تليين القلوب ، فان ذلك جائز ومستحب ، وربما يصل الامر الى مستوى الوجوب فيما اذا كان الخلاف ينتهي بالنتيجة الى قتل النفوس واختلال النظام ، وقد تواترت الاحاديث الشريفة المصراحة بان المصلح ليس بكذاب ، كما في حديث الامام جعفر الصادق (ع) .

وفي حديث آخر عنه : قال : الكلام ثلاثة : صدق وكذب واصلاح بين الناس ، قيل له : جعلت فداك ما الاصلاح بين الناس قال : تسمع من الرجل كلاما يبلغه فتخبث نفسه ، فتلقاه فتقول : سمعت من فلان قال فيك من الخير كذا وكذا خلاف ما سمعته منه .

وقد نجد ، في بعض النصوص الدينية ، اعتبار الكاذب في مثل هذه الحالة او في غيرها مما يشابهها صادقا ، واعتبار الصادق في حالات العكس كاذبا فقد روى الشيخ الصدوق في كتاب الاخوان بسنده عن الامام علي بن موسى الرضا (ع) انه قال - ان الرجل ليصدق على اخيه فيصيبه عنت من صدقه فيكون كذابا عند الله وان الرجل ليكذب على اخيه يريد به نفعه فيكون عند الله صادقا .

الكذب في حالات الخوف - التقية :

ومنها - الكذب في حالات الخوف على النفس او المال او العرض « مع التحفظ في بعضها وهو المال اليسير فان الكثيرين من العلماء لا يحيزون الكذب لدفع ضرره » ويدل عليه كل ما دل على ارتفاع الحرمة بالاضطرار والاكره ونحوهما كما في الآية الكريمة الدالة على الترخيص للمؤمن في ان ينطلق بكلمة الكفر في حالة دفع الضرر عن النفس وهي قوله تعالى . « الا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » والآية الكريمة الدالة على جواز مداراة المؤمنين للكافرين في مثل هذه الحالات وهي قوله تعالى « لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا ان تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه . . » فقد دلت هذه الآية على الترخيص بمداراة الكافرين ، بغير ما يعتقد ، اذا كان ذلك في مقام التقية . ويرى الفقهاء الذين استدلوا بهاتين الايتين على جواز الكذب بانه اذا جاز النطق

بكلمة الكفر في حالات الخوف على النفس ، فينبغي ان يجوز الكذب ، بطريق اولي ، لأنه اخف من الكفر ، بطبيعة الحال ، وبذلك احتج الشيعة الامامية على مشروعية التقية باعتبارها اسلوبا من الاساليب التي قررها الاسلام في القرآن الكريم في تعامل المسلمين مع الكافرين لحفظ النفس ، ولمواجهة الحالات الصعبة التي يمر بها الكيان في مرحلة الخطر امام قوة الكفر مما يجعل من عملية الافصاح عن هوية العمل ، او العاملين ، عملية انتحارية للفكرة ولأصحابها .

ففي هذه الحال لا بد من الترخيص بمدارة الواقع الى حد ما ليستطيع العاملون حرية الحركة من اجل تجميع القوة ومواجهة الواقع بظروف جديدة واوضاع جديدة تعتمد على التخطيط الدقيق الواعي .

ولعل هذا الاسلوب العملي في حماية المبادئ والحركات من بين الاساليب المتبعة لدى كل الحركات والتيارات في العالم . من اجل أن تمنح نفسها حرية الحركة من اجل بلوغها الاهداف التي تخطط لها . وتعمل من اجل تحقيقها ، لأنها بدون ذلك تفقد واقعية العمل ومرونته مما يجعله فريسة سهلة للاعداء حيث يمكنهم من خلال فقدان مرونة العاملين ، الاطلاع على كل أسرار العمل وكل نقاط ضعفه . واذا كانت الشيعة الامامية قد اتخذت التقية شعارا لها في تاريخها الطويل ، انطلاقا من تعاليم اهل البيت المستمدة من تعاليم القرآن فلان الواقع الذي عاشوه ، كان من الشدة والخطورة ، بالمستوى الذي كانوا يشعرون معه بان وجودهم معرض للخطر من قبل أعدائهم وبذلك استطاعوا البقاء والامتداد في مدى الزمن .

ولسنا هنا في معرض الحديث عن التقية تفصيلا ، من خلال ما قيل فيها أو أشيع حولها من افتراءات وما دار حولها من مناقشات من

حيث دلالتها الشرعية والاجتماعية والسياسية ، وحدودها العامة والخاصة التي وضعت لها . . . فذلك حديث آخر - قد نوقف له في مستقبل الايام . . . ولكننا هنا من اجل الحديث عنها باعتبارها مظهرا من مظاهر الاسلوب الواقعي في العمل من حيث المبدأ ، ولهذا فهي تخضع لما يخضع له هذا الاسلوب من حدود التحريم والتحليل لئلا يتحول الى عمل يبدأ في اطار حماية الفكرة ليتهاي بعد ذلك ، من خلال الممارسات المتنوعة ، بعيدا كل البعد عن الفكرة من حيث الاساس .

ولا يختص جواز الكذب بهذين الموردين ، بل يشمل حالة توقف انقاذ نفس آخر او عرضه او ماله على الكذب فقد ورد في الحديث الشريف « احلف بالله كاذبا ونج احاك من القتل » كما وردت هناك احاديث في جواز الكذب حتى بطريقة الحلف. اذا توقف حفظ الوديعة التي اودعها الانسان المؤمن لديه واراد بعض الظلمة غضبها والاستيلاء عليها دون حق .

وهكذا نجد في هذه الموارد الكثيرة الدليل على ان الشارع قد راعى جانب الاهمية في حالة تزامن المصالح والمفاسد عندما شرع الحكم بالحرمة او بالحلية ، ولم يجعل التشريع جامدا في مكانه ، ليجعل الانسان تحت رحمة الاجواء القلقة التي يفرضها التحريم الوارد في غير موضعه .

كلمتان للامام علي (ع) :

١ - علامة الايمان . . .

وربما تواجهنا أمام هذه القضية كلمتان للامام علي (ع) في نهج

البلاغة .

الأولى - قوله في تعريف الايمان - علامة الايمان ان تؤثر الصدق حيث يضررك على الكذب حيث ينفعك . فقد نفهم من هذه الكلمة ان الانسان الذي يكذب لدفع الضرر عن نفسه ليس بمؤمن من دون فرق بين ما اذا كان الضرر على النفس او على المال او على العرض .

ولكن القضية ليست كذلك كما اوضحه بعض اساتذتنا المحققين فان المراد من الضرر بمقتضى مقابلته بالنفع هو عدم النفع وقد يطلق الضرر عرفا على عدم النفع ومورده فلا ينتفع فمن علائم الايمان ان يختار الصدق ولو مع فوات النفع على الكذب النافع ومن الواضح حرمة الكذب الجالب ما اذا دار الامر بين ان يكذب الانسان فينتفع او يصدق للنفع فيكون تركه من علائم الايمان وفعله موجبا للفسق (١) .

وعلى ضوء ذلك يكون الحديث منسجما مع الخط العام للقضية فان الحديث لا يكون منطلقا من حرمة الكذب في حالة الضرر بل في حالة جلب النفع .

ولعل للحديث وجها آخر يضعه في عداد الاحاديث ، التي تريد اكتشاف الايمان من خلال اسمى مظاهره التي ترتفع عن المستوى العادي مما يمارسه المؤمنون العاديون ، وبهذا تعتبر ميزة واضحة للمؤمن ، تدلل على ما يحمله من قوة الايمان واستقامته ، كما في الحالة التي يصورها هذا الحديث ، وهي الحالة التي تتوفر فيها لانسان ظروف الرخص ، في ممارسة الكذب بحيث لا يخاف معها من عقاب الله ، ولكنه في الوقت نفسه ، يؤثر تحمل الضرر والوقوع في الحرمان ، حفاظا على الصدق ، الذي يجسد حالة الاخلاص

(١) محاضرات في الفقه الجعفري ج ١ ص ٢٤١ .

للحقيقة على النفع الكبير في حالة الكذب ولا شك أن ذلك يصلح ان يكون علامة فارقة على الايمان الثابت في اعماق الانسان . ولعل هذا المعنى في فهم الحديث - اولى من المعنى الاول ، لان ذلك لا يجعل لهذه الحالة ميزة عن بقية الاحكام الشرعية التي يكون السير عليها من طبيعة السلوك الايماني بينما يكفل هذا المعنى التركيز على الطبيعة المميزة لهذا السلوك بحيث يصح اعتباره علامة على الايمان دون غيره .

٢ - لا تبرؤا مني :

الكلمة الثانية - قول الامام علي (ع) في نهج البلاغة « اما انه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب مالاً فاقتلوه ولن تقتلوه ألا انه سيأمركم بسبي والبراءة مني فأما السب فسبوني فانه لي زكاة ولكم نجاة ، واما البراءة فلا تبرؤا مني ، فاني ولدت على الفطرة ، وسبقت الى الايمان والهجرة » .

فقد نجد في هذا الحديث ما يتنافى مع الفكرة التي تقول : ان للانسان أن يقول كلمة الكفر تحت ضغط الاكراه والاضطرار ، مع ان هذا الحديث ينهى عن البراءة من الامام ، مهما كانت التوضيحات ، ومن المعلوم أن البراءة من الامام علي (ع) لا تصل الى مستوى البراءة من الايمان بالله ، او قول كلمة الكفر .

ولكن القضية فيما يظهر - ليست ما يلوح لنا - في هذا الحديث - فقد ورد في حديث مسعدة بن صدقة عن الامام جعفر الصادق قال - قلت لابي عبد الله (جعفر الصادق) : إن الناس يروون أن علياً قال على منبر الكوفة - ايها الناس إنكم تدعون الى سبي فسبوني وتدعون

إلى البراءة مني فلا تبرؤا مني . فقال : ما أكثر ما يكذب الناس على علي ، ثم قال - انكم ستدعون الى سبي فسبوني ثم تدعون الى البراءة مني واني لعلي دين محمد ولم يقل ، ولا تبرؤا مني ، فقال له السائل : أرأيت ان اختار القتل دون البراءة ، فقال والله ما ذلك عليه ، وما له إلا ما مضى عليه عمار بن ياسر ، حيث أكرهه اهل مكة ، وقلبه مطمئن بالايمان . فانزل الله عز وجل فيه الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان فقال النبي عندها يا عمار ان عادوا فعُد فقد انزل الله عذرك وأمرك ان تعود إن عادوا . فان هذا الحديث يدل على ان القضية لم تكن نهيا من علي (ع) لهم عن البراءة ، وانما كانت نهيا عن الانسجام الداخلي ، او الاقتناع الذاتي بذلك لان ذلك يخالف واقع الاشياء ويشرف بالانسان على البراءة من دينه في نهاية الامر لأن البراءة ممن كان على دين محمد - في داخل النفس - ينتهي الى البراءة من الدين بشكل مباشر .

وبهذا تقف القضية في اطارها الصحيح الذي يجعل التضحية في مقام الدفاع عن الفكرة أمرا غير واجب ، فلا يكون منحرفا عن خط الايمان ، لو اخذ بالرخصة ، وقال كلمة البراءة وأحب العانية . أما اذا اختار خط التضحية وفضل الموت على الحياة في سبيل الصبر على كلمة الايمان وكلمة الولاء فانه يكون في أعلى درجات الايمان ، كما كان شهيدا الاسلام ياسر وسمية - أبوا عمار - في تضحيتهما من اجل الايمان ، فماتا تحت سياط العذاب لانهما لم يقولوا كلمة الكفر للكافرين ، وكما كانت القصة في موقف الشهيد العظيم حجر بن عدي واصحابه البررة الذين اختاروا الموت على ان يقولوا كلمة البراءة من الامام علي (ع) . . .

الكذب على اهل البدع :

وقد يظهر من بعض الاحاديث جواز الكذب على اصحاب البدع الباطلة ممن يخوض الاسلام معهم صراعا عنيفا من اجل العقيدة والجاه - وذلك في الحالات التي يتوقف فيها إبعاد الناس عنهم على ذلك ، كاسلوب من اساليب الصراع العملي ، الذي يواجهون به دعاة الحق بالاكاذيب الباطلة ، فقد تمس الحاجة الى مواجهتهم بمثله ، فقد ورد في الحديث عن الرسول الأعظم (ص) « إذا رأيتم أهل البدع من بعدي فاطهروا البراءة منهم واكثروا من سبهم والوقية فيهم وباهتوهم كيلا يطمعوا في الدين .

فان كلمة (باهتوهم) قد يفهم منها البهتان وهو ان تقول في الشخص ما ليس فيه . وقد افتى بعض العلماء بذلك ، وناقش فيه بعض آخر وانا قد نجد بعض التحفظ في هذه الفتوى او تلك وربما نفهم من هذا الحديث معنى آخر ، ولكننا ننقل ذلك للتدليل على سعة هذا الاتجاه فيما لدينا من الاجتهادات الفقهية التي تجعل الوسيلة تتجمد عند حدود التحريم اذا كانت الغاية الكبيرة تتوقف على تجاوز هذه الحدود . قال المحقق الشيخ مرتضى الانصاري في كتاب المكاسب المحرمة في موضوع « الهجاء » :

«وكذا يجوز هجاء الفاسق المبدع لثلا يؤخذ ببدعه ، لكن بشرط الاقتصار على المعائب الموجودة فيه ، فلا يجوز بهته بما ليس فيه ، لعموم حرمة الكذب . وما تقدم من الخبر في الغيبة من قوله (ص) في حق المبتدعة (وباهتوهم لكيلا يطمعوا في إضلالكم) محمول على اتهامهم وسوء الظن بهم بما يحرم اتهام المؤمن به ، بأن يقال : لعله زان أو سارق وكذا إذا زاد ما ليس فيه من باب المبالغة .

ويحتمل إبقاؤه على ظاهره . بتجويز الكذب عليهم لاجل المصلحة ، فان مصلحة تنفّر الخلق عنهم أقوى من مفسدة الكذب ويتبنى استاذنا المحقق الخوئي هذا الرأي ، ويعلق عليه :

« . . . وكل ذلك فيما اذا لم تترتب على هجومهم مفسدة وفتنة ، وإلا فيحرم هجومهم حتى بالمعائب الموجودة فيهم . . » ومن هنا نعرف ان على الانسان المسلم ان يراعي في صراعه مع اهل البدع طبيعة المصلحة الاسلامية العليا ، فيما يأخذ او يدع من كلام .

ان الموضوع هنا هو انه هل يجوز للانسان اتباع سبيل التقية في حفظ نفسه أو لا يجوز - الامر الذي يضع القضية في خط اعتبار التقية انحرافا عن خط الايمان او انسجاما معه ، وليس الموضوع هو انه هل يجوز ان يضحي الانسان بنفسه في سبيل عقيدته مع قدرته على النجاة وتجاوز حالة التضحية بطريقة مشروعة .

الغيبة ومسوغاتها :

وقد نجد - في هذا الاتجاه - من بين الامور التي يرخص فيها الاسلام من ممارسة الوسيلة المحرمة لحماية الغاية الكبيرة المهمة - الموارد الشرعية التي وردت فيها الاحاديث والفتاوى بحلية الغيبة من اجل النصح للمؤمنين والانتصار للمظلوم ولغير ذلك من الموارد التي عرفنا وصولها الى مستوى كبير من الاهمية في الدين بحيث لا تمثل الغيبة معها اية مفسدة (وقد تحدثنا عن ذلك في الحلقة الخامسة من هذه المفاهيم) .

الوفاء لاهل الغدر غدر عند الله . . .

والغدر لاهل الغدر وفاء عند الله . . .

ولعل من بين النصوص الدينية التي ركزت على اعتبار الوسيلة اذا كانت اهم ، كلمة الامام علي (ع) المروية في « نهج البلاغة » .
« الوفاء لاهل الغدر غدر عند الله والغدر لاهل الغدر وفاء عند الله » . . .

فهي تركز على ان الانسان لا يستطيع ان يتجمد أمام القيم التي يؤمن بها ، ويعيش من اجلها ، فيما إذا واجه المجتمع الذي يتنكر للقيم في جميع مجالات الحياة ، فلا مانع - من ان يمارس حرية الحركة في حياته معهم بشكل مشروع فيما اذا استخدم أساليبهم للرد عليهم ، من اجل تخفيف ضررهم على المجتمع ، لان الوفاء لهم مع كونهم غدر ، قد يشجع جانب الغدر لديهم ، وقد يفقد اهل الحق طريق السيطرة عليهم بينما تكون مقابلتهم بأساليبهم طريقة عملية لتفويت الفرصة عليهم باستغلالهم لقيم اهل الحق من اجل ضرب الحق في الصميم . . . وربما تعيش هذه الكلمة في اجواء الآية الكريمة :

وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ

٥٨

[سورة الانفال : ٥٨] .

فقد قيل انها نزلت في يهود بني قينقاع وكان بينهم وبين الرسول (ص) عهد فعزموا على نقضه فاخبره الله تعالى بذلك وأمره بحربهم ومجازاتهم بنقض عهدهم ، فكان الوفاء لهم غدرا عند الله ، والغدر

بهم اذا غدروا وفاء بعهد الله ، كما جاء في شرح نهج البلاغة لابن
ميثم البحراني .

موقف الامام علي في صفين :

أما موقف الامام علي (ع) من اهل الشام الذين منعه ومنعوا
جيشه من الماء عند استيلائهم عليه ، ولكنه لم يمنعهم منه عندما
استطاع ان ينتصر عليهم ، بحصوله على السيطرة على الماء بعد
ذلك . . .

أما موقفه هذا فانه ينطلق من فكرة إعطاء درس عملي في الحرب
التي يخوضها اهل الحق من حيث أنها لا تخضع لهذه الاساليب وان
كانت مباحة في هذه الحال ، وللتدليل على انسانية التعامل مع الاعداء
حتى في حالة الحرب أملا في أن يتبهاوا الى ضلالهم ويستطيعوا ان
يميزوا بين قيادة الحق وبين قيادة الباطل .

موقف الامام من الولاة المنحرفين :

وربما يقول قائل :

اذا كانت الغاية تبرر ارتكاب الوسيلة التي هي دون مستوى الغاية
في الاهمية . . . فلماذا استنكر الامام علي (ع) على اولئك الذين
ارادوا منه أن يصانع ويجمال الولاة الذين كانوا في بداية عهده ، الى
ان يستقر ملكه : فيعزلهم - بعد ذلك - فكان جوابه لهم قوله :
« أتأمروني ان اطلب النصر بالجور » .

وكيف انكر على هؤلاء الذين ينتهزون الفرص من دون مراعاة
الشريعة فيما يأخذون وفيما يدعون في قوله المعروف : قد يرى الحول

القلب وجه الحيلة ودونها حاجز من امر الله ونهيه فيدعها رأي عين
ويتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين . .
ونقول جوابا عن ذلك :

ان الامام (ع) ينطلق في كلمته او لا من صفته كحاكم يريد ان
يفسح المجال للتطبيق العملي للاسلام بجميع خطوطه العامة
والخاصة ، التي منها المساواة بين الناس ، وعدم افساح المجال
لطفيان الاعتبار السياسية والاجتماعية على ذلك من اجل أن يعطي
الصورة الصحيحة عن الحكم الاسلامي ، لا سيما وان الامام علي (ع)
يمثل الامتداد الرسالي في تجربة الحكم الاسلامي الحق - الامر الذي
يجعل من تصرفاته في شؤون الحكم مدرسة للآخرين .

ونحن نعرف - من خلال سلوك الامام في اكثر الجوانب - أنه جاء
من اجل ان يصحح الانحراف في ممارسة الاخرين للحكم من حيث
صورته العامة ومضمونه الكبير .

وثانيا - ان من غير الواضح لدينا قيمة النتائج العملية التي
سيربها الحكم الاسلامي من خلال افساد سلوك زعماء القبائل
باستمالتهم بالمال وتشجيعهم على اتخاذ المواقف المؤيدة او الراضية
على اساس الاطماع المالية ، او ابقاء الولاة المنحرفين الاقوياء الذين
يمثل الاعتراف بهم ولو مدة بسيطة في اعطائهم صفة الشرعية في
سلوكهم العملي ، ولو في هذه المدة القليلة ، مما يجعل أمر عزلهم
بعد ذلك دون اساس واضح ما دامت المبررات الاخيرة غير جديدة
على مستوى حكمهم المستمر . . . فقد لا تكون الأرباح التي سيجنيها
الاسلام من ذلك بمستوى الخسائر التي يخسرها او المفاسد التي يقع

فيها - الامر الذي لا يجعل القضية في موقف الترجيح للغاية على الوسيلة ، كما ألمحنا اليه آنفا . وربما نفهم ذلك من كلمة الامام (ع) حيث أعطى الوسيلة صفة الجور تارة ، وصفة كونها من حدود الله التي لا يمكن للانسان المؤمن ان يتجاهلها او يتعدها ، اخرى ، مما يجعلنا نؤمن ان الغاية في هذه الحالة ليست في المستوى الذي يتضاءل امامها حكم الله في الوسيلة .

وقد يقوي هذا الاتجاه ، في فهم كلمات الامام (ع) ، ان الذين كانوا يطلبون منه اتباع هذه الاساليب كانوا يريدون منه المحافظة على مصلحته الشخصية كحاكم ، يريد ان يستمتع بالحكم وينتصر به في عملية زهو ذاتي كما يوحى به جو الكلام ، ولم يكونوا ينطلقون من الحفاظ على الصفة الرسالية التي تجعل من عملية الحكم عملية تطبيق واع للرسالة .

وعلى ضوء ذلك لا يمكن ان يُعطي أحد هذا الاتجاه الذي جرينا عليه ، في موقع الوسيلة من الغاية ، صفة الميكافيلية ، لأن هذه الصفة لا تنطلق الا في المجال الذي يخدم الغايات الشخصية او الشريرة فهي موجهة للامراء الذين يريدون أن يستولوا على السلطة باي ثمن ، او يفتحوا البلاد ليحكموها رغما عن اهلها ، بدون حق ، أو يمنحوا انفسهم صفة التحكم في رقاب الناس ، لا على اساس فكرة أو مبدأ .

وليست واردة في المجالات التي يراد منها للرسالات وللقيم الكبيرة في الحياة ان تشق طريقها وسط العقبات والصعوبات التي تعترض طريقها . . . فان الوسيلة - عندها - تفقد صفتها الشريرة لتأخذ لنفسها الصفة الخيرة ، لان موقعها قد تغير ، وصفتها قد تبدلت واختلفت ، بالجو الجديد الذي عاشت فيه في اطار الغاية النبيلة .

خاتمة المطاف :

وهكذا نصل الى نهاية المطاف ، في هذا الفصل ، لنصل الى نتيجة حاسمة وهي اننا لا نتبنى فكرة ، ان الغاية تبرر الوسيلة ، بشكل مطلق ، بل نعتبر ان حالة الحكمين المتزاحمين في الغاية والوسيلة كأى حالة أخرى في غير هذا المجال ، كالحكمين اللذين لا علاقة بينهما ولا تزاحم الا في ضيق الزمان عن امثالهما معا كالتزاحم بين الصلاة وانقاذ الغريق مع ضيق الوقت عنهما ، فكما اننا نغلب اكثر الواجبين صلاحا فكذاك هنا وبذلك يتجه الاسلام الى الخطوات الواقعية في العمل دون ان يفقد شيئا من قداسته في الفكرة والتطبيق .

لكل سؤال جواب

- بين أساليب الحق وأساليب الباطل .
- هل يحرم مصافحة الرجل للمرأة ، وما الضرر من ذلك .
- ما هي علاقة الايمان بوجود الله في حياتنا العملية .

[١]

س ١ - ورد في حديث الامام جعفر الصادق (ع) في معرض نقد بعض أصحابه على استخدامه الباطل في طريق الدفاع عن الحق ، وردّ الباطل . أنه قال : - أما الجدل بغير التي هي أحسن ، فإن تجحد حقاً لا يمكنك أن تفرق بينه وبين باطل من تجادله ، وإنما تدفعه عن باطله بأن تجحد الحق فهذا هو الحرام ، لأنك مثله جحد حقاً وجحدت حقاً مثله . . !!

والسؤال : هو كيف نوفق بين الفكرة التي طرحتها وهي إباحة سلوك الباطل إذا توقف إقامة الحق عليه ، وبين هذا الحديث الذي يرفض جحد الحق إذا أراد الباطل أن يستعين به في اثبات باطله .

ج ١ - إن هذا الحديث لدى التأمل يتجه إلى الدعاة الذين لا يملكون الثقافة والعلم الواسع الذي يستطيعون - من خلاله - أن يواجهوا حجج أعداء الحق . . بالحجة القوية ، والردود السلمية الحقة . . فيلجأون إلى سياسة اللف والدوران والتهرب من مواجهة الفكرة التي يثيرها المبطلون . فقد يجحدونها بدون دليل أو يجحدون بعض وجوه

الحق التي يريد المبطلون أن يستعينوا بها على اثبات باطلهم جهلا منهم بالوجه الصحيح للرد .

وهذا ما تصرح به بعض فقرات الحديث ، وأما الجدل الذي بغير التي هي أحسن ، فإن تجادل باطلاً فيرد عليك باطلاً ، فلا ترده بحجة قد نصبها ولكن تجحد قوله أو تجحد حقاً يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله ، فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون له عليك فيه حجة لأنك لا تدري كيف المخلص منه . . . فذلك حرام على شيعتنا أن يصير فتنة على ضعف اخوانهم وعلى المبطلين . أما المبطلون فيجعلون ضعف الضعيف منكم إذا تعاطى مجادلته وضعف ما في يده حجة على باطله ، وأما الضعفاء منكم فتغم قلوبهم لما يرون من ضعف الحق في يد الباطل .

إن الحديث يتجه إلى هؤلاء ، ليطلب منهم الانسحاب من معركة الصراع الدائرة بين الحق والباطل . . لأنهم لا يملكون الأسلحة التي بها يدافعون أو يهاجمون . ولذا فإنهم سيسقطون ضحايا جهلهم أمام الباطل وينعكس ذلك على صورة الحق أمام أعداءه وانصاره على السواء .

أما الذين استطاعوا أن يأخذوا بأسباب المعرفة الحقنة ويتعمقوا في أساليب الصراع الفكري المنطلقة من الحقيقة الإسلامية الأصيلة .

أما هؤلاء فانهم لا يحتاجون الى أساليب الباطل في اللف والدوران ، ولا يشعرون بالضعف أمام حجج المبطلين . . لأنهم يملكون ما يحتاجون إليه من حجج الحق التي لا تدع مجالاً لأي غموض أو التباس في أي جانب من جوانب معرفة الحقيقة .

وسوف لن يضطر هؤلاء إلى أن يجحدوا الحق الذي يستعين به المبطلون للتدليل على باطلهم ، لأن بإمكانهم أن يكشفوا مغالطات الباطل في ذلك ، إذ لا يمكن أن يقف الحق من حيث هو حق ، سندا للباطل من حيث هو باطل .. في أي مجال من مجالات الفكر أو العمل .. لأنهما يقفان في خطين متقابلين لا يمكن أن يلتقيا أبدا ، ولو في بعض مراحل الطريق .

وعلى ضوء ذلك فلا يكون لهذا الحديث أي التقاء بالفكرة التي حاولنا إثارتها ، وهي تبرير الغاية للوسيلة في بعض الخطوات العملية لعلاقة الغاية بالوسيلة .

إن هذا الحديث يفرض أن الحق لن يحتاج إلى أساليب الباطل في صراعه الفكري أبدا .. لأن طرق الحق في الاقناع لا تقف عند حد . هذا من جهة .. !!

وهناك جهة أخرى .. وهي أن القضية تلتقي هنا بالفكر الذي يريد الاسلام أن يبينه على أساس الحق ، لئلا تختلط على الانسان الألوان في رؤيته للأشياء . فلا يعود يملك القدرة على التغيير بين الحق والباطل .. الأمر الذي يجعله يعيش الضياع في الموقف ، من خلال الضياع في الرؤية .

ولذا فإن الاسلام لن يتسامح في هذا المجال باتباع أساليب الباطل مهما اختلفت الأوضاع .. إلا في الحالات الضرورية جدا التي يتوقف فيها حماية الحق على إعطائه غطاء واقيا من الاضطهاد الذي يحاول القضاء عليه جملة وتفصيلا ، بالأساليب الوحشية التي لا تخضع الفكر ولا تستجيب لشروط الصراع وظروفه .

إنه يقول لك : إن مجال الحق واسع ، وحججه واضحة وأساليبه كثيرة وكبيرة . . فلن يعجز الانسان أي موقف للباطل في هذا المجال . ولذا فإن اللجوء إلى الباطل يعتبر دليل ضعف . . وحيثُ يكون الدخول في مجال الصراع جريمة كبرى لا تغتفر ، لأن من واجب الضعفاء أن ينسحبوا من المعركة إذ لم تكن المعركة ذاتية ، بل هي معركة ما يمثلون من مبادئ وشعارات وأفكار .

ملحوظة : للتوسع في دراسة هذا الموضوع يراجع موضوع بين أساليب الحق وأساليب الباطل في كتابنا (قضايانا على ضوء الإسلام) .

س ٢ : هل يجوز للرجل أن يصفح المرأة التي ليست بمحرم له وما الضرر من ذلك ؟

ج ٢ - للسؤال جانبان : أحدهما فقهي وهو السؤال عن الحكم من وجهة النظر التشريعية . . التي تجعل الحكم يقف في مواجهة الدليل .

والجانب الآخر تحليلي يستهدف الوصول إلى فلسفة التشريع وفائده .

مع الجانب الفقهي للتشريع :

- أما الجانب الأول : فالظاهر من فقهاء المسلمين الحكم بالحرمة استناداً إلى الأحاديث الواردة في هذا المجال . ففي الأحاديث الكثيرة الواردة في كيفية بيعه النساء للنبي (ص) دلالة على رفض النبي لمصافحة النساء في حالة البيعة ، كما هي العادة المتبعة في بيعه الرجال . بل كان يلجأ إلى أن يضع يده في إناء وتضع المرأة يدها في

موضع آخر من الأثناء (كما أخرجه ابن إسحاق في المغازي) من رواية أبي داود عن الشعبي أو يبائعهم بالكلام فقط (كما في حديث عائشة وغيرها ..) . وعلى أي حال فلو لا حرمة المصافحة لما احتاج النبي في البيعة إلى هذا الجهد كله .

وفي حديث أئمة أهل البيت (ع) ما يدل على ذلك بشكل واضح .

ففي مصحح أبي بصير عن الإمام جعفر الصادق (ع) . قال :
- قلت له هل يصافح الرجل المرأة ليست بذات محرمة ؟ فقال لا . إلا من وراء الثياب .

وفي موثق سماعه : سألت أبا عبد الله الصادق (ع) عن مصافحة الرجل المرأة : - قال : « لا يحل للرجل أن يصافح المرأة ، إلا امرأة يحرم عليه أن يتزوجها أخت أو بنت أو عمه أو خالة أو بنت أخت أو نحوها ، وأما المرأة التي يحل له أن يتزوجها فلا يصافحها إلا من وراء الثياب ولا يغمز كفها » .

وينقل صاحب جواهر الكلام الإجماع على حرمة اللمس مطلقا سواء بمصافحة اليد أو غيرها . بل يعتبره من قبيل الضروريات الفقهية على وجه يكون محرما لنفسه . ولعل هذا الحكم من أوضح الأحكام الشرعية لدى الفقهاء .

مع فلسفة التشريع :

أما الجانب التحليلي : وهو محاولة فهم فلسفة التشريع .

فقد يقول قائل : إن هذا الفعل لا يشكل أي ضرر على

الإنسان ، فردا كان أو جماعة ، لأنه لا يمثل إلا لونا من ألوان التحية والمعاملة الإجتماعية التي درج عليها الإنسان ، فلا نستطيع أن نفهم أي وجه من وجوه الضرر في أن يصفح الرجل المرأة الأجنبية بدافع التحية والمعاملة ، بقلب طاهر طيب لا يخالطه سوء .

والجواب عن ذلك : هو أن أي حكم من أحكام الشريعة لا بد لنا من أن نضعه في موقعه الصحيح من الفكرة العامة التي ينطلق الحكم منها أو يتحرك فيها لنستطيع أن نفهمه فهما واقعيلا لا يخضع للسطحية والعاطفة .

وعلى ضوء ذلك . . لنطرح على أنفسنا سؤالا وهو كيف نفهم علاقة الرجل بالمرأة ؟ أو بالأحرى . . . هل هناك قاعدة أخلاقية تحكم علاقة الرجل والمرأة أو لا ؟ . . إذا كان الجواب على هذا السؤال سلبيا كما هو شأن الحضارة الأوروبية المعاصرة التي تعتبر أخلاقية أي عمل منطلقة من انسجامه مع قضية الحرية الفردية للإنسان في فكره وروحه وجسده . . . ففي مثل هذا المفهوم لا بد لنا من أن نحلل أي عمل حتى العري أو الممارسة الجنسية . . إذا لم يكن هذا أو ذاك خاضعا لضغط يلغي حرية الإنسان وإرادته ، بل كان منطلقا من واقعه من موقع الإرادة والحرية .

أما إذا كان الجواب إيجابيا كما هو شأن المفهوم الإسلامي للحياة التي يعتبرها في كل ظواهرها خاضعة لضوابط أساسية تحفظ للحياة نظامها الذي يكفل سلامة الفرد والمجتمع ، ويحقق للإنسان الحرية في إطار النظام لئلا تتحول الحياة إلى فوضى تتحرك في نهاية المطاف لتدمر نفسها وتدمر كل ما حولها .

وعلى ضوء ذلك . . أراد الإسلام لعلاقة الرجل والمرأة في الجانب الغريزي أن تخضع لنظام محدد يبعدها عن الفوضى والشهوة فحصرها في إطار العلاقة الزوجية التي يمتزج فيها جانب الرغبة بالمحبة والطمأنينة . . لتكون أساسا لإيجاد الخلية الصغيرة للمجتمع التي يتعلم فيها الإنسان كيف يمارس غريزته في إطار المسؤولية ، وكيف تتحرك مسؤوليته مع نوازع الغريزة ، لتكون شاهدا عمليا على الفكرة الإسلامية التي تعتبر الحياة وحدة رائعة تتفاعل وتتعاون فيها غرائز الإنسان ومسؤولياته ، لتتخذ الغريزة المسؤولية من الجفاف وتحفظ المسؤولية الغريزة من الفوضى والإنحلال .

وإذا كانت العلاقة تعيش في هذا النطاق من تفكير الإنسان ومسؤولياته على مستوى إسلامي . . فلا بد لنا من أن نخلق الجو الذي يبقي هذه العلاقة سليمة ويجعل ممارستها واقعا عمليا في حياة الإنسان لا مجرد فكرة مثالية تعيش في الخيال . ولهذا حرّم كثيرا من الأشياء فيما يختص باللباس والزينة والنظر وغير ذلك ، ودعا إلى الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يجعل من الغريزة حاجة غير طبيعية بسبب العوامل التي تثير الرغبة بشكل ملتهب طاغ . . . وأراد من الإنسان أن ينظر إلى الرغبة الجنسية كما ينظر الى أي شيء من رغباته الأخرى كالأكل والشرب من حيث كونها حاجة تخضع لضوابط معينة لا تسيء إلى الفرد روحا وجسدا ، ولا تسيء الى المجتمع فكرة ونظاما .

ويجب أن نعلم أن طريقة الإسلام في مواجهة المشاكل التي تعيش في الحياة هي أن يبحث لها عن الحلول في النفاذ إلى أعماقها وجذورها الأساسية التي لا تسمح للمشكلة أن تنمو من جديد .

وبهذه الطريقة يتجه التشريع الإسلامي إلى الطريقة الوقائية التي

تمنع الإنحراف ، حتى لو كانت أسباب الإنحراف تمثل نسبة ضعيفة للإنحراف كنسبة العشرة بالمئة ، لأن هذه النسبة لو سمح لها أن تنمو فستتصاعد وتتعاظم حتى تصنع المشكلة من جديد . وربما كانت مسألة المصافحة ، تقع في هذا الإطار ، فانها قد تكون منطلقا للمشاعر الحميمة التي تهيء الجو لإحساس جنسي خفيف يعبر عن نفسه بطريقة وبأخرى ، تفسح المجال لبداية جديدة للإستلطاف الذي يمهد لعلاقة جديدة . . ولهذا أراد الإسلام أن يغلق هذا الباب في الحدود التي تسمح بهذه الأجواء من الإثارة . . ولذا نجد الحديث الذي نقلناه عن الإمام جعفر الصادق (ع) يبيح المصافحة من وراء الثياب ، لأنها لا تخلق مثل هذا الأثر في النفس بالمقدار الذي تخلقه المصافحة باليد مباشرة ثم يطلب منا مع ذلك أن نتبعد عن الغمز بالكف . وهو الضغط عليها بلطف . . لأن ذلك يهيء الجو للمشاعر المضادة لنظافة العلاقة واجواءها الطبيعية .

- وقد يُطرح سؤال : إن مثل هذه الحدود التي يضعها التشريع أمام هذه العلاقات ، هي التي تفسح المجال للأفكار السيئة لمثل هذه الأعمال البريئة التي يمارسها الناس بشكل طبيعي ، لا أثر للتفكير الغريزي فيه . . فلو لا التحريم الذي يطرحه التشريع لما فكر الرجل والمرأة بهذا التفكير تماما كما هو حال الرجل والرجل عندما يتصافحان ، أو كما هي حالة المرأة والمرأة في ذلك .

ونجيب على ذلك : - إن بعض الأعمال لا تحتاج في إثارة الأفكار المضادة إلى إحياء من الخارج . . بل هي بطبيعة انسجامها مع العوامل الغريزية ، بشكل عضوي ، تفسح المجال لذلك ، تماما كما هي حالة الجوع الغذائي التي لا تحتاج إلى أي نوع من أنواع الإحياء

سوى المؤثرات الطبيعية التي تخلق هذه الحالة .

ولعل الملامسات الجسدية ، لا تتعد عن ذلك ، فهي من أقرب الوسائل لإثارة المشاعر الحميمة التي تخلق الرغبة في الداخل ، ولو بوسائط متعددة .

وقد يؤكد لنا هذه الفكرة - ولو من بعيد - أن الصداقة البريئة بين الرجل والمرأة ، بعيدا عن عوامل الرغبة في البداية أو النهاية ، لم تستطع أن تتحول إلى واقع عملي يمارسه الجنسان بنفس الإسلوب الذي تتمثل فيه علاقة الرجل بالرجل أو المرأة بالمرأة في علاقة الصداقة إلا في الحالات الشاذة جدا .

فنحن نواجه في العلاقات المطروحة في جميع الحالات والمجالات وعلى أعلى المستويات ، كيف تتحول الصداقة إلى إستلطاف ومحبة ، لتنتهي - بعد ذلك - إلى الرغبة التي تعبر عن نفسها بطريقة شرعية أو غير شرعية .

ونحن لا نتحدث عن الموضوع انطلاقا من فكرة الرغبة في التبرير التي تريد أن تفسر الواقع على حسب ميولها . بل نحاول أن نتحرك من موقع الممارسات العملية الكثيرة التي تسجلها الإحصائيات ، حتى على مستوى العلاقات التي تحكم الجنسين في الوسط الجامعي الذي يجب أن يكون بعيدا عن الجو الغريزي بقدر اقترابه من الأجواء العلمية الجافة المتزنة .

وربما يُطرح سؤال آخر : - وماذا نفعل أمام هذه العادات المألوفة التي فرضت نفسها على واقعنا ؟ فإننا نلاحظ اليوم أن امتناع الشاب عن مصافحة الفتاة التي تمد يدها إليه ، يعتبر امتهاننا لكرامة الفتاة

وإساءة لها . . وكذلك الحال في امتناع الفتاة عن مصافحة الشاب . .
فماذا نفعل إزاء ذلك ؟ أتريد أن ننزل عن المجتمع .

ونجيب عن ذلك :

١ - إن شيوع الانحراف لا يبرر للإنسان أن ينحرف لأن سياسة الامر الواقع لا مجال لها أمام أصحاب المبادئ والمواقف الحقة الذين يريدون أن يمارسوا الصبر والصمود لحماية مبادئهم من الذوبان والأنهيار .

٢ - ان الإنسان الذي لا ينطلق مع موقفه في قاعدة صلبة ليقف عليها عندما يريد أن يواجه الواقع ، سيضطر إلى أن ينسحب تدريجيا من مواقفه حتى يفقد كل موقف . فتتحول مواقفه إلى محاكاة لمواقف الآخرين الذين يختلف معهم في العقيدة والحياة . . لأنهم لا يكتفون منه بانسحاب واحد . . ما دامت الحياة تتسع لانحرافهم في بعض مراحلها . فهم يتحركون من انحراف إلى انحراف ، فماذا نفعل إذا تحولت المجاملة الإجتماعية إلى تقبيل الفتاة للشاب ، أو المعانقة أو الأخذ بالأحضان أو أي شيء آخر كما نشاهده في بعض المجتمعات الحديثة ، التي تعتبر امتناع المرأة او الرجل عن الدعوة للرقص ، أو لشرب الخمر خروجا عن اللياقة والتهديب الإجتماعي . ماذا نفعل إزاء ذلك كله ؟ . . هل نعتبر الحجة القائلة ، بأن علينا أن لا ننزل عن المجتمع ولا نسيء إلى تقليده ، كافية في قبول ذلك كله ؟ وننسجم فيه مع عقائدنا . . !!

إن خوفنا من الإمتناع عن مثل هذا وغيره ، إنما نشأ من الخوف من مواجهة المجتمع بغير ما يرغبه من عاداته المألوفة فهل نستطيع أن

نحكّم هذا الشعور في حياتنا؟ وماذا يتبقى من معاني مقاومه الإنحراف؟ .. ما دام الإنحراف يمثل سلوكا اجتماعيا شائعا .

إن علينا أن نواجه افراد المجتمع بتعريفهم حقائق الإسلام ، وطبيعة ممارساتنا في ذلك كله . ليفهم من يريد أن يفهم أننا لا نمتهن الآخرين عندما نتنكر لتقاليدهم المنحرفة - في نظرنا - بل إننا نحترم أنفسنا ونحترمهم عندما نبتعد عما يسيء إلى إنسانيتنا الصاعدة في مدارج السموّ الروحي في الحياة .

وبعد هذا كله . . . هل عرفنا كيف يكون تحريم مصافحة الرجل للمرأة وبالعكس .. حكما شرعيا يرتبط بأحكام أخرى تخضع لفلسفة اسلامية عامة تحدد علاقة الرجل بالمرأة .

وفي ختام الحديث . . . نحب أن نشير إلى أن بإمكان الانسان في حالات الحرج الشديدة جدا الذي لا يتحمل عادة أن يأخذ بالرخصة التي حددتها لنا قاعدة نفي الحرج . . . كما أشرنا اليه فيما سبق ، والله العالم بحقائق أحكامه .

س ٣ - ماذا يفيدنا اثبات وجود الله في حياتنا العملية؟

ج ٣ - في مفهوم الكثيرين لقضية الايمان بالله تعالى . . تبرز فكرة الجانب التجريدي للايمان ، فلا يرون أنه يمثل أي جانب عملي يرتبط بالحياة ، بل يرون أنه فكرة نظرية ترقد في وعي الانسان في هدوء واسترخاء لتضاف إلى بقية الأفكار التي تتمثل فيها صورة الترف الفكري الذي يمارسه الذين ابتعدوا عن واقع الحياة ليضيعوا في أحلام الفراغ .

وقد يعتبر البعض قضية إثارة الإيمان بالله في أجواء الأزمات التي

تمر بها الامم نوعا من أنواع الخدر الفكري الذي يشغل الناس عن مواجهة أزماتها ، ويستشهدون لذلك بتنازع أهالي قسطنطينة - والفتاح يدق أبواب مدينتهم حول الملائكة . هل هم ذكور أو أناث ؟ وحول قضية أن البيضة أصل الدجاجة ؟ .. أو الدجاجة أصل البيضة !! ؟ ويضيفون أن القضية عندنا في إثارة قضية وجود الله تعالى كالقضية هناك !! .. وبهذا يبعدون الناس عن التفكير بالقضية في الوقت الذي يشتغلون فيه بمختلف الوسائل في إبعاد الناس عن فكرة الله وربطهم بفكرة الإلحاد ، كوجه من وجوه الصراع بين التقدمية والرجعية أو بين الخرافة والحقيقة . . . دون أن يثنيهم عن ذلك ما تواجهه الأمة من أزمات . . . لأنهم يعتبرون قصة الواقع مرتبطة بأكثر من جانب وجانب . ولذا فلا يجوز من خلال وجهة نظرهم - أن نبعد جانب الفكرة عن حركة العمل . . . ومن هنا كانت قصة الإلحاد - في نظرهم - قصة الأسلوب الفكري الذي يواجهه الانسان في حركته نحو قضاياها الرئيسية .

وهكذا تكون القضية صيفا وشتاء على سطح واحد . .

فقضية الإيمان بالله تعالى ، إثارة لقضية هامشية تشغل الإنسان عن قضاياها الرئيسية . أما قضية الالحاد ، فكرة وفلسفة وممارسة ، فهي قضية ترتبط بالعمل . ولذا فانها لا تتعد عن الحياة .

ولكن الموضوع ليس موضوع الهامش والأصل ، بل الموضوع هو إبعاد الناس عن الايمان وعن التفكير به لثلا يبقى قوة ، في مركز الصراع بين الإلهية والمادية ، أو الايمان والالحاد ، تدخل في الساحة لأجل أن تفسح المجال للخط الذي يجعل الحياة تعيش في رحاب الله تعالى بعيدا عن حبال الشيطان .

ولذا فينبغي أن نواجه مثل هذه الأساليب بنوع من أنواع الذكاء العملي الذي يترصد خطوات الأعداء من أجل أن لا يقع في قبضة السداجة الفكرية والعملية التي يحاولون أن يضعونا فيها .

والآن . . نحن مع السؤال وجها لوجه .

ما فائدة الإيمان بوجود الله في حياتنا العملية ؟ . .

والجواب على ذلك . . . ان كل مخطط عملي للحياة لا بد له من أن يرتبط بجذور فكرية تفسر له الكون والحياة ، لأنه - بدون ذلك - يبقى مجرد خطوات عملية تبحث عن الطريق في بدايته ونهايته ، فلن يكتب لها بعد ذلك الا التخبط والضياع في التيه . ولهذا لا بد لنا من أن نطرح دائما على أنفسنا السؤال الخالد لنعرف كيف نبدأ ؟ . هل هنالك قوة عليا خارج نطاق وجودنا الطبيعي المادي المحدود تخلق هذا الكون وترعاه وتنظمه وتسير به بحو الكمال ؟ . . أو أن الكون كان وليد صدفة عمياء بلهاء صنعت هذا النظام الذي لن ينتهي إلى نهاية معقولة - لانه لم يبدأ - أساسا - من المعقول .

إنه الفرق بين الفكرة التي تعتبر الكون في رحلته سائرا نحو هدف محدد ، وبين الفكرة التي ترى الكون يتحرك بدون هدف . ولذا فانه سوف يتحطم في الفراغ انطلاقا من الصدفة المجنونة التي بدأ منها . . ولهذا فان الايمان بوجود الله تعالى يجعل الانسان يخضع لإحساس داخلي وفكري بمسؤوليته أمام الله عز وجل بعمله ، وفي حياته كلها . . تبعا لإحساسه بأنه جزء من الكون الكبير المنظم الذي ينبغي للانسان أن يتعامل معه على هذا الأساس ، وبهذه الروح يشعر بأن عليه أن يبحث عن المخطط العملي من خلال رسالة الله تعالى ، وأن يستهدف الأهداف المثلى التي أَرادها الله سبحانه للانسان في

الحياة في علاقاته بنفسه وبالآخرين . وأن ينظم أوضاعه على أساس أن الدار الدنيا مرحلة من مراحل النية الممتدة إلى ما بعد الموت . ولذا فإن عليه أن يراعي وضعه في تلك الحياة من خلال ممارسته لوضعه في هذه الحياة . . . وفي هذا النطاق . . . يشعر الإنسان بالعلاقات الإنسانية تتخذ معنى جديدا في حياته يرتبط بالله تعالى من جهة وبمسؤوليته العملية من جهة أخرى . فلا تعود مجرد علاقة تخضع للحسابات المادية التجارية ، بل تفسح المجال لمعاني الإيثار والتضحية والمحبة المجردة بعيدا عن العوض المادي من أجل الحصول على التعويض الروحي لدى الله سبحانه وتعالى . . . بالحصول على رضوانه ومحبه وثوابه مما يرفع درجة الانسان لديه .

وفي المجال الذاتي لحياة الإنسان الداخلية ، يشعر الإنسان بالطمأنينة والسلام الروحي والأمل الكبير الممتد في جميع خطوات الحياة لأنه يتصل بالله تعالى الذي تخضع له كل مشاكل الحياة وعقباتها ، وكل آلام الحياة وأفراحها ، وبحس الإنسان - إلى جانب ذلك - بالرعاية الدائمة تحوطه والرحمة الحانية ترعاه . فلا يحس بأي شعور يلتقي بالضياع والإنهيار واليأس ، وفقدان الهدف والمعنى لوجوده ، مما تعارف الملحدون على أن يعيشوه ليشعروا بالفراغ الكبير الذي يدمر حياتهم في نهاية المطاف .

ويشارك الإيمان بالله عز وجل في شعور الإنسان بالرقابة الدائمة القوية القادرة التي تمنعه من الإعتداء على الآخرين في فكره وكلامه وعمله ، حتى في أشد الحالات شعورا بالأمان . . . الذي ينشأ من فقدان الشعور بوجود الآخرين يحاسبونه . إن الإيمان بالله عز وجل - يقتحم وجدان الإنسان بقوة ليشعر بالله تعالى يشرف على الداخل كما

يشرف على الخارج . فليس هنالك أي جانب مستور أمامه ، وليس هنالك أي مجال بعيد عن سلطانه ، وليس هنالك قوة أقوى من قوته .

إن الإيمان كلما تعاضم في كيان الانسان كلما استطاع أن يحمي الانسان من نفسه ، ويحمي الآخرين منه ، وكلما ضعف . . كلما اقترب الانسان من الجريمة بمقدار بعده عن المؤثرات الخارجية التي تحيط به لتمنعه .

وبهذا نعرف كيف يعطي الايمان بالله سبحانه وتعالى لحياتنا معنى جديدا يغنيها ويغذيها وينميها ويربطها بالمعاني الكبيرة ، والهدف المنشود العظيم في الحياة ، بينما يكون الالحاد عنصر تفريغ للحياة من كل المعاني الروحية ، والأهداف المثلى . ويبقى للانسان فيها أن يولد ويعيش ويموت دون معنى ودون هدف ودون غاية .

الحلقة التاسعة

الأسلوبُ الإسلامي للعَمَلِ
بَيْنَ الإصْلَاحِ وَالتَّغْيِيرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله الطيبين
وصحبه المنتجبين الخيرين وعلى جميع الانبياء والمرسلين .

وبعد . . فقد كان العزم على مواصلة اصدار هذه السلسلة
« مفاهيم اسلامية عامة » في حلقات متتابعة لتحقيق الهدف الذي
انطلقت من أجله ، وهو تيسير الثقافة الاسلامية ، والاستجابة لعلامات
الاستفهام التي تتوارد في خواطر الجيل الصاعد حول قضايا الاسلام
في العقيدة والحياة . . ولكن الظروف القاهرة التي عشناها في لبنان
حالت بيننا وبين الاستمرار في اصدارها بشكل مستمر .

والآن . . . وقد أمكننا أن نلتقط أنفاسنا أمام الأحداث التي لا
تزال تفرض واقع المأساة الحزين على هذه المنطقة الاسلامية . . .
نعود لمتابعة هذه الحلقات . . فنبداً بالحلقة التاسعة التي تبحث في
كثير من القضايا الحيوية المهمة التي تشغل بال العاملين للاسلام وتثير
تفكيرهم سواء في موضوع المحاضرة والاسلوب الاسلامي للعمل بين
الاصلاح والتغيير ، أو في الموضوعات التي أثرت من خلال الأسئلة

العامّة التي وُجّهت إلى سماحة السيد المحاضر في الندوات الفكرية أو
في بعض المجلات العربية . .

والله المسؤول أن يوفّقنا جميعاً لخدمة الاسلام والمسلمين انه
قريب مجيب .

دار الزهراء

بيروت

الاسلوب الاسلامي للعمل بين الاصلاح والتغيير

قد يثير العاملون للاسلام في طريقهم نحو العمل بعض القضايا الملحة التي تدخل في تصوراتهم للاتجاه العملي الذي يحكم مسيرة العمل ويحدد له آفاقه ، وقد تكون مثل هذه الاثارة ضرورية في نطاق الأجواء القلقة التي تحكمها التيارات السياسية المعاصرة الخاضعة في مفهومها الفلسفي للحياة ، لقواعد غير اسلامية ، سواء في ذلك القواعد الفكرية الالحادية ، أو القواعد المادية التي لا تثير الالحاد في تفكيرها كقضية حيوية في حركة العمل . . فقد طرحت هذه التيارات كثيراً من القضايا المتعلقة بالعمل واسلوبه وأثارت حولها ألواناً من الجدل ، مما أدى الى التساؤل في موقف الاسلام في حركته العملية من ذلك كله .

ولعل من أكثر هذه القضايا أهمية في طريق العمل ، هي قضية طبيعة الحركة الاسلامية التي يعمل لها العاملون ، ويجاهد في سبيلها المجاهدون ، فقد نواجه أمامنا بعض التساؤلات . . ما هو طابعها

المحاضرة التي القيت في قاعة اللجنة الثقافية الإسلامية في الغبيري الواقعة في إحدى ضواحي بيروت . .

العملي؟ أين تقف، فهل هي حركة اصلاحية تهدف الى ترميم الواقع فيما تهدم من أركانه، حيث يتجه العاملون إلى وضع لبنة هنا، ولبنة هناك من أجل استمرار الوجود الاسلامي للحياة، ولو في بعض مظاهره، أو هي حركة تغييرية تهدف الى نفس الواقع من جذوره ابتداءً من نظام الحكم، وانتهاءً بآخر مادة شرعية من تشريعه، حيث يعمل العاملون في بناء الحياة على قاعدة اسلامية ممتدة صلبة لينطلق من خلالها النظام، كما هو الاسلام في واقعه الأصيل، فلا مجال لتجزئة الحل، أو لتجزئة الأحكام في حركة الواقع، ولا معنى لترميم الحياة التي انطلقت من قاعدة الكفر والضلال.

لقد أثرت هذه القضية في فلسفات المبادئ السياسية والاجتماعية والاقتصادية عندما وقف مفكروها أمام الواقع ليحددوا موقفهم منه في نطاق حركة أفكارهم في الحياة بين شعار الاصلاح وبين شعار الثورة، فهناك المبادئ المعاصرة الثورية التي تؤمن بالثورة وترفض الاصلاح والترميم، وهي المبادئ التي تملك نظرة شاملة للحياة تختلف عن النظرة العامة التي تسيّر عليها الحياة في نظامها المعاصر، وتعتقد ان المشاكل المطروحة ليست مشاكل سطحية او جانبية يمكن للانسان أن يبحث لها عن الحل الأمثل في نشاطات جزئية، بل هي مشاكل أساسية ترتبط بالقاعدة التي يرتكز عليها النظام باعتبارها وليدة حركة النظام في خطوات الواقع، فلا يمكن أن تقدم لها الحلول الجزئية الا جرعات تخديرية، تخدر المشكلة فتبعدنا عن الاحساس المباشر بالألم، مؤقتاً، ريثما ينتهي مفعول الجرعة، وهكذا دواليك، عملية تخدير واثارة، مما يؤخر الحل الشامل المنطلق من التعامل مع الجذور العميقة للواقع.

وفي ضوء هذا التفكير يعمل العاملون في اتجاه تفجير المشاكل الكامنة ، وخلق المشاكل الجديدة من خلال صنع الظروف المناسبة المثيرة ، ويتنقلون في خطواتهم هذه من زاوية الى زاوية ليضعوا في داخلها القنابل الموقوتة التي تنفجر في الوقت المناسب ، فهم يطالبون بحل المشكلة الصغيرة ويدفعون المجتمع الى الالحاح بالمطالبة ، فاذا اقترب الموقف من الحل بالاستجابة الى هذه المطالب ، وقام المسؤولون بالأعمال الاصلاحية خلقوا لهم مشاكل جديدة تدفع الموقف الى الانفجار من جديد ، وقد يوافقون على بعض الاعمال الاصلاحية من أجل أن يحققوا للمجتمع بعض مظاهر الراحة التي يسترد فيها أنفاسه ، ويستريح معها من عناء التعب ليبدأ معهم رحلة المشاكل من جديد .

ولعل من أبرز المؤمنين بهذا الاتجاه في الأسلوب العملي ، هم الماركسيون الذين يرون أن الثورة هي الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية ، وان السير في طريق الاصلاح خيانة للجماهير وللحياة لأنه يفوت عليها الفرص الكثيرة التي يمكن لها أن تعجل في دفع حركة التطور الى الأمام .

* * *

وهناك اتجاه آخر يختلف عن الماركسية وأمثالها في تصوره لأساليب التغيير ، فيعتقد بأن للمشاكل دوائر متنوعة في طبيعتها وصورتها ، وأن استمرار المشكلة في حياة الناس يخلق لهم مشاكل جديدة قد تتعقد وتتطور فتدمر الانسان في نهاية المطاف من دون تقديم بديل في هذا المجال ، ويرى ان الحياة لا يمكن أن تنتظر اللحظة المجهولة من الزمن التي تمنحها فيه بركة الحل الشامل للمشكلة فقد

لا تجيء تلك اللحظة ، وقد تغيب طويلا في ذاكرة المستقبل عندما تعيش حركة التاريخ في ظل ظروف موضوعية معقدة . وفي هذه الحال لا بد لنا من ان نهجىء للانسان بعض الراحة ، ولو من خلال الحل الجزئي للمشكلة لان ذلك هو السبيل للتعامل مع الحياة بواقعية ومرونة باعتباره يمنح الانسان روعة الشعور بالأجواء اللذيذة التي يستمتع فيها بنتائج الحل الجزئي ، ليعيش ، على الطبيعة ، الاحساس العميق بحاجته الى الحل الأفضل في مستقبله القريب أو البعيد ، وبذلك يتحول الاصلاح الى عنصر من عناصر التمهيد والاثارة للقضية الكبرى بدلا من أن يكون عامل تخدير وتأخير .

وقد يثيرون في هذا المجال نقطة أخرى .. وهي رفض الفكرة التي تربط الواقع كله بعامل واحد يوجه كل الحلول بفكره وفلسفته .. بل هناك عدة قضايا منفصلة يمكنها أن تثير الحل الكامل لكل قضية بطريقة تفترق عن القضية الأخرى ، لا سيما في حركة الواقع التي تشهد مزيداً من التشابك بين الأنظمة في كثير من المجالات مما لا يجعل النظام سلبياً في كل مظاهره وحلوله ، فيمكن لنا أن نقوم بعملية اصلاحية تهدم بعض الاجزاء لتبنيه من جديد على الصورة التي تتكامل فيها الحلول وتقترب من الواقع وذلك كما يقال في التجربة الديمقراطية الرأسمالية التي قرّبت الوضع الاقتصادي في بلادها من الوضع الاشتراكي في الاقتصاد ، بواسطة التشريع الضريبي المتصاعد الذي حدد الأرباح في نظام معقول ، فقد يعتبر أصحاب هذه التجربة ، أن عملية الترميم هذه ، تستطيع أن تحل المشكلة الاقتصادية بنسبة كبيرة ، وان لم نستطع الوصول بها الى نسبة مائة في المائة ، لأن مثل هذه النسبة لا توجد في أي حل آخر مهما كانت درجته من الشمول لأن لكل نظام سلبياته التي تعيش الى جانب ايجابياته لأن للطبيعة المحدودة

التي يتحرك فيها أي نظام دوراً كبيراً في ذلك كله .

ولعل الديمقراطيين الذين يفكرون بالديمقراطية على الطريقة الغربية ، هم من أبرز الذين يؤيدون هذا الاتجاه أو يقتربون منه في أسلوبهم العملي ، على الأقل .

* * *

تلك هي بعض ملامح الصورة في هذين الاتجاهين ، فأين يقف الاسلام في ملامحه الاصيله ، وكيف يتحرك العاملون من خلاله ؟
ربما كان علينا أن نثير أمامنا قضيتين حيويتين في طبيعة العمل وشخصية العاملين .

١ - ان نطرح على أنفسنا سؤالاً عملياً ، ما هو هدفنا عندما نتحرك للدعوة الى الاسلام ، ولماذا ندعو الناس اليه فنواجه كل هذه المشاكل والتعقيدات ، ونتحمل كل هذه الآلام والمصاعب والخسائر في طريق الدعوة ، ما الذي نريد أن نحققه ؟

ونجيب على ذلك .. ان الهدف لكل مؤمن في حياته هو أن يحقق رضا الله في كل تطلعاته وكلماته وأعماله ، لأنه يشعر بأن عبوديته لله وما أعده عليه من نعمة الحياة ، ابتداءً من الخطوة الاولى التي بدأ بها الحياة الى آخر خطوة يلاقي فيها ربه ، يفرضان عليه الانسجام مع ارادة الله في الكون ، في كل موقف من مواقف الطاعة . . . واذا كان هذا هو الهدف الأساسي للمؤمن فلا بد له من ملاحقه كل الأعمال المرتبطة به ، سواء في ذلك الأعمال التي تحقق للإنسان الشعور بالاستقرار والسعادة في حياته الفردية ، كما في موضوع ادخال السرور على المؤمن وتفريج كربته وقضاء حاجته ، أو الأعمال التي تضمن له

الحصول على العدالة في قضاياها العامة والخاصة ، مع الحكم العادل أو الظالم ، أو الاعمال التي تدخل في نطاق الدعوة الى الله ، لتقريبهم الى الله في عباداتهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم الخاصة والعامة وغير ذلك من الاعمال التي ترتبط بالجوانب السياسية والاجتماعية والعسكرية . وبهذا يتحول رضا الله الى هدف يومي يوجه خطوات الانسان في أقواله وأعماله تجاه الآخرين كما يدفعه الى تجسيده سلوكاً عملياً في ممارساته اليومية تجاه نفسه وتجاه اخوانه .

* * *

٢ - ما هو هدف الاسلام في عقيدته وشريعته ، هل هو حل المشكلة الاجتماعية للانسان بعيداً عن قضاياها الخاصة في روحيته وتفكيره وعمله ، أو هو حل المشكلة الانسانية من جميع الجهات ؟

ونجيب على ذلك . . ان الهدف الاساس للاسلام هو حل المشكلة الانسانية للانسان ، بعيداً عن أي اطار آخر ، فقد وضع الاسلام حدوداً معينة للانسان في ممارسة حياته الفردية الداخلية فيما يتصل بروحه وجسده ، أو في حياته الاجتماعية فيما يتصل بعلاقاته بالآخرين وبتصرفاته العملية تجاههم ، او في حياته الدولية - ان صح التعبير - فيما يتعلق بأوضاعه السياسية العامة ، فلم يبتعد عن حياته الخاصة بل دخلها بقوة وفاعلية ، ليمنعه - ولو بالقوة - عن ممارسة أي عمل يسيء الى صحته وروحته ، وحياته ، وجعلها تتحرك في نظام دقيق يحميه من نفسه ، كما يحاول أن يحمي الآخرين منه ، وبذلك كانت حريته الداخلية الفردية محكومة بالحدود التي وضعها الاسلام لدوره الانساني تجاه نفسه وتجاه الآخرين .

ان الاسلام - فيما يبدو لنا - يريد أن يحقق للانسان انسانيته فيما

قرره من مفاهيم وفيما وضعه من تشريعات ، لأن الانسان - في المفهوم القرآني - هو خليفة الله في الارض (١) ، وهو صانع التغيير (٢) لانه هو الذي يصنع الظروف التي تساهم في عملية التغيير سلباً أو ايجاباً ، وبذلك كانت العقيدة والشريعة سائرتين جنباً الى جنب في تحقيق هذا الهدف ، فلم يتركاه لحظة في حالة فراغ روحي أو عملي . . فكانت العقيدة تتحرك في وجدانه الروحي ، في نظام العبادات التي يلتقي فيه بالله من جهة ويعيش أجواء اليوم الآخر من جهة أخرى . . وكانت الشريعة تتدخل في مطعمه ومشربه وملبسه ولذته لتوجهه الى ما يضره أو ينفعه ولتقترب به أجواء العقيدة في ملامسة روحية هادئة . . كما في التركيز على ذكر اسم الله فيما يأكله من الذبائح وجوباً ، أو فيما يتناوله من أكل وشرب ، أو يمارسه من لذة ، استحباباً ، ليعيش الانسان الجو الروحي في عمق ممارساته المادية . . وهكذا يمتد التشريع الى كل تطلعاته في شؤون الحياة ليعرفه ما يحبه الله وما يبغضه على أساس ما يصلحه او يفسده ، ولم تحصر التشريع في نطاق الدولة بل واجهت ذلك حتى في نطاق غيابها عن المجتمع ، لان التشريع الاسلامي لم ينطلق من المشكلة الاجتماعية فقط لتدور أحكامه في اطارها ، فلا يعود لها مجال خارج هذا الاطار ، بل انطلق من المشكلة الانسانية في وجوده على الارض ، فوضع في حسابه ملاحقة كل اوضاع وجوده من ناحية عامة . . وبهذا اختلف الاسلام عن المبادئ الوضعية التي تستهدف حل المشكلة الاجتماعية بعيداً عن المشكلة الفردية ، وربما كان هذا هو السبب في اقتصار التشريع على الحالة التي توجد فيها الدولة ، فتنحول الفكرة فيها الى نظام حكم يمارس سلطته من موقع القوة الشاملة ، فان ذلك هو السبيل الوحيد ، لديها ، لحل المشكلة الاجتماعية في اطار الفكرة باعتبار ان الحالة الفردية لا تمثل أي شيء

في هذا المجال .

ولعل من أوضح الأمثلة على طبيعة الفرق بين الاسلام وبين المبادئ الاخرى المطروحة على الساحة هو التشريع الاقتصادي ، فاذا أخذنا احد المبادئ المعاصرة كالاشرائية في مواجهتها لبعض الحالات الانسانية التي نجد فيها انساناً يؤمن بالاشرائية ويعيش في ظل النظام الرأسمالي فهل تطلب منه عقيدته أن يمارس الفكر الاشرائي في حياته الخاصة فلا يمارس الربا باعتباره مظهراً من مظاهر الرأسمالية ، أو لا يمتلك وسيلة من وسائل الانتاج باعتبار ذلك من حقوق القطاع العام فقط ، أو انها تسمح له بأن يكون رأسمالياً في أعلى درجات الرأسمالية من دون حدود أو قيود ، لان اشترائيته الشخصية لا تحل مشكلته ولا تحل مشكلة الآخرين ، فلماذا يفرض عليه التقيد بها ما دامت العقيدة منطلقة في اتجاه الحل الشامل . . اما الأخلاقيات فانها مستمدة من طبيعة المصلحة الجماعية للطبقة العاملة بعيداً عن أية قيمة ذاتية تدخل في حساب القيم الذاتية للبناء الفردي للانسان .

اننا نجد التفكير الاشرائي يتبنى الاسلوب الثاني للعمل ، ويرفض الأسلوب الأول جملة وتفصيلاً . وفي ضوء هذا ، قد تواجهك الحقيقة الصارخة عندما تجد بعض الناس الذين ينعتون النظام الرأسمالي بأبشع النعوت ، ويحملونه وزر كل الجرائم في العالم ، ويمارسون ، في الوقت نفسه ، الأسلوب الرأسمالي في الحياة ، كأقسى ما يكون ، من دون أن ينقص ذلك من دورهم النضالي الفريد من نوعه أما اذا أخذنا الاسلام في هذا الجانب ، فاننا سنجد الأمر يختلف عن ذلك تماماً ، فهو لا يبرر للانسان الذي يؤمن به أن يكون مرابياً في المجتمع الربوي ، بل يعتبره انساناً منحرفاً عن الخط مستحقاً للعنة

بالرغم من أن سلوكه الفردي لا يقدم ولا يؤخر شيئاً في الموضوع من الناحية العامة للمشكلة التربوية .

ولعل السر في ذلك هو ان قضية حرمة الربا ليست مرتبطة بالجانب الاقتصادي المادي للحياة فقط بل هي الى جانب ذلك ، متصلة بالاطار الروحي للاقتصاد في الاسلام كما ورد في بعض الأحاديث المأثورة ، التعليل لحرمة الربا ، بأنه يمنع عن اصطناع المعروف مما يوحي بأن الله يريد للانسان أن يعيش روح العطاء بلا مقابل في حياته العملية ، ولو في بعض المجالات التي لا يدخل في مجالات التبادل المالي الصرف ، ومما يؤكد لنا هذه الفكرة ان الحديث الشريف اعتبر درهم القرض بثمانية عشر ، في حساب الثواب الالهي ، بينما اعتبر درهم الصدقة بعشر ، تشجيعاً على ابعاد الإنسان عن الروح الربوية وتشجيعاً له على صنع المعروف في القرض قربة إلى الله .

وقد نجد مثالا على ذلك في نظرة الاسلام الى الجانب الخلقي في تخطيطه للحرية الفردية فانه لا يسمح للانسان بالانحراف ، بممارسة الاعمال المحرمة في المجتمع المنحرف فلا يبيح له شرب الخمر أو لعب القمار أو الزنا أو غير ذلك من الاعمال التي لا تمثل أي مدلول اجتماعي من ناحية عامة ، لأن القضية ليست قضية سلامة النظام الاجتماعي ، بل المهم هو سلامة المجتمع من خلال الصحة الروحية لأفراده المتمثلة في الانضباط العملي في اطار المفاهيم الخلقية في الحياة . وقد يتمثل ذلك في الحالات التي تدعو الظروف الاضطرارية المحيطة بالانسان الى ممارسة بعض الأعمال المحرمة كالكذب ، فان الاسلام يشجع على الابتعاد عن الكذب في داخل نفسه ، حتى في بعض الحالات الاضطرارية الطارئة ، فاذا حصلت لك

احدى هذه المسوغات ، فحاول أن تستخدم التورية التي تمثل اعطاء الكلمة مدلولاً غير ما يفهمه السامع منها في ظاهر الحال لتكون صادقاً عند نفسك وان خيلاً للآخرين أنك كاذب ، مثلاً ، لو سألك انسان عن وجود شخص عندك ، ولم تكن هناك امكانية في اخباره بذلك خوفاً من ظلمه له ، أو من مفسدة أخرى تتعلق بك أو بالمجتمع ، فان بإمكانك أن تقول له انه غير موجود ، وتشير الى مكان معين في داخل البيت ، من دون أن تشعره بهذه الاشارة النفسية ، انك ، بهذا الأسلوب لا تجعل الظرف الاضطراري يضغط على أخلاقك لأنك لم تتعد عن خط الصدق في ممارستك الداخلية للموقف ، بل كل ما فعلته ، أنك أوهمت الآخرين ذلك ، مع محافظتك على القاعدة الصلبة التي تتحرك منها أعمالك وتتركز عليها شخصيتك في الحياة .

ان الاسلام يعتبر الانسان هو القوة الدافعة للحياة فلا بد للتشريع من التوفر على جميع كل عناصره الذاتية التي تساهم في صنع القوة واستمرارها ليستطيع قيادة الحياة من موقع قوي لا يضعف أمام الصعوبات ولا ينهار أمام الاغراءات ، وعلى ضوء ذلك نرفض اعتبار الجنس أو الاقتصاد وغيرهما أساساً للتطور والتقدم ، كما اعتبره الآخرون ، فان مثل هذه العوامل تنطلق من حركة الانسان في الداخل والخارج وليست دافعة لهذه الحركة .

* * *

اننا أمام هاتين النقطتين نواجه الجواب عن السؤال الأساسي ، هل الاسلام يتجه الى الثورة في حركته ، أو يتجه الى الاصلاح ، فأيهما نختار . . ؟

لعل الجواب الصحيح هو اختيار كلا الاسلوبين في العمل

الاسلامي ، فقد نجد من الضروري أن نمارس العمل الاصلاحى في
أوضاع الانحراف الفردية والاجتماعية فنحاول اصلاح ما يمكن اصلاحه
انطلاقاً من النقطتين السابقتين ، فان في ذلك رضا الله ، وبناء الانسان
على خط الاستقامة في خط الاسلام مهما أمكن لنحقق حكم الله ولو
في المجالات الجزئية ليبقى حياً ماثلاً أمام الناس ولو في صورة مصغرة
غير كاملة ، وليكون دوره في عملية التغيير دور النموذج الطيب الذي
يعطي الناس الفكرة المجسدة ، ولو في قضية محدودة ، ولا يمنعنا
ذلك من الانطلاق بعيداً في عملية التغيير الشامل في اطار الخطة
الشاملة لأننا لا نعتقد بوجود تناقض أو تضاد بين الاتجاهين ، لأن
الاسلوب الاسلامي في العمل لا يعتبر العنف وسيلة وحيدة للتغيير ،
بل يعتبر الدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي
أحسن ، هي الوسيلة المثلى الطبيعية التي تملأ الوجدان بالايمان وتغير
الانسان على صورة الحق بالطريقة الطوعية الاختيارية التي تجعل من
الايمان موقفاً ذاتياً للانسان ينطلق من تفكيره ، لا من تعليمات فوقية
تأتيه من الآخرين ، فيسير في عملية التغيير لما حوله بثقة وواقعية .

وربما كان الاسلام يرفض النظرة الماركسية التي تؤمن بالعنف
كأساس وحيد للتغيير ، وتفسح المجال لخلق مشاكل جديدة ، وتعقيد
المشاكل الحاضرة لتعطيل مسيرة الاصلاح الجزئي ، وليس معنى ذلك
أن الاسلام يرفض العنف كمبدأ ، حتى في المجالات التي تتجمع فيها
القوى الشريرة لتقف سداً منيعاً أمام تقدم الإسلام في الدعوة وفي العمل ،
بل الاسلام ، في تشريعه الواقعي ، يتبنى العنف الدفاعي المتمثل في
رد العدوان بمثله ، كما يوافق على العنف الوقائي الذي يتمثل في
مهاجمة الآخرين من موقع حماية الاسلام من الهجمات التي يستعد
العدو لتوجيهها للمسلمين ، وان لم يبدأ الهجوم بعد . . فان القضية

هي ان العنف ليس القاعدة الأساسية في عملية التغيير .

وعلى ضوء هذا يمكن لعملية الاصلاح ان تسير جنباً الى جنب مع خطة التغيير الشامل ، بل قد تقوم الاولى بدور الاعداد للثانية اذا راعينا في مسيرتنا التخطيط المرحلي الدقيق الذي يوزع الخطة على عدة مراحل ، فيمكن للانسان المسلم أن يعمل في النطاق الفردي الذي يبني الأفراد المسلمين ، ويمكن للأفراد المسلمين أن يعملوا في النطاق الاجتماعي من أجل تحقيق مجتمع اسلامي صغير ، ثم يشترك الجميع في التخطيط العملي ، والتنفيذ المرحلي لقيام حكم اسلامي شامل ، لان ذلك كله يتحرك في الخط الذي يحقق رضا الله في القضايا الصغيرة والكبيرة .

ففي المجال الفردي : اذا استطعنا أن نقنع انساناً بالصلاة أو الصوم أو بالحج أو غيرها من الواجبات العبادية أو غير العبادية ، أو أن نساعده على ممارسة ارادته الاسلامية في ترك بعض المحرمات كشرب الخمر أو الزنا أو القمار أو الكذب أو الغش أو الخيانة وغيرها من المحرمات ، مما يدخل في فعل الطاعات واجتناب المعاصي . . فلتتحرك في هذا السبيل ، من قاعدة الجوب لا من قاعدة الاستحباب أو الاباحة التي لا تلزمنا بالعمل بل تتركه لاختياراتنا الذاتية ، وعلينا أن لا نلتفت الى قول من يقول : ان هذا عمل جزئي صغير لا يحقق هدفاً كبيراً ولا يتناسب مع حجم العمل الاسلامي الضخم ، بل يجب علينا أن نقف مع حكم الله الذي يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأشياء الصغيرة والكبيرة واجباً اسلامياً كفاثياً على المسلمين جميعاً لأن هدف الاسلام أن يبقى الانسان المسلم الفرد انساناً مسلماً بكل الامكانيات التي يملكها في تطبيق حكم الاسلام على نفسه . . أما

حكاية عدم تناسب هذا العمل مع حجم العمل الاسلامي الضخم ،
فانها حكاية ساذجة تمثل سذاجة الفهم الحركي للعمل ، لان من أولى
خطوات الأعمال الكبيرة هي الخطوات التي تريح فيها أشخاصاً وترتيبهم
على صورة العمل فكرة وعملا وأسلوباً . . لان ذلك هو الذي يحقق
عملية الارتباط العضوي بين الوسيلة والهدف .

* * *

وفي المجال الاجتماعي ، يمكن للمسلمين أن يندفعوا في تغيير
بعض الأحكام والقوانين المخالفة للإسلام اذا وجدوا الى ذلك سبيلا ،
أو يعملوا على رفض الدعوات التي تريد الغاء اعتبار الاسلام ديناً
رسمياً للدول التي تسمي نفسها بالدول الاسلامية ، كما نجده في
بعض الحالات التي تثور فيها الجماعات الكافرة أو الضالة على هذه
المادة القانونية باعتبار أنها تتنافى مع الاتجاه التقدمي للدولة أو الحقوق
العامة للمواطنين غير المسلمين . . . فقد يكون من الواجب علينا أن
نقف ضد هؤلاء لاننا نريد لهذا الشعار أن يبقى حياً ماثلاً في أفكار
الناس وفي حياتهم العامة ، ليشير اليهم دائماً أن من الممكن أن يكون
الاسلام في المستقبل نظام هذه الحياة الشامل ، ويمنحنا الرصد
المستمر للقوانين غير الاسلامية التي تقرها هذه الدولة أو تلك على
أساس هذه المادة القانونية ، ولا يتنافى ذلك مع عدم اعترافنا بواقعية
هذه المادة في اطار القانون العام للدولة . . ولكنه الاسلوب الذي يريد
أن يبقى الاطار العام للصورة وان حاول الآخرون تبديل الصورة أو
تشويهها داخل الاطار . . وقد يعتبر بعض الناس هذا الاسلوب داخلا
في عملية تزييف الصورة الاسلامية عندما تبرز الواجهات غير الاسلامية
في اطار اسلامي ولكن . . قد يكون ذلك في الأساليب التي يستريح
فيها العاملون لمثل هذا الواقع فيتركون العمل في رصد الجوانب العامة

للانحراف ، اكتفاءً بهذا الاطار ، ولكننا نظل نتحرك في عملية ربح للمواقع وتحريك للمواقع الأخرى في اتجاه التصحيح . . لئلا تختلط المواقف في وعي الناس للحياة على ضوء الاسلام وقد يجب علينا أن نتحرك في اتجاه حماية الوجود القانوني للأحوال الشخصية للمسلمين في نطاق المحاكم الشرعية من الحملات التي تشن عليه باسم الدعوة الى العلمانية ، وتوحيد التشريعات القانونية للأحوال الشخصية للمواطنين ، لأن القضية - في هذه الحملات والدعوات - أن يتجه التفكير الى اعتبار الدين غير صالح للتقنين والتشريع لحياة الناس ، واعتبارهما شيئاً يتعلق بارادة الناس واختيارهم مما يتنافى مع الاساس الفكري للاسلام ، ويؤدي بالتالي ، الى كثير من التعقيدات العملية في المستقبل من أجل تغيير هذه الفكرة من حياة الناس الفكرية والعملية ، هذا من جهة . . ومن جهة أخرى فان هذا الالغاء يوجه الناس الى الانحراف في حياتهم عن أحكام الاسلام ، بالالتزام بأحكام غير اسلامية مما يخلق عندهم ازدواجية في أوضاعهم العامة ، ويوقعهم في مشاكل كثيرة في قضاياهم الخاصة .

أما في الاطار السياسي ، فربما كان من الضروري العمل على المشاركة في اضعاف الحكم الظالم وتحطيم قوة الظلم والظالمين ، لتخفيف وطأة الظلم على الواقع المعاش للناس . . وقد يلزمنا في هذا المجال ، التوفر على دراسة الظروف الموضوعية التي تعطينا فكرة عن طبيعة النظام البديل الذي يأتي على أنقاض هذا النظام الذي يراد تهديمه ، أو طبيعة الشخص البديل في حالة العمل على تبديل الأشخاص ، لأن لذلك أهمية كبيرة في الخطوات العملية التي تقتضيها طبيعة المرحلة ، اذ لا يجوز في أية حالة من الحالات ، العمل على تبديل واقع سيء الى واقع أشد سوءاً اذا كان التبديل الى الواقع الخير

غير عملي في نطاق المرحلة ، بل ربما يكون الموقف هو الاصرار على المنع من عملية التبديل هذه بمختلف الوسائل المشروعة .. ولا بد في هذا كله من مواجهة الموقف بدراسة موضوعية شاملة في اطار الوعي السياسي المتكامل .. ومن التأكيد على الابتعاد عن الروح الانفعالية التي تنطلق الى العمل من خلال الأسلوب الانفعالي الذي يتجه في خطواته الى ما يشبه ردود الفعل للواقع بعيداً عن أية خطوة ، في موقع الفعل المستقل .. وقد يجب علينا - في هذا المجال - أن لا نستسلم للضغوط العاطفية التي تريد منا التحرك بأي ثمن ، وبدون تفكير في العواقب والتتائج ، انطلاقاً من الزهو الذاتي بالمواقف الجهادية ، أو تخلصاً من اتهامات الآخرين لنا بالبعد عن روح الاسلام في الجهاد (من دون تفكير منهم بطبيعة هذا التشريع الاسلامي من خلال ظروفه وأساليبه) وبكلمة مختصرة : ان علينا أن نعرف طبيعة الأوضاع السياسية المعقدة التي يتحرك فيها العمل السياسي في المنطقة وفي العالم ، لثلا نكون خاضعين في تحركنا - لتأثيرات سياسية مضادة لما نؤمن به أو نعمل له ، من دون وعي أو شعور ، وذلك بدراسة الخلفيات السياسية للموقف والتطلعات المستقبلية للحركة المطروحة على صعيد الواقع .

* * *

إن علينا أن نواجه الحقيقة الحاسمة في نظرنا إلى العمل وأساليبه ، وهي أن الإسلام لا يريد للحياة أن تعيش الفراغ من جهة حكم الله في أية مرحلة من مراحلها فلا يجوز لنا أن ننتظر زمناً طويلاً لنطبقه ، فنبقي الحياة فارغة من الرسالة في مجالها العملي ، بل لا بد لها من أن تتحرك مع الإنسان في جميع مجالاته ، وبهذا كان الإسلام أمانة الأفراد المسلمين والمجتمع المسلم من جيل إلى جيل ، حيث

يحملونه بالكلمة والفكرة والعبادة والعمل ، لتفرز الكلمة كلمة جديدة تنطلق في وعي الأمة على امتداد الطريق ، ولتتحرك الفكرة في عمق الإنسان من أجل أن تبعد الفكرة على صورتها ومثالها ، ولتنطلق العبادة إلى جانب العمل لتشهد الله على أن عبودية الإنسان لله وخضوعه له لا يحدها زمان ولا مكان ، ولتحقق هذه الأمور كلها الفكرة التي تقول : إن الإنسان إذا لم يستطع أن يحل المشكلة على نطاق واسع ، فإنه يستطيع أن يقترب ، ولو قليلاً من روحية الحل أو من الأجواء التي تساهم في الاعداد له .

إننا نرفض الفكرة التي تدعونا إلى الامتناع عن الأعمال الإسلامية الوعظية التي يراد منها صنع الفرد السلم على قاعدة روحية ، وربطه بالله من خلال العبادة والعمل ، لأننا نعتقد - كما ألمحنا إلى ذلك في بداية الحديث - أن الحكم الإسلامي - عندما يكون هدفاً - لا يراد به إلا تحقيق رضا الله ، وفي هدى ذلك نقرر . . أن تحويل الإنسان إلى إنسان يؤمن بالله ، هو هدف من أجل رضاه وإن تربية الإنسان على العبادة هو هدف من أجل رضاه ، وإن عمل الإنسان المسلم من أجل تعليم الناس كيف يصلون لربهم ، وكيف يمارسون العمل على أساس قوانين الإسلام ، في العمل ، وكيف يتحركون في السوق على الخط الإسلامي في التجارة ، وكيف ينطلقون في الحياة العامة ليعبروا بالتطبيقات الإسلامية الجزئية عن المفاهيم الإسلامية الكلية كنموذج حي للفكرة . . إن هذا كله هو هدف من اجل رضا الله .

إننا لا نتعامل مع المصطلحات السياسية التي تطرح القضية على أساس المفاضلة بين الثورة والاصلاح ، بل نتعامل مع حكم الله أينما كان ، ومع كلمات الله التي عبرت عن الفكرة الشاملة بكلمة التغيير التي تتحرك في حياة الفرد والمجتمع والدولة ، ولهذا نختارها بدلاً عن كلمة الثورة . . . وليس معنى ذلك أننا لا نملك أو لا نريد أن نضع

خطة عمل شاملة تجعل لكل عمل موقعه الطبيعي فان ذلك هو دور الرواد الذين يتحركون من أجل تحريك طاقات الأمة وتفجيرها في كل اتجاه تقتضيه مصلحتها ، ويظلون يفكرون ويخططون من أجل أن تتحول الطاقات الى خطوات عملية تسير في طريق الهدف الكبير الذي يحقق حكم الله على الاساس الشامل .

انها فكرة أحببت أن أثيرها أمامكم من أجل أن نفكر فيها بهدوء لثلاث نبقى مشدودين الى أجواء الآخرين من خلال مصطلحاتهم السياسية وغير السياسية ، لانها انطلقت من طريقتهم في التفكير ، في الوقت الذي نملك فيه مصطلحاتنا التي ترتبط بتفكيرنا وبأحكامنا الشرعية ، وذلك هو الأساس في الأصالة الفكرية والعملية . . أن تكون أصيلا في مفاهيمك ومصطلحاتك وكلماتك ، وفي فهمك لقضايا الحياة ، وفي أسلوبك للتعامل معها على اساس التفكير الاسلامي الأصيل .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

لكل سؤال جواب

- الدين والسياسة والاقتصاد وغيرهما .
- التبشير وخطره في المجال التربوي .
- الشباب أمام الأفكار الوافدة .
- شبهات حول المرأة ، تعدد الزوجات ، الحجاب ، قيمومة الرجل على المرأة ، جعل الطلاق بيد الرجل ، ونصيبتها في الميراث .
- تفسير آية : والذين يرمون المحصنات .
- المرأة المسلمة وموقفها أمام تطور الأزياء .
- سؤالان أدبيان :
- ما هي رسالة الأديب في الحياة اليوم ؟
- ما هي مؤهلات الطالب ليكون أديباً ؟

أجرت مجلة المواقف التي تصدر في البحرين حواراً مع سماحة السيد محمد حسين فضل الله حول كثير من المواضيع الاسلامية والسياسية ، ونحن نقتطف منها بعض الأسئلة والأجوبة التي تتناسب مع الطبيعة الثقافية الاسلامية لهذه الحلقات .

* * *

الدين والسياسة والاقتصاد و . .

س ١ : البعض يقول بفصل أو انفصال الدين عن السياسة والاقتصاد أو غيرهما من مجالات الحياة . . فما هو ردكم على ما يقولون ؟

ج ١ : انني أعتقد أن هذا الرأي كان منطلقاً من النظرة الى الدين في اطار الممارسات التي عاشها الدين في بعض المناطق الأوروبية .

ولا أعتقد أن الاسلام يسمح بهذه النظرة . . لاننا نعتقد أن الاسلام يحتضن فكرة الدولة في مفهومه للحياة وفي تشريعه الذي يتسع

- في اطار الفقه الاسلامي - لمختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بحيث ان أقل قراءة واعية للمواد الفقهية القانونية تدفع الانسان الي الإقتناع بهذه الحقيقة . . واذا كان بعض المفكرين المسلمين يناقشون في وجود نظريات اسلامية للحكم أو عدم وجود مثل هذه النظريات فان الكثرة الاخرى لا ترى هذا الرأي بل تعتبر قضية الحكم أساسية في مفهوم الاسلام للحياة .

اننا نعتقد أن مشكلة الكثيرين ممن يطرحون هذه الشعارات حول الدين ، انهم لم يقرأوا الاسلام قراءة واعية من خلال تشريعه ومن خلال ممارسته العملية عندما كان يقود الحياة في جميع مجالاتها بحيث لم يترك أي فراغ فكري أو تشريعي يشعر الناس معه بحاجتهم الي غيره ، ولذا فاننا ندعوهم الي قراءة الاسلام من جديد ، وندعوهم - بكل محبة - الي الحوار حول هذه الشعارات بالأسلوب الفكري الذي يحترم وجهة نظر الآخرين ، كما يريد من الاخرين ان يحترموا تفكيره ولا نريد لهذه القضايا أن تعيش في ظل المزادات السياسية التي يريد فيها كل طرف أن يسجل نقطة ضد الفريق الآخر ليتحول الموضوع الي ما يشبه « حوار الطرشان » .

اننا نجد في الاسلام كل الغنى الروحي والفكري والاجتماعي والسياسي ، وان كنا نشعر بالحاجة الي دراسة فقهية جديدة تضع في حسابها صياغة الفقه الاسلامي بأسلوب قانوني على أساس لغة العصر وحاجاته لأن مثل هذه الدراسة تسهل مهمة الدارسين والباحثين الذين يريدون أن يعرفوا الحقيقة من أقرب طريق .

اننا نعتقد أن الاسلام لا ينفصل عن السياسة ولا عن غيرها من مجالات الحياة لانه لا ينفصل عن الحياة في مختلف نشاطاتها العامة

والخاصة ، على هدى الآية الكريمة التي تحدد الأهداف الكبرى لبعثة الأنبياء بالحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وذلك هو قوله تعالى :

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . . » ٢
- ٢١٣ .

التبشير في المجال التربوي :

س ٢ : المدارس التبشيرية أصبحت منتشرة في كثير من البلاد الاسلامية ، والاقبال عليها من قبل بعض المسلمين صار ملحوظاً فما رأيكم بهذه الظاهرة ؟ وما هي ابعادها ؟ وما العلاج ؟؟

ج ٢ : اننا نشعر بالخطر الكبير الدايم على الاسلام والمسلمين في انتشار المدارس التبشيرية نظراً الى أن المخطط التبشيري يعتمد الأساليب التربوية - في ضمن خطة شاملة - في ابعاد المسلمين عن دينهم الحق وربطهم بدين آخر ، أو تشكيكهم في دينهم ، ولعل الاخير هو الحاصل فعلاً . . ويحاول ان يثير في وعي الناس وفكرهم الشعور بالمستوى الكبير الذي تمثله هذه المدارس من ناحية علمية ، الامر الذي يدفع الكثيرين من المسلمين الى ادخال أبنائهم في هذه المدارس لرفع مستواهم العلمي .

ونحن - في الوقت الذي نسجل فيه تحفظنا على ما يثار من المستوى الكبير العلمي عنها - نشعر بالحاجة الى انشاء مدارس علمية اسلامية في مستوى جيد ، لتسد هذا الفراغ ، وتمنع هذا الخطر على عقائد أبناء المسلمين ، ولا يقتصر الأمر - في هذا - على الخطر التبشيري بل يمتد - في مدارس أخرى - الى الخطر الالحادي

وغيره . . . و نعتقد ان ما ذكرنا هو العلاج الطبيعي لهذه الحالات . .
أما أبعاد هذه الظاهرة فهي كثيرة . . . ولعل أهمها افساح المجال
للمخططات السياسية وغير السياسية التي تستر وراء التبشير من أجل
السيطرة على الانسان المسلم و ثرواته الطبيعية والاقتصادية ونصح - في
هذا المجال - بقراءة كتاب « التبشير والاستعمار » .

اننا لا ننطلق - في حديثنا هذا - من موقع التشنج الطائفي
السياسي ، بل كل ما نريد أن نقوله ، هو أن المؤسسات التبشيرية
كانت منسجمة مع نفسها في انشاء هذه المدارس . . فلماذا لا نكون
منسجمين مع مصلحتنا الاسلامية والوطنية في رفض هذه المدارس
وانشاء مدارس جديدة نعرف خلفياتها ومنطلقاتها ، لاننا نحن الذين
نقوم بصناعتها من خلال خلفياتنا ومنطلقاتنا التي نعرفها جيدا لاننا
نعرف أنفسنا كما لا يعرفها الآخرون .

* * *

الشباب أمام الافكار الوافدة :

س ٣ : في خضم الافكار الوافدة من هنا وهناك التي تجلي
خطرها في بلبلة وضياح من انساقوا وراءها وانجرفهم في تيارها ، بماذا
تنصحون شبابنا وشاباتنا وهم يصارعون هذه الافكار أو تصرعهم ؟

ج ٣ : ربما لا أريد أن أتخذ لنفسني صفة الواعظ والناصح الذي
يريد أن يقدم المواعظ والنصائح لشبابنا من موقع فوقي . . . لان
كلمات الوعظ والنصيحة قد استهلكت حتى لم تعد تمثل شيئا لدى
القائل والسامع ، ولكنني أريد أن أقف لأفكر معهم في قضية أساسية ،
وهي ان موضوع الايمان بفكرة والارتباط بها ، أو الدعوة اليها لا يمثل
شيئاً ذاتياً يتصل بالحالة الفردية للانسان ، ليملك أمر الوقوف موقف

اللامبالاة منها تارة ، أو موقف التنقل من موقع الى موقع آخر ، تارة أخرى ، أو المسامحة في ملاحظة جوانبها الفكرية والعملية في كثير من المجالات ، بل هو من القضايا التي تمثل قضية المصير للفرد وللأمة فاننا عندما ندعو الى أي فكر ، فمعنى ذلك أننا ندفع مصير الأمة في هذا الاتجاه ، واننا نتحمل مسؤوليته في كل نتائجه أمام الله وأمام التاريخ ، مما يجعل القضية في مركز الخطورة في الدنيا والآخرة . . ولهذا فانني أعتقد أن علينا جميعا - ان نفق - من موقع المسؤولية ، وقفة هادئة عميقة ، لنقارن ونوازن وندرس ونحلل كل ما يقدم لنا من تيارات وأفكار ، لنختار الأصلاح من بينها أو الأسلم لنا في كل خطوات المصير ، لانه لا يكفي أن يعيش الانسان المشكلة ليندفع وراء أي حل لان بعض الحلول المطروحة قد تطرح مشاكل جديدة أكثر ضخامة من المشاكل القديمة ، مما يجعلنا نعيش في دوامة فكرية وحياتية .

وقد يقربنا من هذا الموقف معرفتنا بالطبيعة الذكية المخادعة التي تتحرك فيها أجهزة الاعلام الفكرية والسياسية في العالم ، عندما تسخر كل ما تملكه من قوى العلم والضغط الفكري والمادي في سبيل تركيز مبادئها وأفكارها ، الأمر الذي يجعلنا نواجه أساليب الاعلام السياسية والحزبية والفكرية بحذر علمي وروحي دقيق ، لثلا نقع في الهوة دون وعي .

وفي نهاية المطاف أرجو أن يفتحوا على الاسلام بكل ما فيه من غنى روحي وفكري وتشريعي في جميع جوانب الحياة ، وأن لا يحكموا على الاسلام من خلال الكلمات غير المسؤولة أو غير المدروسة من التي تنطلق من رجاله أو غير رجاله ، بل يعملون على دراسته من خلال دراسة مشاكل الحياة ، أو من طبيعة الحلول التي

يقدمها في ينايعة الأصيلة ، لنحصل من خلال ذلك على النتيجة الحاسمة التي تجعل منه دين الحياة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولتقف بنا - في نهاية المطاف - على الخط المستقيم الذي يجعلنا نتطلع الى رضا الله في كل شيء ، لان من عرف ربه عرف نفسه ، ومن أَرْضَى ربه فقد قاد حياته في الاتجاه السليم ، حيث سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

* * *

س ٤ : دار نقاس حول ما يثار بين آونة وأخرى من شبهات حول المرأة ، لأكثر من قصد ، هذه الشبهات التي يثيرها أعداء الاسلام تارة ، وبعض أبناء المسلمين تارة أخرى - اما جهلاً أو عناداً لاشعار المرأة بأنها « مظلومة » وبالتالي جعلها تتطلع وتنخدع بما يصدره لها اعداؤها في كل مكان من أفكار لا تتفق ومكانتها السامية التي وضعها الله فيها وكرمها بها .

والسؤال هو : ما أكثر الذين اتهموا الاسلام - ولا يزالون - بانه « رجعي » بالنسبة للمرأة ويستدلون على ذلك بتعدد الزوجات ، الحجاب ، والطلاق بيد الرجل ، وقيومة الرجل على المرأة ، ونصيب الرجل المضاعف في الميراث . . وعلى هذا فان الاسلام قد « ظلم » المرأة في نظرهم ، فما هو ردكم على مثل هذه التهم؟؟

* * *

ج ٤ : لعل مشكلة الكثيرين الذين يتهمون الاسلام بالرجعية والظلم للمرأة ، او غير ذلك من النعوت . . انهم لا يملكون دراسة عميقة للأفاق التي يتحرك فيها التشريع الاسلامي ، أو تعيش فيها مفاهيم الاسلام . . ولذلك فاننا سنحاول أن نتحدث بايجاز عن بعض هذه الأفاق الاسلامية للتشريع في موضوع المرأة بالذات .

في البداية هناك سؤال يفرض نفسه . . لماذا يكون التشريع ؟
هل هو لحل المشكلة من جوانبها الواسعة ، أو هو مجرد تجربة في
ملاسة بعض جوابها . . ؟

وفي الجواب على هذا السؤال نختار الطرف الاول منه الذي
يفرض في التشريع أن ينظر الى المشكلة بعينين مفتوحتين ، لا بعين
واحدة . . وهنا يأتي دور التشريع الاسلامي لتعدد الزوجات لنضعه في
اطاره الواقعي في الحياة لنسأل من جديد . . .

لماذا العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة في الدوافع الطبيعية
للانسانية ؟

وتبرز أمامنا - في الجواب - عدة دوافع :

١ - مواجهة متطلبات الغريزة الجنسية في اشباعها بصورة
طبيعية .

٢ - مواجهة حاجة الانسان الى الشعور بامتداد حياته في أولاده .

٣ - مواجهة الحاجة الروحية الى الطمأنينة النفسية والسكن
الروحي الذي يدفعه الى ان يعيش بهدوء وانفتاح كلي مع انسان آخر
من دون أي حواجز أو حدود تقف بينه وبينه حتى في الجوانب
الحسية .

لعل هذه هي أبرز الدوافع التي يتحرك من خلالها الانسان
- الرجل والمرأة - ليرتبط بانسان آخر .

ويعود السؤال لي طرح نفسه من جديد . . .

ما هو الحل في الحالات التي لا يتوفر فيها اشباع الغريزة

الجنسية في الزواج الواحد ، بسبب السعار الغريزي ، أو بسبب الأوضاع النفسية التي تفرض نفسها على العلاقة الواحدة في حركة سلبية ، من خلال المؤثرات الداخلية أو الخارجية في الانسان . . . هل يطلب من الانسان الانحراف في علاقة غير شرعية ، أو يطلب منه كبت الأوضاع الخاصة التي تتحرك في داخله أو يفتح له مجال الممارسة الطبيعية لعلاقة زوجية أخرى في اطار من التنظيم الدقيق الذي يلتقي فيه بالاجابيات العملية في هذه العلاقة . . ماذا يطلب منه أمام هذه التساؤلات ؟

ان السماح له بالانحراف يمثل انهزام التشريع أمام المشكلة ، كما ان مواجهة المشكلة بتجميد أسبابها أو بتخديرها لا يعتبر حلاً واقعياً يحترم فيه التشريع نفسه . . فلا يبقى الا الحل الثالث الذي يواجهها بشجاعة وواقعية . . . فهو الذي يفرض نفسه في نهاية المطاف .

ولعل النظرة الى واقع العلاقات الجنسية في العالم يضع أيدينا على أن تعدد هذه العلاقات يعتبر ظاهرة عامة تدل على طبيعة الدوافع التي تدفع الانسان الى ان يتجاوز العلاقة الواحدة ويبحث عن مجال لذلك فينحرف عن الخط الصحيح ، بينما يقف الاسلام ليضع له خطواته في الطريق المستقيم .

وقد يظن البعض ان قضية الجنس لا تبعث على هذا الاهتمام الكبير . . . ولكن الرأي خاطيء ، لأن واقع الحياة أثبت لنا أنها تتدخل في كثير من المشاكل العميقة التي تقود الى الانحراف في أكثر من جانب من جوانب الحياة على ما نستوحيه من الحديث النبوي المشهور . .

« من تزوج فقد أحرز نصف دينه ، (أو ثلثي دينه) فليتق الله في النصف الآخر (أو في الثلث الآخر) » فانه يوحى بأن الاكتفاء الجنسي للانسان يخلق لدى الانسان المناعة ضد الانحراف في الكثير من نوازع الانحراف أو في أكثرها نظرا لما لها من التأثير الكبير على جوانب الانسان وجوارحه .

وقد يقول قائل : لماذا نحرم المرأة من هذا « التعدد » ما دامت الحاجة الغريزية مساوية لحاجة الرجل ؟

ولكننا نعرف من خلال الواقع ، ومن خلال دراسة الجانب الغريزي في المرأة والرجل . . . أن طبيعة الحاجة التي تقود الى الانحراف في اطار العلاقة الواحدة لا تصل في المرأة الى هذا المستوى في الحالات العامة التي ينطلق منها التشريع . . وقد نستطيع التعرف الى هذه النقطة عند القيام باحصائية عامة في الحالات التي تشعر فيها المرأة بالحاجة الى تعدد العلاقة مع أكثر من رجل ، كنتيجة للحاجة الى الاشباع الجنسي ، فاننا سنكتشف أن هذه الحالات لا تخرج عن الحالات القليلة الشاذة التي لا تخلق ما يشبه الظاهرة العامة التي يتحرك التشريع لمعالجتها . . وقد نقرب من هذا الجانب . . . اذا عرفنا أن الغريزة الجنسية معقدة لدى المرأة بحيث تحتاج اثارها إلى اعداد نفسي وجسدي طويل ، بينما نجد لها لدى الرجل ليست محتاجة إلا الى بعض الاثارات العابرة في أغلب الحالات . . مما يجعل حركة الغريزة لدى الرجل سريعة طاغية تجتاح كيانه ونزواته في كل وقت . . . ولسنا هنا في معرض التحليل الشامل لهذه النقطة ، بل نحن هنا من أجل اعطاء فكرة سريعة حول هذا الموضوع .

ويعود السؤال لي طرح نفسه من جديد ، في موضوع تشريع تعدد

قد لا ينجح الزواج في تلبية الحاجة الى الأبوة نتيجة عقم الزوجة ، فهل نطلب منه الصبر على هذا الحرمان ، أو نطلب منه طلاق المرأة ، أو نوحى له بتعدد العلاقة ؟

اننا نعتقد أن الحل الاخير يحفظ للمرأة حياتها الزوجية ، ويلبي للرجل حاجته مما لا يشعر الزوجان معه بالاحراج أمام هذه الحاجة ، بينما يتعد الحل الاول عن الاطار الواقعي للمشكلة . . ويسيء الحل الثاني للعلاقة الحميمة الروحية التي قد تشد احدهما الى الآخر مما يجعل من الطلاق مشكلة روحية وحياتية لكلا الزوجين . .

وقد نجد في الزواج المتعدد حلاً لمشكلة المرأة في الحالات التي تفقد فيها الأمة رجالها في الحروب وفي غيرها ، باعتبار ان الرجل هو الذي يمارس صناعة الحرب في أغلب الأحيان . . مما يسبب وجود الكثيرات من النساء من دون زوج نتيجة قلة عدد الرجال ، الأمر الذي يخلق جواً من الانحراف اذا لم نسمح بالزواج المتعدد .

ان هذه القضايا وغيرها قد تصلح تفسيراً لهذا التشريع في انطلاقة الاولى من أجل أن يواجه الاسلام المشكلة من منطلق الواقع لا من منطلق المثاليات البعيدة عن الواقع .

ولم يترك التشريع الاسلامي لهذه العلاقة المتعددة ان تنفلت وتتحرك في جو غير مسؤول ، بل حاول ان يحددها بحدود العدل في النفقة والمعاشرة ، ليخفف الكثير من السلبيات الناشئة من التعدد ، التي لا يمكن أن يخلو منها اي تشريع . . لاننا لا نستطيع أن نجد تشريعاً الزامياً أو ترخيصياً خالياً من السلبيات ، أو تشريعاً تحريمياً خالياً

من الايجابيات ، بل القضية كل القضية هي زيادة نسبة السلبيات على الايجابيات ليفرض التحريم أو الكراهية أو زيادة نسبة الايجابيات على السلبيات ليفرض الايجاب والاباحة والاستحباب . . وهذا هو ما نستوحيه في الآية الكريمة التي تتحدث عن الخمر والميسر . .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ
وَإِنَّهُمَا اكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا .

[سورة البقرة : ٢١٩] .

ولعل المجال لا يتسع لأكثر من هذا الحديث حول موضوع تعدد الزوجات فليطلب التوسع في الكتب الواسعة التي عرضت للجانب التحليلي والأخلاقي لهذا التشريع .

* * *

أما قضية الحجاب التي تمثل الاحتشام المتزن في الثياب التي تلبسها المرأة فتستر بها جميع أجزاء جسمها فيما عدا الوجه والكفين . . فانها تمثل التشريع الذي اراد الاسلام من خلاله أن يوحي باحترام المرأة لدى نفسها ولدى الآخرين عندما يريد لها أن تخرج في المجتمع كإنسانة لا تثير الغرائز ، بل تثير الاحترام ، مما يجعل صورة المرأة تتحول في وعي الآخرين ، من كائن جنسي لا وظيفة له الا اثاره الرجل واشباع شهوته ، الى كائن يتفاعل مع الحياة في فكره ونشاطه وعلاقاته العامة . . . ونحن نعلم أن طبيعة التبرج ، لا سيما في الأجواء التي نواجهها في هذا العصر ، يجعل النظرة العامة تتحرك في اطار الجنس لا في اطار آخر . . ولسنا نقول هذا بدافع ذاتي تقليدي يراد منه تبرير النظرة الاسلامية في هذا التشريع ، بل من موقع الاحصائيات العامة في هذا المجال .

وبكلمة واحدة . . ان الاسلام يريد لعلاقة الرجل بالمرأة في

المجتمع أن تعيش في جو نظيف طاهر ، ولا بد للتشريع من أن يعمل على حماية هذا الجو في كثير من مجالات الواقع ولهذا تتحول القضية الى جانب العدل بدلا من ان تقف في جانب الظلم ، لان قضية العدل والظلم تعيش في اطار انسانية الانسان ومصالحته العامة ، لا في اطار شهوته الحيوانية ومصالحته الذاتية .

* * *

ونأتي الى موضوع « قيمومة » الرجل على المرأة ، لتساءل هل القيمومة بمعنى « السيطرة » أو بمعنى الادارة والرعاية ؟ . . .

ثم . . هل هي في اطار علاقة الرجل والمرأة بصورة مطلقة ، أو هي في اطار العلاقة الزوجية فقط ؟

والجواب : ان « القيمومة » ليست السيطرة والسيادة التي تجعل الرجل مطلق الصلاحية في كل شيء ، بل بمعنى الادارة والرعاية التي تمنحه الحق في تطبيق الحقوق الزوجية وادارة شؤون البيت الزوجي من دون ان يكون له أية صلاحية خارج هذا النطاق مع زوجته أو مع أية امرأة اخرى حتى لو كانت ابنته . . فليس له ان يتصرف في مالها او في أي شأن من شؤون حياتها الخاصة والعامة فيما لا يتعارض مع حقوقه الزوجية الخاصة وليس له أن يلزمها بأي عمل من أعمال البيت أو أعمال الرعاية المباشرة لأولادها حتى في الارضاع . . وليس له ان يعتدي عليها بالضرب أو بالكلام أو بأي شيء آخر الا في بعض الحالات التي تتمرد فيها على حقوقه الخاصة ، وتتحول الى انسانية تعمل على تهديم البيت الزوجي فان للزوج أن يمارس بعض الأعمال التأديبية التي يراد منها ارجاعها الى الصواب . . وهكذا نجد أن القيمومة لا تعطيه أية صلاحية ذاتية أو مزاجية فيما يتنافى مع قيمة

المراة كإسانة مسقلة حقوقياً وانسانياً ، ففما عدا القفود اللى تفرضها طفبعة العلاقة الزوجفة الخاصة . . . أما منطلق هذه القفمومة فقد جعلها الله فى نقطففن أساسففن أشار الفهما الله سبحانه وفعالى فى كفابه المففد :

الرفال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ٤ - ٣٣ . اءءهما ففضفل الله الرجل ببعض الخصائص اللى ففعله أءدر على ممارسة هذه الاءارة ، ورفما فكون من ببنا قوة الجانب العاطفى لءى المراة ، ورفما فكون من ببنا عنصر الأمومة فى حالات الحمل والارضاع ورفها من الأمور اللى ففنعها من ممارسة ذلك ، ورفما فكون هناك شفء آءر لا نعلمه .

وئانفهما : انفاق الرجل على البفب كمسؤولفة مما ففعل له الحق فى الاشراف علىه ، وبكلمة واحدة . . الزواج شركة حياة فمن الذى ففءر الشركة ما ءامت لا فقبف ان ففمئل برأسفن ، هما الرجل والمراة . . ان الاسلام فطرح الرجل كمففر ومءبر ومشرف ، لان المراة لا ففطفع ممارسة ذلك بشكل كامل من خلال وضعها الجسءى ، ومسؤولفئها الأمومفة . . ولا ففمنع هذا من أن فكون لها بعض الجوانب اللى فملك فىها الفرفة آارج نطاق الحق الزوجى سواء فى ذلك جانب العمل أو جانب الفملك أو جانب العلاقات العامة . . أو فى امفناعها عن القفام بءءمات البفب المفعءاة . . حتى الارضاع وترففة الأولاء - كما ألمحننا فله آنفاً - فان الفشرفع الاسلامى ففعل هذه الاعمال فى ءائرة الاعمال اللى ففحق علىها المراة الأجرة ، كأى عامف آءرفى أى فقل من فقول العمل ، الا فى الفالات اللى فءخل فىها هذه الفءمات فى ضمن العقء كشرط من الشرط الضمفنة او الصرففة . .

لأن المؤمنين عند شروطهم الا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . .

* * *

أما جعل الطلاق بيد الرجل فيمكن أن يخضع تفسيره لعاملين :

الاول : ان الرجل هو الذي يتحمل المسؤولية المالية للعلاقة الزوجية سواء لجهة دفع المهر او للقيام بالنفقة . . وهو الذي يتضرر من خلال انهاء هذه العلاقة « بعيداً عن الواقع الاجتماعي الذي يضع المرأة في ظروف غير مستقرة اقتصادياً » وبهذا كان له الحق في ابقاء هذه العلاقة وانهاؤها .

الثاني : ان قوة الجانب العاطفي لدى المرأة قد يجعلها تسيء استعمال هذا الحق في أغلب الحالات لا سيما اذا كانت لا تخسر شيئاً مالياً من خلال ذلك . . وقد تكون هناك عوامل أخرى .

وقد جعل الاسلام للحاكم الشرعي الحق في انهاء العلاقة الزوجية من دون رضا الزوج في بعض الحالات القاسية ، كما اذا امتنع الرجل من الطلاق ، والانفاق ، فان للحاكم الشرعي الحق في طلاقها اذا طلبت اليه ذلك ، ويمكن له أن يطلقها في بعض الحالات الضرورية الصعبة التي تخاف - معها - على نفسها الانحراف والوقوع في الحرام كنتيجة للامتناع عن معاشرتها الجنسية من قبل الزوج للاضرار بها ، في رأي بعض المجتهدين مع تحفظ البعض الآخر في هذه النقطة بالذات - كما ان لها الحق - ، في رأي الكثيرين من المجتهدين - ان تشترط لنفسها - في ضمن العقد الزوجي - الوكالة عن زوجها في طلاق نفسها منه في بعض الحالات الطارئة التي يتفقان على تحديدها ، أو في كل الحالات ، ولا يملك الزوج أمر عزلها عن هذه الوكالة بعد ذلك ، وان كان الوكيل صالحاً للانعزال في غير هذه الحالة

وبهذا نعرف أن القضية لا تعيش في نطاق ضيق ، بل تتسع للحلول العملية التي تحرر المرأة من كثير من قيودها .

* * *

أما مضاعفة نصيب الرجل في الميراث ، واعتباره ضعف نصيب المرأة على ما هو منطوق الآية الكريمة .. للذكر مثل حظ الانثيين ٤ - ١٠ ، فليس انتقاصاً من كرامة المرأة ، لان الاسلام عندما أعطى الرجل هذا النصيب الزائد ، حمّله - لمصلحة المرأة - مسؤولية دفع المهر والنفقة لها وللأولاد .. وعندما أخذ من المرأة هذه الحصة أعفاها من كل المسؤوليات المالية تجاه زوجها وتجاه أولادها في داخل البيت الزوجي فمن يكون الأوفر حظاً في مجال الحق ، المرأة ، أو الرجل ؟ .. ربما يعلق بعض الظرفاء .. أن مثل هذا التشريع يوحى للرجل بطلب المساواة بالمرأة لأن قيمة الربح والخسارة تتحدد بحدود المسؤوليات التي يحملها التشريع للانسان ، فربما يكون صاحب الحصة القليلة التي لا تقابلها أية مسؤولية ، أوفر حظاً من صاحب الحصة الكبيرة التي تستنزفها المسؤوليات .

وبكلمة واحدة ، ان على الذين يهتمون الاسلام بالرجعية والتخلف والظلم للمرأة أن لا يؤخذوا بظواهر الأمور لو أرادوا أن يسيروا على خط العدل عند الحكم على الاشياء ، بل يجب عليهم - من جهة الحق والعدل - أن يقفوا وقفة طويلة عميقة ليقارنوا بين التشريعات الاسلامية التي يكمل بعضها البعض ، وليوازنوا بين الاسلام وبين غيره في هذا المجال ، وأن يفهموا الحقيقة التي تفرض نفسها على كل تشريع ، وهي ان التشريع يخضع لقاعدة فكرية تنطلق منها كل المواد القانونية فلا يمكن فهم التشريع الا بوعي تلك القاعدة .

أجل . . هذه نظرة الاسلام للمرأة ، وهذا هو موقعها التشريعي في الاسلام فهل ستبقى هذه الشبهات قائمة ، وهل ستظل المرأة أداة ولعبة للشيطان تسيرها الاصابع والأهواء الخبيثة لتحقيق الأغراض التي لا تتفق ورسالتها المقدسة .

انني واثق بأن المرأة المعاصرة عندنا - رغم ما يثار عنها وباسمها - قد أدركت سر اللعبة ، ولم تعد دمية في يد الآخرين .

أليس كذلك ؟

* * *

س ٥ : ما هو تفسير قوله تعالى :

وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمَحْصَنَاتِ مِنِّي أَيَأْتُوا بِالْبَاطِلِ مُشَاقِقِينَ فَجَلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾

[سورة النور : ٤] .

* * *

ج ٥ : لقد عالجت هذه الآية الكريمة قضية حماية الانسان في المجتمع الاسلامي من الأحاديث غير المسؤولة التي يتحدث بها الناس في مجالاتهم الخاصة والعامة مما يتعلق بنسبة الزنا الى بعض النساء المحصنات « وهن اللاتي أحصن بالزواج عن الانحراف » . . فقد دأب البعض على اطلاق التهم على اساس الظن والشبهة ، لخبر سمعه ، او ملاحظة عابرة لاحظها ، أو حالة مشبوهة شاهدها مع احتمالها لأكثر من وجه . . الامر الذي قد يحطم سمعة المرأة وكرامتها ويعرضها للسقوط في المركز الاجتماعي وربما يؤدي بها الى القتل في بعض المجتمعات التي يتصرف أفرادها من خلال مفهومهم للشرف الذي قد يتمرغ

بالوحدل اذا أثيرت بعض الكلمات التي تتهم المرأة بالزنا من دون تحقيق أو تثبيل ، لان القضية عندهم ليست قضية حصول الانحراف في الواقع أو عدم حصوله ، بل القضية هي غسل العار الذي أصابهم من خلال انتشار السمعة السيئة لدى الناس وان كانت بغير حق ، تماما ، كاية حالة اجتماعية يتعرض لها الأفراد في مركزهم الاجتماعي من خلال الاشاعات المتنوعة التي تنطلق ضدهم بغير حق ، فيحكم عليها المجتمع على أساس ذلك من دون تحقيق ، كما قال احد الشعراء ، وهو يعبر عن هذه الظاهرة الاجتماعية .

قد قيل ذلك إن صدقاً وإن كذباً

فما اعتذارك من قول إذا قبيلا

وقد أراد الاسلام للمرأة ، أو للرجل أن يعيش حالة الأمن والطمأنينة على حياته وسمعته ، فلم يسمح لأي أحد أن يتحدث عن أي أحد في هذا الاطار الاخلاقي الا اذا كان لديه البيئة العادلة التي تثبت الجريمة على اساس المشاهدة الحسية للفعل الجنسي من دون شك ولم يكتف - في هذا الموضوع - بشاهدين عدلين كما اكتفى بهما في أغلب الأمور ، بل اعتبر أربعة شهود ، امعاناً في التثبت وحماية للانسان من عبث العابثين في إطلاق التهمة بشكل غير مؤكد وقد جعل الله على هؤلاء الذين يرمون المحصنات من دون أن يملكوا الحجة الشرعية على اثبات التهمة ، عقوبة الجلد بمقدار ثمانين جلدة ، وحكم عليهم بالفسق ومنع المسلمين من قبول شهادتهم لأنهم فقدوا - بذلك - صفة العدالة التي تعتبر أساساً في قبول الشهادة ، وقد لعنهم الله في الدنيا والآخرة تأكيداً للقيمة الأخلاقية الاسلامية التي تتمثل في احترام الانسان المسلم في ماله ودمه وعرضه ، وحمايته من كل اعتداء

وذلك هو قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤٦﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾ .

[سورة النور : ٢٣ - ٢٤] .

وقد احتاط الاسلام للموضوع احتياطاً شديداً فاشتراط في رفع العقوبة عن الشاهد أن يكون معه ثلاثة شهود يشهدون بما يشهد به ويشتون على شهادتهم والا اعتبر قاذفاً يترتب عليه ما يترتب على القاذف من أحكام ، انطلاقاً من الآية الكريمة التي اعتبرت الجلد عقوبة لكل من لم يأت بأربعة شهداء فيشمل مثل هذا الشاهد .

وقد نستطيع أن نفهم من ذلك أن الاسلام لا يجيز للانسان أن يرمي الناس في أعراضهم الا في الحالات التي يراد فيها اثبات الزنا لدى السلطة الشرعية بالبينه التي تجمع كل شروط الاثبات ، لان الشهادة - بدون ذلك - تتحول الى عملية قذف وتشهير لا تحقق الا النتائج السلبية من دون ايجابيات تذكر لمصلحة العدالة .

وقد لا يكون هذا التشريع بدعاً في حركة التشريع الاسلامي في الحياة الاجتماعية ، بل هو جزء من خطة عامة متكاملة تضع الحدود الرادعة في الدنيا والآخرة ، لتعين الانسان المسلم على نفسه عندما تستيقظ نوازعه الذاتية الشريرة لتسيء الى الناس الأمنين المطمئنين الغافلين بالكلمات التي تدمر كرامتهم وتخرب علاقاتهم وتزيف الواقع الداخلي والخارجي لديهم ، وتشوه الحقيقة في وجدانهم فكانت التشريعات التي تحاسب الانسان على كلماته . كما تحاسبه على

أفعاله ، وتوحي له بمسؤولية الكلمة ، كما توحي له بمسؤولية الفعل لانهما يلتقيان في عملية صنع المجتمع الخير أو المجتمع الشرير ويتحركان من موقع النفس الخيرة التي تحب الله في ذاته وتحب الله في الناس ، أو من موقع النفس الخبيثة التي لا تحب الله ، ولا تراقبه في الناس .

ولسنا هنا في معرض الدراسة الشاملة لكل هذه الخطة ، بل نحن في مجال الاشارة الى موقع هذا التشريع من الخطة ، لثلا نفع في الخطأ الذي يقع فيه الكثيرون في النظر الى كل تشريع بصورة منفردة ، فان التشريعات الاسلامية مرتبطة بشكل عضوي في تنظيمها للحياة ، وفي تخطيطها لعملية صنع الانسان من الداخل . من اجل ان يمارس الحياة من موقع القاعدة الاخلاقية الروحية . . ولعلنا نستوحي علاقة ارتباط الداخل بالخارج في قضية بناء الانسان من الآية الكريمة التي أشارت الى اشاعة الفاحشة بالكلمة ، بأسلوب محبة اشاعة الفاحشة ، باعتبار الكلمة منطلقة من نوازع الانسان ودوافعه الذاتية ، وذلك هو قوله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشْبَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُعَلِّمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ . [سورة النور : ١٩] .

فقد ذكر بعض المفسرين ان الآية تتحدث عنم يشيعون الفاحشة بالحديث عنها بين الناس ، ولكن الله عبر عنه بكلمة (يجبون) للايحاء بأن التشريع يتحرك لحماية الانسان من الانحراف الداخلي باعتباره أساساً لجميع الانحرافات العملية الصادرة عنه . .

ونرجو من الله التوفيق للتخطيط لدراسة كاملة حول هذا الجانب

من التشريع الاسلامي للحياة الاجتماعية وهو حسبنا ونعم الوكيل .

س ٦ : هل يمكن للفتاة المسلمة أن تواكب حركة التطور العصرية فيما يتعلق بالأزياء التي تتغير بين وقت وآخر لتفرض على العرف الاجتماعي وضعاً جديداً يجعل التقييم خاضعاً لمقاييسه ، مما يؤدي بالفتاة الى ان تواجه الحرج الشديد في الخروج عن الطريقة المألوفة لدى رفيقاتها ويخلق لديها واقعاً نفسياً مرهقاً عندما تحس بالانفصال عن مجتمعها في طبيعة الزي التي تمثل شيئاً أساسياً في مجتمع المرأة .. وقد يتعاضم الأمر في الحالات التي تضطر فيها الى الحياة في أوروبا وأميركا مثلاً ..

ج ٦ : ربما يكون للجواب على هذا السؤال اكثر من جانب في النظرة الاسلامية لحركة التطور في الأزياء فيما يتعلق بالرجل أو بالمرأة .

فقد تطرح القضية من ناحية الحديث عن وجود زي اسلامي معين لا يجوز للانسان تجاوزه كما يخيل لبعض الناس الذين يستنكرون الخروج عن المؤلف في استحداث الأزياء بالشكل الذي تتجاوز فيه الاشكال القديمة .

والجواب عن ذلك ، ان الاسلام لم يحدد للرجل وللمرأة شكلاً معيناً للثياب التي يلبسانها بل كل ما هناك انه أراد للرجل ان يستر بعض أجزاء جسمه ، وأراد للمرأة أن تستر كل أجزاء جسمها ما عدا الوجه والكفين ، وترك لها الحرية فيما عدا ذلك ، بل قد نجد في بعض أحاديث الامام جعفر الصادق انه قال لبعض أصحابه « خير لباس الزمان لباس أهله » وقد نجد بعض التحفظات لدى بعض الفقهاء حول « لباس الشهرة » الذي يتمثل في الخروج عن الزي المؤلف في المجتمع بحيث يجلب الشهرة والاستغراب لدى الناس ، بين قائل

بالحرية وبين قائل بالكراهة . . ولكن هذا لا يرتبط بقضية التطور في الأزياء .

وقد تطرح القضية من ناحية اعتبار السير مع الاتجاه العام في الأزياء مظهراً من مظاهر التقدم الاجتماعي انطلاقاً من الفكرة التي ترى في تطور الأزياء انسجماً مع حركة التطور المعاصرة ، وتعتبر الانسان الذي يلتحق بها انساناً متطور الفكر تقدمي الاتجاه لأن المقياس في تقدم الانسان هو ايمانه بقضايا التقدم ومواجهته للحياة بروح عصرية منفتحة .

وأما تعليقنا عن ذلك ، فهو أن تطور الأزياء ليس خاضعاً لفلسفة اجتماعية مستوحاة من روح العصر ، بل هو خاضع للعوامل التجارية ، وللنوازع المنحرفة ، وللمخططات الشيطانية ، التي يملها المزاج الذاتي ، والمصالح الشخصية لأصحاب دور ازياء في العالم ، هؤلاء الذين يطلقون عليهم في الصحف اسم « ملوك الموضة » فيخططون الازياء في كل عام بطريقة خاصة لا يراعى فيها أي جانب من جوانب الأخلاق الاساسية للانسان ، ثم يفسحون المجال للانتشار من خلال دور العرض التي تقوم فيها عارضات الأزياء ، بعرض هذه الصرعات او « التقاليع » بأسلوب لا يخلو من عناصر الاثارة التي توحى للنساء بالأجواء الجمالية التي يمنحها الزي الجديد لحياتهن من حيث الفتنة والجمال والاغراء ، ويحيى بعد ذلك دور الممثلات ، أو المشهورات من نساء العالم اللاتي كانت شهرتهن باعثاً على تقليدهن في كل شيء من شؤون الأزياء والزينة ، وتتعاون الاجهزة الاعلامية من السينما والراديو والتلفزيون والصحف ومجلات الخياطة ، في اكمال البقية الباقية من الانتشار والازدهار لهذه التقاليع الجديدة فتتحول الى تيار اجتماعي .

وقد عرفنا من خلال « بروتو كولات حكماء صهيون » كيف كانت المخططات اليهودية تعمل على افساد العالم باثارة الشهوات وتشجيع الانحلال من خلال الوسائل التي تساهم في تهيئة هذه الأجواء في كل انحاء العالم بمختلف الأجهزة . وهكذا نرى أن القضية لا تنطلق من أساس فكري ، ولا ترتبط بأية قاعدة من قواعد التقدم والتطور الاجتماعيين ، بل تتحرك من خلال أناس لا يحملون مسؤولية الحياة بل يعيشون أجواء الربح والخسارة على أساس تجاري يرى في كل شيء سلعة تجارية بما في ذلك الاخلاق والدين والحياة والمصير .

وعلى ضوء ذلك فلا نجد في الانسجام معها انسجاماً مع روح التقدم وحركة التطور بل نجد - بدلا من ذلك - خضوعاً للقوى الشريرة في العالم ، واستسلاماً لمخططاتها المزاجية والانحرافية ، ووقوعاً في حبال الشيطان ، وخسارة للشخصية الانسانية المرتكزة على أساس الاخلاق الواقعية المثلى التي أراد الاسلام للانسان أن يسير عليها في كل مجالات حياته الصاعدة أبداً نحو الله .

وقد تطرح القضية من ناحية اعتبارها مظهراً من مظاهر حرية المرأة ، وتمرداً على القيود التي حملتها في روحها وجسدها مئات السنين . لان الجسد اذا تحرر في ثيابه تحرر في روحه بنفس المساحة التي تتحرك فيها حرите العملية في الحياة لان ممارسة الحرية في الجسد تؤدي الى انفتاح النوافذ الداخلية على الكون لاستقبال الشعاع القادم من بعيد . .

أما جوابنا على ذلك فيتمثل في مناقشة فكرة الحرية ، لأن قصة الحرية لا تتحرك في اطار الانفلات في مجاهل الفوضى ، بل تتحرك في دائرة المسؤولية الفكرية والمصيرية التي تحكم كيان الانسان ووجوده . . وبذلك نفهم معنى الحرية في الجسد وفي الروح لتساءل

مع المرأة التي تطالب بحرية اللباس في مختلف أشكاله الى حد العري . . ما هي نظرة المرأة الى نفسها . . هل هي مجرد انثى تنطلق الى الحياة من خلال اعتبار الطبيعة الأنثوية قيمة حياتية مقدسة ، ولذا فانها تعمل على اعطاء هذا الجانب كل اهتمامها وتقديسها ، وترى في ارتفاع عنصر الاثارة والفتنة والاغراء مفتاحاً للشعور بالأهمية ومجالاً للتباهي والتفاخر الأمر الذي يجعلها تعبد جسدها وتقديس كل جوانب الاغراء فيه ، وتتعبد له أمام المرأة كما تتعبد الى صنم ساحر . . أو هي انسانية تحمل في داخل شخصيتها عناصر الشخصية الانسانية التي تجمع الى جانب جمال الجسد ، جمال الفكر والروح والشعور ، وترى ان الجمال هبة من الله سبحانه ، فهو الذي اعطاه ، وهو القادر على ان يزيله ، وعلى الانسان أن يشكره على هذه النعمة كما يشكره على بقية نعمه باستخدامها فيما يرضيه لا فيما يسخطه . . وبذلك تتحرك اهتمامات الانسان الى السمو الروحي والفكري والاجتماعي من خلال قدراته الروحية والفكرية والاجتماعية .

ثم ما هي الفكرة التي تحكم حياتنا لتتحرك في الحياة العملية من خلالها هل هي الاسلام أو هي الكفر . .

فان كان الاسلام هو ديننا الذي ندين الله به عن قناعة واطمئنان ، واذا كان هذا الدين لا يعتبر المرأة الا من خلال انسانيته ولا يرى الجانب الأنثوي في مفهومه الجنسي الا جانباً خاصاً يحكم المرأة في اطار العلاقات الزوجية المشروعة التي يمكن للمرأة أن تلبى حاجاتها بحرية واشباع . . . فان من الواجب عليها أن تدرس التخطيط لحريتها في اطار هذا الدين بكل ما فيه من قيود المسؤولية . . لان القضية لا تكون قيوداً يحدد حرية الانسان بل تتحول الى ممارسة

للايمان الحر في أن يعبر عن نفسه بقوة واقتناع وهذا هو ما ينبغي للمرأة ان تواجه فيه الدعوة الى الحرية الجسدية التي تفجر لها حريرتها الروحية فيما يزعمون ، لان حرية الروح لا يمكن أن تنسجم مع عبودية الجسد لشهواته وشهوات الآخرين . . وهذا هو ما يريد التوجيه المنحرف أن يدعو المرأة اليه حتى تكون ضحية الغرائز والعواطف ليؤكد عبودية المرأة ولكن بطريقة عصرية على العكس من الطريقة السابقة للرق التي كانت تمارسه بأسلوب متخلف في أجواء الحرير ، وقد استطاع هذا التوجيه أن يبلغ غايته من خلال المجالات النسائية التي تحاول أن تجعل المرأة مشدودة الى جسدها في الحديث عن أجمل الأزياء ، وأحدث وسائل الزينة وأحلى انواع العطر . . فهذا يزيد لها جمالا ، وذاك يزيد لها سحراً وذلك يجعلها تسبح في أجواء العبير . . أما الفكر . . أما الحياة في جانبها الآخر . . أما الدين . . أما الاخلاق فتلك أحداث قد تثور في حياتها ولكنها لا تلامس الجانب الحميم من شخصيتها واهتماماتها . . وهذه هي مأساة المرأة العصرية التي تلهث وراء الطويل والقصير . . وتضحى بكل شيء من أجل كلمة حب ، وعرش جمال وتستسلم لكل خيالات الشعراء ، التي تطوف بالنفس في أجواء غزلية ساحرة عابقة بالخداع الشيطاني الحلو اللذيذ . .

انا نرفض هذا التشويه لشخصية المرأة - الانسان بتشويه فكرة الحرية في مفهومها المنفتح على النور من خلال الايمان بالله .

انا نريد للمرأة أن تكون حرة باسم الله . . ولا نريدها أن تكون رقيقاً يوحى اليه بالحرية باسم الشيطان . . وبذلك يمكن لها أن تحدد موقفها من الأزياء على أساس شريعة الله أو شريعة الشيطان .

سؤالان .. ادبيان

وجهت مجلة البذرة الصادرة عن ثانوية منتدى النشر في النجف الأشرف - العراق سؤالين حول رسالة الأديب في الحياة ، ومؤهلات الطالب من أجل أن يكون أديباً ، الى سماحة السيد محمد حسين فضل الله في عددها المزدوج الثاني والثالث في سنة ١٣٨٥ هجرية فأحببت أن نقتطفهما في هذا الباب لما لهما من الفائدة .

* * *

س ١ : ما هي رسالة الأديب في الحياة اليوم ؟

ج ١ : ربما كان من السمات الظاهرة للأديب الحق ، هو ، هذا الاحساس المرهف بالجمال والنظرة النافذة الى الحياة ، والعاطفة الصافية التي تجيش بالاحاسيس الخيرة والمشاعر الرقيقة . . وأخيراً ، هذا الغنى الروحي التواق أبداً الى العطاء والتطلع الواعي المتوثب دوماً نحو المجهول .

ربما كانت هذه السمات هي ما يميز الأديب عن غيره ، ويجعل منه انساناً آخر يعيش انسانيته في نطاق الحق والخير والجمال باعتبارها

من المعاني التي تمثل في حياة الانسان روعة القيم .

ذلك هو واقع الأديب الحق - في داخله - كإنسان .

أما طبيعة صفته - كأديب - فقد تجد فيه الانسان الذي يستطيع أن يجسد هذه المعاني في الكلمة ليجعل من الكلمة كائناً حياً يتحرك بالفكرة وينبض بالعاطفة .

وإذا أسطعنا أن نكوّن لأنفسنا الصورة الواضحة عن الأديب الحق ، التي تتلخص في كلمتين احساسه بالقيم ، وقدرته على التعبير عنها بصدق وابداع ، فقد نجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام رسالته كأديب ، لان ذلك هو الذي يحدد لنا ما يمكن أن يقدمه للانسانية من عطاء فيما تملك من ثروة . . وهذا ما يجعلنا نقرر أن رسالة الأديب في الحياة ، هي أن يثير في الحياة الاحساس الواعي بالحق ، والايمان العميق بالقيم الروحية المثلى ، ويوجه الانسان نحو المعاني الحلوة الجميلة في الحياة من أجل ان نجعل منها رحلة طيبة في دروب الله حيث السلام والمحبة والصفاء الروحي تهيمن كلها على قلوب الناس وتنساب في مشاعرهم في خدر لذيد .

وقد نستطيع - بهذه المناسبة - ان نقرر : أن كثيراً مما نشكو منه من مشاكل ومتاعب في حياتنا المعاصرة ، هو اننا بدأنا نفقد الاحساس بالقيم أو بالأحرى بدأنا نتطلع الى قيم مادية لا تنبع من داخل ذاتنا بل تنطلق من حاجاتنا المادية الجامدة ، مما جعل علاقاتنا وارتباطاتنا الذاتية تأخذ هذا الطابع ، فأفقدنا ذلك حرارة الحب وأبعدها عن الاحساس . بالاخلاص فأصبحت مجرد شيء آلي لا يمثل الا التعبير الجامد عن واقع مادي . . . وهكذا فقدنا التصور الصحيح للأشياء وتحولت المبادئ - من جراء ذلك - الى نظريات محنطة نستبدلها

ونستوردها كما نستورد المعلبات وأصبح الانسان مجرد شيء من الاشياء المادية ، ولم يعد الحب والجمال يمثل في حياتنا الا التعبير عن نداء الغريزة وواقع الجنس ، وعلى ضوء ادراكنا لهذا الواقع ووعينا للادب شعوراً وفكراً وتعبيراً ، ولما يستطيع أن يقدمه للانسان من عطاء خير . . نستطيع ان نجيب على السؤال المتقدم فنقول :

ان رسالة الأديب في الحياة هي أن يرجع الانسان الى انسانيته وذلك بأن يثير في حياته الشعور بالقيم والايمان بالمعاني الروحية الخالدة التي تحوّل الحياة الى جنان من النعيم وذلك بأن يجعل من أدبه التعبير الحي الصادق عن هذه المعاني السامية .

هذه رسالة الأديب بوجه عام ، أما رسالة الأديب المسلم الذي يحيا اسلامه في ذاته ويعيش قيمه في روحه ، فنحسب ان من أولى مهماته الرسالية هي أن يجعل من أدبه الصورة الحية المعبرة عن تصورات الاسلام وتطلعاته في مجال الحياة والانسان ، حيث يعمل الانسان المسلم من أجل أن يجعل من حياة البشر صورة مصغرة عن حياة الآخرة ونعيمها ، ويحول الانسان من كيان قلق ضائع متشائم ، الى كيان واثق بالله ، معتمد على نفسه ، متفائل حتى أبعد حدود الامكان انسجاماً مع الفكرة الاسلامية التي تقول على لسان النبي محمد (ص) « اني أحب الفأل وأكره الطيرة » ، ومن هنا كان باستطاعتنا أن نقرر في هذه اللمحة الخاطفة ، أن الأدب المتشائم ليس أدباً اسلامياً لانه لا يمثل الخط الاسلامي المتفائل للانسان المسلم في الحياة ، وهكذا يتحول الادب من وسيلة الترف الفني الى اداة نافعة في سبيل الله والعقيدة والانسان .

س ٢ : ما هي مؤهلات الطالب ليكون أديباً ؟

ج ٢ : أحسب أن أول شيء يجب أن يتوفر في الانسان الذي يخطو خطواته الاولى في الاتجاه الادبي هو أن يملك الموهبة الأدبية التي تعتمد على الاحساس المرهف والعاطفة الرقيقة ، وقد تكون هذه الموهبة فطرة في داخل الانسان . وقد تحصل بالممارسة والتأمل في الفنون الأدبية المتنوعة .

وإذا استقامت له هذه الموهبة ، فينبغي له أن يصقلها وينميها بالمطالعة الدائبة والقراءة المستمرة للأثار الأدبية الخالدة ، القديمة منها والحديثة ، ليحصل على ثقافة عميقة تمكنه من التفاعل بتجارب الادباء الآخرين ، والانسجام الفني مع خطواتهم ، الامر الذي يبعده عن السطحية والضحالة ويجعل تجاربه الأدبية ذات أصالة وعمق . ولا بد له بعد ذلك من أن يكون وثيق الصلة بحياته وحياة الآخرين من أجل أن يعيش التجربة الحية في اطارها الطبيعي ليكون أدبه غنياً بالتجارب والأفكار الحياتية ، لا مجرد صورة ساذجة لا تملك المضمون الحي العميق ، وانما تدور في نطاق فكرة ضيقة لا تستطيع الانطلاق بل تتعثر في تفاهات الألفاظ ومتاهات الضياع .

الحلقة العاشرة

أصل الصحة بين العدالة والسداجة

و

لِكُلِّ سُؤَالٍ جَوَابٌ

● أصل الصحة بين العدالة والسداجة .

● لكل سؤال جواب .

أصل الصحة بين العدالة والسذاجة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لعل من أهم الأسس التي يركز عليها بناء الشخصية الانسانية هي القواعد العامة التي تحكم فكر الانسان وسلوكه ، لأن ذلك هو الذي يحقق الوحدة لنشاطاته الفكرية والعملية فيوحد نظرته للواقع وتقييمه لأوضاعه في ضمن اطار فكري متكامل ، ويحقق لتطلعاته المستقبلية الخطة المتوازنة الشاملة التي تجمع خطوط السير في منعطفاته ومنعرجاته في نقطة واحدة واسعة . . ويحكم علاقاته العامة والخاصة منهج فكري وعملي يضع لكل علاقة اطارها الطبيعي المستمد من الفكرة الواحدة .

ولذلك ، فان علينا ان نبحث عن الفكرة الواحدة التي تحكم فروع التشريع ، وعن الخط الواحد الذي تنطلق فيه اساليبه العملية ، وعن الهدف الواحد الذي تتجه اليه الوسائل في الممارسات المتنوعة التي يمارسها العاملون . . . ذلك هو السبيل لفهم مفردات التشريع ومعرفة ابعاد الشخصية التي تنمو في أجوائه وتنطلق من جذوره .

وليست الشخصية الاسلامية للانسان المسلم الا لوناً من ألوان

المحاضرة التي القيت في قاعة اللجنة الثقافية الإسلامية في الغبيري - من ضواحي بيروت بتاريخ ٣ ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ الموافق ١١ - ٣ - ١٩٧٨ م .

الشخصية الانسانية التي تختلف ألوانها تبعاً لاختلاف القاعدة التي تنطلق منها وتتحرك في اطارها . . فلا بد من أن نتلمس ملامح هذه الشخصية في القواعد الفكرية التي يرتكز عليها الاسلام في عملية صنع الانسان على صورته ومثاله ، وفي القواعد العملية التي تحرك حياة الانسان في وسائله واهدافه ، من خلال الخطوط العملية لمسيرته العامة . . . ليتسنى لنا - من خلال ذلك - التخلص من الازدواجية القلقة التي نعيش معها التمزق الذاتي بين مدلول الشعار وممارسة الواقع . . انطلاقاً من حركة الواقع في خطة بعيدة عن طبيعة المضمون الذي يوحيه الشعار . . كنتيجة طبيعية لفقدان النظرة الموحدة التي تحكم الواقع من خلال الشعار لتوزعها بين فروع عديدة من الاحكام الشرعية التي لا نحاول توحيدها في ضمن دائرة واحدة تحقق الترابط بين مجالاتها . بل كل ما هنالك ، اننا نحصل من خلال الانسجام معها عملياً على (الخروج عن عهدة التكليف) او (ابراء الذمة) كما يعبر علماء الأصول من دون ان يكون هناك أي مدلول نفسي لكل ما نقوم به أو نتحرك فيه . . وربما كان ذلك هو السبب في بقاء الانسان المسلم خاضعاً لتقلبات المزاج المستمدة من حركة الواقع حوله ، في نظرتة الى الاشياء وتقييمه للآخرين ، وعلاقته بالأحداث ، في الوقت الذي لا نجده فيه بعيداً من ناحية عملية عن مفردات الشريعة ، لانه انطلق في فهمه للاسلام من خلال المفردات المتناثرة ، لا من خلال الكل الموحد المترابط الأجزاء . . مما جعل الاسلام يتحول في حياته الى ممارسة خارجية لا الى شخصية مستقلة تحكم الداخل في تفكيره ودوافعه لتحرك الواقع من هذا الموقع . . حيث نواجه في هذا الجو مسلمين طائعين . . ولكن بروحيات كافرة في نظرتها الى الواقع وتقييمها للحياة .

وعلى ضوء هذا نريد ان يتجه الباحثون الاسلاميون الى دراسة القواسم المشتركة التي تجمع بين الأحكام الشرعية في مجالاتها المختلفة من اجل اكتشاف جانب القاعدة فيها ، لنستعين بها على ربط الانسان المسلم بالحكم الشرعي من خلال القاعدة العامة التي تحكم موارده . . ليظل الحكم مرتبطا بقاعدته من أجل أن يعيش المسلم شخصيته في أجواء الاسلام ومنطلقاته .

* * *

وقد أثار الفقهاء في أبحاثهم الفقهية كثيرا من القواعد التي تعالج الموضوعات الاساسية المتنوعة في الحياة من خلال الأدلة العامة التي تطلق الحكم على أساس الموضوع الشامل . . فكان لنا من ذلك القواعد المتنوعة في أبواب العبادات والمعاملات والحدود وغيرها . . مما يجده الانسان في الكتب الفقهية التي صنف للبحث في القواعد الفقهية ، مثل قاعدة « لا حرج » و « لا ضرر » والوفاء بالعقود والوفاء بالشروط ، « وتبعية الاحكام للاسماء » وتبعية العقود القصور . . وغير ذلك . .

* * *

وقد تحدثوا عن نوع آخر من القواعد الفقهية التي تعالج حالات الشك التي تعرض للانسان امام كثير من الأوضاع والمواضيع والاشخاص ، واطلقوا عليها اسم « الأصول » كمصطلح أصولي يحدد للانسان كيف يواجه نوازع الشك في نفسه عندما يعيش حياته ، مع نفسه ومع الآخرين فكان لنا من ذلك « أصل البراءة » الذي يعبر عن الحكم ببراءة المكلف من التكليف الملزم عندما يفتقد الانسان الحجة على الالتزام ، « وأصل الاباحة » او « أصل الحل » الذي يتضمن

الحكم بحلية كل شيء لا يعلم انه حرام و « أصل التخيير » الذي يفيد الحكم بالتخيير بين الفعل والترك عند تردد الحكم بين موقفين لا يمكن فيهما الاحتياط ، و « أصل الاحتياط » الذي يفرض على الانسان الأخذ بعنصر الالتزام في العمل اذا توفرت عناصر التنجيز للتكليف . . و. كذا يضع الفقه لكل حالة من حالات الشك . . قاعدة يختلف حالها في الرخصة والالتزام تبعا لاختلاف طبيعة الموقف في قيام الحجة على التكليف وعدمه .

أما اذا اقتربنا الى جانب الشك في اطار الواقع التطبيقي للفعل ، فهناك « أصل الصحة » الذي يحكم بصحة العمل عند الشك في ترك جزء أو شرط بعد تجاوز المحل ، ويطلقون عليه مصطلح « قاعدة التجاوز » او الذي يحكم فيه بالصحة عند حصول الشك في ذلك بعد الفراغ من العمل ، ويطلقون عليه مصطلح « قاعدة الفراغ » ويمتد هذا الأصل الى المعاملات التي يقوم بها الناس فيشك الانسان في صحتها وفسادها فيحكم فيها بالصحة . . ولكل من هذه القواعد شروط ، ولكل منها أحكام ليس مجالها هذا الحديث ، بل مجالها علم الفقه وأصوله وهناك مجال آخر يتحرك فيه « أصل الصحة » وهو مجال الاعمال التي يقوم بها الانسان ، مما يحمل وجهين للصورة ، يمثل أحدهما جانب القبح ويمثل الآخر جانب الحسن ، فهل نحكم عليه بالحسن او بالقبح أو بالصحة والفساد ، باعتبار ان الصحة تنسجم مع حسن الشيء ، والفساد يتمثل في قبحه . . ويقرر الفقهاء الرجوع - هنا - « الى أصل الصحة » وحمل الافعال على الوجه الحسن بدلا من الوجه القبيح . . ونحن هنا ، في محاولة تحليلية لهذا الأصل في مجاله الاجتماعي المتعلق بالحكم على الآخرين امام وجهي الصورة . . من أجل

الوصول الى وضوح في الصورة ، لنبتعد بها عن المعاني الساذجة التي لا تتناسب مع واقعية التشريع الاسلامي وعدالته ، ليكون استعمالنا لها في علاقاتنا العامة ، مرتبطا بالخطوط المستقيمة للاسلام .

* * *

١ - ما هو اصل الصحة :

لا بد لنا في الجواب عن هذا السؤال من طرح الحالة على صعيد الواقع لنرى كيف يتجسد الاصل في الحياة في المجال الديني .. قد يتصدق الانسان بصدقة في مشروع خيري ، او اجتماعي ، ويطلب اعلان اسمه ، أو يقوم باعلان ذلك بنفسه ، مما يوحي بأنه يقوم بما يقوم به على اساس من الرياء والشهرة والمباهاة .. وربما يخطر بالبال ، بشكل خفيف ، انه يقصد من خلال ذلك تشجيع الآخرين على التصديق لانهم يقلدونه فيما يعمل ، أو يسابقونه في ذلك ، وربما كان من قصده دفع التهمة عنه امام من يتهمه بالبخل .. وفي هذه الحال يفرض اصل الصحة افساح المجال للجوانب الخيرة ، لتكون تفسيراً للصورة الحقيقية للعمل .

وفي المجال الاجتماعي ، ربما يقف الانسان ضد بعض المشاريع الانسانية والاجتماعية والتربوية فيعطلها ، او يثير حولها الكثير من الضوضاء والضجيج الذي يبعدها عن أجوائها العامة او يؤخرها عن وقتها الطبيعي ، فيخيل للانسان انه يقصد من ذلك تحطيم الأسس الثابتة لعملية البناء الاجتماعي فيما يحتاجه من مقومات البقاء ، انطلاقاً من فكرة حاكمة مدمرة ، ولكن ربما كان لهذه التصرفات بعض العذر من محاولته لابعاد الهيئة المشرفة على هذه المشاريع ، لانها هيئات مستغلة ، او لنقله الى مكان آخر ، او مجال آخر أكثر نفعاً وأعمق أثراً

كما نشاهده لدى بعض الاشخاص أو المجموعات الذين يعارضون مشروع المسجد في القرية او البلد ، لانهم لا يرون هذا المشروع في المستوى الكبير من الأهمية ازاء مشروع المدرسة ، فهم يعارضون ذلك المشروع من اجل افساح المجال لاقامة المشروع الثاني ، لان الميزانية المالية لا تتسع لهما معاً . . وربما كانت بعض الأعداء الاخرى التي تتصل باختلاف وجهات النظر فيما هو الاكثر صلاحاً للناس . . وفي هذا المجال يتجه أصل الصحة للايحاء بهذه الجوانب في اعطاء المعارضة صفتها الصحيحة المبررة .

وفي المجال السياسي . . قد يقف بعض الناس ، او بعض الجهات في موقع معين من مواقع السياسية المتنوعة ، كما نجده في الاشخاص الذين يقفون الى جانب اليمين في بعض المراحل السياسية من حياة الامة ، او يؤيدون اليسار ، في مرحلة اخرى ، فيخيل لبعض الناس انه يقف موقف المتذبذب الذي ينتقل من موقع سياسي الى موقع سياسي آخر انطلاقاً من الانتهازية والوصولية العملية في الحياة . . ولكن قد تكون القضية في الجانب الآخر للرؤية خاضعة لتقييم سياسي واع للمصلحة العليا للبلد مما يجعل الموقف في كل مرحلة مختلفاً عن الموقف في المرحلة الاخرى تبعاً لاختلاف الظروف السياسية التي تفرض التحرك اليميني هنا ، والتحرك اليساري هناك . . وقد تكون القضية اكتشافاً للخطأ من جانبه في تقييم الموقف سابقاً ، مما يجعل من قضية التراجع عن الموقف السابق ، قضية تراجع عن الخطأ في نظره . .

وقد تتنوع المجالات التي يخوض فيها العاملون اجتهادات تجعل الموقف مرتبطاً بالمصلحة العليا ، بينما تقف الاجتهادات الاخرى لتربطه بالمصالح الأساسية للعدو ، فتنشأ من خلال ذلك الاتهامات

بالخيانة والعمالة للعدو ، وغير ذلك من كلمات التقييم المضاد الذي يؤدي الى تصرفات غير مسؤولة . . وفي مثل هذه الحالات ينطلق اصل الصحة ليجعل الموقف او العمل في الاطار السليم الذي يفرض جانب الخير في الانسان ، حتى في التصرفات المنافية للموقف الحق لان هناك فرقاً بين الخيانة التي ينطلق فيها العمل من موقع الوعي للانحراف والاصرار على السير في طريقة وبين الخطأ الذي يسير معه العمل على اساس اعتبار الخطأ صواباً نتيجة اجتهاد خاطيء معين .

وقد يلتقي الانسان بكثير من النماذج العملية التي يتحرك فيها اصل الصحة ليغلب جانب الخير على جانب الشر ، ويقوئ فرضية الصحة على فرضية الفساد .

* * *

٢ - لماذا هذا الاصل :

قد يتساءل الانسان امام المجالات التي يتحرك فيها هذا الاصل او غيره من الأصول ، لماذا هذا الاصل . . او بالاحرى ما هو الجانب الذي يجعل منه قضية حيوية تتصل بالطمأنينة الروحية للحياة الفردية والاجتماعية للانسان ، سواء في ذلك الاصل الذي يتصل بالعمل الذاتي للانسان في واجباته الفردية في صلاته وحجه وسائر عباداته ، او الاصل الذي يتصل بالعلاقات الشخصية والمعاملية التي تربطه بالآخرين او الاصل الذي يتصل بالاحكام التي يصدرها على الآخرين من خلال افعالهم .

* * *

أما الجواب عن ذلك . . فقد نجد في الفكرة العامة التي انطلقت منها التشريعات الاسلامية في مواجهة الانسان لحالات

الشك . . فقد نفهم من بعض الأحاديث التي تنهى عن الاستسلام للشك في ركعات الصلاة بما يؤدي الى ابطالها واعادتها من جديد ، ان القضية تتصل بالبناء النفسي للانسان المسلم الذي لا يريد له الاسلام أن يمتد بالشك الى آفاق حياته فيتحول الى انسان يشك في كل شيء حتى لا يسلم له عمل ، ولا يستقر له طريق وذلك كما ورد في بعض الاحاديث المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام . . لا تعودوا الخبيث من أنفسكم نقض الصلاة فتطمعوه فان الشيطان خبيث معتاد لما عود فليمض احدكم في الوهم ولا يكثرن نقض الصلاة فانه اذا فعل ذلك مرات لم يعد اليه الشك . . ثم قال انما يريد الخبيث ان يطاع فاذا عصي لم يعد الى احدكم (١) . . وقد نظم الاسلام للشك الواقع في الصلاة ومقدماتها تشريعات متنوعة تنقذ الانسان من الاستسلام لهذه الحالة بما يحوله الى شخص معقد ، وذلك بأن ابعده عن الاعتناء بالشك وساعده على اتخاذ الموقف الذي لا يضطر معه إلى تخريب عمله ، وتشويه روحه وقد جاءت الأحاديث المأثورة لتؤكد الموقف بما يشبه الايحاء الذي يريد ان يجعل من الانسان الذي يتم عمله بشكل طبيعي ولا يلتفت الى حالة الشك ، انسانا ذا قيمة روحية وفقهية كما ورد في الحديث . . عن ابي عبد الله جعفر الصادق (ع) ما اعاد الصلاة فقيه قط يحتال لها ويدبرها حتى لا يعيدها (٢) ، فنحن نلاحظ في هذا الحديث الايحاء بأن الانسان الذي يعمل على اعادة صلاته على أساس الشك هو انسان غير متفقه ، اما الانسان الذي يدبرها ويوجهها في اتجاه الصحة فهو الفقيه في دينه .

(١) وسائل الشيعة : ج ٣ ص ٣٢٩ .

(٢) وسائل الشيعة : ج ٣ ص ٣٤٤ .

٣ - الاستسلام للشك :

ونجد في حديث آخر ، التأكيد على اعتبار الاستسلام للشك دليلاً على ضعف العقل انطلاقاً من اطاعته لنوازع الشك التي هي من اطاعة الشيطان ، فقد جاء في الكافي عن عبد الله بن سنان قال : ذكرت لابي عبد الله (جعفر الصادق) رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة (١) وقلت : هو رجل عاقل فقال أبو عبد الله وأي عقل له وهو يطيع الشيطان . فقلت له : وكيف يطيع الشيطان ؟ فقال : سله الذي يأتيه من أي شيء هو ؟ فإنه يقول لك : من عمل الشيطان (٢) . وقد نفهم من بعض الأحاديث المأثورة ، أن البناء على وقوع الشيء المشكوك فيه ينطلق من حالة واقعية لا من مجرد الرغبة في إبعاد الإنسان عن التعقيد . . وذلك لأن الإنسان الذي ينطلق إلى العمل من موقع الوعي الكامل لأبعاده ، يكون واعياً لكل جوانبه في حالة العمل أكثر من حالة الشك ، التي قد تنطلق من خروج الإنسان عن الأجواء الطبيعية . . فقد ورد في الحديث الذي رواه بكير بن أعين عن أحد أئمة أهل البيت (ع) قال : قلت له الرجل يشك بعدما يتوضأ قال : هو حين يتوضأ اذكر منه حين يشك (٣) وقد نجد في بعض الأحاديث التأكيد على جانب إقامة النظام الاجتماعي للحياة الإسلامية في مبررات التشريع الذي يعالج حالة الشك ، كما في موضوع الشك في ملكية الإنسان لما بيده من المال ، انطلاقاً من إمكانية أن يكون لغيره مما حصل في يده بسرقة أو خيانة أو غير ذلك . . فقد أقر الإسلام قاعدة اليد . لتكون دليلاً للملكية في حالة الشك ، ومستنداً للشهادة بالملكية ، فقد جاء في الحديث الذي رواه حفص بن غياث عن أبي عبد الله (جعفر الصادق) قال : قال له رجل :

(١) أي بالسواوس في نيتهما أو أفعالهما أو شرائطهما وسببه فساد العقل والجهل بالشرع .

(٢) الكافي : ج ١ ص ١٣ مطبعة الحيدري بطهران .

(٣) وسائل الشيعة : ج ١ ص ٣٣١ .

إذا رأيت شيئاً في يدي رجل يجوز لي أن أشهد أنه له فلعله لغيره فقال أبو عبد الله أفيجل الشراء منه قال : نعم . فقال أبو عبد الله فلعله لغيره فمن اين جاز لك أن تشتريه ويصير ملكاً لك ثم تقول بعد الملك هو لي تحلف عليه ولا يجوز أن تنبه إلى من صار ملكه من قبله إليك ثم قال أبو عبد الله : لو لم يجز هذا لم يقم للمسلمين سوق^(١) .

* * *

وقد اعتبر بعض الفقهاء والأصوليين هذا التعليل لقاعدة اليد أساساً لقاعدة الصحة ، أو أصل الصحة فيما يتعلق بالمعاملات المالية أو الشخصية من قضايا البيع والشراء والزواج والطلاق ، فيما يشك في صحته وفساده منها ، لان الوقوف عند حالة الشك ، يعطل الواقع العملي للناس ، تماماً كما في تلك القاعدة بل قد يرجع الشك في قاعدة اليد الى الشك في طبيعة المعاملات التي كانت مصدراً لليد ، فيما كان مصدره المعاملة المعينة في البيع والشراء ، وقد ذكر بعض المحققين ان الاختلال الحاصل من ترك العمل بهذا الأصل أزيد من الاختلال الحاصل من ترك العمل بيد المسلم^(٢) . أما أصل الصحة في سلوك الناس وأفعالهم العامة ، فانه ينطلق من الفكرة التي ترتبط بالعدالة من جهة وبدراسة الواقع من جهة اخرى ، لان العدالة تفرض ملاحقة كل الاحتمالات القريبة او البعيدة التي هي في مصلحة المتهم ، كما ان دراسة الواقع تؤدي الى العثور على الكثير من الامور الخفية التي تنشر الصورة المبهمة للسلوك الانساني .

وخلاصة الفكرة ، ان الاسلام يريد من خلال هذه الاصول العملية ان يبني شخصية الانسان المسلم على أساس مواجهة حالات

(١) المصدر السابق : ج ١٨ ص ٢١٥ .

(٢) الشيخ مرتضى الأنصاري ، فرائد الأصول ص ٤١٦ .

القلق أو الشك أمام قضايا التشريع العملية في حياته وحياة الآخرين ليحقق له الاستقرار الروحي ، والطمأنينة الشرعية ويأمن من الاهتزاز النفسي الذي يخلف في داخله الكثير من العقد النفسية المتأصلة .

* * *

٤ - في اطار اصل الصحة :

قد نشعر بالحاجة الى التوقف أمام الأدلة الفقهية لنأخذ منها الاطار الذي يتحرك فيه هذا الاصل لنرى هل يختص بالعلاقات العامة بين المسلمين ، أو يشمل غيرهم . .

الظاهر من الفقهاء أن الأصل يختص بالمسلمين ، ولذا ذكروا في عنوان المسألة « أصل الصحة في فعل المسلم » وقد يؤيد ذلك استدلالهم له بالاحاديث التي ذكر فيها كلمة الاخ باعتبار أن غير المسلم ليس بأخ ، لاختصاص الأخوة بالمسلمين ، وذلك كما في الحديث المروي عن الامام علي (ع) ضع أمر أخيك على أحسنه ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وانت تجد لها في الخير محملاً . وما ورد مستفيضاً ان المؤمن اذا اتهم أخاه انماث الايمان في قلبه كانميث الملح في الماء وان من اتهم أخاه فلا حرمة بينهما وان من اتهم أخاه فهو ملعون ملعون (١) .

ولكن ذلك لا يوجب الاختصاص ، فيما نرى ، لان القضية ليست قضية تكرامية تعبدية لتنحصر في دائرة ألفاظ الحديث ، بل هي « قضية عقلائية » تستند الى واقع الحياة من جهة ، وطبيعة العدالة من جهة اخرى ، كما ألمحنا اليه آنفاً ، ولذلك فلا يمكن لها ان تعيش في

(١) المصدر السابق : ص ٤١٥ .

نطاق ضيق لان العدالة في الاسلام تتسع لكل الناس . القريب والبعيد ، المؤمن والكافر ، فلا يجوز للانسان المؤمن أن يعتدي على حقوق الآخرين المشروعة حتى لو كانوا كافرين ، وهذا ما نستوحيه من الآية الكريمة :

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْا ۗ وَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى .

[سورة المائدة : ٨] .

أما واقع الحياة الذي يحمل في كل عمل جوانب خفية تفسر الكثير من جوانب الغموض فيه ، فمن الطبيعي أن يعيش في الأجواء العامة للناس . . ولعل بناء العقلاء الذي يستند اليه الأصوليون في تشريع هذا الاصل ، في المعاملات المالية والشخصية ، لا يضيق عن هذا الجانب من الاصل الذي يمتنع الانسان فيه من الحكم على الآخرين ما دام هناك جانب معقول يصلح أساساً للتفكير والمناقشة والتبرير ، وقد نلاحظ في سلوكهم انهم يبادرون الى لوم الانسان الذي يحكم على الآخرين بالسوء ما دام هناك وجه حسن يمكن ان يحملهم عليه . وعلى ضوء هذا فنحن نجد في هذا الاصل قاعدة عامة تحكم سلوك الناس في كل أعمالهم من دون فرق بين المسلم وغير المسلم انطلاقاً من المبادئ العامة التي تركز عليها مما يدخل في البناء الداخلي للشخصية الاسلامية لدى الانسان المسلم . .

٥ - في خطي هذا الاصل :

ان ما نريده من هذا الحديث هو اعطاء صورة حقيقية عن أصل الصحة في فعل الانسان وقوله لثلاث تضيع خطوطها التفصيلية في غمار التيه ، فنحن نواجه امامنا هذه القاعدة من موقع النظرة الواقعية للانسان

المسلم في حكمه على الآخرين وتعامله معهم ، وعلاقاته بهم ، وفي غير ذلك مما يجعل للقضية جانباً كبيراً من الخطورة ، لا سيما عندما تتصل بحياة الكثيرين من الناس الذين يتقنون فن التمثيل ، فيستطيعون اخفاء جرائمهم وانحرافاتهم في اساليب ضبابية كثيفة لا تستطيع ان تبصر من خلالها اي شيء . . فما هو المطلوب منا في هذا الأصل العملي ؟

هل يُطلب منا ان نلغي من أفكارنا كل تصور واقعي لحالات الانحراف ، لنستقبل الفكرة التي تمنحهم كل الثقة ما دامت الاحتمالات المضادة غير واردة في هذا المجال ؟

ربما يتصور البعض ان القاعدة تطرح نفسها كأساس من أسس تأكيد الثقة بالانسان ورفض كل الافكار التي توحى بعدم الثقة لتكون النتيجة ، من خلال ذلك ، ان كل انسان مؤمن طيب وصالح وخير ، لا يرتكب القبيح ولا يفعل الا الحسن . . انه الحكم الذي ينبغي لك ان تسير عليه في حياتك ، فلا تتوقف ولا تتردد في انشاء ما تريد من علاقات ، او القيام بما يفرضه عليك العمل من معاملات ، ازاء بعض الشكوك التي تطوف في فكرك او الكلمات التي تسمعها من الآخرين . . فاغمض عينيك عن كل ما هناك ، واغلق سمعك عن كل ما يقال واحبس فكرك عن كل ما يظن كما ورد في بعض الاحاديث ، كذب سمعك وبصرك عن اخيك ، وان شهد عندك خمسون قسامه انه قال ، وقال لم أقل فصدقه وكذبهم . . وقد يؤكد هذه الفكرة الدليل الذي اقامه البعض على انها حجة مثبتة للواقع ، وليست أصلاً عملياً في مقام الشك ، وهو أن هذه القاعدة تستند الى ظاهر فعل المسلم ، لان من طبيعة صفة الاسلام لديه انه يخضع كل افعاله واقواله للخط

الاسلامي فلا ينحرف عنه الى غيره ، الا في الحالات الطارئة
الضاغطة ..

ولكن ..

أليست هذه هي السداجة بعينها ؟

ليس في هذا دعوة الى رفض الحذر امام حالات الشك ؟

اذن ، كيف يحمي الانسان نفسه من النوايا الخبيثة الشريرة التي
يتقن أصحابها طريقة اخفاءها عن الآخرين ما دامت قاعدة الصحة
تحمي هؤلاء من نتائج حالات الشك والتردد والقلق ..

* * *

ولكننا نرى ، في هذه القاعدة ، وجهاً من وجوه العدالة التي
تحكم نظرتنا للانسان ، في نطاق يتعد بها عن السداجة الغارقة في
الضباب .. فهي تريد حماية الآخرين من خطر الاحكام السريعة التي
لا تعتمد على أساس ثابت ، ولكنها في الوقت نفسه لا تريد للانسان
ان يخضع لخطر الوقوع في حبال الاشخاص الذين يخفون ما يفكرون
به ، ويمارسون أساليب التمثيل على أكثر من وجه .

أما كيف نفهم ذلك من هذا الأصل فهذا ما نريد التحدث عنه
في عدة نقاط :

١ - في حياة كل واحد منا وجهان للحقيقة مظلم ومضيء ..
فنحن نمارس الأعمال الخيرة من خلال دوافع الخير ، كما نمارس
الأعمال الشريرة من خلال دوافع الشر ، وقد يعجبنا الحسن في بعض
المجالات ، وقد يغرينا القبيح في مجالات أخرى .. وقد تبدو أعمالنا
للآخرين في خلفياتها الخيرة او الشريرة ، وقد تختفي عنهم فلا تفصح

عن أي معنى ، مما يدفع الى الحيرة في الوجه الحقيقي للعمل .

٢ - ولكن .. قد يسبق الى الظن - بادىء ذي بدء القبح بدلا من الحسن ، والشرب بدلا من الخير ، فنحن ميالون ، في داخل ذواتنا ، الى ان ننظر الى الآخرين نظرة سوداء ، فنغلب الجوانب التي تدينهم على الجوانب التي تبرؤهم ، جأً منا باحتكار صفة الخير والحسن والطيبة لأنفسنا مما يبعث في اعماقنا الشعور بالزهو والغرور عندما نكون في المستوى الذي ننظر فيه الى الآخرين من أعلى كما ينظر الكبار الى الصغار .

وقد نحاول تبرير ذلك بالآية الكريمة التي توحى بأن الأصل في افعال النفس هو السوء ، وهي قوله تعالى في سورة يوسف على لسان امرأة العزيز :

وما أبرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ..

وقد نحاول الاستشهاد على ذلك بقول المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فان تجد

ذا عفة ، فلعلّ لا يظلم

وربما تجعلنا هذه النظرة في موقف الحاكم الذي يصدر الحكم على المتهم ، في البداية ، ثم يحاول ان يبحث عن حيثيات حكمه ، مما يسبب له المزيد من التعسف في الاجتهادات التي تدعوه الى تأول ما لا يقبل التأويل ، واستظهار ما لا يتفق معه الظهور في القول وفي العمل .

٣ - وكان الاسلام شريعة العدل التي أنزلها الله ، كما أنزل بقية

رسالاته ، على اساس الحكم بالعدل ، والقيام بالقسط على ما جاءت به الآيات الكريمة .

قال تعالى :

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
النَّاسُ بِالْقِسْطِ . [سورة الحديد : ٢٥] .

يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ .

[سورة ص : ٢٦] .

فأراد ان يجعل للانسان المواقف العملية التي تنقذه من الوقوع تحت رحمة اغراءات الظلم الذاتية والخارجية ، في الحالات التي يريد ان ينصب فيها نفسه حاكما على تصرفات الآخرين . وذلك من خلال التأكيد على المناعة الشعورية ضد الانحراف بالعوامل الطارئة التي تميل بالانسان الى ما لا يرضاه الله ولا ينسجم مع خط العدل .

٤ - وكانت قاعدة الصحة في افعال المسلمين واقوالهم ، احدى الوسائل العملية التي انطلق الاسلام منها في عملية البناء الداخلي الذي يحقق المناعة الشعورية ضد الانحراف ليمارس الانسان المسلم من خلالها عملية التقاط الانفاس في تجربة للموقف الهادئ الذي يبعث الانسان على التفكير في الموضوع من جميع جوانبه ، لا من جانب واحد ، ليوافق الموقف بنظرة موضوعية بعيدة عن الانفعال .

٥ - ولعل من أوليات هذا الاتجاه - الذي يريد الاسلام من خلاله ان يقود الانسان الى موقف العدل - ان لا يجعل الحكم خاضعا لانفعال جديد يطلب البراءة للمتهم على أساس الظن في بعض

الحالات ، او الوهم في بعض آخر . ولهذا ، فاننا لا نستطيع اعتبار هذا الاصل حكماً بالحسن ، او بالخير على أساس ما يمثلان من مدلول ذاتي ، وأثار عملية لانه يفتقر الى الحيثيات القطعية المبررة لذلك تماماً ، كما كان الحكم بالقبح او الشر اللذين رفضناهما أمام الاحتمال ، مفتقرا الى ذلك .

بل ان القضية ربما تأخذ طابع ترجيح المرجوح على الراجح فيما اذا كانت ظواهر العمل تلتقي مع فكرة اعتباره قبيحاً ، مما يجعل الاحتمال ، في هذا الجانب ، اقوى من الاحتمال في الجانب الآخر ، اعني جانب الحسن ، وقد تأخذ طابع الترجيح بلا مرجح فيما اذا كان الجانبان متساويين في حساب الاحتمال ، فكيف يمكن للشريعة ان تتخذ هذا الموقف ، وهل هذا الا الفرار من قبح الحكم على الانسان مما لم يثبت ، للوقوع في قبح ترجيح المرجوح على الراجح او الترجيح من غير مرجح .

٦ - ان القضية في رأينا تتجه اتجاهاً آخر يحاول ان يقود الانسان الى التفكير في الجانب المضيء من الموضوع عندما يتجه تفكيره الى الجانب المظلم ، فهو يريد ان يقول للانسان ان هناك منطلقات خفية للخير في أي عمل يقوم به الشخص ، فعليك ان تبحث عنها ، قبل ان تصدر حكمك اعتماداً على ظواهر الامور ، لان عمل الحاكم ، في أية قضية ، ان يلاحظ الاحتمالات الواردة في الموضوع ، حتى البعيدة منها ، فقد تكون الحقيقة كامنة في واحدة منها مما يجعل من عملية اهمالها ، عملية اهمال للحقيقة بالذات .

وقد يتعاضد الموقف في الحالات التي تنسجم فيها احتمالات الخير مع ما يؤمن به الانسان من قيم دينية او مبادئ اخلاقية ، فان

ذلك قد يقربُ الفكرة الطيبة بطريقة افضل لان الطبيعة الخيرة للانسان المؤمن لا بد ان تفرض نفسها على سلوكه وموقفه في الاوضاع الطبيعية مما يجعل من الانحراف استثناءً خارجاً عن القاعدة ، ولهذا انطلق الفقهاء ليحصرُوا هذه المسألة في فعل المسلم على اساس الانسجام بين الايمان بالاسلام وبين صحة العمل ، بينما لا نجد ذلك في فعل غيره .

وعلى ضوء ما قدمناه فان القاعدة تتحرك لاثارة الاحتمال في جانب الخير ليملك على الانسان موقفه قبل ان يحكم ، ولكنها لا تتحرك لاعطاء الحكم الايجابي ، كما ذكرنا .

٧ - وبهذا نستطيع ان نقرر انها تحاول التعرض للجانب السلبي للقضية ، تاركة الجانب الايجابي للحيثيات التي تحقق لصاحبها قناعة الرأي ، وسلامة الموقف ، فهي لا تقول للانسان ان عليك ان تحكم بالخير بل تطلب منه أن لا يحكم بالشر مع وجود احتمال الخير ، او ان يفكر في حيثيات الاحتمال اذا لم يكن موجوداً ليشيره في نفسه من جديد .

وهذا هو ما قرره الفقهاء في فتاواهم الشرعية في المسألة فهم يقولون انه لا يجب على الانسان القيام بالنتائج الشرعية للجانب الخير في الموضوع بل يقتضون على التأكيد على عدم اثاره النتائج في الجانب الشرير ، ويمثلون لذلك بالحالة التي يمر عليك فيها احد اخوانك او معارفك ، فيتكلم بكلام لا تدري نوعه ، هل هو شتيمة يمتن بها كرامتك ، او هو تحية يحترم فيها مقامك ، فان القاعدة لا تقول لك لا تحكم عليه بانه شتمك ، ولا تواجهه بالنتائج السيئة للشتيمة ولكنها ، في الوقت ذاته ، لا تلزمك بالنتائج الشرعية للتحية

التي يفترض انها الجانب المضيء في المسألة فلا يجب عليك ان ترد السلام عليه في هذه الحالة ، كما يجب ذلك في أية تحية اخرى لان القضية تقف عند حدود عدم الحكم بالجانب السلبي فلا تتعداه الى الجانب الايجابي .

٨ - ولعل الحديث المأثور عن الامام علي (ع) في هذا المجال يؤكد لنا هذه الفكرة التي تفسر بها قاعدة الصحة .

ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقبلك عنه ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءً وانت تجد لها في الخير محملاً . فقد نلاحظ في الفقرة الثانية انها تتجه نحو الابتعاد عن الحكم بالجانب السيء ما دام هناك مجال للاحتمال المضاد ، ولو بنسبة واحد بالمائة ، وبهذا تكون مفسرة للحمل على الأحسن الذي تفيدته الفقرة الاولى .

٩ - وقد تنطلق بعض الأحاديث في معالجة الموضوع في مجال آخر ، وهو الحالة التي تتكون لدى الانسان فيها القناعة بالثقة بالآخرين ، من خلال الأسس العملية التي توحى بذلك في سلوكهم في الحياة . . ثم تحدث بعض الظواهر الطارئة التي تثير في النفس مشاعر مضادة وتخلق لديها الظن بالسوء في هؤلاء ، وذلك هو حديث الامام علي (ع) في احدي كلماته القصار في نهج البلاغة :

ليس من العدل القضاء على الثقة بسوء الظن .

فان هذه القاعدة تدعو الى ابقاء الثقة في موقعها ، وعدم المبادرة بالحكم المضاد لمجرد بعض الظواهر التي توحى بالظن السيء من دون استناد الى برهان صحيح . ونلاحظ - في الحديث - ان التأكيد على اعتبار القضية تعيش في اطار العدل والظلم ، يجعلها تتجه الى موضوع الحكم على الشخص باعطائه الثقة ، او حرمانه منها ، لا على

أساس نفسي ، بل على اساس التعامل معه في كل ما يشترط فيه الثقة ، فليس لك ان تسلبه ثقتك به ما دامت مقومات الثقة موجودة ، لان من العدالة ان يصدر الحاكم في حكمه من المنطلقات الاساسية للحكم التي لا يجوز لنا الخروج عليها الا بمنطلقات اخرى مماثلة لها أو أقوى منها مما يفسح المجال لحكم جديد ، أما الشبهات ، او الظنون الطائفة فلا تصلح أساساً لنقض الحكم الثابت ، كما لا تصلح لاثبات حكم جديد . .

١٠ - ولا تقف القضية عند هذا الحد ، بل تتعداه الى الجانب الذي تتأكد فيه من صدور الفعل السيء في ظاهره ، ولكنك لن تصدر حكمك على فاعله بالانحراف ، او المعصية ، لان هناك بعض المبررات التي قد تعطي الفعل صورة اخرى تضعه في حالة الرخصة بدلا عن حالة المنع ، فلا بد من مراعاتها عند الحكم عليه . وربما يصدر من انسان قول يخالف الواقع ويتعد عن الحق ، فتحدثك نفسك ان تتهمه بالكذب او بالباطل لتعطيه صفة الكاذب الذي يتعمد الكذب او المبطل الذي يدعو الى الباطل وهو يعرف الحق ولكن الاسلام يقول لك : ان هناك وجهاً آخر للمسألة وهو ان يكون هذا الانسان معتقداً لصدق ما يخبر عنه او لصحة ما يدعوه اليه لان هناك مرحلة بين الكاذب وبين المخطيء ، وبين المبطل والمشتبه . . وقد حدد لنا الامام علي (ع) لنا هذين النموذجين من الناس ، وذلك فيما ورد عنه في نهج البلاغة : « لا تقاتلوا الخوارج بعدي فانه ليس من طلب الحق فأخطاه ، كمن طلب الباطل فأدركه » .

وعلى ضوء هذا تنطلق قاعدة الصحة امام الانسان الذي يحكم على الآخرين من خلال ظواهر افعالهم واقوالهم لثبوت لديه احتمال

وجود العذر فيما يفعل ، فترك له مجال الدفاع عن نفسه على هذا الأساس ، فلعل له المبررات في اعتقاده الخطأ صواباً او الباطل حقاً ، دون ان يتعمد الى هذا او ذاك من قريب او من بعيد .

ويمثل الفقهاء لذلك بالانسان الذي تراه مفطراً في شهر رمضان (والافطار معصية في نفسه ، ولكنها لغير المرضى والمسافرين من أولي الأعدار) فعليك ان تمنح لنفسك فرصة من التأنى والهدوء لتفحص عن طبيعة هذا الافطار ، وقد روى المجلسي في كتابه بحار الانوار عن الامام علي (ع) ، (في قضايا المعروفة) انه ورد عليه قوم يأكلون في نهار رمضان فسألهم عن السفر والمرض ونحو ذلك من الأعدار ، فلما أقروا بانتفاء الكل حدّهم .

* * *

١١ - وربما كان من الضروري لنا ان نعلم طبيعة تشريع هذا الاصل ، فانه لم ينطلق من فكرة مثالية تريد ان تفرغ نفس الانسان من ظنون السوء بما تغرسه في داخله من الايمان بسلامة منطلقات الآخرين وسمو أنفسهم وارتفاعهم عن مستوى الشبهة والتهمة . ولم تنطلق هذه القاعدة من هذا كله ، لان الاسلام لا يتعامل في تشريعه مع الخيال ، او المثال البعيد عن الواقع بل يبقى منطلقاً من قاعدة الواقع في حركته مع الحياة . ولذا فانه يعلم ان ظنون السوء لا يمكن ان تغيب عن فكر الانسان اذا واجهت أعمال الآخرين وتصرفاتهم ، لان الآخرين ، في واقعهم العملي ، لا يرتفعون الى المستوى الرفيع من الطهارة والبراءة والسمو والعظمة . . وقد أكد هذا المعنى الحديث الشريف المأثور عن النبي محمد (ص) : ثلاث لم يعر (بخل) منها نبي . . الظن والحسد والطيرة . . فاذا ظننت فلا تحقق ، واذا حسدت فلا تبغ واذا تطيرت فامض .

لقد اراد الاسلام ان يركز هذه القاعدة على اساس الواقع ، فاننا نعلم ان كثيرا منا قد يصدر في كثير من أعماله عن نية طيبة لا تظهر أثارها على طبيعة العمل ، وقد يتكلم كلاما لا يطابق الواقع ولكنه يعتقد مطابقته او يدعو الى فكرة باطلة وهو يعتقد انها حق ، كنتيجة طبيعية لبعض القناعات الخاطئة ، اننا نعلم ان كثيرا منها قد يصدر منا دون ان ينتبه الآخرون الى منطلقات اعمالنا وأقوالنا فيصدرون علينا الحكم ونتألم منه ونبرر ألمنا من ذلك كله ، بأن على هؤلاء الذين حكموا بما حكموا به ان يترثوا قبل اصدار الحكم لان للعمل اكثر من منطلق وللكلمة اكثر من وجه ، وللدعوة اكثر من صورة . . ونضيف الى ذلك . . ان عليهم ان لا ينظروا الى القضية من وجه واحد ، بل من جميع وجوهها لينطلق الحكم العادل من الدراسة الموضوعية الشاملة .

ألم يحدث معنا ، في بعض الحالات ، اننا نسير في الطريق الى أعمالنا ، ونحن خاضعون للتفكير الطويل العميق الذي يشغلنا عن رؤية أي شيء امامنا فنشعر اننا نسير ونتحرك بطريقة آلية . . حتى اننا نلتقي بالكثيرين من الناس من اخواننا او معارفنا فلا نبصرهم ، ونحن نحقق بهم ، ولا نمد اليهم ايدينا بالتحية ، او يحيوننا فلا نرد اليهم التحية ، فاذا وصفنا هؤلاء - ازاء هذا التصرف - بالتكبر وعدم اللياقة - اعتبرنا هذا الحكم ظالماً لا نستحقه فنطالبهم بتعرف أوضاعنا النفسية والفكرية التي شغلنا عن ذلك كله .

ان الاسلام يرى ان هذه القضايا غير بعيدة عن واقع الانسان وعن طبيعة الحياة الاجتماعية ، ولهذا فانه يريد منا ان نلاحق هذه القضايا عندما نفكر بالناس الذين حولنا ، وبما يصدر عنهم من

تصرفات وأقوال ، لنمتنع عن التسرع في الحكم نتيجة فكرة سريعة طارئة ، او عقدة نفسية تبحث عن مبررات الحكم بعد اصداره .

ان العدل هو هاجس الاسلام في تشريعه المتعلق بحياة الناس ، ولذا فانه يريد من الناس الذين يمارسون اصدار الحكم سواء منهم الذين يعيشون في منبر الحكم الرسمي ، او في منبر الحكم الاجتماعي ، ان يلاحقوا خطوات العدالة فيما يأخذون وفيما يدعون ، وبهذا نعرف ان المنع عن الظن السيء في كل ما ورد فيه المنع عن العمل من آيات وأحاديث ، يتحرك في اتجاه العمل الذي يدعو اليه الظن بشكل اساسي ، فلا يتصرف الانسان على اساس الظن . . كخطوة عملية لالغاء الظن على مستوى الهدف البعيد في الحياة ، لو امكن للانسان ان يبلغه ، من خلال التفكير الهادى والتحليل الواسع العميق .

* * *

١٢ - ولكن ليس معنى ذلك كله ، ان يستسلم الانسان للأحاسيس الخيرة بعدم اتهام الآخرين فيسلم قياده لهؤلاء الذين نريد حملهم على المحمل الحسن ، فيقع في قبضة الجانب السيء من طبيعتهم . . ليس معنى ذلك كله ، ان يترك الانسان جانب الحذر على أساس الشعور بالطيبة لتكون العملية انطلاقاً في أجواء السذاجة الأخلاقية ، لان القضية لا تركز على الاحساس بالطيبة او اثاره مشاعر الخير في داخل النفس ، بل تركز - كما ألمحنا اليه - على قضية العدالة في الحكم والرأي والنظرة التي تفسح المجال لاحتمالات البراءة لدى المتهم ، عندما تحاصره عناصر الاتهام ، ولذا فان الامر لا يعدو ان يكون توقفاً في الحكم ، أو حكماً بالبراءة من الجانب السلبي

أو ايماناً بالرصيد الطيب في ذات الانسان المسلم ، تماما ، كما هي القاعدة التي تقول (ان المتهم بريء حتى تثبت ادانته) . . فانها تنطلق من زاوية اعطاء الفرصة التي تجعل الدفاع ينطلق في عملية البحث عن أدلة البراءة ، وتمنح الفرصة للحكم من أجل ان يفكر طويلا قبل الأخذ بأدلة الاتهام .

وعلى ضوء هذا . . فان على الانسان ان يأخذ جانب الحذر عندما تعيش القضية في الظروف السيئة التي تقضي بالحذر ليحفظ الانسان نفسه من مفاجآت الواقع المختبئة وراء أقنعة الطيبة والبراءة والخير الظاهرية .

وقد وردت الاحاديث الشريفة التي تؤكد على هذا الجانب في حديث الامام علي (ع) في نهج البلاغة في كلماته القصار مثل قوله المأثور :

« لا تثقن بأخيك كل الثقة فان صرعة الاسترسال لا تستقال » .

فاننا نجد في هذه الكلمة النظرة الواقعية التي ترى في كل انسان نقاط ضعف خفية موجودة في الجانب الخفي من حياته او نقاط ضعف محتملة قد يثيرها او يصنعها ما يواجهه الانسان من عناصر الاثارة ، مما يفرض على الانسان ان يترك مجالا للحذر ، يختبئ خلفه ، ويسمح له بالتراجع في الحالات التي تثور فيها العوامل الخفية ضده لتلقي به في الهاوية ، فان الاسترسال في مجال الثقة المطلقة يدع الانسان تحت رحمة المفاجأة التي لن يكتشفها الا بعد فوات الأوان ، أما السير بحذر فانه يفسح المجال باكتشاف المفاجأة قبل الوقوع في الخطر . ولعل مما يوضح لنا الصورة ، ان نستحضر - في وعينا - صورة الانسان الذي

يلهث بالسير خلف انسان آخر بسرعة ودون توقف ، من دون ان تكون هناك مساحة كافية تفصل بين خطواته وخطوات ذلك الانسان ، فاذا انطلق ذلك الانسان في طريق الهاوية ، فلا بد ان يجذب الآخر معه فيقع فيها بشكل أكيد . . اما اذا كانت هناك مساحة تفصل بين الخطوات فان بإمكانه ان يجنب نفسه عناء الوقوع في ذلك باكتشافها قبل الوصول اليه ، او يتجنب الصدمة القاسية فيما لو كان أمر وقوعه فيها شيئاً لا مفر منه .

* * *

وقد يتأكد هذا التحفظ امام الثقة بالآخرين في كلمة أخرى من كلمات الامام علي القصار في نهج البلاغة : اذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم تظهر منه حوية (اثم) فقد ظلم . واذا استولى الفساد على الزمان وأهله فأحسن رجل الظن برجل فقد غرر (أوقع نفسه في الخطر) .

* * *

فقد اعتبر اساءة الظن ، ظلماً في الجانب الذي يغلب فيه جانب الخير من خلال طبيعة الأجواء العامة وذلك من حيث انها تمثل الاسلوب العملي الذي يجسد الظن السيء في السلوك ، لان مجرد الظن الداخلي الذي لا يتجسد في السلوك العملي للانسان لا يعتبر ظلماً من قريب او من بعيد انطلاقاً من عدم خضوع النية الداخلية الذاتية لحساب المسؤولية ، لانها ، في أغلب الحالات ، غير خاضعة لارادة الانسانية . اما في الجانب الثاني الذي يغلب فيه جانب الشر تبعاً للأجواء العامة الشريرة ، فان حسن الظن الذي يتعد به الانسان عملياً عن جانب الحذر ، يعتبر تغريراً للانسان بنفسه ، لان طبيعة تلك

الاجواء المحيطة بالبيئة التي عاش فيها هذا الرجل ، تجعل الانسان يشعر بضرورة الحذر وتغليب الجانب السيء من حيث الواقع العملي للتصرف معه .

* * *

وقد نجد في بعض كلمات أئمة اهل البيت ما يوضح لنا هذه الفكرة بطريقة جديدة تجمع بين حسن الظن بمعنى عدم الاسراع بالاتهام او بالحكم عليه بالسوء ، وقبول عذره او زعمه البراءة ، فيما اذا ادعاها الانسان وبين قبول قول الناس عنه ، بمعنى اعتبار كلامهم أساساً للحذر منه ، وتجنب الوقوع في خطر الواقع السيء المفروض فقد ورد في حديث الامام جعفر الصادق (ع) في خطابه لاحد أصحابه :

يا أبا محمد كذب سمعك وبصرك عن أخيك فان شهد عندك خمسون قسامة انه قال ، وقال : لم أقل فصدقه .

وقد علق الشيخ مرتضى الانصاري في كتابه فرائد الاصول على هذا الحديث بقوله : « ان تكذيب القسامة مع كونهم ايضاً مؤمنين لا يراد منه الا عدم ترتيب آثار الواقع على كلامهم لا ما يقابل تصديق المشهود عليه فانه ترجيح بلا مرجح بل ترجيح المرجوح (١) » .

وخلاصة الفكرة ان عليك ان تقبل قوله بمعنى ان لا تحكم عليه بحسب كلامهم بل تترك هناك مجالاً لاحتمالات الصحة ، ما كان الى ذلك سبيل ، ولكن ليس معناها ان تحكم بكذبهم لمجرد قوله .

وقد ورد في حديث آخر للامام جعفر الصادق في حديثه مع ولده

(١) فرائد الأصول : ص ٧٦ - ٧٧ .

اسماعيل ، ما يلقي الضوء على الجانب الآخر للفكرة وهو لزوم الحذر في مثل الحالة السابقة في الحديث المتقدم ، فقد كان لاسماعيل دنائير وأراد رجل من قريش ان يخرج الى اليمن فقال له ابو عبد الله (الصادق) يا بنيّ اما بلغك انه يشرب الخمر قال : سمعت الناس يقولون . فقال : يا بنيّ ان الله عز وجل يقول : يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين . يقول : يصدق الله ويصدق للمؤمنين فاذا شهد عندك المسلمون فصدقهم (١) . فان الامام الصادق يريد من خلال كلامه ، فيما يبدو ، ان يثير جانب الحذر لدى ولده من خلال كلام المؤمنين بقريئة استشهاده بالآية التي تريد من تصديق المؤمنين - حسب الظاهر - عدم رفض كلامهم مع العمل على ما يقتضيه جانب الحذر . ويعلق الشيخ مرتضى الانصاري على ذلك بان معنى تصديق المخبر في الآية هو اظهار القبول وعدم تكذيبه وطرح قوله رأسا مع العمل في نفسه بما يقتضيه الاحتياط التام بالنسبة الى المخبر عنه فان كان المخبر به مما يتعلق بسوء حاله لا يؤذيه في الظاهر لكي يكون على حذر منه في الباطن كما هو مقتضى المصلحة في حكاية اسماعيل (٢) .

* * *

وهكذا نصل الى نهاية المطاف ، حيث استطعنا ان نرى في قاعدة الصحة اساسا خلقيا يقترب بالانسان من العدالة فلا يحكم بمجرد الظن بل يحاول اثاره احتمال الخير من أجل افساح المجال للتبين واعطاء الحكم العادل ، ولكنه في الوقت نفسه ، يتعد به عن السذاجة لانه لا يريد للانسان ان يستسلم لاحتمالات الخير في عمله

(١) فرائد الأصول : ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) فرائد الأصول : ص ٧٦ - ٧٧ .

بل يوحى له بأن يراقب احتمالات الشر في احتياط شديد .

المعطيات العملية لاصل الصحة :

قد نستطيع أن نتلمس من خلال بحثنا هذا ، في اصالة الصحة عدة معطيات كبيرة تساهم في بناء شخصيتنا الاسلامية على أسس ثابتة ، وتمنحنا القدرة على مواجهة الواقع بوعي واتزان :

١ - العقلية الموضوعية . . ان هذا الاصل يمنح الانسان عقلية موضوعية تدرس الواقع من خلال خصائصه الذاتية وظروفه العامة والخاصة ، وتمتنع عن التأثر بالانفعالات الطارئة الملتهبة التي تعطي الواقع صورة المزاج في علاقته بالاشياء وبذلك يستطيع الانسان ان يفهم الواقع في سلبياته وايجابياته بطريقة سليمة ، ليساهم في علاج مشاكله بوعي كبير ، لان الانسان كلما اقترب من فهم الواقع بموضوعية ، كلما اقترب من معالجة الواقع بواقعية ، وكلما استطعنا ان نجرد أنفسنا من النظرة الانفعالية ، كلما استطعنا ان نخفف من مشاكلنا ، او نخفف من اندفاع هذه المشاكل في اتجاه الهاوية .

٢ - ان أصل الصحة يربطنا بالجانب المضيء في الحياة ويدفعنا الى اكتشاف الجوانب المضيئة في حياة الناس لتتمكن من التعامل مع هذه الجوانب عندما تدفعنا الحاجة الى ذلك باعتبارها طاقات حية يمكننا ان نستثمرها في بناء المستقبل ولعل هذا الجانب يحقق لنا نقطتين :

النقطة الاولى : الاحساس العميق بالثقة فيما حولنا من الناس باعتبار الجانب المضيء شيئاً طبيعياً في حركة الواقع ، وليس شيئاً استثنائياً خارجاً عن القاعدة مما يجعلنا نبادر الى اثارته امامنا في كل

ظاهرة عملية من حياة الناس .

النقطة الثانية : القدرة على اكتشاف الجوانب المضيئة لدى أعدائنا الذين نختلف معهم في كثير من قضايا الحياة كالدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغيرها ، وبذلك نستطيع اكتشاف المواقع الطيبة الموجودة لديهم ، وننتقل اليهم من خلالها لنبحث عن امكانيات اللقاء التي تقربهم من مفاهيمنا وقضايانا ، او ندخل في عملية مقارنة بين الجوانب الطيبة والجوانب الشريرة ، لندرس نسبة القوة في هذه او تلك لنقوي هذه او نضعف تلك ، اما اذا انطلقنا من موقع النظرة السوداء التي لا ترى في الاعداء الا الجانب المظلم ، فاننا سنبتعد عن فهمنا الحقيقي لهم ، وستحول الى أناس سلبيين أمام الواقع ، ولا يبقى امامنا الا الاندفاع الأعمى الذي لا يبصر طريقه جيدا ، والا المزيد من بعثرة الطاقات ، او تجميدها وخنقها ، من دون الاستفادة منها في عملية صنع الحياة وبناءها . . وربما كانت هذه النقطة من أروع النقاط البارزة في حياة الامم عندما تتحرك في مواقع القوة من منطلق الفهم الواعي للواقع في حياة الاعداء والاصدقاء ، اذ لا قوة بدون وعي شامل لمواطن التحرك في كل الاتجاهات .

٣ - ان اصل الصحة يدرب الانسان على ان يمارس الحكم العادل في القضايا الصغيرة والكبيرة من خلال شخصية الحاكم العادل الذي يشعر بمسؤولية الحكم في الموقع الاجتماعي العادي ، بنفس القوة التي يشعر فيها بالمسؤولية في الموقع القضائي الرسمي ، وبذلك تحول الحياة الاجتماعية في سلوك المواطنين الى مسؤولية متحركة ، تنطلق الى اهدافها العملية بهدوء العدالة ووعي الواقع ، الامر الذي يرفع من المستوى الاجتماعي الحضاري للامة من خلال عدالة النظرة

والفكرة والممارسة في العلاقات العامة .

٤ - التخلص من فوضى التقييم للأوضاع والاشياء عندما يرتبط بالاسس القوية الثابتة في مجال الاتهامات والاحكام ، بينما يتحول الواقع الى فوضى مدمرة ، اذا ارتبط الواقع العملي للحكم الاجتماعي بالمزاج الذاتي والعاطفة المتغيرة الملتهبة .

٥ - الحصول على الشخصية الطيبة الواعية التي لا تدفعها الطيبة الى السذاجة ، بل تقودها الى العدالة ، ويدفعها الوعي الى الحذر والسعي الهادئ الدائب الى مواجهة الحياة من منطلق الواقع ولا يجرها الى الظلم في الحكم والاتهام . وتلك هي الشخصية الاسلامية القوية التي لا تتحول قوتها الى طغيان ، ولا تمنعها من العدالة . . لانها تنطلق من الرحمة النابضة بالوعي والايمان والشدة المرتبطة بالحق والعدالة .

خاتمة المطاف :

هذه هي بعض اللمحات التي أردت ان أوجهها الى هذا الأصل الرحب الشامل الذي يتسع لكل الجوانب العامة في حياتنا في اي موقع من مواقع السلوك الاجتماعي ونرجو ان تكون خطوة اولى في سبيل التحليل الاسلامي الواعي لهذه القواعد العملية والاصول العامة . . كما نأمل ان تكون نقطة انطلاق للسير في طريق الاسلام الطويل نحو الاهداف الكبرى في الحياة التي تنتظر الاسلام فكراً وشعوراً وعقيدة للحياة وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

لكل سؤال جواب

- ما هو موقف الانسان المسلم عند تعرضه للاستهزاء ؟
- هل يجوز للانسان المسلم الدخول في المجتمعات الفاسدة من أجل الاسلام ؟
- إذا شك الانسان في عبادته وإيمانه فهل يحكم بالصحة ؟
- ما الفرق بين الذي يصلي ويكذب وبين الذي لا يصلي ولا يكذب ؟
- ما هي طبيعة التكوين السياسي للمجتمع الاسلامي ؟
- ما هي القاعدة الاساسية للتعايش السلمي بين المجتمع المؤمن وغيره ؟
- ما هي طبيعة العلاقات القائمة بين المجتمع الاسلامي والمجتمعات الأخرى ؟
- هل المجتمع الاسلامي مجتمع محارب ، وهل انتشر الاسلام بالسيف ؟
- هل الوفاء بالعهود في الاسلام ، قضية أخلاقية أو قانون شرعي ؟

مناقشات وأسئلة

هذه بعض المناقشات التي دارت بعد الفراغ من المحاضرة في نطاق الموضوع وفي خارجه .

س ١ - ما هو موقف الانسان المسلم عند تعرضه للاستهزاء من قبل الكافر ، او الجاهل ؟

ج ١ - لا بد له من ان يدرس الموقف من خلال طبيعة الجو الاجتماعي الذي يحيط بالمتكلم والكلام فربما يطلق هذا الانسان الساخر ، سخريته ، في مجتمع لا يملك موقفاً مضاداً للمفاهيم الاسلامية ، ولا يملك معرفة كاملة للاسلام ، مما يجعله في الموقع العملي الذي يمكن للدعوة الاسلامية أن تتحرك في اتجاه الوصول الى فكره ووجدانه . . وفي هذه الحال قد يفرض الموقف أن نستثمر هذا الموقف الساخر ، لتحويله الى مجال لاثارة القضايا الاسلامية بعيداً عن ردود الفعل الذاتية ، وذلك باستعمال الاساليب الحكيمة المرنة في عرض الفكرة بهدوء واتزان ، وتغيير الجو الساخر الى جو حاد عاقل يسمح للمجتمع بالتفكير والمناقشة من أجل ان نقلب الموقف ضده من جهة ، ونغير تفكير افراد المجتمع ، او نفتح لهم المجال للبدء في

عملية التفكير من جهة اخرى . . ومن الطبيعي ان ينطلق ذلك كله من موقع المرونة واللباقة والايمان .

وربما تنطلق السخرية ، في جولا يوحى بأية فرصه للمناقشة والتفكير ، بل يتحرك في مهاجمة الفكرة والشخص بالاساليب التي تحطم المقاومة وتضعف الموقف ، وتحول القضية الى مجال للضحك والتندر . . وفي هذه الحال ، لا بد من مقابلة السخرية بالسخرية ، والتندر بالتندر ، وملاحقة كل نقاط الضعف الموجودة لدى الانسان الساخر ، واثارتها بأسلوب يوحى بالضحك ويستثير الهزء عليه لانه لا يمكن مقابلته بالفكرة الجادة في موقف يعتبر الجدد نفسه منطلقاً للسخرية ، فان أية فكرة ، مهما عظمت ، لا يمكن ان تثبت امام اجواء الاستهزاء ، فلا يبقى الا ان ينتصر المؤمن لها بالوسائل العملية التي تهزم المعتدين ، وتحطم عدوانهم ، تماماً كما صنعه نوح فيما حكاه الله عنه . . ويصنع الفلك ، وكلما مر عليه ملاً من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون .

وقد يكون الانسان الساخر خاضعاً لفكرة مضللة توحى له بذلك ، وتدفعه الى استعمال هذه الاساليب من موقع خاطيء لا يملك سبيلا لاكتشافه . . وفي هذه الحال لا بد لنا من ملاحظة الموقف من ناحية الحاجة الى هداية هذا الانسان وانقاذه من ضلاله ، فنحاول البحث عن افضل السبل التي تخرجه من هذا الجو الى الجو الذي يستشير في وعيه المعاني الطيبة والنوازع الخيرة التي تفتح عينيه على طريق الحق ، وتخرجه من الظلمات الى النور . . وقد تمس الحاجة في هذا الجو الى بعض من الاساليب الضاحكة التي لا تثير ولا تعقد ، وبعض من الاساليب الجادة التي تمنع تحول الموقف الى الانحلال والميعان .

س ٢ - هل يجوز للانسان ان يدخل الى المجتمعات الفاسدة من أجل مصلحة العمل الاسلامي ؟

ج ٢ - لا يجوز الدخول فيها الا على اساس خطة عمل متحركة شاملة جماعية ، تضع كل انسان في موقعه الطبيعي من الخطة ، وتحميه من عوامل الانحراف الطارئة بما تحيطه به من اساليب الرقابة ، وبما تثيره حوله من وسائل الدعم والقوة ، لان الانسان الذي يدخل في هذه المجتمعات انطلاقا من موقع الشعور الذاتي الانفعالي ، قد يُستهلك من قبلها من دون ان يحقق النتائج المطلوبة لان الاعمال الفردية التي لا تخضع للخطة العامة لا تحقق الا بعض النفع القليل الذي لا يضمن ولا يغني عن جوع .. هذا في الحالات الطبيعية .. اما في الحالات النادرة التي يشعر فيها الفرد بالثقة الكبيرة بنفسه ، وبأن بإمكانه ان يحول المجتمع الفاسد الى مجتمع خير ، من خلال انسجامة مع ذلك المجتمع ، فيمكن للانسان ان يخوض التجربة .. ولكننا نعتقد ان الجهد الكبير الذي يصرفه هذا الانسان في طريق التجربة ، ينبغي ان يصرف في بناء مجتمع الايمان ليكون قوياً وذلك بالتعاون مع العاملين من اخوانه في سبيل بناء القاعدة الصلبة التي تنطلق منها طلائع المستقبل المؤمن ، التي تنطلق الى اهدافها في تغيير المجتمعات الفاسدة الى مجتمعات خيرة ، من مركز قوة لا من مركز ضعف .

هذا كله في الحالات التي لا يفرض الدخول في هذه المجتمعات الوقوع في الانحراف عن طريق الله ، والممارسة لبعض المحرمات انسجاماً مع الجو العام الذي يحكمها ، كمحاولة للحصول على ثقتها واحترامها ، اما اذا استلزم ذلك تركا لواجب او ارتكابا لحرام

فان الدخول فيها محرم لانه لا يطاع الله من حيث يعصى ، الا في الحالات الشرعية الحاسمة التي ترفع حرمة الحرام ، او وجوب الواجب ، كما في موارد التزاحم بين الواجبات والمحرمات ، او بين الواجبات أنفسها ، والمحرمات أنفسها مما يجعل الحكم مع المورد الذي يرقى الى المستوى الكبير من الأهمية عند الله . . ولكن تحديد الأهم من حيث المصلحة الواقعية أو المفسدة الواقعية للأشياء تحتاج الى مزيد من الاحاطة بمعرفة الاحكام والى الدقة في ملاحظة الواقع ودراسته ، وهذا ما لا يتحقق الا للقلائل من الناس .

* * *

س ٣ - اذا شك الانسان في عبادته لربه وايمانه به ، فهل يمكن له ان يأخذ بالجانب المضيء ويجزم بالصحة ؟

ج ٣ - ربما كانت المحاضرة جواباً كافياً على هذا السؤال ، ولكننا نحاول ان نلقي الضوء على بعض الجوانب التفصيلية للموضوع . . فاذا كان السؤال يتجه الى التأكيد على الشك الطارئ المتعلق بعبادات الانسان السابقة ، لانه لا يدري هل وقعت على نحو صحيح او فاسد فيمكن الحكم بالصحة انطلاقاً من قاعدة الفراغ التي اشرنا اليها في بداية المحاضرة ، واذا كان السؤال متعلقاً بالعبادات التي يريد ان يمارسها حاضراً ومستقبلاً لانه لا يعرف وجه الصحة والفساد من ناحية الحكم الشرعي فيجب عليه تعلم أحكامه الشرعية المتعلقة بصلاته ، لان اصل الصحة لا يصحح العبادة المنطلقة من موقع الجهل بالحكم الشرعي .

أما الانسان الذي يتحول الشك في حياته الى عقدة متأصلة متأزمة بحيث أصبح يشك في كل شيء حوله ابتداء من حياته الفردية

في عباداته ومعاملاته وصحته وطبيعة إيمانه أو حياته الاجتماعية في حياته العائلية أو الاخوانية أو علاقاته العامة بالآخرين . . فقد عالجه الاسلام معالجة حاسمة من ناحية عملية فطلب منه ان لا يعتني بالشك في أية جهة من جهات العمل الفردية والاجتماعية العبادية منها وغير العبادية . . وهذا ما تحدث عنه الفقهاء في مصطلح (كثير الشك) و « الوسواسي » .

ولعل هذه المعالجة الاسلامية لهذا الموضوع تدخل في صميم المعالجات الواقعية التي تؤمن بأن الغاء الحالة المرضية الخاضعة لعقدة داخلية ، يساهم الى حد ما في تجميدها ثم في زوالها نهائياً لان العقدة تتأكد بالممارسة المنطلقة من الشعور العميق بالمسؤولية فاذا ألغى التشريع المسؤولية فلا يبقى هناك اي أساس شرعي في وهم الشاك لتعاظم هذا الشعور او زيادة هذه الحالة . .

وقد نحتاج ، الى جانب هذه المعالجة العملية ، ان نواجه حالات الشك بطريقة تحليلية واعية ترصد خطوات الحالة في داخل النفس لتبحث كل خطوة من أين بدأت والى أين تتجه ، وتحلل كل جانب من جوانب الشك ، فاذا شك الانسان في إيمانه ، كان عليه ان يواجه مسألة الايمان في أصوله وفروعه ، ثم ينطلق الى داخل نفسه ليبحث كيف تتجسد الصورة فيها . . ليحل المشكلة على أساس من دراسة الصورة كما هي في التشريع مقارنة بانعكاساتها في الواقع ، واذا شك في الطهارة والنجاسة ، كما يحدث للوسواسي أمكنه ان يدرس أسبابها وطريقة تأثيرهما على جسده وثيابه وغيرهما .

ان كثيراً من الأزمات النفسية التي يعيشها الانسان في داخل ذاته ، فتنحول بفعل الممارسة الخائفة الى عقدة متأصلة ، ومرض

مزمّن ، تنطلق من الهروب الذي يواجهه الانسان في حركة المشكلة في حياته ، فلا يحاول ان يدقق في المسؤولية ، ولا يجرب ان يتأمل في حركتها في الواقع فتكون النتيجة ان تطغى عليه كما يطغى الفيضان الذي يجتاح امامه كل شيء ، ما لم نفتح له الثغرات التي تخفف من اندفاعه .

ان على الانسان الذي يعيش الشك كعقدة ان لا يهرب من الأسئلة التي تواجهه بل يواجهها بكل شجاعة ، ويلاحقها بالاجوبة الحاسمة حتى لا يبقى هناك مجال للشك في قرارة الاعماق . وبذلك يستطيع ان يضع المشكلة في اطار الحل الصحيح .

* * *

س ٤ - ما الفرق بين يصلي ويكذب وبين الذي لا يصلي ولا يكذب ، أليس حالهما واحداً ان لم يكن الثاني أفضل من الاول ؟

ج ٤ - هناك في مثل هذه المقارنة سؤالان :

١ - هل للصلاة قيمة دينية اذا تجردت عن المعاني الروحية ، والجوانب العملية في شخصية الانسان المسلم ؟

٢ - هل للصلاة قيمة عملية في حياة المسلم في حال تجردها عن الالتزام بالفضائل ، في مقابل الالتزام ببعض الفضائل وترك الصلاة ؟

اما الجواب عن السؤال الاول فتحدده الآية الكريمة .

واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

والحديث النبوي الشريف :

من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله الا بعداً .

والحديث المأثور :

رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش ورب قائم ليس له من قيامه الا التعب والسهر حبذا نوم الاكياس وفطرم .

فقد دلت هذه النصوص الدينية على ان الهدف من تشريع الصلاة والفائدة منها ، هو انها تحقق الانضباط العملي للانسان امام الفحشاء والمنكر ، فلا قيمة للصلاة بدون ذلك لانها تكون عملاً بدون فائدة وبدون روح .

* * *

اما السؤال الثاني ، فالجواب عنها ان الصلاة وان لم يكن لها قيمة دينية في حساب الله اذا تجردت الالتزام بالخط المستقيم في الارتباط بالمعاني الروحية ، ولكنها لا تخلو من قيمة عملية في هذا المجال ، فان الذي يصلي ويكذب يؤمل فيه الخير لان ارتباطه بالصلاة يجعله قادراً على ان يكشف نفسه في بعض اللحظات فيرجع عن الكذب وعن غيره من الرذائل . . . وبذلك يمكن للصلاة ان تقوم بدور كبير في عملية التراجع عن الانحراف ، لانها تحقق للانسان الارتباط اليومي بالله ، فانه وان كان ارتباطاً بدون وعي الا ان الارتباط الرسمي بشكل يومي قد يفسح المجال لبعض الانفتاحات الروحية الطيبة التي يكتشف من خلالها الجانب الطيب في الحياة ، فيبدأ عملية التراجع بطريقة تدريجية .

اما الذي لا يصلي ولا يكذب ، فانه وان ارتبط بفضيلة الصدق او بغيرهما من الفضائل الا ان هذا الارتباط لا ينطلق من قاعدة ثابتة

في الاعماق ، بل ينطلق من حالة طارئة كالتربية العملية او المصلحة الذاتية او العوامل الخارجية المتنوعة . . وفي مثل ذلك لا يكون هناك أية ضمانات تحميه من الانحراف في حال وجود ظروف اقوى من الظروف العادية التي هيأت له جانب الاستقامة . . وبذلك يختلف حال الانسان الذي يرتبط بالقاعدة التي تمده بالخير وان عاش في نفسه بعض لحظاته بشكل عابر . ومن هنا ندرك أهمية التدريب على الصلاة والتأكيد على الالتزام بها والصبر عليها ، واعتبارها في الحديث النبوي الشريف عمود الدين ، لانها القاعدة الروحية التي تجعل لكل الافعال الدينية معنى عندما تمده بالروح المتدفق من وحي الله .

* * *

حوار حول السلام في الاسلام

جاء في مجلة صوت الشبيبة المسلمة ، الصادرة عن اللجنة الثقافية الاسلامية في الغبيري ، في عددها العاشر الصادر في جمادى الثاني سنة ١٣٩٨ هـ : (السلام في الاسلام) من المواضيع التي يتطرق اليها البحث قليلا ، وبشكل جزئي غير مكتمل . في هذا الصدد سنحاول ان نلقي الضوء على هذا المفهوم ، مفهوم « السلام في الاسلام » حتى تتضح كثير من الامور الغامضة وتزال بعض الشوائب والمغالطات العالقة في اذهان الكثير من الناس حول موقف الاسلام من بعض القضايا المطروحة على الساحة . فكان لقاءنا مع سماحة العلامة السيد محمد حسين فضل الله ، وببضعة اسئلة حاولنا قدر الامكان ان نتناول فيها أهم جوانب الموضوع ، ونسد بعض الثغرات المفتوحة نتيجة التشويه والتحريف ونرد بعض الاتهامات الموجهة نتيجة الفهم المغلوط .

* * *

س ٥ - هل يمكن ان تشرحوا لنا طبيعة التكوين السياسي للمجتمع الاسلامي . هل هو تكوين قائم على أساس قومي أو عرقي

أو طبقي او ماذا ؟

ج ٥ - لعل الخلفية الفكرية ، وراء مثل هذا الطرح للاسلام تتمثل في اطارين فكريين الاول : الفكرة التي تعتبر ان العوامل القومية والعرقية والطبقية هي العوامل الاصيلة المؤثرة في وحدة المجتمع وتكوينه . . . بينما ترى في الأديان والمبادئ عناصر طارئة على كيان الامة وغريبة عن شخصيتها الذاتية ، فلا تصلح ان تكون دافعاً للوحدة فضلاً عن ان تكون العنصر الأساسي فيها ، وعلى ضوء هذا يمكن للسؤال أن يطرح نفسه عن طبيعة التكوين السياسي للمجتمع الاسلامي من حيث انطلاقه من هذه العوامل الثلاث وغيرها مما هو خارج النطاق الاسلامي . الثاني : الفكرة التي ترى في الأديان ، ومنها الاسلام ، نتاجاً قومياً أو عرقياً أو طبقياً يتحرك في اتجاه تحقيق المصالح القومية والعرقية والطبقية باعتباره منطلقاً من حاجة الجماعات التي تعيش الشعور القومي او العرقي أو الطبقي الى نظام يحمي أوضاعها ويحقق مفاهيمها ويحل مشاكلها الحاضرة والمستقبلية وعلى هذا الاساس يمكن للباحث ان يبحث عن الأسس التي ارتكز عليها الاسلام في نشوئه وحركته . . فهل هو وليد آلام العروبة ومشاكلها كقومية ، او نتاج الاحساس بقيمة عنصر معين او عرق خاص ، او كان صورة للواقع الطبقي الذي كان متمثلاً في مجتمع مكة والمدينة ؟

أما نحن كمسلمين - فاننا نرفض الاطارين معا من خلال فهمنا للاسلام ووعينا للاسس التي يمكن ان تقوم عليها المجتمعات الانسانية في وجودها وحركتها ، فالاسلام - في وعينا لمصادره الاصيلة - دين سماوي أنزله الله على رسوله ليقوم الناس بالقسط ، وليخرجهم من الظلمات الى النور ، وليحل لهم الطيبات ويضع عنهم اصرهم

والاغلال التي كانت عليهم ، وليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم الى صراط العزيز الحميد . وبهذا كان رسوله رحمة للعالمين وخاتماً للسلسلة المباركة من الانبياء والمرسلين الذين يعتبر الاعتراف بهم جزءاً من العقيدة الاسلامية . . وهكذا انزله الله من اجل ان يحل للانسان مشاكله على مدى الحياة ، من دون ان يكون منبعثاً عن أي عامل من العوامل المحدودة التي يختلف فيها الناس ألواناً وأنساباً وأعراقاً وطبقات . اما الأسس التي تقوم عليها المجتمعات ، فاننا لا نستطيع اغفال التأثيرات العاطفية والشعورية التي تنتجها تلك العوامل الأنفة الذكر ، ولكننا نعتقد ان الجانب العقيدي والروحي والعملي الذي يتجمع في المنهج الرسالي للحياة يعتبر عنصراً حيوياً وفاعلاً في تكوين المجتمع وتوحيد أفراده ، انطلاقاً من دراسة النفس الانسانية التي ترتبط علاقاتها بركائزها الفكرية اكثر من ان ترتبط بعواملها القومية والطبقية والعرقية ، ولهذا نجد العاملين في سبيل هذه العوامل يجعلون دعواتهم في اطار فكري وروحي يحقق للعلاقات المطلوبة أساساً فكرياً وروحياً يربط العاملين بالقومية أو بالطبقية او العرقية من خلال الفكرة . . حتى اننا نلاحظ تباعداً بين الذين يؤمنون بالفكرة وبين الذين يرفضونها او لا يؤمنون بها ، على الاقل ، في الوقت الذي نراهم يرتبطون معهم برابطة واحدة من خلال هذه العوامل ، ولسنا الآن في مجال البحث عن الاسس التي توحد المجتمعات من ناحية موضوعية لان ذلك يحتاج الى مناقشة واسعة للفكرة ولكننا في سبيل الاشارة الى موقفنا من الخلفيات التي اقتضت مثل هذا الاسلوب في طرح السؤال .

ثم . . نقف الآن لنواجه السؤال في مضمونه ومحتواه من نقطتين : النقطة الاولى : في معالجة الاسلام للفوارق المذكورة ومدى تأثيرها في حركة التقييم الانساني للحياة النقطة الثانية في النظرة

الاسلامية العامة لطبيعة التكوين السياسي للمجتمع في نظر الاسلام .

اما النقطة الاولى : فان الاسلام لم يغفل وجود الفروق العرقية والقومية والطبقية ، في حياة الانسان كواقع طبيعي يفرض نفسه ، بل واجهها في بعض الآيات القرآنية كمظاهر طبيعية تشهد على عظمة الخلق التي توحى بعظمة الخالق ، كما في قوله تعالى :

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ
وَالْوَالِدِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . [سورة الروم : ٢٢] .

فقد جعل النظرة اليها نظرة طبيعية لا تبحث عن الفوارق من حيث انها مقياس للتفاضل ، بل من حيث انها دليل على تنوع العناصر الطبيعية المودعة في الكون مع وحدة المصدر الاساسي للوجود ، تماماً كما هو الحال في تنوع الثمار التي تنتجها الارض مع انها تسقى بماء واحد ، وذلك في قوله تعالى :

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ
صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي
الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . [سورة الرعد : ٤] .

وقوله تعالى :

الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ شَرَابًا مُّخْتَلِفًا
أَلْوَانًا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانًا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٧﴾

وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى
اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ .

[سورة فاطر : ٢٧ - ٢٨] .

وقد يتجسد الايحاء في الآية الاخيرة باعتبار الفوارق اللونية في الانسان مظهراً طبيعياً تتكامل فيه صورة الطبيعة المختلفة ألوانها في كل مظاهرها ، الجامدة والحية ، من دون ان يمثل ذلك أية قيمة تفضيلية في هذا المجال بل هي الخصائص التي تتنوع في طبيعة الاشياء مما يجعل لكل شيء قيمة ومعنى يميزه عن الآخر . . . ولكل فضل .

وقد نلاحظ في بعض الآيات الايحاء بوجود الفوارق الطبيعية في حياة الناس كواقع حي ناشىء عن طبيعة اختلاف القدرات الفكرية والعضلية والظروف الموضوعية المحيطة بالناس والاشياء ، كما في قوله تعالى :

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفًا فِي الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ .

[سورة الأنعام : ١٦٥] .

وفي قوله تعالى :

أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِنَّا كُنَّا قَسَمًا لِّبَنِيهِمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا
سَخِرَآءًا وَرَحِمَتْ رَبُّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

[سورة الزخرف : ٣٢] .

فقد نجد في هاتين الآيتين الكريمتين التركيز على ان اختلاف الدرجات في الرزق والمعيشة الناشىء من ظروف طبيعية ليس ناتجاً من اعتبار ذلك قيمة دينية تجعل المرتبة العليا في مستوى القيمة ، وتجعل المرتبة الدنيا في مستوى ضد القيمة ، ليكون ذلك من تكريم الله للغني وعدم تكريمه للفقير بل من أجل ان يكون ذلك اختباراً للوقوف مع المبادئ الاساسية للحياة التي تجعل الايمان الثابت يصمد أمام التجربة في الوقت الذي ينهار الايمان المتزلزل امام الاختبار الصعب او من اجل ان يكون اختلاف الدرجات موجباً لتنوع الحاجات الموجب لتبادل الخدمات باعتبار تبادل الشعور بالحاجة من جهة ، والاكتفاء من جهة أخرى فيما بين أفراد الانسان ، مما يجعل كل انسان محتاجاً لتقديم خدماته للآخرين في مقابل ما يقدمونه له من خدمات ، وهكذا لا نلمح أية اشارة لاعتبار هذه الفوارق ، التي اريد للمجتمعات ان تقوم عليها ، أساساً للتقييم أو التوحيد ، بل كل ما هناك ، ان هذه الفوارق قد تمنح كل فئة بعض الخصائص دون فئة اخرى مما يجعل من الحياة مجمعةً للخصائص المتبادلة بين الافراد ، وهذا ما ركزت عليه الآية الكريمة :

إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
 إِنَّ كَرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقِيكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكُمْ جُورٌ ۗ

[سورة الحجرات : ١٣] .

فقد توحى هذه الآية بشكل واضح بان اختلاف الخصائص النسبية والقومية لا يصلح اساساً للتفاضل بل منطلقاً للتعارف الذي يتمثل في تبادل الخدمات والخصائص المتنوعة ، ولعلنا نجد في

الحديث النبوي الشريف أوضح الشواهد على الفكرة التي نعالجها .

« لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى » « كلكم من آدم وآدم من تراب » ...

وهكذا نخلص ، من هذا العرض الموجز ، الى ان هذه الامور لا تصلح أساساً للتقييم لتنتقل وحدة المجتمعات على أساسها اذ لا معنى لان يكون لهذه العناصر قيمة في التوحيد من دون ان يكون له أساس في التقييم ، وليس معنى ذلك ان الاسلام يريد من الناس ان يفقدوا المشاعر الطبيعية ازاء العلاقات الخاصة التي ترتقي بهذه الامور ، بل كل ما هناك انه يريد ان لا يجعلهم خاضعين في علاقاتهم العامة لها بحيث ينطلق القرب والبعد في حياتهم على أساسها ، كما ورد في الحديث المأثور عن الامام علي بن الحسين زين العابدين (ع) وهو يتحدث عن العصبية التي تتأثر بهذه العوامل :

« ان العصبية التي يَأثم عليها صاحبها ان يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين ، وليس من العصبية ان يحب الرجل قومه ولكن ان يعين قومه على الظلم » ...

وقد وردت أحاديث كثيرة في ذم العصبية التي تعني الارتباط الروحي بالنسب او بالدم او بغيرهما مما يبعد الانسان عن الارتباط بالمبادئ التي تحكم علاقته بالآخرين وبهذا نخلص الى النتيجة الحاسمة . . وهي ان الاسلام لا ينظر الى هذه العوامل الا كروابط طبيعية تشارك في ولادة المشاعر العاطفية ولكنه لا ينظر اليها كأسس للتقييم والتوحيد لانها لا تحمل في داخلها عناصر الثبات والعمق والامتداد .

أما النقطة الثانية : وهي النظرة الاساسية العامة للتكوين السياسي للمجتمع ، فقد يمكن الجواب عنها ، باعتماد الاساس الایماني في التكوين السياسي ، اذا أردنا ان ننظر الى الموضوع من جانب الاطار الذي يتحرك فيه الاسلام ليتحرك في داخله المجتمع الاسلامي ، لا من جانب الاطار الذي يكتفي بالناحية الانسانية بعيداً عن الناحية العملية .

أما إذا أردنا أن ننظر إليه في الإطار الذي يحكم العلاقات العامة التي تربط بين أفراد المجتمع لتكون منهم وحدة سياسية ذات مبادئ وأهداف ومصالح مشتركة ، فإن بإمكاننا الاعتماد على الاساس العقيدي الذي ينطلق من العقيدة الاسلامية كرابط عميق يمتد من الجانب الفكري مروراً بالجانب الشعوري إلى الجانب العملي ليكون ذلك أساساً لوحدة المجتمع او تعدده . . وفي كلتا الحالتين يقف الاسلام في نظرتة الى الانسان والحياة ، وفي تشريعه المتحرك في كل اتجاه ليرفض الوحدة التي تقوم على اساس آخر من اللون والدم والنسب والطبقة بالمستوى الذي يعتبر فيه الفكر والتشريع هذه العوامل قيمة انسانية وفكرية واجتماعية تمنح على اساسها الحقوق وتفرض الواجبات ويعيش الانسان في ظلها حركة مشاعره وعواطفه ونصرة مواقفه وخذلانها ، ولهذا لا نجد في التشريعات الاسلامية أي تركيز على التمييز في الحقوق والواجبات من خلال الطبقة او اللون أو الدم سواء في ذلك واقع الدنيا وواقع الآخرة ، كما لاحظناه فيما قدمناه من أحاديث في معالجتنا للنقطة الاولى . . وقد نلتقي بهذه الروح في الحديث الشريف المأثور عن النبي (ص) : انما اهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، والله لو سرت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها .

والحديث الآخر المروي عن الامام علي (ع) :

القوي العزيز عندي ضعيف ذليل حتى آخذ منه الحق والضعيف
الذليل عندي قوي عزيز حتى آخذ له بحقه .
وقد نلتقي بهذا الجو في الآيتين الكريمتين :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . [سورة التوبة : ٧١] .
في مقابل الآية الكريمة

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . [سورة الأنفال : ٧٣] .

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ
أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ .

[سورة المجادلة : ٢٢] .

ونلتقي - في الجو نفسه - بالحديث الشريف المأثور عن النبي

محمد (ص) :

مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا
اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى . .

فان هذه النصوص الدينية تجعلنا نشعر بعمق الرابطة اليمانية في
تأثيرها على العلاقات الانسانية التي تكوّن وحدة المجتمع من خلال
وحدة العقيدة والعاطفة والعمل . . وكل هذا لا يمنع من الاعتراف
بوجود عقائد اخرى في المجتمع ينطلق الاسلام ليحدد علاقة المسلمين
باتباعها في نظام تعاقدى شامل يعطي للاسلام مجاله في السيادة
ويعطي للعقائد الاخرى مجالها في ممارسة أفكارها وعمالها في نطاق محدود.

س ٦ - ما هي القاعدة الاساسية التي انطلق منها الاسلام لايجاد حالة تعايش سلمي بين المجتمع المؤمن به والمجتمعات الاخرى ؟

هناك قاعدة اساسية تحكم حالة التعايش بين المجتمع المسلم والمجتمعات الاخرى ، وهي قاعدة التعامل مع الواقع الحياتي الذي يفرض وجود قوى اخرى تختلف مع الاسلام في فكره وشريعته ونظام حياته ، وتفرض ضرورة التعامل معها ، ولو في نطاق المرحلة التي قد تطول وقد تقصر تبعاً لحركة الاسلام في الحياة ، مما يجعل من قضية التعايش السلمي قضية حيوية لاستقرار المجتمع الاسلامي وأمنه وواقعيته لان لقضايا الصراع ، في كل مراحل الحياة للرسالة وللفكرة ، ظروفًا موضوعية قد لا تتسع للحرب أو لا تتسع للحصول على النتائج العملية الحاسمة من خلال الحرب مما قد يقتضي الوصول الى حلول للمشاكل المتصلة بحركة العقيدة ، او بحركة الواقع في نطاق المجتمعات الاخرى التي قد نلتقي بها في بعض المبادئ العامة وان اختلفت التفاصيل عمقاً وامتداداً ، وربما نلتقي معها في المصالح العامة بطبيعة وحدة الارض التي نعيش عليها او وحدة الظروف الموضوعية التي تحكم مسيرتنا في الحياة ، ولهذا وجدنا خطوات الاسلام العملية تختلف في بداية الدعوة ونهايتها مع المشركين من موقف المهادنة الى الحرب الى الصلح الذي انتهى بفتح مكة الذي انهى كل المواقف السلمية فيما يتعلق بوجود المشركين في المنطقة الاسلامية كما رأيناه في موقفه من اهل الكتاب وتمييزه بين النصارى واليهود من خلال المواقف العملية التي وقفها الفريقان من الدعوة الاسلامية فيما عبرت عنه الآية الكريمة .

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ

أَقْرَبُهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِسْيَسِينَ
 وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
 تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا
 مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٤﴾

[سورة المائدة : ٨٢ - ٨٣] .

وقد نلتقي ببعض الآيات القرآنية التي تفرق بين الفريقين اللذين
 يختلف حال كل منهما مع المسلمين من حيث الموقف العدواني او
 السلمي وذلك هو قوله تعالى :

لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
 أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ
 عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ
 إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩١﴾

[سورة الممتحنة : ٨ - ٩] .

وقد نستطيع استيعاء هذه الآية فيما يتعلق بالموقف الاسلامي من
 المحايدين الكافرين الذين لا يقومون بأي عمل عدواني ضد المسلمين
 بشكل مباشر او غير مباشر ، فان الرخصة القرآنية بتولي المسلمين لهم
 لا يتناسب مع اعتبار الحرب اساساً للعلاقة العامة بهم . . ولا بد لنا
 من التأكيد في هذا المجال ، على ان هذا كله خاضع لاعتبارات
 المصلحة الاسلامية العليا في قضايا السلم والحرب ، او في الخطة
 العامة لحركة الايمان في مقابلة الكفر .

وخلاصة الفكرة التي نشير اليها ، في هذا الجواب ، ان الاسلام يؤمن بالتعايش السلمي بينه وبين الاديان الاخرى ، او العقائد الاخرى في نطاق حاجة الواقع بالمستوى الذي لا يمس سعيه الدائب من اجل الوصول الى سيطرته على نظام الحياة من جهة ، ولا يسيء الى مفاهيمه العامة من جهة اخرى . وبذلك كانت أساليب التعايش السلمي في التشريع الاسلامي وفي التطبيق العملي في حياة النبي محمد (ص) الذي تعتبر سيرته العملية شريعة للمسلمين في واقعهم العملي ، مثالا للمرونة وتجسيدها للحكمة التي انطلقت الدعوة في خطها المستقيم سواء في ذلك مجال التبليغ او مجال الواقع المتحرك الذي جاء الاسلام من اجل ان يعلم الناس كيف يتعاملون معه بالحكمة .

* * *

س ٧ - هناك عدة وضعيات للمجتمعات اللااسلامية بالنسبة الى المجتمع الاسلامي فهل لكم ان تحددوا لنا هذه الوضعيات مع تبيان لطبيعة العلاقات القائمة بين المجتمع الاسلامي وبين كل وضعية على حدة ؟

ج ٧ - هناك نوعان من العلاقات الموضوعية التي تحدد وضعية المجتمع المسلم من المجتمعات غير الاسلامية ، احدهما عام والآخر خاص :

اما الخاص ، فهو نظام الذمة الذي يحدد طريقة التعايش الدائم مع اهل الكتاب وينظم الحياة العامة التي تحكم علاقتهم بحياة المسلمين . ونحن واجدون في هذا النظام نموذجا للنظام الأمثل الذي يعطي الآخرين حرية ممارستهم عقيدتهم في ظل النظام الاسلامي ، من دون اساءة للعقيدة الاسلامية وشعاراتها ، مع الالتزام الاسلامي

بحمايتهم من كل اعتداء ، واعفاءهم من مسؤوليات الحماية العامة للمسلمين بالدفاع الحربي عنهم ، ومع ذلك كله ، فان للسلطة الشرعية صلاحيات في مجال التطبيق تحتفظ للنظام بمرونة نادرة رائعة .

واما العام فهو نظام التعاهد الذي يحدد علاقات المسلمين بغيرهم على اساس عقد المعاهدات التي تجعل للحقوق والواجبات المتبادلة وضعا قانونياً تعاقدياً ينطلق من الالتزام العقدي المتمثل بطرفي العقد ، وقد يلاحظ بعض الفقهاء ، ان مثل هذا النظام يسري على أهل الكتاب كما يسري على غيرهم ، كما ان هناك بعضاً آخر منهم ، يرى ان نظام التعاهد لا يحتاج الى وجود سلطة شرعية اسلامية تنشئ هذا العقد مع سلطة الآخرين بل يمكن ان يحدث ذلك حتى في نطاق فقدان السلطة الشرعية ، مع التزام المجتمع المسلم بمعاهدات السلطة غير الشرعية التي تحكم المسلمين ، كما في ميثاق الامم المتحدة الذي تلتزم به كل الشعوب تلقائياً (فيما لا يناقض أو يناهض التشريع الاسلامي طبعاً) . ولسنا في مجال مناقشة هذا الرأي او ذاك او تأييدهما ولكننا في مجال عرض السعة الفكرية للاجتهد الاسلامي في هذه الموضوعات وغيرها .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
التهديب الاجتماعي في الإسلام	٥
بين يدي المحاضرات	٧
هل هذا من الإسلام	١٦
ليس هذا من الإسلام	١٦
هل للإسلام قاعدة في التهديب الاجتماعي	٢٠
مع البناء الفوقي للقاعدة	٢٢
١ - صوتك كيف تطلقه	٢٢
٢ - جهاز الاعلام كيف تستعمله	٢٢
٣ - لا تدخل بيتاً حتى تستأذن أهله	٢٦
٤ - ولا تنفعل إذا اعتذروا عن استقبالك دون موعد	٢٦
٥ - اجلس حيث ينتهي بك المجلس	٢٨
٦ - كيف تختار كلماتك عندما تتحدث مع الآخرين	٣١
٧ - إبدأ بالتحية، ولا تنتظر أن يبادئك الآخرون بها	٣٣
٨ - احترام ظروف المريض	٣٤
٩ - المحافظة على شعور الآخرين بشكل عام	٣٤
خاتمة المطاف	٣٦

لكل سؤال جواب :

- ٣٧ لماذا يركز علماء الدين على الأخلاق
- ٣٧ لماذا ينفر الشباب من الدين
- ٣٧ هل يحصر الإسلام دور المرأة العملي في المنزل
- ٣٧ كيف يكون زي المرأة في الإسلام
- ٣٧ هل يجوز للمرأة حضور صلاة الجماعة مع الرجال
- ٣٧ كيف نتعرف على إعجاز القرآن الكريم
- ٥٠ مشاكل عمل المرأة في خارج البيت
- ٥٧ الحلقة الثانية : (لا تقف ما ليس لك به علم)
- ٥٧ موقف الإسلام من التردد والقلق والوسوسة
- ٥٩ مقدمة
- ٦١ المحاضرة الأولى : لا تقف ما ليس لك به علم

لكل سؤال جواب :

- ٦٧ لماذا ينقد العلماء بعضهم البعض ؟
- ٦٧ من خلق الله؟! !
- ٦٧ كيف يتيح الله الفرصة للشّر؟
- ٦٧ كيف نفسر خلق المشوّهين؟
- ٦٧ ما هو موقف الإسلام من الرق
- ٦٧ لماذا اختلفت الأديان ؟
- ٦٧ تفسير بعض الآيات القرآنية
- ٧٠ من خلق الله؟! !
- ٨١ المحاضرة الثانية : موقف الإسلام من القلق والتردد والوسوسة أمام العمل
- لكل سؤال أجواب :

- ٨٧ المرأة شر؟! !
- ٨٧ الجن ؟
- ٨٧ زلة إبليس
- ٨٧ تحديد النسل
- ١٠١ الحلقة الثالثة : قضية العز والذل في الإسلام

- ١٠٣ مسؤولية الإنسان المسلم إزاء قضية العزة والكرامة
- ١١٤ ما هو طريق الذل في الإسلام
لكل سؤال جواب :
- ١٢٥ - قضايا العدوان
- ١٢٥ - الهزيمة النفسية
- ١٢٥ - مقومات الصمود
- ١٢٥ - هدف الندوات
- ١٢٥ - التلفزيون هل هو حرام
- ١٢٥ - الحروف المقطعة في القرآن
- ١٤٥ الحلقة الرابعة: اليأس والأمل في مفهوم الإسلام
- ١٤٧ اليأس والأمل في الإسلام
- ١٤٨ اليأس في طريق الانتحار
- ١٥٠ العاملون للحق أمام اليأس
- ١٥١ أساليب الأعداء في إثارة اليأس
- ١٥٢ اليأس في المجال الوطني
- ١٥٤ اليأس بصورة عامة
- ١٥٥ اليأس موقف غير إسلامي
- ١٦١ الأمل من خلال النظرة الواقعية للحياة
- ١٦٤ النظرية في إطار التطبيق
- ١٧١ خاتمة المطاف
- لكل سؤال جواب :
- ١٧٣ - هل يحرم الإسلام على الإنسان مباحج الحياة ؟
- ١٧٣ - ما موقف الإسلام من الحرية الشخصية في هذا الجانب ؟
- ١٧٣ - ما معنى : اتق شر من أحسنت إليه ؟
- ١٧٣ - ما معنى الحديث الشريف: تفكر ساعة خير من عبادة سنة
- ١٧٣ - بين كلام الإمام علي (ع) وكلام الإمام زين العابدين (ع) حول صنع
المعروف مع غير أهله
- ١٧٣ - كيف كانت نشأة الطبقة الثانية للإنسان ؟

١٩١ الحلقة الخامسة : النقد، والنقد الذاتي في الإسلام
١٩٣ بين يدي الحديث
١٩٥ ما هو النقد
١٩٧ النقد في نطاق التشهير
١٩٨ حماية الإسلام حياة الإنسان الذاتية
٢٠٠ مواجهة الإنسان بعيوبه
٢٠٦ النقد الغيابي أو الغيبة
٢٠٩ ما هي الغيبة
٢١٠ هل للدوافع السيئة دورٌ في التحريم
٢١٢ الحالات الاستثنائية للتحريم
٢١٩ النقد في نطاق تقييم الآخرين
٢٢٠ النقد أمام النماذج المزيفة من الناس
٢٢٢ النقد أمام المظاهر الخادعة في الحياة
٢٢٣ الإمام زين العابدين (ع) يخطط للنقد
٢٢٩ النقد الذاتي في الإسلام
٢٢٩ (أ) ما هو النقد الذاتي؟
٢٣٠ (ب) حاجتنا إلى النقد الذاتي؟
٢٣٦ موقف الإسلام من النقد الذاتي
٢٤٢ خاتمة المطاف
	لكل سؤال جواب :
٢٤٣ هل الدين «أفيون الشعوب»؟!
٢٤٣ الأساس في نشأة الدين
٢٤٣ هل يكرس الدين عجز الإنسان أمام الظواهر الكونية ؟
٢٤٣ كيف يبرر ماركس دعوة الدين إلى الانطلاق من الايمان من خلال المعرفة
٢٤٣ هل الدين مخدّر؟
٢٤٣ ما هو موقف الإسلام من حوادث قتل الفتاة المنحرفة «غسلًا للعار»؟
٢٤٥ مدلول الفكرة
٢٤٩ مناقشة الفكرة

٢٦١	الحلقة السادسة والسابعة: موقف الإسلام من الانفعال
٢٦١	الانفعال في علم النفس والأخلاق
٢٦١	موقف الإسلام من الانفعال
٢٦٣	مقدمة
٢٦٥	الحلقة السادسة القسم الأول: الانفعال في علم النفس والأخلاق
٢٦٨	لماذا هذا الحديث
٢٧٠	ما هو إطار البحث
٢٧٠	الحديث في الإطار الواسع
٢٧١	حديث الانفعال كظاهرة عامة
٢٧٢	كيف نفهم الانفعال
٢٧٢	نظرية جيمس لانج
٢٧٣	نظرية مكدوجل
٢٧٥	الغزالي يحلل الانفعال
٢٧٦	الانفعال في صورتين
٢٧٨	أين نحن من الصورتين؟
٢٨٠	هل الانفعال غريزة؟
٢٨١	هل يمكن السيطرة على الانفعال
٢٨٢	ما هي وسائل السيطرة على الانفعال
٢٨٧	توجيه الانفعال بتوجيه النزعات الفطرية
٢٨٩	أثر الانفعال في الحياة العقلية
٢٩١	أثر الانفعال في الحياة الاجتماعية والتربوية
٢٩٥	الحلقة السابعة - القسم الثاني: موقف الإسلام من الانفعال
٢٩٧	تمهيد
٢٩٨	قيمة العقل في الإسلام
٢٩٩	العقل في القرآن الكريم
٣٠١	القصة في القرآن... في طريق العقل:
٣٠٣	موقف قرآني بين الانفعالية والعقلانية
٣٠٥	الطريقة العقلانية تؤدي إلى العمل

٣٠٦ رفض الإسلام للتقليد الفكري للآباء
٣٠٩ هل نرفض الانفعال من الأساس
٣١٠ الإسلام أمام نماذج متنوعة من الانفعال
٣١٦ الغضب في مفهوم الإسلام
٣١٨ كيف يثور الغضب
٣٢١ كيف يمكن السيطرة على الغضب
٣٢٧ كظم الغيظ
٣٢٨ الأدب حالة الغضب
٣٢٩ الغضب العقلاني
٣٣١ الغضب في نهاية المطاف
٣٣١ الإسلام أمام انفعالات الحزن
٣٣٢ الحزن في حالة المصيبة
٣٣٤ أسلوب الإسلام في التعزية بالميت يؤكد الفكرة
٣٣٥ الحزن في حالات الفشل
٣٣٩ ليس الموقف موقف تسلية أو تعزية
٣٤٠ الحزن في حالات الخسارة
٣٤٤ السلوك العقلاني في رد الاعتداء
٣٤٦ الإمام علي (ع) يطبق الحكم على نفسه
٣٤٨ قصة النبي (ص) مع اليهودي
٣٤٩ قصة الإمام علي (ع) مع الخارجي
٣٥٠ خاتمة المطاف

لكل سؤال جواب :

٣٥٣ هل حرم القرآن تعدد الزوجات
٣٥٣ كيف نفهم الآيات التي تنص على تفضيل بني إسرائيل في القرآن الكريم
٣٦١ الحلقة الثامنة : النزعة الواقعية في الإسلام
٣٦٩ كيف نفهم النزعة الواقعية
٣٧١ ملامح النزعة الواقعية

٣٧٣	الفصل الأول: هل الإسلام واقعي أو مثالي
٣٧٥	١ - النظرة الواقعية في الإسلام للإنسان
٣٧٩	القرآن مع فكرة البشرية وجهاً لوجه
٣٧٩	وخلق الإنسان ضعيفاً
٣٨٠	وكان الإنسان عجولاً
٣٨١	الإنسان أمام الشدة والرخاء
٣٨٢	نوازع الضعف أمام مواطن القوة
٣٨٥	٢ - المفهوم الإسلامي للحياة
٣٩٣	الفصل الثاني: هل التشريع لخدمة الإنسان أو العكس هو الصحيح؟
٣٩٥	مع الخطوط العامة للتشريع
٣٩٦	١ - مهمة الرسول في رسالته
٣٩٦	٢ - لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . لا يكلف الله نفساً إلا ما أتاها
٣٩٨	قاعدة الحرج
٤٠١	قاعدة لا ضرر
٤٠٢	حديث الرفع
٤٠٤	واقعية التشريع في بعض المواطن الخاصة:
٤٠٥	١ - رد الاعتداء بمثله
٤٠٦	٢ - مقياس الشرف في التشريع
٤٠٩	٣ - علاقة المؤمن بغيره
٤١٠	٤ - في طريقة العبادة في التشريع
٤١٤	الحيل الشرعية
٤١٧	الزواج المؤقت أو زواج المتعة
٤٢١	في نهاية المطاف
٤٢٣	الفصل الثالث: هل الغاية تبرر الوسيلة؟
٤٢٥	موقع الوسيلة من الغاية
٤٢٧	قاعدة التزاحم في الامتثال هي الأساس الاجتهادي للمسألة
٤٣٠	التزاحم في مقام التشريع
٤٣١	الكذب من أجل الإصلاح

- ٤٣٢ الكذب في حالات الخوف - التقية
- كلمتان للإمام علي (ع) :
- ٤٣٤ ١ - علامة الإيمان
- ٤٣٦ ٢ - لا تتبرؤا مني
- ٤٣٨ الكذب على أهل البدع
- ٤٣٩ الغيبة ومسوغاتها
- ٤٤٠ الوفاء لأهل الغدر . والغدر لأهل الغدر
- ٤٤١ موقف الإمام علي (ع) في صفين
- ٤٤١ موقف الإمام من الولاة المنحرفين
- ٤٤٤ خاتمة المطاف
- لكل سؤال جواب :
- ٤٤٥ - بين أساليب الحق، وأساليب الباطل
- ٤٤٥ - هل يحرم مصافحة الرجل للمرأة، وما الضرر من ذلك؟
- ٤٤٥ - ما هي علاقة الإيمان بوجود الله في حياتنا العملية؟
- ٤٥٠ مع الجانب الفقهي للتشريع
- ٤٥١ مع فلسفة التشريع
- ٤٦٣ الحلقة التاسعة: الأسلوب الإسلامي للعمل بين الإصلاح والتغيير
- ٤٦٥ مقدمة
- ٤٦٧ بين الإصلاح والتغيير
- لكل سؤال جواب :
- ٤٨٥ - الدين والسياسة والاقتصاد وغيرهما
- ٤٨٥ - التبشير وخطره في المجال التربوي
- ٤٨٥ - الشباب أمام الأفكار الوافدة
- ٤٨٥ - شبهات حول المرأة
- ٤٨٥ - تفسير آية والذين يرمون المحصنات
- ٤٨٥ - المرأة المسلمة وموقفها أمام تطور الأزياء
- سؤالان أدبيان :
- ٤٨٥ - ما هي رسالة الأديب في الحياة

- ٤٨٥ ما هي مؤهلات الطالب ليكون أديباً
- ٤٨٧ الدين والسياسة والاقتصاد
- ٤٨٩ التبشير في المجال التربوي
- ٤٩٠ الشباب أمام الأفكار الوافدة
- ٥١١ سؤالان أديبان
- ٥١٥ الحلقة العاشرة: أصل الصحة بين العدالة والسذاجة
- ٥٢١ ١ - ما هو أصل الصحة
- ٥٢٣ ٢ - لماذا هذا الأصل
- ٥٢٥ ٣ - الاستسلام للشك
- ٥٢٧ ٤ - في إطار أصل الصحة
- ٥٢٨ ٥ - في خطى هذا الأصل
- ٥٤٤ المعطيات العملية لأصل الصحة
- ٥٤٦ خاتمة المطاف
- لكل سؤال جواب :
- ٥٤٧ ما هو موقف الإنسان المسلم عند تعرضه للاستهزاء؟
- ٥٤٧ هل يجوز للإنسان المسلم الدخول في المجتمعات الفاسدة من أجل الإسلام؟
- ٥٤٧ إذا شك الإنسان في عبادته وإيمانه فهل يحكم بالصحة؟
- ٥٤٧ ما الفرق بين الذي يصلي ويكذب وبين الذي لا يصلي ولا يكذب؟! ..
- ٥٤٧ ما هي طبيعة التكوين السياسي للمجتمع الإسلامي؟
- ٥٤٧ ما هي القاعدة الأساسية للتعاشيش السلمي بين المجتمع المؤمن وغيره؟
- ما هي طبيعة العلاقات القائمة بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى؟
- ٥٤٧ هل المجتمع الإسلامي مجتمع محارب، وهل انتشر الإسلام بالسيف؟
- ٥٤٧ هل الوفاء بالعهد وفي الإسلام قضية أخلاقية أو قانون شرعي
- ٥٤٩ مناقشات وأسئلة
- ٥٥٧ حوار حول السلام في الإسلام

طبع على مطابع

دَارُ الرَّهْمَاءِ

بيروت - لبنان : ص ٩٣٧٠ - تلفون المنزل ٨١٥ ٦٨٦
الحيث سينتر : كورنيش المزرعة الطابوق الخامس
بئر القيد : ملف مهنية الحسين بن علي